دكتور حامد عبد الله ربيع

استاذ كرسي النظرية السياسية
كلية الاقتصاد - جامعة القاهرة

مقدمة فى العلوم السلوكية

حول عملية البناء الفكرية لاصول علم الحركة الاجتماعية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

السلوك الجماعى

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

إلى كل من آمن بأن وظيفة الأستاذ الجامعي هي
وسوف تظل دائما أن يحافظ على قيم أمته التاريخية حتى
ولو احتضنها بجسده وحماها بحياته ولو اضطر أن يخفيها
بكل قواه منتظرا تلك اللحظة المناسبة ليقدمها لتلك الأجيال
الجديدة بها نقية صافية تقود وتهدي إلى طريق الخير
والفضيلة.

تصدير

ثلاثة وقائع كل منها مستقلة عن الأخرى ، ومع ذلك فجميعها ساقتنى ولاتزال تفرض على نفسى هذا السؤال : لماذا هذا التأخر الواضح الرهيب فى العلوم الاجتماعية فى جميع جامعات ومعاهد القارة العربية ودون استثناء ؟ لماذا هذا التدهور المخيف وقد خرج من هذه البلاد ومن بين خلايا تراثها أبوعلم الاجتماع « ابن خلدون » المفكر[1] الذى استطاع أن يصوغ لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ذلك التأصيل الذى لايزال هناك من ينبش فى جنباته حتى هذه اللحظة اجابات على مشاكل المجتمع المعاصر ؟

كانت الواقعة الأولى عندما دعيت للمشاركة فى دورة للبحوث الميدانية ، فى التحليل السلوكى بجامعة ميتشيجان ينظمها مركز الأبحاث الاجتماعية بتلك الجامعة[2]. وذهبت أزور ذلك المركز : بناية ترتفع إلى تسعة طوابق ، منها سبعة يضم الطابق منها حوالى أربعين غرفة . لم تكن هذه الغرف تعج بالإداريين أو من فى حكمهم الذين حشروا جميعا على العكس فى ردهة الطابق . وكان على أن انتقل من معمل تجرى به تجارب على السلوك الحيوانى ، إلى آخر أعد لتحليل الديناميات الجماعية ، ثم إلى قاعات اجتماع حيث تناقش نتائج البحوث وتضاهى عملية جمع المعلومات . فاذا ألقيت ببصرى فى حجرة وخيل إلى أنها فارغة سرعان ما اكتشفت بداخلها رئيس إحدى الوحدات قد جاس وأمامه المسجل الصوتى يدون ملاحظاته ويتابع التعليمات التى من مجموعها يتكون التقرير النهائى الذى يقدم خطة المواجهة الحركية للمشكلة موضع الدراسة . وعندما علمت بأن الولايات المتحدة تضم فى نفس مستوى هذا المركز مالايقل عن ثلاثين مركزاً آخر للأبحاث الاجتماعية أحدها يتبع

---

(١) قارن عن ابن خلدون وتطوره المعاصر بصفة خاصة والتراث الإسلامى بصفة عامة :

LACOSTE, Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire passé du tiers monde, 1969 ; LAHBABI, Le personalisme musulman, 1964.

(٢) ANN ARBOR MICHIGAN UNIVERSITY, Inter-University consortium for political research, 1969, p. 39.

مباشرة البنتاجون لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أوجه هذا السؤال : كم تبلغ ميزانية كل من هذه المراكز ؟ وجاءت الإجابة لتصيبني بالذهول : إن ميزانية مركز الأبحاث التابع لجامعة ميتشيجان وحده تصل إلى حوالى ألف مليون دولار سنويا[1] .

وكان من الطبيعي عندئذ أن أفرض على نفسي مقارنة هذا الوضع بما نحن عليه .

فلننظر إلى كلياتنا أو إلى تلك « البنايات » التي تسمى بمراكز البحوث ؛ نستطيع أن نسجل العديد من مظاهر التخلف ولكن يكفي أن نتذكر مدى عمق المأساة التي لابد وأن تعكس وجودها على تلك الجهات : جهل فكرى وتهريج علمي ثم غرور وادعاء فضلا عن فراغ أجوف تدور فى فلكه جميع مظاهر النشاط.

إن البحث العلمي يفترض عناصر أربعة : هدف يعترف به المجتمع ويقتنع به الجهاز الحكومى ، أداة علمية تستطيع أن تسعى لتحقيق هذا الهدف ، قيادة أثبتت بما وهبت من صفات وبما اكتسبت من دراية أنها صالحة للسيطرة على تلك الأداة العلمية ، ثم إدارة تسمح بخلق قنوات التجانس والاتصال بين الجهاز الحكومى والقيادة العلمية ، هذا إلى جانب ذلك الذى يوصف بأنه الأداة العلمية[2] . وأين نحن من كل ذلك؟ فالنظام الحكومى لا يؤمن ولا يثق فى البحث العلمي وبصفة خاصة فى نطاق العلوم الإنسانية . والقيادة العلمية لا وجود لها . وإلا فأين مراكز البحوث أو الإدارة العلمية التى يحتل القيادة فيها أستاذ عالم أو متخصص استطاع أن يثبت كفاءته بما يقوم به من بحوث علمية وبما أثبته من كفاءة منهاجية ؟ وويل لنا من الإدارة : لقد استطاعت أن تتسلل كالأخطبوط فتشل كل جهاز علمى ، تارة بدعوى الاشتراكية ، وتارة باسم البيروقراطية ،

---

(١) ويبتلع هذه الميزانية أو يحصل منها على نصيب الأسد البحث السياسى . مثل واحد فيه الدلالة الكافية . فلو ألقينا بنظرة على بنود الإنفاق وتوقفنا أمام البند الخاص بالتدريب العلمى الصيفى لوجدنا أن هذا البند وحده خصه نصف مليون دولار سنويا فى عام ١٩٧١ — ١٩٧٢ . وهذا تطور الانفاق بخصوص هذا البند بالأرقام :

١٩٦٧ — ١٩٦٨	٣٢٥,٠٠٠
١٩٦٨ — ١٩٦٩	٣٧٠,٠٠٠
١٩٦٩ — ١٩٧٠	٤٠٠,٥٠٠
١٩٧٠ — ١٩٧١	٤٢٥,٠٠٠
١٩٧١ — ١٩٧٢	٤٤٩,٥٠٠

انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٢) PRICE, Government and science, 1954, in NELSON, The politics of science, 1968, p. 5.

وتارة أخرى تعكس عقد النقص التى تراكمت فى نفسية أصحابها ، ولكنها دائما عقبة خطرة تحول دون أن يؤدى البحث الاجتماعى وظيفته الحقيقية[1] . فماذا تستطيع الأداة العلمية لو وجدت أن تفعل فى هذا الجو الملبد بالغيوم؟ كيف نتصور إقبال باحث على عمله عندما نعلم أنه ليستطيع أن يقابل مديره — محدود الثقافة ومحدود الصلاحية والقدرة — عليه أن ينتظر عدة ساعات لدى سكرتيرة ، وهبها الله من فساد الذوق الشيء الكثير ، ثم ليستطيع أن يصل إليه واقفاً لعدة دقائق عليه أن يقطع حجرة هو فى حاجة إلى دراجة ليجتازها ؟ ثم كيف نتصور كلية يحتل فيها المسجل جناحا كاملا بينما أساتذة الكراسى ورؤساء الأقسام قد حشروا حشرا فى حجرات ضيقة كالسردين ؟

الواقعة الثانية كانت عندما قدر لى أن الجأ إلى أحد مراكز الدراسات السياسية فى لبنان لاستكمال بحث لنا عن « عملية صنع القرار السياسى فى المجتمع الاسرائيلى» وشعرت بالألم الحقيقى والمأساة الدفينة التى سيطرت على جميع حواسى خلال ثلاثة أشهر كاملة قضيتها ببيروت[2] . كان ذهنى مسرحا لمقارنة عميقة المدى متعددة الأبعاد ومع كل مقارنة أكثر من علامة من علامات الاستفهام تفرض وجودها على النفس الممزقة .

أولا كان على أن أتساءل وأضاهى بين ماوصل إليه المجتمع الاسرائيلى من تقدم علمى وبين ما نحن عليه من تأخر فى جميع مجالات البحث وبصفة خاصة البحث والتحليل الاجتماعى . إن اسرائيل تعتبر اليوم النسبة للعالم بأجمعه مركزاً لتفريخ حلول المشاكل الاجتماعية ومعملا يقدم للبلاد المتخلفة خير ماهى فى حاجة إليه من خبرات علمية . مرد ذلك أساسا عاملين لاثالث لهما : ربط البحث العلمى بما فى ذلك البحث الاجتماعى بالواقع العملى بحيث يصير هذا الأخير أداة للحركة ووسيلة معدة لها يتفاعل بها وتتفاعل به[3]. والعامل الآخر هو الإيمان بأن كل مشكلة لها واقعها

---

(١) قارن الملاحظات التى تضمنها تقرير الجمعية الكيمائية الأمريكية والمنشور فى المؤلف الجماعى السابق الإشارة إليه فى الهامش السابق ، ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر رغم قدمه نسبيا :

NATIONAL COUNCIL RESEARCH, national science policy and organization of research in Israel : 1967, 1969.

(٣) قارن نتائج سياسية للنواحى الاجتماعية فى عملية التطوير للذات القومية من حيث علاقتها بالمشكلة التى أثرناها وظيفتها فى الصراع الدولى الذى يسيطر على منطقة الشرق الأوسط :

DEKMEJIAN, Egypt under Nasser, a study in political dynamics, p. 247.

وكل واقع له أوامره وكل أمر له مقتضياته وكل ذلك يعكس منطقا خاصا مستقلا قائما بذاته . ووظيفة العالم الحقيقية تصير اكتشاف ذلك المنطق وصياغته لأن يجعل منه المنطلق الحقيقى لمواجهة المشكلة وتقديم الحلول اللازمة للتخلص منها كليا أو جزئيا ، مرحليا أودائما .

قد يبدو للبعض أن البحث العلمى بمختلف صوره مرتبط فقط بنواحى التقدم الذاتية . على أن الواقع أن اسرائيل جعلت منه أحد أدوات تنفيذ سياستها الخارجية أو بعبارة أدق قناة حاسمة من قنوات الاتصال الدولى التى سمحت لها بغزو مزدوج. من جانب فى اتجاه المجتمعات المتخلفة إذ تقدم لهم خبرات وحلول لاتستطيع أن تصل إلى صياغتها وتجريبها المجتمعات المتقدمة ومن جانب آخر جعلت من هذا التقدم ، كما يقول « اليعاز رطل » مدير المجلس القومى الاسرائيلى للبحث والتنمية[1] ، أساسا لحركة « تشكل جسرا إلى العالم الكبير ، وتخلق أداة للاتصال ولتعميق الرابطة بين اسرائيل والعالم العلمى » .

المقارنة الثانية كانت بين مراكز البحوث العلمية اللبنانية ومراكز البحوث فى مصر. فلبنان دولة صغيرة ، وإمكانياتها محدودة ، وقدراتها الخلاقة لاموضع للحديث عنها ، وعلماؤها المقيمون بها من الدرجة الثانية . وليس أدل على ذلك من القاء نظرة على الإنتاج العلمى فى الشقيقة العزيزة ، أو متابعة لمكتباتها المتخصصة . فلو استثنينا الجامعات الأجنبية فان أى حركة ثقافية أو تقدم علمى لغو لاموضع للحديث عنه . ومع ذلك فكيف استطاعت بعض مراكز البحوث فى لبنان أن تتقدم وتتفوق على ما لدينا رغم التقاليد الثابتة والإمكانيات البشرية الهائلة ؟ إن طالبا ممتازا فى كلية الاقتصاد يستطيع أن يتبارى فكريا مع أساتذة أجلاء فى لبنان الحبيبة ومع ذلك فأى ألم يسيطر على الإنسان وهو يرى قدراتنا الخلاقة تتبعثر فى الهواء بسبب ذلك الذى يحيط بنا وبسبب عدم استطاعة الدولة أن تستغل هذه الإمكانيات ؟ فما مرد ذلك ؟ هل

---

(١) يجب أن نلفت نظر القارىء إلى أن البحوث العلمية: تفترض تعاون أنواع ثلاثة من المؤسسات الثقافية : أولا الأجهزة الجامعية ثم ثانيا مراكز البحوث ثم إلى جانب ذلك ثالثا ما يسمى «مراكز التفوق العلمية» : Center of excellence ، ويدور حاليا فى اسرائيل نقاش عنيف حول هذه الأخيرة وهو أحد ملامح وعلامات التقدم العلمى الحقيقى فى الدولة العبرية . انظر نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١ عدد رقم ١١ (١ سبتمبر) ، ص ١٩٦ .

هو مناخ الحرية[1] الذى تعيشه لبنان ؟ أم الإمكانيات المادية التى استطاعت بيروت اللعوب أن تحصل عليها بسحر لم نستطع نحن بعد أن نزاوله ؟

على أن عملية التقريب والتساؤل لم تقف عند ذلك الحد . ففى لبنان ذاتها توجد جامعة بيروت العربية والجامعة الأمريكية . وكان من الطبيعى أن تفرض المقارنة ذاتها على عملية التوازن بين الجامعتين . وكم أحزنتنى وأفجعتنى هذه العملية ؟ ففى إحدى الجامعتين ، رغم أن رجالها دخلاء على المجتمع الذى يعيشون فيه ، غرباء على البيئة التى يدرسونها ويحللون مقوماتها ، لاصلة تربطهم بالمشكلة المصيرية التى تفرض نفسها على مستقبل المنطقة، يوجد البحث الحقيقى وتوجد مظاهر الربط بين المجتمع والعلم بأساليبه وأدواته . وفى الأخرى لانجد سوى العقم الفكرى حيث نستطيع أن نصف الإطار الأكاديمى بأنه أقرب إلى مدرسة ثانوية منه إلى جامعة حقيقية. والغريب أن ذلك يحدث رغم أن المناخ السياسى فى تلك المنطقة كان يجب أن يفرض على القائمين أن يفهموا بأن واجبهم أساسا هو عملية مصارعة فكرية ومعاناة خلاقة . ماذا أقول هل يجب أن أكشف عن الخبايا على هذه الصفحات ؟ أم يكفى أن أذكر المسئولين بما فعلته السلطات الأكاديمية بتلك الجامعة عندما تحركت لتدلى بدلوها فى تطوير الثقافة والفكر وربطه بالواقع العربى ،فكان كل ما استطاعت أن تتوصل إليه هو الغاء قسم العلوم السياسية[2] . بطبيعة الحال سوف يقدم كل حججه ، وسوف يصوغ تلك الحجج فى منطق يبدو لأول وهلة لاينال منه النقد والتجريح . ولكن هناك حقيقة لايستطيع الروب الجامعى مهما اتسع ومهما كان فضفاضا أن يخفيها .وهى عدم رغبة الجامعة فى مواجهة مسئولياتها الحقيقية فى منطقة تفرض تلك المواجهة وتجعل منها الهدف الحقيقى لأى جامعة عربية يتمركز نشاطها فى العاصمة الفكرية الثانية لمنطقة الشرق الأوسط .

الواقعة الثالثة فرضت نفسها على عندما دعيت لزيارة منطقة الخليج العربى . وكان من بين الجهات التى ذهبت أتفقدها مركز التنمية بمدينة دبى[3] . وجلست أستمع وأتابع . وكم كانت دهشتى وشعورى بالألم عندما قابلت خمسة من الشباب البريطانى

---

(١) انظر حول العلاقة بين ظاهرة الحرية وتقدم التحليل السياسى ، حامد ربيع ، أبحاث فى النظرية السياسية ، ١٩٦٨ ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢) انظر أيضا حامد ربيع ، البترول العربى واستراتيجية تحرير الأرض المحتلة ، ١٩٧١ ، ص ١١ .

(٣) TRUCIAL STATES COUNCIL DEVELOPMENT OFFICE, Report on the Trucial States development fund, 1966, p. 2.

كل منهم يقوم بدراسة ميدانية فى ناحية من نواحى التطور الاقتصادى للمنطقة وجميعهم يتبعون « مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية » . وكم أحزننى أن أجد الخبراء فى كل أنحاء المنطقة يحملون الطابع الأوربى : والدراسات وبصفة خاصة الاقتصادية تتولاها أجهزة أوربية ، والمساعدات تقدم إلى الجامعات الأمريكية وإلى العلماء الانجلوسكسون أومن فى حكمهم بمئات الآلاف من الخزائن العامرة بالمال[1] .

وكان من الطبيعى أن أتجه إلى نفسي بالسؤال : أين كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة ؟ ماذا فعلت خلال أكثر من عشرة أعوام سوى المشاجرات المضنية حول تدريس « الاشتراكية العربية » وملحقاتها ؟ أليس بتلك الكلية من القدرات ما يسمح لها بأن تقدم نموذجا للخبرات الانمائية والاقتصادية والسياسية فى مجال الحركة العربية ؟ وأليس واجبا على القيادة العلمية بتلك الكلية أن تأخذ بيدها زمام المبادرة بالتوجيه للقدرات الخلاقة التى تستطيع أن تصبغ عملية التغير الاجتماعى الكلى والشامل للمنطقة ؟

مما لاشك فيه أن ظاهرة الاخفاق الواضحة أكثر عمقا من أن تتحدد بمتغير واحد . ومن العبث فى تحليل أى ظاهرة تصور أن موقفا قد تحكم فى وجوده عامل واحد . لابد من العديد من العوامل والمتغيرات التى تتفاعل كل منها مع الآخر لتقود إلى تلك النتيجة . كذلك هذا الوضع العام للعلوم الاجتماعية فى القارة العربية لابد وأن نبحث لتفسيره عن العديد من الأسباب التى قادت إلى هذه الصورة من صور الهزيمة الفكرية.

أول هذه الأسباب يعود إلى إخفاق الطبقة المثقفة القيادية فى وضع تقاليد واضحة جامعية[2] . بطبيعة الحال أقصد بذلك تلك الطبقة المرتبطة بالعلوم الاجتماعية . فلو تركنا العلوم القانونية جانبا لوجدنا أن البلاد العربية وخلال عدة قرون وحتى هذه اللحظة لم يبرز من بين أبنائها اسم واحد يعكس قوة وأصالة فى التحليل الاجتماعى فى أى بعد أوأى ناحية من نواحيه . فالعلوم النفسية لاتزال تخطو خطوات بدائية . وعلم الاجتماع لايعدو أن يكون مخزنا لاستقبال كل من أخفق فى نطاق الثقافات الأخرى. ولا موضع للحديث عن علم الانثروبولوجيا . وخير لنا ألا نتحدث عن العلوم السياسية فمأساتها أضخم من أن تحتمل الإشارة العابرة . وعلماء الاقتصاد كونوا جوقة تفكرنا

---

(١) انظر على سبيل المثال التقرير الذى أعد بخصوص عملية التنمية الاقتصادية لأمارة أبوظبى :
LITTLE, Industrial development opportunities for Abu Dhabi, final report, 1968.

(٢) قارن أيضا رغم اختلاف الإطار العام للوضع الثقافى :
PIGANIOL, VILLECOURT, Pour une politique scientifique, 1963, p. 179.

بأولئك الذين كان يشترط المخرج الدرامى وجودهم فى المأساة اليونانية : صوت واحد ونفس واحد يرددون عبارة واحدة كلما آن الانتقال من مقطع إلى آخر فى مأساة الحياة الإنسانية . قد يجيب البعض بأن المأساة أو التدهور له مظاهر مماثلة فى نطاق العلوم الأخرى ولكن هذا غير صحيح . فعلم القانون له تقاليده الواضحة التى ساهم علماء أجلاء (وبصفة خاصة فى نطاق القانون الخاص) فى وضعها . وكذلك الحال فى أغلب العلوم البحتة . على أن الأمر الذى ننساه هو أن المشكلة بالنسبة للعلوم الاجتماعية أخطر وأشد ضراوة : ذلك أن العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تنبع إلا من الواقع المحلى ، على عكس العلوم الأخرى التى تستطيع أن تعيش عالة على التقدم الأجنبى والخارجى دون أن تكتشف تلك الحتمية ودون أن نستطيع أن نلمس بوضوح نتائجها المخيفة على التطور العام للثقافة(1) . إن الطبيب أو عالم الطبيعة يستطيع أن ينقل نتائج التقدم العلمى فى أى مجتمع آخر ويطبقها على مريضه أو فى معمله دون أى خوف ودون أن يكتشف أحد نقصه الفكرى . ولكن كيف يستطيع أن يفعل ذلك عالم الاجتماع أو عالم النفس ؟ إن عليه أن يملك تلك القدرة لا فقط على أقلمة نتائج ما وصل إليه العلم الأجنبى فى واقع مجتمعه المحلى بل عليه أن يكتشف المنطق الحقيقى الذى يستتر خلف واقعه ومجتمعه ويسعى لأن يستوعب تلك الخبرات الأجنبية فى منطقة الذاتى . وهى مهمة أشد وأكثر صعوبة فى المجتمعات ذات التقاليد الثابتة والمستقرة حتى ولو كانت تلك التقاليد رجعية وبالية . بل بقدر ثباتها ورجعيتها بقدر صعوبة مواجهتها وتعقد المشاكل التى تثيرها عملية التغير الاجتماعى المرتبطة بمجموعة هذه التقلبات الفكرية .

يساعد على ذلك عاملان آخران كل منهما كان لابد وأن يشترك بأسلوب أو بآخر فى تضخم النتائج . فالإطار الأكاديمى لدينا لا يسمح بالتخصص الحقيقى فى نطاق العلوم الاجتماعية(2) . والتخصص لا يجوز أن يفهم على أنه مجرد متابعة ما اصطلح

---

(1) انظر تفاصيل أخرى فى
SCHRAMM, Mass media and national development, 1964, p. 175.

(2) مشكلة البحث والتحليل الاجتماعى بصفة عامة والسياسى بصفة خاصة فى المجتمعات النامية موضع دراسات عديدة ، انظر حامد ربيع ، بحوث الرأى العام فى المجتمعات النامية والصعوبات المنهجية ، فى لويس كامل مليكه ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى ، جزء ثانى ، ١٩٧٠ ، ص ٤٩ وما بعدها . وقارن أيضا وجهة نظر أمريكية فى :
PYE, The developing areas: problems for research, in WARD, Studying politics abroad, 1964, p. 4.

على تسميته لدينا بالدراسات العليا . نحن نقصد التخصص بأوسع معانيه حيث أن العلوم الاجتماعية ورغم التحامها لم تعدتسمح بتجميع جميع ثقافات المجتمع فى بوتقة أو فى حظيرة واحدة : لقد وصل الأمر إلى حد التخصص فى نطاق نفس فروع العلوم الاجتماعية . فعلم النفس مثلا أضحى يعرف اليوم حوالى سبعة أوثمانية تخصصات يكفى أن نذكر منها على سبيل المثال علم النفس الاكلينيكى وعلم النفس الاجتماعى وعلم النفس السياسى[1]. فى مواجهة هذا التخصص الدقيق ، المختلف المراحل ، والدرجات ، ماذا فعلت وماذا أعدت جامعاتنا ؟ إن التخصص يفترض مقدمات ثلاث : أستاذ ومعمل وطالب . والمؤلم أننا لو ألقينا بنظرة على العلوم الاجتماعية لوجدنا أن الأمور الثلاثة لاموضع لها لدينا . فالأستاذ هو جامعى أخفق فى أغلب الأحيان فى نطاق ثقافة أخرى فأقبل على هذه الثقافة كبديل : إن مدرس اللغة الإنجليزية بالمدارس الابتدائية الذى أضحى رئيسا لقسم العلوم الاجتماعية والنفسية أوأستاذا مساعدا بأحد أقسام العلوم الاجتماعية المتخصصة ليس الا نموذجا مؤلما لهذه الحقيقة . والمعمل الاجتماعى لانعرفه فى بلادنا بل ولانريد أن نعرفه ولو تحدثت عنه مع بعض المسئولين لنظر إليك ببلاهة مؤلمة[2] . وإن وجد رغم ذلك فهو مغلق . معمل علم النفس بجامعة عين شمس يبحث عن باحث يجرى به تجاربه دون جدوى . والطالب لايعدو أن يكون رقما أكره على أن يدرج فى أحد أقسام العلوم الاجتماعية دون مراعاة لرغباته أو آماله أو استعداده . وكم مرة قابلنا طالبا كانت كل أمنيته وكل استعداده أن يصير طبيبا ثم اذا بمكتب التنسيق يحشره فى قسم الاجتماع . قد يكون لمكتب التنسيق وجهة نظره ، ولكن ماهى نتيجة مثل هذا الوضع ؟ ثم تأتى إلى جانب ذلك مشكلة الجامعات العربية . فمنذ أن خرجت علينا أراضى الذهب الأسود ببدعة الجامعات استوعبت خيرة أساتذتنا رغم قلتهم وندرتهم . والحقيقة التى يجب أن نسلم بها أن هذه العملية هى على حساب تقدمنا العلمى ومصالحنا المحلية . لقد ترتب على ذلك انهيار حقيقى فى جميع قيمنا الثقافية على المستوى الجماعى والمستوى الفردى : فعلى المستوى الجماعى كان من الطبيعى أن يترك هذا فراغا لايمكن سده فى الأمد القصير . وعلى المستوى الفردى فان هذا أحدث أثراً مزدوجا : فالأستاذ الجامعى الذى يذهب إلى أرض الخليج

---

(١) HILGARD, Introduction to psychology, 1957, p. 21.

(٢) انظر حامد ربيع ، نظرية التحليل السياسى ، محاضرات كلية الاقتصاد جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧١ ، ص ١٩١ وما بعدها .

ينقلب إلى تاجر تسيطر عليه معايير وأبعاد للحياة لاصلة لها بالقيم الثقافية[1] . وهو فى تلك الأصقاع حيث الحاجة الحقيقية هى إلى مدرس للتعليم الثانوى ومن الدرجة الثانية ، لابد وأن ينسى ثقافته ويفقد إمكانياته الفكرية. إن الأستاذ الجامعى فى حاجة إلى التمرين والتجديد المستمر ويوم أن يتوقف لابد وأن يصيبه الصدأ . وهنا ككل مهنة تفترض درجة معينة من المهارة والاستعداد الذاتى ، لايستطيع العالم الجامعى مهما بلغ من ذكاء أن يدارى عدم صلاحيته أوإخفاقه . إنه أمام طلبته عار لارداء يحمى جهله أو يجهل صلاحياته . وهو من ناحية أخرى لابد وأن يدفع زميله الذى تركه فى جامعاتنا إلىأن يتدهور بدوره. زيادة فى العبء مع مراجعة ذاتية وتساؤل بينه وبين نفسه : لماذا واحد يعب فى الذهب والآخر يغرق فى العرق ، حتى لوافترضت المساواة فى الكفاءات ؟

على أن الدولة بدورها كحقيقة نظامية كان لها دورها الفعال فى عملية التدهور أو على الأقل فى عدم ملاحقة ركب التطور المعاصر[2] . فالعلوم الاجتماعية من قبيل السهل الممتنع . لأول وهلة يبدو وكأن أى نصف متعلم يستطيع أن يلقى بدلوه فى متاهاتها . ولو استطاع أن يحفظ بعض العبارات يرددها كالببغاء فلابد أن يجد أكثر من مستمع وأكثر من مؤمن ولو فى الأمد الطويل . وحتى تكتمل المأساة يأبى علينا القدر إلا أن يرسل إلينا فى لحظة حاسمة من لحظات صراعنا الحضارى من يخرج علينا بحديث عن « أهل الثقة » و« أهل الخبرة » . وإذا كان من السهل التمييز بين الخبرة وعدم الخبرة فى نطاق العلوم البحتة ، فهذه العلوم الاجتماعية خصم سهل المنال ، إنها باب مفتوح على مصراعيه يستطيع أن يطرقه « أهل الثقة» ليزعموا أنهم قد أضحوا من « أهل الخبرة »[3] .

---

(١) إن ماأصابنا فى علاقتنا بالعالم العربى يعيد إلى الذهن صورة مماثلة أصابت غرب أوروبا فى علاقتها بأمريكا الشمالية ، وذلك بطبيعة الحال مع بعض الفوارق . وجه التشابه يرتبط بالقيم الثقافية التى نحن بمعرض الحديث عنها . ولعله مما يدعو للتفاؤل أن علماء غرب أوروبا بعد أن قضوا بالقارة الجديدة ما بين عشرة وعشرين عاما قد بدءوا يعودون إلى جامعاتهم القديمة . وهذه الظاهرة واضحة بصفة خاصة فى ألمانيا الغربية . انظر ملاحظات :

WIENER, A scientists rebels, in Bulletin of the Atomic Scientists, vol. III, 1947, p. 31.

(٢) انظر أيضا المؤلف الجماعى السابق الإشارة إليه ، فارد ، ص ١٥٣ ومابعدها .

(٣) جديرة بالتأمل الخبرة اليابانية . انظر المشاكل التى يطرحها بخصوص التحليل الاجتماعى :

MENDEL, Japan today : case study of a developing nation, in ANDERSON, Sociological essays and research, introductory readings, 1970, p. 345.

ذهب رجل يسأل سقراط : أستاذى بماذا تنصحنى ؟
ألا تكون وقحا وجاهلا فى آن واحد : أجاب الفيلسوف العجوز .
وعاد الشاب يسأله مندهشا : كيف ؟
تستطيع أن تكون جاهلا ولكن بشرط أن تكون مؤدبا ، فيحتمل القوم جهلك لأدبك — استمر الأستاذ التاريخى — ولتكن وقحا بشرط أن تكون عالما فيقبل القوم عليك لعلمك . ولكن لو كنت جاهلا وأضفت إلى صفاتك الوقاحة ، فويل لك من المستقبل وما يخبئه .

إن قصة إخفاق جامعاتنا فى العلوم الاجتماعية هى قصة إخفاق نظامنا المعاصر خلال ربع قرن كامل من الزمان وبالذات ابتداء من انفجار الحرب العالمية الثانية[1] . لقد كان على طبقتنا المثقفة أن تواجه الأوضاع الجديدة ببعد نظر ودراية وعمل دائب ثاقب استعدادا لتلك اللحظة التى كان على الجيل الجديد أن يدعى فيها أبناؤه للقيام بدورهم الإيجابى فى العالم المرتبط بالمنطقة . وهكذا انتهت الحرب العالمية الثانية دون أن نعرف أين نحن من التطورات العنيفة التى خلفها الصراع الدولى . ثم تتالت أحداث فلسطين دون أن يوجد المفكر الذى ينبه الأذهان إلى حقيقة الخطر الذى يواجهنا . وانفجرت الثورات وتتالت الانقلابات دون فلسفة ودون إطار حركى . وخاضت الأمة العربية حربين حقيقيتين هزمت فى كلاهما شر هزيمة ومع ذلك لم نسمع سوى الصياح والعويل . وليست هذه أكبر المخاطر ، بل هناك ماهو أسوأ من ذلك . ولنضرب بعض الأمثلة :

الغموض الذى يحيط بوجودنا الفكرى فى العالم المعاصر ليس سوى أحد نماذج الاخفاق العام الذى يرتبط بتطور العلوم الاجتماعية فى التقاليد العربية[2] . أن أى مؤلف أوروبى معاصر يتعرض لتحليل الموقف السياسى فى هذه المنطقة يبدأ بهذا التساؤل : من هم العرب ؟ ما الذى تمثله الأمة العربية التى باسمها تتحدث القومية العربية ؟ ماهى خصائص الشخص الذى يزعم بانتمائه إلى ذلك المجتمع ؟ ماهى صفات الطابع القومى الذى يستتر خلف ذلك المفهوم ؟ وماهى علاقة ذلك الطابع القومى بتلك القوميات المحلية التى تندرج تحت كليات الأمة العربية ؟ وهو تساؤل مشروع . ورغم ذلك فعلماء الاجتماع الذين ينتمون إلى تلك المنطقة ذاتها يتجنبون أن يواجهوا هذه المشكلة.

---

(١) انظر ملاحظات :
BERQUE, L'Egypte : impérialisme et révolution, 1967, p. 666.

(٢) انظر على سبيل المثال إلى جوار ملاحظاتنا السابقة بخصوص الطابع القومى المصرى وعلاقته بأحداث عام ١٩٦٧ ملاحظات :
BERQUE, L'Orient second, 1970, p. 398.

وليس أدل على صدق هذه الملاحظة من أننا لوذهبنا نتصفح تلك المؤلفات العديدة والتى صدرت باسم المجتمع العربى لما وجدنا واحدا منها قد استطاع أن يتناول المشكلة ولو بشيء من التحليل الجزئ .

غموض آخر أكثر خطورة وأشد ألما يدور حول أبعاد حركتنا السياسية فى المجتمع الدولى المعاصر . ما الذى نريده؟ كيف نحقق ذلك الذى نريده ؟ إن العالم العربى يواجه منذ ربع قرن معركة مصيرية ، فما هى خصائص تلك المعركة ؟ وكيف نستطيع أن نخرج منها بالنصر ؟ ماهى مسالك المواجهة التى تفرضها المعركة ؟ ماهى أبعادها ؟ أين الاستراتيجية الفكرية التى استطاع مفكر عربى أن يقدمها شاملة ، كاية يستطيع على ضوئها القائد أن يخطط معركته وأن يتابع تحقيق أهدافه ؟ إن كل استراتيجية لابد وأن تستند إلى نظرية عامة متكاملة حيث تبرز نواحى القوة وتجهل نواحى الضعف ، فأين الصياغة النظرية لاستراتيجيتنا العربية على المستوى القومى أو على المستوى المحلى ؟ وهذه مصر ذات التقاليد الحركية التى تعود إلى أكثر من ستة آلاف عام ، فهل استطاع عالم واحد[1] أن يلخص نظريتها فى الأمن القومى ؟ وذلك فى نفس اللحظة التى نجد فيها عشرات المؤلفات وقد صدرت تناقش وتفسر وتبنى مقومات الأمن القومى لتلك الدولة الشبح التى لم يمض على وجودها الحقيقى فى المحيط الدولى أكثر من خمسة عشر عاما وبالذات عقب هزيمة سيناء الأولى ؟

وإذا كانت أى معركة لاتبدأ من فراغ بل هى استمرار لجهود سابقة وإعداد لنشاط لاحق ، فأين نحن من تراثنا الفكرى السابق ؟ أين نحن من تراثنا الإسلامى[2] فى صفائه ونقائه ، فى ضعفه ونقائصه ؟ هل يعقل أننا إذ نبحث عن مؤلف فى تاريخ الفكر السياسى الإسلامى فلانجد سوى كتاب لعالم يهودى نذهب نستوعب منه بعض الفقاعات المسمومة ؟ وذلك فى نفس الوقت الذى نجد فيه أكثر من متخصص واحد بكلية الاقتصاد بتلك الجامعة التى تحمل اسم المدينة التى كانت وسوف تظل مصدر الإشعاع الحضارى العربى وحيث تركزت الجامعة الأزهرية لأكثر من ألف عام يفخر بأنه لايعرف ولايريد أن يعرف الفكر الإسلامى ؟

---

(١) حامد ربيع ، التعاون العربى والسياسية البترولية ، ١٩٧١ ، ص ١١ ومابعدها .وقارن أيضا حامد ربيع ، عملية صنع القرار السياسى فى المجتمع الإسرائيلى ، محاضرات كلية الاقتصاد جامعة القاهرة ، ١٩٧١ – ١٩٧٢ ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) حامد ربيع ، أبحاث فى النظرية السياسية ، م. س ذ. ، ص ٢٤٠ .

إن الأمة العربية فى حاجة إلى علم للحركة . وعلم الحركة ليس إلا الخلاصة النهائية والخاتمة المنطقية لمدرسة العلوم السلوكية[1] . من هذا المنطلق وابتداء من هذا المنطق نقدم هذا المؤلف : حول تأصيل عملية البناء الفكرية لأصول علم الحركة الاجتماعية .

إن التطور العلمى المعاصر فرض على الثقافة الإنسانية حقائق ثابتة لايستطيع المفكر أن يتهرب من دلالتها . أول هذه الحقائق : الصورة الجماعية للبحث والتحليل . لم يعد من الممكن أن يتم الاكتشاف والخلق فقط بجهود فردية . إن الصفة الجماعية لم تترك النشاط العلمى والفكرى دون أن تفرض وجودها . وهكذا أضحى النبوغ العلمى أيضا حقيقة جماعية[2] . وهذه صفة مزدوجة : فالمجتمع الذى لايستطيع أن يقدم العديد من العقول الخلاقة فى وقت واحد وبخصوص نفس النشاط الفكرى لايستطيع أن يعتمد على جهود أبنائه فى الخلق والتجديد . لم يعد بعبارة أخرى النبوغ الفردى هو أساس التقدم العلمى وإنما أضحى النبوغ الجماعى هو الذى يسيطر وهو وحده الذى يسمح بالتقدم فى جميع فروع المعرفة ودون استثناء العلوم الاجتماعية . كذلك هذه الصفة الجماعية بما تعنيه من تعدد فى القدرات تفرض أسلوبا خاصا من أساليب التعامل ومسلكا معينا من مسالك المساندة فى النشاط الخلاق والتعامل الفكرى والعلمى بين نفس العناصر النابغة التى قد يهيأ لها أن تدفع إلى الأمام بعجلة الكشف والتطور . وإذا كانت هذه الضرورة قد تستطيع أن تواجهها المجتمعات المتقدمة بفضل ما لها من خبرات متراكمة فى جميع ميادين البحث والتحليل، فكيف تتمكن من مواجهتها المجتمعات المتخلفة على ماهى عليه من فقر فكرى وتكنولوجى ؟ إن المنطلق الحقيقى يصير بالنسبة لها هو خلق مدارس فكرية ابتداء منها وعلى مسيرة عدة أجيال قد تستطيع أن تطمع فى لحاق الركب العالمى فى التطور والتقدم العلمى .

الحقيقة الثانية التى يجب أن نضعها موضع الاعتبار ونحن بصدد تأصيل الدراسة الجامعية تدور حول طبيعة العلاقة بين الثقافة الاجتماعية والعلوم البحتة[3] . سبق أن ذكرنا مبدأ التخصص الذى أضحى يفرض وجوده على جميع أنواع الثقافة . على أن هذا التخصص يرتبط بدوره بتلك القاعدة المتسعة التى تضم مختلف فروع المعرفة اجتماعية وغير اجتماعية ، علمية أو فلسفية . إن الثقافة المعاصرة أضحت بمثابة الأوانى

---

(١) MITCHELL, Sociological analysis and politics, 1967, p. 21.

(٢) بيجانيول ، م. س . ذ. ، ص ٩ .

(٣) NORTHROP, The logic of the sciences and the humanities, 1959, p. 311.

المستطرقة . فرغم أن كل مسلك له مقوماته ، وكل علم له خصائصه ، وكل ثقافة لها موضوعها ، إلا أن هناك خلفية عامة مشتركة تربط بين جميع أنواع الثقافة . مظاهر ذلك عديدة : فأولا هناك عملية الربط والتفاعل المستمرة فى النواحى المنهاجية بين العلوم الاجتماعية والعلوم فى مدلولها الوضعى : استقبال للمنهاجية التجريبية ، استخدام للأساليب الكمية ، تطبيق لمنطق واحد واستخدام للغة واحدة ، حتى أضحى اليوم أمراً طبيعيا الحديث عن « نظرية مناهج البحث » كجسد واحد ومتكامل للمعرفة يدور حول عملية البحث عن الحقيقة بأى صورة من صورها وبأى تطبيق من تطبيقاتها[1]. أليست الحقيقة واحدة ؟ وأليس المنطق البشرى واحد ؟ إذن فلماذا تتعدد أساليب البحث عن الحقيقة ؟ وكيف تتباين قواعد التحليل المنطقى لفهم الحقيقة ؟ وإذا كان هذا الميدان الجديد الذى تنصهر فيه جميع الثقافات بمعايير مختلفة لايزال فى مرحلة البداية ، فان هناك حقيقة يسلم بها الجميع : وهى أن التزاوج الثقافى – مع التسليم باستقلال كلا الثقافتين – ضرورة لأزمة لاموضع للتهرب منها . ومن هنا نشأت تلك الحركة التى تعبر عن نفسها فى نطاق العلوم الاجتماعية باسم « علمية الثقافة الإنسانية » وفى نطاق العلوم البحتة باسم « اجتماعية الثقافة العلمية » . هذا التزاوج كان لابد وأن يرتفع فى لحظة معينة عن مستوى السياسة التعليمية ليعبر عن نفسه بنظام كامل للمعرفة[2] . ومن هنا نشأ ما يعبر عنه بكلمة « علم الحركة ». ففى نطاق الحركة فى أوسع معانيها نصبر ازاء الحقيقة الحية وهى تسعى لأن تتعامل مع الإطار الذى يحيط بوجودها عناقا أوصراعا ، تفاعلا أوتصادما . الإنسان كالحيوان بل هو ككل ماهو كائن حى عليه أن يتحرك ، وقواعد حركته تكون علما مستقلا قائما بذاته تنصهر فى بوتقته جميع أنواع ومظاهر هذا التعامل الحى[3] .

أيضا هذه الخصائص نريد أن نوضحها من خلال تقديمنا للعلوم السلوكية .

الجيزة فى أول أغسطس ١٩٧٢ حامد ربيع

---

(١) انظر ملاحظات: SIDMAN, Scientific research, 1960, p. 3, p. 16.

(٢) المؤلف الجماعى الذى يتصدى لتعريف ماهية « العلم » ، ورغم قدمه نسبيا جدير بأن يكون موضع متابعة وتحليل : NEWMAN, What is science ?, 1956.

(٣) سوف نفرد لهذا الموضوع القسم الأخير من هذا المؤلف . انظر خلاصة سريعة للموضوع فى PARSONS SHILS, Toward a general theory of action, 1962.

مقـــــدمة

فى التعريف بالعلوم السلوكيـة

خلاصة : التعريف بالعلوم السلوكية — العلاقة بين الثقافة النفسية والمدرسة السلوكية — النظرة السلوكية وأصولها التاريخية — السلوك ومسالك تحليله — السلوك بين علم النفس وعلم الحركة — التقـديم للدراسات السلوكية وأقسامه .

* * *

١ — أول ما يجب أن يلاحظه القارىء بخصوص مراجع الدراسة هو الفقر الشديد فى الكليات وبناء الإطار الفكرى للتحليل من جانب والغنى الزائد فى الجزئيات والفرعيات التى منها يتكون جسد الدراسة . ولذلك فبقدر ندرة المؤلفات والمراجع التى تقدم لنا إطارا كاملا للدراسة بقدر وفرة الأبحاث والمقالات التى تتناول الفروع المختلفة التى منها تتكون الثقافة السلوكية .

أضف إلى ذلك ملحوظتين : إحداها مردها إلى تغلب الطابع الانجلوسكسونى على هذه العلوم وهو أمر سوف يفهم القارىء أسبابه من خلال الدراسة . ثم من جانب آخر الاهتمام الخاص بالناحية الحركية والنظرة التى تصبغ تحليلنا للعلوم السلوكية على أنها مقدمة لعلم الحركة لا بد وأن تحدد اهتماماتنا وكذلك أسلوب هذا الاهتمام وبالتالى طبيعة المراجع التى يجب أن نحيل إليها .

٢ — من المراجع الأساسية التى تسمح بتوجيه أولى وفهم عام للعلوم السلوكية نحيل القارىء بصفة خاصة للمؤلفات التالية :

LURIA, The nature of human conflicts, an objective study of disorganization and control of human behavoir, 1960.

KRECH, CRUTCHFIELD, Theory and problems of social psychology, 1948.

COLEMAN, Abnormal psychology and modern life, 1968.

WOOTTON, Interest-groups, 1970 (Foundations of modern political science series).

DEWEY, HUMBER, An introduction to social psychology, 1967.

JOHNSON, Sociology : a systematic introduction, 1961.

HOMANS, Social behavoir : its elementary forms, 1961.

SPROTT, Social psychology, 1966.

GINSBERG, The psychology of society, 1964.

MILLS, The sociology of small groups, 1967.

SMELSER, Theory of collective behavoir, 1962.

HANDY, Methodology of the behavioral sciences : problems and controversies, 1964.

ROBERT, ISAACSON, MAX, al., Psychology : the science of behavior, 1965.

٣ — من بين المراجع الأساسية التى تسمح بتوجيه القارىء توجيها أوليا إلى خصائص العلوم السلوكية وتطورها التاريخى وموضعها من الثقافة الاجتماعية نحيل القارىء إلى المراجع الآتية :

MILLER, Toward a general theory for the behavioral sciences, in The American psychologist, 1955, 513.

BROADBENT, Behaviour, 1964.

WINCH, The idea of a social science, 1960.

ULMER, Introductory readings in Political behavior, 1965.

* * *

NAVILLE, La psychologie du comportement, 1963.
CHARLESWORTH, The limits of behavioralism in political science, 1962.
ID., The current meaning of behavioralism, in contemporary political analysis, 1967, 11.
GRINKER, Toward a unified theory of human behavior, 1956.

٤ – أضف إلى ذلك الطابع العام الذى يسيطر على هذه المقدمة فى العلوم السلوكية ، أى اعتبارها محاولة لتوحيد العلوم الاجتماعية الأساسية (علم الاجتماع – علم النفس – علم الانثروبولوجيا) حول وحدة « الحركة » : action ، حيث يجد القارىء مدخلا وتمهيداً فى المؤلفات :

PARSONS, SHILS, Toward a general theory of action : theoretical foundations for the social sciences, 1962.
MEGRET, L'action psychologique, 1959.
DEUTSCH, KARAUSS, Theories in social psychology, 1965, tr. it., 1972.

* * *

§ ١ – التعريف بالعلوم السلوكية : العلاقة بين الثقافة النفسية والمدرسة السلوكية :

كلمة « العلوم السلوكية » اصطلاح دخل حديثا فى التقاليد العربية بحيث لايعود استخدامه إلى أكثر من عدة أعوام[١]. رغم ذلك فهو قديم نسبيا حيث يعبر عن مرحلة معينة من مراحل تطور الثقافة النفسية تعود إلى الأعوام السابقة مباشرة على الحرب العالمية الأولى وقد ارتبطت هذه المرحلة بمنهاجية خاصة ذات تقاليد محددة تدور حول التجديد الوضعى فى أساليب المعرفة بالظاهرة الاجتماعية.

أول استخدام مرتبط بهذا الاصطلاح فى التقاليد الغربية يعود إلى العالم الأمريكى « واطسون » عندما خرج علينا بعدة مقالات وأبحاث تدور جميعها حول « علم النفس من الوجهة السلوكية » . مدار هذه الدراسات هو ضرورة رفض الأساليب التقليدية فى التحليل النفسى ، تلك الأساليب التى تنبع أساسامن مفهوم « التأمل الباطنى » حيث أن هذه المنهاجية بما تقوم عليه من ذاتية فى جمع المعلومات لايمكن أن تقودنا إلى اكتشاف القواعد الوضعية التى تحكم التصرف أو السلوك الفردى أو الجماعى. الثقافة النفسية – يقول دعاة المدرسة السلوكية – كأى دراسة علمية يجب أن تركز جهودها وتحصر نطاق تحليلها فى تلك الظواهر الخارجية التى تعبر عن نفسها فى نطاق المعرفة الحسية ومن ثم فهى قابلة لأن تخضع للتحليل الكمى كما يحدث فى نطاق أى علم من العلوم الطبيعية . ابتداء من ذلك التاريخ ظهرت فى نطاق الثقافة النفسية ماأسماه العلماء « المدرسة السلوكية » تعبيراً عن نظرة معينة إلى تحليل الظاهرة النفسية تتصف أساسا بحصر نطاق تحليلها فى الظواهر الخارجية مع اخضاعها لما يسمى «التحليل المعملى» واتخاذ الحيوان أحد ميادين التحليل حيث تصلح نتائج الدراسة التى تجريها على السلوك الحيوانى لتفسير السلوك الإنسانى[٢] .

---

(١) نجيب اسكندر ، لويس مليكه ، رشدى فام ، الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) يستطيع أن يجد القارىء متابعة موجزة ودقيقة للتطور التاريخى فى
PIAGET, FRAISSE, REUCHLIN, Traité de psychologie expérimentale, vol. I : Histoire et méthode, 1963, p. 44.

على أن المدرسة السلوكية بهذا المعنى سرعان ما أصابها تطور مزدوج : فهى كمنهاجية استطاعت أن تغزو العلوم الاجتماعية الأخرى وبصفة خاصة علم السياسة حتى أنه فى لحظة معينة أضحى الفقه السياسى لايتصور تحليل ظاهرة السلطة دون أن يكون ذلك استنادا إلى الناحية فقط السلوكية/ ولكن هذه المدرسة كثقافة نفسية لم تستطع أن تقاوم التقد . ولعل أخطر ماوجه اليها من تجريح هوأنها تنتهى بأن تجعل علم النفس فرعا من فروع علم« وظائف الأعضاء » . وإذا كانت الناحية السلوكية تمثل قسطا هاما من الحياة النفسية إلا أن هناك نواح أخرى للوجود المعنوى للفرد تستتر خلف السلوك وتتعدى مجرد التصرفات الخارجية المعبرة عن وجودها ماديا . وهكذا بدأت تظهر ردود فعل لهذه المبالغة من جانب المدرسة الساوكية بحيث تصير المنهاجية السلوكية ولاتعدو أن تكون أحد مسالك اكتشاف الظاهرة الاجتماعية بحيث لاتلغى ولاتعوض ماتقدمه المناهج الأخرى من إمكانيات فى الإمساك بتلابيب الظاهرة موضع التحليل[١] .

حتى الحرب العالمية الثانية كان الحديث حول المنهاجية السلوكية . فى أعقاب تلك الحرب بدأ الحديث عن «العلوم السلوكية » . لم تعد كلمة السلوكية لصيقة بأسلوب التحليل وإنما أضحت معبرة عن قسم من أقسام العلوم الاجتماعية أوقسط معين من المعرفة . بهذا المعنى يعرفها « نافيل » بأنها « فرع من العلوم الطبيعية يجعل حقله الذاتى ونطاق دراساته كل ما له صلة بمشكلة وعملية الأقامة والتوفيق الإنسانى فى المجتمع البشرى». وهكذا أصبح هذا الاصطلاح رداء يغطى ويحتوى ثلاثة أنواع من الثقافات : علم الاجتماع حيث يدرس الوسط الاجتماعى وعلم النفس حيث نجد تحليل الوجود المعنوى للفرد ثم علم البيولوجيا حيث الوجود العضوى للإنسان أوبعبارة أدق حيث نجد الدراسة النوعية لوظائف الأعضاء[٢] .

رغم وضوح هذه الأصول الفكرية إلا أن استخدام ذلك الاصطلاح « علوم سلوكية » كان وليد المصادفة البحتة . ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية برزت فى جنبات مجلس الشيوخ الأمريكى فكرة مساعدة البحوث والدراسات الإنسانية . وكان على علماء الاجتماع أن يتغلبوا على عقبة معينة مردها أن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يتحدثون عن العلوم الاجتماعية بمعنى العلوم الاشتراكية . ولأبعاد تلك الشبهة ولمقاومة تلك العقبة لجأ واضعو المشروع إلى كلمة « العلوم السلوكية » كاصطلاح يضم جميع

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى :

NAVILLE, La psychologie du comportement, cit., p. 23.

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٩ .

علوم الحركة سلوكية وبيولوجية مع تأكيد واضح لتلك الناحية التي ترتبط باهتمامات مراكز البحث التجريبي والعلمي في معناه الضيق . وفي نفس الوقت كانت منظمة «فورد» تواجه تنظيمها الداخلي وقد قررت أن تخصص إحدى وحداتها لتشجيع وتنمية التطور العلمي للثقافة الاجتماعية فلم تجد خيراً من تلك التسمية لتضفيها على ذلك القسم الذي أسمته « قسم العلوم السلوكية » . ومنذ تلك اللحظة انتشر الاصطلاح ودخل في العرف وأضحى معبراً عن قسط معين من الثقافة الإنسانية[1] .

على أنه كما يقول « ايستون » أفكار كثيرة تولد ، ومع ذلك فالقليل منها الذي يبقى والأكثر قلة الذي يقدر له الانتشار . والذي يجب أن نبحث عنه هو الإجابة على هذا السؤال : ماهي خصائص المرحلة المعاصرة التي جعلت ذلك الاصطلاح ينتشر ويتعلق به أغلب علماء الدراسات الاجتماعية عوضا عن الاصطلاحات القديمة والمسميات التقليدية ؟ ولماذا حدث هذا بصفة خاصة في التقاليد والجامعات الأمريكية ؟

لنستطيع أن نفهم طبيعة تطور العلوم السلوكية فلنتصور فريقين كل منهما يحفر نفقا في الجبل دون علم الفريق الآخر : في جانب علماء الاجتماع وفي جانب آخر علماء النفس . وفجأة إذا بجهود الفريقين تتلاقى وتتقاطع في نقطة واحدة : هذه هي المدرسة السلوكية . وعندما تقابل الجانبان ارتفعت صيحات الفرح والارتياح من كل جانب . وسرعان ما أقبل على أصوات السعادة والارتياح علماء السياسة والاقتصاد ، كل ينهل من هذا المنبع الخصب من الثقافة العلمية : هذه هي العلوم السلوكية .

هذه العملية من حيث طبيعتها تعني أمرا مزدوجا : ليس فقط منهاجية جديدة بل وتحطيم للوحدات الثقافية التقليدية[2] . فهي تجمع وتجزء في آن واحد . هي تجمع الثقافات الاجتماعية في حظيرة واحدة ولكنها تأخذ من كل فرع من فروع العلوم الاجتماعية ذلك الذي يدور حول وحدة التحليل التي أضحت محور الثقافة ذات التسمية الجديدة ، ومن ثم كان لابد وأن يثور السؤال : أين العلوم السلوكية من العلوم الاجتماعية التقليدية . وبصفة خاصة أين هذه العلوم من علم النفس وعلم الاجتماع

---

(١) ظاهر هذا من نفس مقارنة الاصطلاحين . كلمة علوم اجتماعية تقابل الاصطلاح social science والاشتراكية يعبر عنها بلفظ Socialism وفي كلا الحالين فإن الأصل اللغوي واحد .
EASTON, The current meaning of behavioralism, in CHARLESWORTH, Contemporary political, cit., p. 21.

(٢) بياجيت ، م. س. ذ ، ص ٥٥ وما بعدها .

وعلم الأنثروبولوجيا ، أى العلوم الاجتماعية الكلية ؟ وهى مشكلة تصير أكثر خطورة فى نطاق العلوم النفسية : فهذه أصابها التفتت فى بداية القرن العشرين ورغم ذلك فوحدة التحليل فى جميع فروع العلوم النفسية تظل طبقا للمدرسة السلوكية واحدة ومطلقة لاتقبل التجزئة ولا التعدد : السلوك . ومن هنا كان لابد وأن تظهر ردود فعل باسم توحيد الثقافة النفسية بحيث تصير الناحية السلوكية جزءاً لايلغى ما عدا ذلك من أبعاد ومشاكل أخرى ترتبط بالوجود غير السلوكى للوحدة البشرية .

كل هذا لابد وأن يعكس وجوده على التعريف بالعلوم السلوكية ، وبالتالى على الجسد من المعرفة والمفاهيم الذى تتكون منه تلك الثقافة وبالتالى على الوظيفة التى يجب أن تدعى تلك العلوم لأن تؤديها فى نطاق المعرفة الإنسانية[1] .

لنستطيع أن نوضح هذه الاستفهامات المختلفة نتابع تفصيلا هذه الأبعاد المختلفة فى المباحث الثلاث التالية :

المبحث الأول ــ النظرة السلوكية وأصولها التاريخية .

المبحث الثانى ــ السلوك وتحليله .

المبحث الثالث ــ السلوك بين علم النفس وعلم الحركة .

(١) TRUMAN, The impact on political science of the revolution in the behavioral sciences, in ULMAR, Introductory, cit., p. 11.

المبحث الأول
النظرة السلوكية وأصولها التاريخية

§ ٢ ـ التعريف بالعلوم السلوكية وخصائصها :

لو أطلقنا الاصطلاح فى أوسع معانيه وخصوصا عندما يستخدم بصيغة الجمع وقد ارتبطت هذه الصيغة بكلمة « علوم » لوجب أن نفهم مدلوله على أنه مرادف لكلمة « العلوم الاجتماعية » وقد نظر إليها نظرة ديناميكية معينة بمعنى « علوم الحركة ». ولو ضيقنا المفهوم وأردنا أن نحدد له نطاقا ضيقا لوجب أن نقصر المدلول على « السلوك الفردى » أى سلوك الفرد فى مواجهة المجتمع فى محاولة التكيف المستمرة التى تفرض نفسها على الفرد إزاء ضرورة استجابته للغرائز الطبيعية. بالمعنى الأول تصير العلوم السلوكية وقد تشابكت مع جميع العلوم الاجتماعية بل وبعض العلوم الطبيعية كعلم وظائف الأعضاء بحيث أن نطاقها يشمل كل ما يمكن أن يوصف بأنه تعبير عن الحركة فى نطاق العالم الذى ينتمى اليه الوجود الحى بل ولا يتردد البعض فى أن يوسع النطاق فى سعيه نحو خلق نظرية عامة للسلوك فيجعل النظرية تشمل أيضا السلوك الحيوانى وغير الحيوانى طالما كان السلوك يعكس الحركة المعبرة عن انطلاق الطاقة فى شكل تصرفات ووقائع مادية[1] . المعنى الثانى يقصر نطاق الدراسة على نشاط الفرد كتزاوج بين ما يسمى المنبه والاستجابة : م ـ أ بحيث يتناول بالتحليل كيف يخضع الفرد فى حياته اليومية وفى سلوكه الخارجى للدوافع الغريزية ، الجوع ، العطش ، الغضب ، الرغبة الجنسية : كل هذه تمثل مصادر للإثارة / فكيف يتصرف الفرد فى سلوكه اليومى سعيا نحو التخلص من الانفعالات التى تفرضها تلك الغرائز ؟ كيف يكيف الفرد سلوكه فى مواجهته للوسط الاجتماعى الذى يعيش فى داخله مع ما تفرضه عليه تلك الغرائز الطبيعية ؟

هذا الخلاف بين المعنى العام والمعنى الخاص لكلمة العلوم السلوكية لا يجب أن يثير لدينا أى اهتمام . فكلا الاستعمالين يقود الواحد إلى الآخر : ذلك أن العلوم

---

(١) انظر المراجع الواردة فى :
MILLENSON, Principles of behavioral analysis, 1968, p. 17 - 18.

السلوكية سواء فهمت كمرادف للعلوم الاجتماعية أوقصرت على أنها تحليل للسلوك البشرى لابد وأن تنتهى بأن تجعل وحدة دراستها أساسا السلوك الفردى[1]. كذلك وحيث أن الغاية من هذه الدراسة ، مقدمة العلوم السلوكية ، أن تصير مدخلا يساعد على تحليل الظاهرة السياسية أى ظاهرة السلطة من حيث العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، والنشاط الاقتصادى أى الطاقة الفردية فى سعيها للإشباع المادى للحاجات اليومية ، فمن الطبيعى أن نجعل مدلول العلوم السلوكية على أنه يتجه ليصير مرادفا لما نسميه «علم الحركة الإنسانية» .

ومن هذا نستطيع أن نحدد خصائص معينة لمدلول العلوم السلوكية :

(أولا) العلوم السلوكية ثقافة حديثة نسبيا ، لم تظهر وتتكامل إلا فى خلال فترة ما بين الحربين العالميتين وعلى وجه التحديد خلال الربع الثانى من القرن العشرين .

(ثانيا) كذلك فان العلوم السلوكية ترتبط بتقاليد الثقافة الأمريكية . أول من بدأ فى الإعلان عن المنهاجية السلوكية «واطسون» ، وأول من استخدم الاصطلاح كتعبير عن ميدان من ميادين الثقافة الإنسانية «مدرسة شيكاغو»[2] .

(ثالثا) رغم أن كلمة العلوم السلوكية قد تتسع فتشمل جميع أنواع الثقافة الاجتماعية إلا أن التقاليد الجارية المعاصرة عندما تطلق هذه الكلمة يقصد بها أساسا تجميع تلك الثقافات المرتبطة بعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا تحت مجهر الحركة الاجتماعية فى أوسع معانيها .

(رابعا) وحدة التحليل التى تدور حولها الثقافة السلوكية سواء بمعنى تجميع المعلومات أوبمعنى اكتشاف القوانين هى السلوك ، أى العلاقة بين الفرد والوسط فى محاولة الأول لأقلمة رغباته عندما يرتطم بالثانى . بهذا المعنى العلوم السلوكية تفترض اقتطاع قسط من المعرفة الاجتماعية والاقتصار عليها وترك ذلك القسط الآخر الذى لايدور حول السلوك . ومن هنا ينشأ فى بعض الأحيان التساؤل : هل التاريخ أحد تطبيقات العلوم السلوكية ؟ والإجابة بطبيعة الحال لابد وأن تتنوع ولكن القاعدة

---

(١) قارن أيضا ورغم تخصصه :
SINGER, Human behavior and international politics, 1965, p. 4 - 6.

(٢) انظر التفاصيل فى :
HANDY, Methodology of the behavioral sciences, 1964, p. 9 - 11.

تظل واحدة : حيث لاتكون الركيزة التى يدور حولها التحليل هى السلوك فلاموضع للحديث عن العلوم السلوكية[1] .

(خامسا) فى جميع الأحيان فإن المنهاجية السلوكية تعنى استخدام وسائل للتحليل مشابهة لما يستخدم فى العلوم الطبيعية أساسها الملاحظة والمشاهدة مع السعى نحو الصياغة الكمية للمفردات وتطبيق الأساليب المعملية فى أوسع نطاق. وبعبارة أخرى فان العلوم السلوكية تقوم على أساس فكرة البحث التجريبى حتى أن بعض التقاليد الأوربية تستخدم اصطلاح «علم النفس التجريبى» بدلا من اصطلاح العلوم السلوكية . وهى بهذا المعنى تميز بين العلوم النفسية الفلسفية أى القائمة على مناهج التحليل الذاتى والأخرى المستندة إلى مناهج التحليل التجريبى . على أن هذا التمييز لم يعد له موضع فى التقاليد المعاصرة . فلم يعد هناك علم للنفس يستطيع أن يزعم استناده إلى الأساليب الذاتية أو إلى التحليل الفلسفى . بل أضحت جميع العلوم الاجتماعية تتجه إلى استخدام الملاحظة المباشرة بما تفترضه من أساليب للتحليل المعملى أو التجريبى وجعل ذلك يمثل الأساس الأول والأخير لاكتشاف أبعاد الظاهرة وللمعرفة بخصائصها[2] .

وهكذا نستطيع أن ننتهى بأن نقرر حقيقة مطلقة : العلوم السلوكية هى تجميع للثقافات الإنسانية ، والتقاء للعلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية ، التقاء سمح باستخدام أساليب منهاجية تعكس التقدم العلمى المعاصر فى التحليل والاستكشاف وصياغة النتائج .

كيف حدث هذا ؟ هذا هو ماسوف نحاول ابرازه فى خلاصة سريعة .

§ ٣ — تطور الثقافة النفسية وعملية تأريخ العلوم السلوكية :

تأريخ العلوم السلوكية ، كما هو بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية عملية شاقة وتكاد تكون مستحيلة . مرد ذلك أكثر من عامل واحد :

(أولا) أن الكثير من العلوم الاجتماعية عرفت دون أن تعرف بمسمياتها الحديثة.

---

(١) قارن نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٨٩ وما بعدها . انظر بصفة خاصة الدراسة المشار إليها فى ص ٩١ هامش رقم ١٣ .

(٢) انظر بصفة خاصة فى المدلول العام للعلوم الاجتماعية :

CAZENEUVE, Les tendances de la sociologie moderne, in La Sociologie, Dictionaire Marabout, vol. II, 1972, p. 306.

كذلك دراسة السلوك عرفت منذ أقدم العصور دون أن تسمى أوتوصف بتلك التسمية التى هى وليدة القرن المعاصر[١] .

(ثانيا) أنه لايوجد علم أوثقافة يمكن أن يحدد بجهود فرد واحد أو ممارسة واحدة أوفترة زمنية معينة . ان كل علم هو نتيجة جهود متعاقبة وعصور متتالية ، إنه بمثابة بناء هرم شامخ ، لابد من مراحل متعددة كل منها تختم المرحلة السابقة وتعد لتلك التالية. العلوم السلوكية تخضع لنفس القاعدة .

(ثالثا) كذلك فإن تطور العلوم السلوكية يعكس بصفة عامة التطور الكلى للثقافة الإنسانية . فكل مرحلة من مراحل الكشف عن الحقيقة والتقدم البشرى لابد وأن تعكس بدورها آثارها فى جميع أنواع الثقافة[٢] . فالانتقال من الفاسفة إلى الفلسفة الأخلاقية والطبيعية ، ثم إلى علم الأخلاق وعلم الطبيعة ، ثم إلى العلوم الاجتماعية ، وأخيراً إلى العلوم السلوكية ، جميعها خطوات متتابعة فى خط مستقيم مضطرد فى عملية فهم الإنسان لوسطه الاجتماعى .

رغم ذلك فنستطيع أن نجد بعض الوقائع التى كانت بمثابة خطوات حاسمة فى عملية التنقل المتتالى نحو خلق منطق العلوم السلوكية . تحديد هذه الوقائع وإبرازها مع تحليل لدلالتها هى خير مقدمة ومدخل لفهم وظيفة العلوم السلوكية فى نطاق التحليل الاجتماعى. وإذا كانت عملية ابراز هذه الوقائع فى ذاتها تفترض اختيارا وبالتالى تعنى تقييما وحكما على المدارس النفسية المختلفة، إلا أن الطابع الأمريكى للعلوم السلوكية من جانب ثم الاتفاق على أن واطسون من بين أبناء القارة الجديدة هو وحده الذى أحدث القطيعة فى مراحل تطور التحليل النفسى ، قبله وبعده من جانب آخر ، يسمح بالتقليل من مخاطر التحيز[٣] .

---

(١) سوف يظل المصدر الأساسى لمتابعة التطور التاريخى للثقافة السلوكية ، البحث الذى صدر به لندزى مؤلفه الجماعى عن علم النفس الاجتماعى للعالم الأمريكى المشهور البورت :

ALLPORT, The historical background of modern social psychology, vol. I, 1954, p. 3.

(٢) العلاقة بين التطور الحضارى ومراحل بناء النظرية العلمية أحد أبعاد الاهتمام الواضحة فى التأريخ المعاصر للثقافة الإنسانية . انظر رغم عدم تكامله المؤلف الهام :

GUSDORF, Les sciences humaines et la pensée occidentale, vol. I, De l'histoire des sciences à l'histoire de la pensée, 1966, p. 18 ; vol. II, Les origines des sciences humaines, 1967, p. 293.

(٣) قارن ملاحظات ديوى ، م. س . ذ. ، ص ٣ ، هامش رقم ١ ص ٤ هامش رقم ٤ .

§ ٤ — المحاولات الأولى لفهم وتبويب السلوك الانسانى :

الأصول الحتميتية للعلوم السلوكية تفقد مظاهر التعبير عنها فى ظلامات التاريخ[١]. رغم ذلك فنستطيع أن نجد أول محاولة لفهم السلوك الإنسانى بمعنى تفسير الحركة المنبعثة من الجسد العضوى فى شكل وقائع مستقلة عن الجسد ومعبرة عن وجوده لدى أرسطو . من قبيل النماذج الخاصة بتحليل الظاهرة السلوكية ماورد فى كتابه عن الخطابة عندما تعرض لدراسة أسباب الأفعال الإنسانية حيث يميز بين الأسباب الداخلية أو كما يقول « الأفعال التى يكون سببها داخليا فى الفاعل نفسه ويكون الفاعل مسئولا عنها » والأسباب الخارجية أى التى تنبع من البيئة . وهولايقتصر على ذلك بل يصف الكثير من أنواع ومظاهر السلوك : الإدراك ، السمع ، الذاكرة ، النوم. وهو يولى ظاهرة الصداقة عناية خاصة ويتناول تفصيل المظاهر السلوكية المرتبطة بها . رغم ذلك فأرسطو لم يكن يعنيه أن يتناول الظاهرة كحقيقة صالحة للتنبؤ أو من الممكن اخضاعها لعملية الضبط والتحكم ، وإنما تعرض لها كصفة من صفات الفرد أو على الأكثر كإحدى سمات الشخصية . ويتجلى ذلك بشكل واضح عندما يتعرض لظاهرة الصداقة . فهو يحلل سمات الشخصية التى تستطيع أن تشجع قيام الصداقة وتلك التى تعوق توطيدها[٢].

على العكس من ذلك فإن الإطار العام الفكرى للعصور الوسطى وللحضارة الكاثوليكية ما كان ليسمح بأى محاولة لتفسير الظاهرة السلوكية . فآباء الكنيسة يجعلون الروح هى المصدر والأصل فى الوجود الإنسانى ؛ ويعيدون إلى الروح — تلك الحقيقة المجردة التى لا يمكن بحكم طبيعتها أن تخضع لأى نوع من أنواع المشاهدة أو الملاحظة — أسباب السلوك ومن ثم فخلال مختلف مراحل تطور الفكر الكنسى ما كان يستطيع التحليل أن يتصور الفصل بين الظاهرة السلوكية وما يسمى بالقوة الروحية والتى هى وحدها مصدر للطاقة الحركية فى نطاق الوجود الاجتماعى . وسوف يتعين علينا أن نظل فى نطاق هذا الإطار الفكرى العام حتى وصول «جاليليو» وبدأ ظهور عصر

---

(١) البورت ، م. س. ذ ، ص ٣ .

(٢) انظر دراسة موجزة فى مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، ١٩٦٦ ، ص١٢٢ وما بعدها . على أن خير دراسة ، تسمح بفهم تقاليد الفلسفة اليونانية بهذا الخصوص هى :

MONDOLFO, La comprensione del soggetto umano nella antichità classica, 1958, p. 226.

ويكمل هذا بخصوص فلسفة أفلاطون بصفة خاصة

STEFANINI, Platone, 1949, vol. I, p. 267, vol. II, p. 397.

النهضة العلمية وما يرتبط بها من علم الطبيعة الحديث ، وعلى وجه التحديد القرن السابع عشر.

على أننا قبل أن نلقى بأنفسنا فى متاهات عصر النهضة وصلتها المباشرة بالمصادر الأولى لخلق النظرة السلوكية للتحليل الاجتماعى يتعين علينا أن نقف قليلا ازاء التقاليد والتراث الإسلامى [1].

وهنا نجد أمامنا أكثر من اسم واحد ساهم دون قصد فى وضع أصول التحليل السلوكى. أول هذه الأسماء الجديرة بأن تحتل مكانة خاصة فى تحليل الأصول التاريخية للنظرة السلوكية الإمام فخر الدين الرازى الذى يعود إلى القرن الثانى عشر والذى ترك كتابا مشهورا بعنوان « الفراسة » حلل فيه العلاقة بين التكوين العضوى والأبعاد النفسية للسلوك الفردى .بل إنه فى هذا المؤلف ميز بين الذى أسماه الأفعال النفسية كالذكاء والذاكرة، والأفعال الحيوانية، كالإقدام والتهور . هذه الأخيرة هى التى نعبر عنها اليوم بكلمة السلوك بمعنى أنها التصرفات والتعبيرات الخارجية ذات الاستقلال الذاتى من حيث تعبيراتها المادية . ويرتبط بهذا الاسم عالم سبقه بثلاثة قرون وهو أبو بكر الرازى ، أحد كبار الأطباء الذين ظلت مؤلفاتهم تدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر . ورغم أن أغلب مؤلفاته قد فقدت إلا أن ما يربطه بالتحليل النفسى أنه وضع مؤلفا بعنوان « الطب الروحانى » أكد فيه على أهمية النواحى النفسية فى « العلاج والتطبيب » حتى أنه يعلن بصراحة « ان مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » وعندما يتوجه بنصائحه إلى تلاميذه وطلبته يقول : « ... على الطبيب أن يوهم مريضه بالصحة ويرجيه بها ، وان لم يثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .

ونستطيع أن نضيف إلى جانب هذا الاتجاه المرتبط بتحليل العلاقة بين الشخصية والسلوك ، اتجاه آخر تناول العلاقة بين السلوك والإطار الاجتماعى [2] . عبر عنه خير تعبير ابن خلدون فى مقدمته بحيث نستطيع القول أنه وضع الأصول الأولى لما نسميه اليوم نظرية « الطابع القومى للشخصية » وهو هنا يتحدث عما يمكن أن نسميه «طراز الشخصية السائد فى المجتمع » أو خصائص « المواطن العادى » فيحدد مقوماتها بثلاث : المناخ ، طراز الحكم ، ثم مستوى التطور الاجتماعى . ويطبق كل ذلك على نماذج محددة فيقارن بين أهل السودان وأهل المغرب . وهو لا يقتصر بهذا الخصوص

---

(١) مصطفى سويف ، م. س. ذ. ، ص ١٣١ ومابعدها .

(٢) انظر كذلك يوسف مراد ، مبادىء علم النفس العام ، ١٩٦٦ ، ص٣٧٦ ومابعدها ، والمرجع الوارد ص ٣٧٦ هامش رقم ١ .

على تحديد نظريته فى السلوك على أنه تفاعل بين تلك المتغيرات الثلاث ، بل يناقش آراء المسعودى ، كاتب آخر تعرض للظاهرة السلوكية وجعل مصدر التباين السلوكى يكمن فى الخلاف بين الشعوب من حيث تركيب الأنسجة. ويمكن القول مع شىء من الحرية بأن كلا الفارابى والغزالى مع خلاف فى تحليل فقه كل منهما تناول بدوره العلاقة بين السلوك والوسط الاجتماعى : الأول ميز بين الأمم أوسلوك أبنائها بعوامل متعددة من بينها الموقع الجغرافى ، والثانى أعلن بصراحة التفرقة بين الروح والجسد وأن كلا منهما له دورته التطورية المستقلة عن الآخر(١) .

ورغم أن هذه الأفكار العديدة ظلت متناثرة متفرقة حيث لم يقدر لها التكامل الفكرى فى عملية بنيان متراصة تسمح بخلق اطار واضح لتحليل الظاهرة السلوكية ، إلا أن المنهاجية التجريبية التى ميزت التراث الإسلامى كانت أحد المسالك الحاسمة التى قادت إلى التطورات اللاحقة فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر والتى أدت إلى حركة التجديد العامة بما فى ذلك التحليل الاجتماعى .

§ ٥ — ديكارت وفصل الظاهرة السلوكية عن الوجود المعنوى للحقيقة البشرية :

ان نقطة الانطلاق الحقيقية فى تاريخ النظرة السلوكية تعود إلى فلسفة «ديكارت». فبينما كان «جاليليو» يدق آخر طرقاته فى نعش العصور الوسطى وظلامها الفكرى ، كان «ديكارت» معاصره الفرنسى يقوم من جانبه بتعميق الهوة الحقيقية التى كان لابد وأن تفصل بين الفكر الكنسى وفكر عصر العقل والنور . ولأول مرة نعود إلى تقاليد أرسطو حيث نجد محاولة حقيقية لتفسير التصرفات الفردية على أساس غير ميتافيزيقى . ورغم أن تفسيرات الفيلسوف الفرنسى تبدو لنا اليوم ساذجة إلا أنها تعبر فى حينها عن ثورة حقيقية . اتخذ نموذجا له التماثيل الميكانيكية التى كانت تملأ حدائق فرساى والتى كانت تتحرك وتخرج أصواتا تحت تأثير اندفاع المياه من خلال أنابيب ممتدة بشكل معين بحيث تحدث حركات وأصوات موسيقية نتيجة لتلك العملية(٢) . تصور ديكارت أن الإنسان وكذلك الحيوان لايعدو أن يكون آلة مركبة قد تم تكوينها بنفس الأسلوب وجعل الروح هى القوة التى تدفع الطاقة بديلا من الماء فاذا بها تنساب من خلال الأعصاب والعضلات بحيث تدفعها إلى التوتر

---

(١) انظر محاضراتنا ، أبحاث فى النظرية السياسية ، كلية الاقتصاد ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) ميلنسون ، م. س. ذ. ، ص ٤ وما بعدها .

والانقباض ومن ثم تقود إلى التعبيرات الحركية . كانت تلك التماثيل قد أعدت بحيث أن اندفاع المياه فى داخلها من خلال قنوات خفية يؤدى إلى حركات معينة ومن ثم تتقارب التماثيل من بعضها أو يتباعد الواحد منها عن الآخر. اتخذ «ديكارت» من هذا نموذجا لتفسير كيف أن واقعة خارجية قد تحدث حركة جسدية .

أفكار ديكارت قادت إلى نتائج معينة :

(أولا) رغم تقبله وتسليمه بازدواجية الوجود الإنسانى إلا أنه نظر إلى الجسد على أنه صورة من صور الآلة وحركته بالتالى تطبيق من تطبيقات قانون الحركة .

(ثانيا) أن هناك قسط من السلوك البشرى نستطيع أن نخضعه للتحليل التجريبى وللمعرفة عن طريق الملاحظة .

(ثالثا) أن هناك وجه للتشابه بين السلوك الإنسانى والسلوك الحيوانى .

جميع التطورات اللاحقة لم تفعل سوى أن تؤصل هذه المبادىء وتجعل منها قواعد لتفسير الظاهرة السلوكية[1] .

§ ٦ – المنهاج التجريبى فى ألمانيا واستقباله فى الولايات المتحدة الأمريكية :

جميع التطورات اللاحقة فى دراسة العلوم النفسية بصفة خاصة والعلوم الإنسانية بصفة عامة كان لابد وأن تفرض النظرة السلوكية للتحليل الاجتماعى . ولذلك فابتداء من القرن الثامن عشر ، فإن عملية تأريخ النظرة السلوكية لابد وأن تختلط بتطور الثقافة النفسية . رغم ذلك فان مدرسة « فوندت » جديرة بأن تكون موضع اهتمام خاص . ففى معمله الذى أنشأه فى عام ١٨٧٩ بجامعة «ليبزج» وضعت أصول علم النفس التجريبى ، وفيه أيضا تلقى كل أولئك الذين قدر لهم فيما بعد أن ينشروا هذه التقاليد تدريباتهم الأولى[٢] . ودون ذكر أسماء كثيرة بهذه الخصوص يكفى أن

---

(١) قارن رغم إيجازه وعدم توغله فى دقائق الموضوع ملاحظات :

FOULQUIE', La psychologie contemporaire, 1951, p. 2-3.

(٢) المراجع الخاصة بهذه الفترة عديدة . إلى جانب تلك التى سبق وذكرناها يستطيع أن يجد القارىء قائمة كاملة فى أى من المصادر التالية :

FLUGEL, A hundred years of psychology, 1964, p. 359 ; LINDZEY, ARONSON, The handbook of social psychology, vol. I, 1968, p. 69 ; FRAISSE, PIAGET, Traité de psychologie expérimentale, vol. I, 1963, p. 69.

نتذكر « ستانلى هال » الذى أرسله أستاذه « جامس » إلى ألمانيا يتلقى العلم على يد « فوندت » وعندما قدرت له العودة إلى أمريكا كان هو واضع الأصول الأولى لعلم النفس التجريبى فى القارة الجديدة[1] .

«فوندت» وصل إلى علم النفس ابتداء من علم وظائف الأعضاء . كان يؤمن بضرورة إعطاء الدراسة النفسية الصبغة العلمية . ولكنه كان يجعل مسالكه بهذا الخصوص مزدوجة تقوم أساسا على الاستقراء : فهو يؤمن بالتجريب فيما يتعلق بتحليل التطورات السفلى وتاريخ الشعوب بخصوص التطورات العليا . ومن أجل استكمال هذه الناحية الأخيرة يفرد لها من حياته حوالى عشرين عاما ثمرتها مؤلفه بعنوان « علم نفسية الشعوب » فى عشرة أجزاء .

على أن الواقعة التاريخية ذات الأثر الحاسم فى تطور الدراسات النفسية هى إنشاء معمل الدراسات النفسية . ورغم أن المنهاجية تظل واحدة وهى « التحليل الذاتى »، إلا أن مجرد التسليم بأن المعمل أضحى ضرورة لضبط النتائج من جانب آخرين تعنى نتائج معينة :

(أولا) أن نتائج التحليل يجب أن يعبر عنها بلغة كمية بحيث تقبل من جانب عملية التقنين ومن جانب آخر عملية المقارنة .

(ثانيا) أن التجريب بمعنى خلق التجربة لم يعد فقط حقيقة ممكنة وضرورية بل أضحى حقيقة قائمة .

(ثالثا) أن خلق التجربة يعنى خلق أدوات سواء كان ذلك لتحديد المواقف أو لقياسها .

وهكذا أضحى علم النفس هو علم التصرف[2] .

§ ٧ ـــ نظرية التطور ووضع أسس التحليل الديناميكى المقارن :

نظرية التطور ليست جديدة فى الفكر البشرى . عرفها جميع فلاسفة العصور القديمة دون استثناء . وقف أمامها بالكثير من التأمل والمناقشة أغلب فلاسفة عصر النهضة . لانستطيع أن نجد فكرا خلاقا فى أى نطاق من نواحى الثقافة ابتداء من

---

(١) Wundt : 1832 - 1920.
Stanley Hall : 1844 - 1924.
William James : 1842 - 1910.

(٢) فريس ، م. س . ذ . ، ص ١٥ وما بعدها .

القرن السابع عشر لم يتعرض للمفهوم من قريب أو بعيد . ولكن «داروين» ومن بعده «سبنسر» استطاع كل منهما بجهوده أن يحيل تلك المجموعة المتفرقة من أفكار ومفاهيم إلى نظرية متكاملة تفسر الوجود الإنسانى ، الأول بما جمعه من ملاحظات وما صاغه من افتراضات وما قدمه من تأكيدات والثانى بقدرته على ربط الجزئيات فكرية أو وقائعية بحيث يستطيع المحلل أن يقدم ذلك الإطار المتكامل وأن يكتشف تلك العلاقة الخفية بين مقومات الوجود فى منطق ثابت(١) .

التطور هو « التغير من حالة لانهائية يسودها التنافر فى التناسق إلى حالة محددة حيث يتم التوافق فى الانسجام من خلال استمرارية الاندماج والتمييز» . نظرية التطور بهذا المعنى كما صاغها داروين وما ارتبطت بها من أفكار ليست فى حاجة إلى تفصيل . ولكن الذى يعنينا أن نؤكده هو كيف كانت هذه النظرية نقطة حاسمة فى تطور علم النفس بصفة عامة والعلوم السلوكية بصفة خاصة .

أول ما نلاحظه هو أن أفكار «داروين»(٢) بداية واضحة للارتباط العضوى بين الفكر الاقتصادى والتحليل العلمى للظاهرة السلوكية . فداروين وعلى وجه التحديد عام ١٨٣٨ وعقب عودته من رحلة طويلة للاستقراء ، قدر له أن يعكف على مؤلف «مالتوس» عن «مبدأ السكان» . نظرية «مالتوس» التى تقوم على فكرة العوامل الطبيعية لضبط التضخم البشرى قادت «داروين» إلى أفكاره حول مبدأ الاختيار الطبيعى من خلال ظاهرة الصراع فى سبيل البقاء .

كذلك مؤلفات «داروين» ومن بعده «سبنسر» لاتعدو أن تكون تحليلا نفسيا للوجود العضوى وللحقيقة البشرية . ورغم أن المفهوم العام الذى يسود مؤلفات «داروين» هو محاولة التقريب بين الحيوان والإنسان من حيث وجود كل منهما العاطفى والعقلى ، إلا أن كلا العالمين حاول كل بأسلوبه ، وفى بعض الأحيان عن غير قصد ، خلق قنطرة فكرية بين علم النفس وعلم البيولوجيا . فمؤلف «داروين» عن « التعبيرات العاطفية لدى الإنسان والحيوان» ، ومؤلف «سبنسر» بعنوان «مبادئ علم النفس» تجمعها رابطة واحدة : المزج بين كلا الثقافتين بمعايير مختلفة ولكن دائما ثابتة . فكما أن الظاهرة النفسية لايمكن فهمها إلا ابتداء من الظاهرة البيولوجية ، فكذلك ظاهرة الوجود الحى

---

(١) انظر عرضا تفصيليا من وجهة نظر التحليل النفسى فى فلوجل ، م . س . ذ . ، ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) Charles Darwin : 1809 - 1882.

لايمكن تفسيرها ولاتحديد مراحل تطورها إلا ابتداء من العامل المعنوى . ويستوى فى هذه الحتمية كلا الإنسان والحيوان[1] .

من هنا كانت النتائج الخطيرة التى سوف يقدر لها أن تحطم الحواجز ازاء التحليل العلمى الحقيقى للظاهرة السلوكية :

(أولا) فمبدأ الأقلمة والتكيف يتطرق وينساب فى تحليل ظاهرة الوجود الحى كمبدأ مطلق يفسر جميع مظاهر التعبير الحركى . أن أى حيوان أوإنسان بل وأى نبات لايستطيع أن يعيش فى فراغ . ومبدأ التكيف يصير بهذا المعنى تعبيراً عن ضرورة الأخذ والعطاء الذى وحده يسمح بتحقيق التوازن بين الجسد الحى والوسط الذى يعيش فيه ذلك الجسد الحى . هذا التوازن يتحدد لافقط بنشاط الحقيقة الحية وإنما أيضا بتقبل ذلك الوسط لتلك الصورة من التكيف والأقلمة[2] .

(ثانيا) إن مبدأ التكيف والأقلمة من حيث نجاحه واخفاقه هو سر البقاء واستمرار الوجود . والطبيعة بهذا المعنى تفرض عملية اختيار تلقائية بحيث تنقرض وتنتهى تدريجيا كل صور الوجود التى لاتستطيع أن توفق بين ذاتها وكيانها من جانب وما يفرضه الوسط الذى تعيش فيه وتزاول نشاطها فى إطاره من أوامر وضوابط . الحياة صراع فى سبيل البقاء ، البقاء دائما للأصلح ، والصلاحية هى أساسا تلك القدرة على التوفيق والتكيف .

(ثالثا) كذلك فان الربط بين الإنسان والحيوان فى نظرية التطور قاد بدفعة حاسمة فى التحليل العلمى للظاهرة السلوكية[3] . فهو أولا فتح لعلماء الاجتماع باب علم النفس الحيوانى حيث يستطيع الباحث إخضاع الظاهرة للتحليل المعملى ومعاملتها بشىء من التجرد الأمر الذى ماكان يستطيعه بخصوص الظاهرة البشرية . ثم هو ثانيا قاد إلى إمكانية تصور ما أسماه بعلم النفس المقارن حيث جعل ميدان تجريداته المقارنة بين السلوك الحيوانى والسلوك البشرى . ثم هو ثالثا بفضل الإطار

---

(١) مؤلف داروين كان يحمل هذا العنوان :

Expression of the emotions in man and animals

وطبعته الأول صدرت فى عام ١٨٧٢ ، ومؤلف سبنسر بدوره كان بعنوان :

Principles of psychology.

انظر م. س .ذ. ، ص ٩٦ والمراجع المشار إليها فى هامش ٢ .

(٢) نجيب اسكندر ، لويس مليكه ، رشدى منصور ، الدراسة العلية للسلوك الحيوانى ، د. ت. ، ص ٥١ وما بعدها .

(٣) BARUK, La psychologie expérimentale, 1964, p. 10.

الفكرى الذى خلقه «داروين» لم يعد يرى غبارا فى تعميم نتائج تحليله للسلوك الحيوانى على السلوك البشرى حيث أنه توجد خلفية مشتركة تجمع بين كلاهما كحقيقة تطورية ترتبط برابطة زمنية من حيث التتابع وبرابطة فكرية من حيث المقومات .

على أن الدفعة الحقيقية للعلوم السلوكية بفضل نظرية التطور ان يقدر لها أن تحدث آثارها الثورية إلا فى القارة الجديدة[1] . ذلك أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر فان علم النفس هو الدراسة المستندة إلى التحليل الذاتى . فكيف نستطيع أن نطبق هذا الأسلوب على الحيوان ؟ إن تطبيق أساليب التحليل الذاتى يكاد يكون مستحيلا بالنسبة للحيوان ومن ثم فعلينا أن نلجأ إلى وسائل أخرى للتخلص من تلك الصعوبة المنهاجية . كيف ؟ وهنا يتقدم الينا العالم الأمريكى « ثورنديك » الذى يبدأ حياته بالاهتمام بدراسة علم الدواجن[2] . وإذ لايجد مكانا لإجراء تجاربه يحتفظ بدجاجة فى حجرته . وفى خلال ذلك يقدر له الالتقاء بعالم مشهور يؤمن بأفكاره « كاتل » فيعرض عليه أن يعمل معه فى جامعة «كولومبيا» حيث يستطيع أن يجرى تجاربه . خلاصة تلك التجارب تنتهى به إلى رسالة[3] بعنوان : « الذكاء الحيوانى : دراسة تجريبية حول عملية التوافق لدى الحيوان » . ومن خلال تلك الدراسة يكتشف قوانين التمهير : قانون التكرار ثم قانون النجاح[4] . مناقشة هذه الرسالة قبل بداية القرن الحالى بعامين كانت حدثا فى تاريخ العلوم السلوكية . ففى العام التالى مباشرة طالب منه أستاذه « كاتل » أن يطبق نتائج تحليلية على الطفل وفعلا واصل أبحاثه بهذا الخصوص فى « كلية التربية » بجامعة « كولومبيا » . وانطلاقاً من هذه التجارب : فإن «واطسون» الذى سوف يقدر له فيما بعد أن يربط اسمه بالثورة السلوكية يجعل موضوع رسالته ثم أبحاثه فى جامعة شيكاغو تدور حول دراسة سلوك « الفأر » .

ان علم النفس لم يعد مجرد التصرف ، ولم يعد يقتصر على أساليب التحليل الذاتى ، بل أضحى علم السلوك ، ومنهاجيته هى التحليل المعملى والانطلاق التجريبى .

---

(١) نجيب اسكندر ، م. س. ذ. ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٢) Thorndike : 1874 - 1949.

(٣) Animal intelligence : an experimental study of the associative processes in animals.

(٤) Apprentissage ; répétition ; succès.

انظر تفصيل موجز فى فريس ، م. س. ذ. ، ص ٤١

§ ٨ ـ بافلوف ونظرية رد الفعل المفتعل :

سوف يظل العالم إلى فترة طويلة مقبلة وهو يدين للفقه الأمريكي وللتقاليد الأمريكية بخلق نظرية العلوم السلوكية . رغم ذلك فالفقه الأمريكي لم ينشأ من فراغ . إنه لم يفعل سوى أن تلقف تراثا قام بتطويره : ساهم في ذلك الفرنسي «ديكارت» والألماني «فونلت» والإنجليزي « داروين » . كل في نطاقه وضع حجراً في ذلك البناء الشامخ الذي سوف يقدر له في خلال النصف الثاني من القرن العشرين أن يسيطر على العلوم الاجتماعية ويدفع بها دفعات حاسمة في حركة ربط العلم بالواقع الإنساني .

على أننا ونحن بصدد المصادر الأوربية للفكر الأمريكي لانستطيع أن ننسى عالما آخر ، روسي في هذه المرة ، وضع أصولا حقيقية بناءة في عملية خلق تقاليد التحليل السلوكي وهو « ايفان بافلوف »[١] .

لنستطيع أن نفهم الدور الحقيقي الذي لعبه «بافلوف» في خلق النظرية السلوكية يجب أن نعود قليلا إلى الوراء لنفهم خصائص التقاليد الروسية في تحليل الظاهرة النفسية . فعلم النفس تطور في الجامعات الروسية كأحد فرعيات علم وظائف الأعضاء . ويكفي أن نجعل نقطة البداية في هذا التطور العالم الروسي « سيخينوف » الذي تكون فكريا في جامعة « بترسبورج » ولكنه خلال الأعوام الأولى[٢] من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنقل بين جميع جامعات أوروبا الغربية واحتك بأغلب علماء علم النفس في تلك الفترة قبل أن يستقر في جامعة «موسكو» ويجعل جميع أبحاثه تدور حول تحليل ودراسة « الجهاز العصبي » . في عام ١٨٧٠ نشر مقالا مشهورا قدر له أن يضع تقاليد الدراسة النفسية في روسيا بعنوان : « من الذي يجب أن يدرس المشاكل النفسية وكيف ؟ » أجاب على السؤال : من ؟ بأنه لا يمكن أن يكون سوى المتخصص في علم وظائف الأعضاء ، وأجاب على السؤال كيف ؟ بأن الطريق هو دراسة ظاهرة رد الفعل[٣] .

---

(١) Pavlov : 1849 - 1936.

(٢) Sechenov : 1829 - 1905.

(٣) المراجع بخصوص تحليل مدرسة بافلوف عديدة لا حصر لها . يجد القارىء في المصادر السابق الإشارة لها قائمة كافية بهذا الخصوص . نستطيع أن نضيف إلى ذلك وبصفة خاصة :

LEWIS, Scientific principles of psychology, 1963, p. 110.

«بافلوف» الذى لم يكن تلميذاً للعالم «سيخينوف» تأثر به تأثراً واضحا . بدأ حياته بدراسة علم وظائف الأعضاء وانطلق من هذا المدخل التحليلى والوصفى فى تكوينه الفكرى وفى بنيان دائرة فضوله العلمى . « بافلوف » هو الذى قدم للأمريكى «واطسون» مبدأ الدراسة الوضعية للسلوك من خلال نظريته حول رد الفعل المفتعل .

دراسة الغدد الهضمية كان ميدان أبحاث «بافلوف» . ولكن خلال إحدى تجاربه حول الموضوع اكتشف إمكانية جعل الكلب بفرز اللعاب المرتبط بعملية الطعام مستقلا عن الوظيفة العضوية لتلك العملية. ومنذ اكتشف تلك الظاهرة ترك أبحاثه الأولى وكرس جميع جهوده لهذه الظاهرة الجديدة التى ارتبطت باسمه وأضحت اليوم أحد أسس تحليل الظاهرة السلوكية بصفة عامة وقواعد التحكم فى السلوك الفردى بصفة خاصة .

فلنتابع تجارب بافلوف بشىء من الإيجاز [1] .

التجربة أخذت الصورة التالية : أتى بافلوف بكلب وقام باجراء فتحة صغيرة فى أسفل فكه بحيث يستطيع بهذا الشكل أن يخرج الغدة اللعابية . ثم وضع أسفل تلك الغدة وعاء يسمح بجمع اللعاب ووصله بجهاز يسمح بدوره بقياس كمية اللعاب . المعلوم الذى لم يكن موضع شك هو أن تناول الكلب طعام يرتبط بافراز لكمية معينة من اللعاب وظيفتها المساعدة فى عملية استقبال وهضم الطعام . تجربة بافلوف بسيطة فى عناصرها : فهو عندما يقدم الطعام إلى الكلب يرفق ذلك بجرس يصدر أصوات متكررة خلال تناول المادة الغذائية . عقب تكرار هذه العملية عدة مرات حيث تقديم الطعام وتناوله يرتبط دائما بقرع الجرس ينتقل بافلوف إلى مرحلة ثانية حيث يقرع الجرس دون تقديم الطعام .وهنا يلاحظ بافلوف أن الغدة اللعابية تزاول وظيفتها دون تقديم أوتناول أى مادة غذائية [2] .

فى مرحلة تالية انتقل بافلوف إلى تنويع فى تطبيقات تجاربه . فهو تارة يلاعب بعامل الطعام بحيث لايجرى تجاربه الا عندما يكون الكلب قد وصل إلى حالة الشبع ومن ثم يلحظ كيف أن المنبه المفتعل لايحدث تأثيره . على العكس فى حالة ما إذا رفع حالة الجوع لدى الكلب إلى أقصاها وأجرى تجاربه كانت عملية الافتعال أكبر تأثيراً وأكثر فاعلية فى إحداث رد الفعل المصطنع .

---

(١) FERSTER, PERROTT, Behavior principles, 1968, p. 71.

(٢) انظر التفاصيل بالكثير من الإفاضة فى ميلنسون ، م. س. ذ. ، ص ٣٧ وما بعدها وكذلك المصادر فى ص ٥٩ وما بعدها .

أبحاث بافلوف كانت ذات أهمية خاصة بسبب نواح ثلاث كل منها فى ذاته يعتبر خطوة حاسمة فى تقدم علم النفس الوضعى والتجريبى :

(أولا) فهو لم يقتصر على مجرد ملاحظة الظاهرة بل انتقل من خلال مراحل متعاقبة للتأكد من صحة النتائج ودلالتها عن طريق تطبيقها على وحدات أخرى وفى مواقف مختلفة. وهو لم يعبر عن ذلك فى شكل قانون علمى إلا عقب تكرار لتلك العملية مع ثبات فى نتائجها[1] .

(ثانيا) كذلك هو لم يهتم إلا بذلك القابل للقياس والتعبير الكمى . فكمية اللعاب وعدد مرات رد الفعل كانت دائما العناصر الأساسية التى يبنى عليها استنتاجاته وينطلق منها فى تقديراته وصياغته لنظرياته .

(ثالثا) كذلك — ورغم أن هذه الناحية أقل وضوحا — هو ينظر إلى السلوك والظاهرة السلوكية مستقلة عن أى ناحية أخرى من تلك التى توصف بأنها الضمير أو الناحية الانفعالية فى المقومات الباطنة . صحيح أن بافلوف فى دراسته لحالة الاصطناع السلوكى إنما نظر اليها على أنها حالة عقلية وجعل نقطة انطلاقه هى الجهاز العصبى إلا أنه فى تلخيصه لنتائج دراسته فى شكل قانون علمى نسى دون وعى منه تلك الحقيقة وجعل من السلوك علاقة مباشرة ومطلقة بين منبه ورد فعل[2] .

وهكذا استطاع أن يلخص أفكاره بهذه الرموز التى سوف يقدر لها فيما بعد أن تسيطر على النظرة السلوكية والتحليل السلوكى لفترة ليست بالقصيرة :

م ت — منبه غير مصطنع أى تلقائى ، أى المنبه الذى من شأنه أن يخلق رد فعل طبيعى يتكرر دون ارتباط بالتجربة أو الموقف المفتعل الذى نسعى إلى تجريبه . فى الحالة موضع العرض السابق المنبه هو تقديم الطعام .

ا ت — رد فعل غير مصطنع أى تلقائى ، أى رد الفعل الذى يحدث نتيجة للمنبه فى صورته الطبيعية ودون أى تدخل أو اصطناع لموقف معين ، أى استجابة للمنبه غير مصطنعة وإنما تلقائية .

م م — منبه مختلق يصطنعه الباحث ويربط بينه وبين المنبه التلقائى زمنيا. ونتيجة للتدريب المتتالى فإن هذا المنبه المصطنع يستطيع أن يخلق رد الفعل التلقائى دون عامل الارتباط الزمنى بين م ت ، مم

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥١ — ٥٢ .

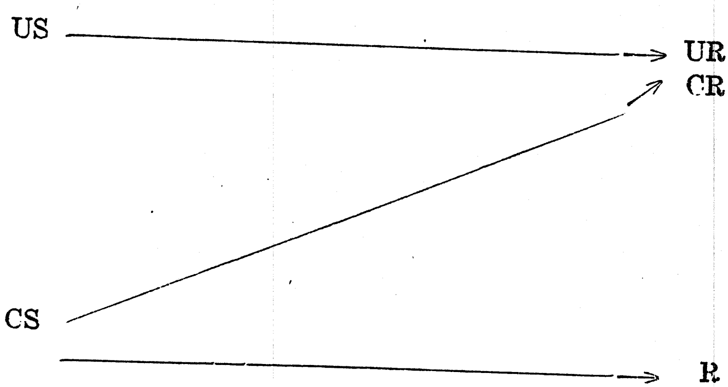
(٢) فريس ، م. س. ذ. ، ص ٤٣ — ٤٤ .

ا م — رد الفعل التلقائى عندما يترتب على م م دون ارتباط بالحالة التلقائية التى عبرنا عنها بالصياغة م ت ومن ثم فتصير الاستجابة بدورها تلقائية.

ولاستكمال هذا الإطار الفكرى يصير م المنبه أى الواقعة الخارجية أو الداخلية التى تدفع إلى الحركة والرمز أ معبر عن مفهوم رد الفعل أى الواقعة التى تحدث كاستجابة لذلك المنبه ويصير السلوك عبارة عن م-ا.

(شكل رقم ١)

قانون بافلوف ورد الفعل المصطنع



US أى المنبه التلقائى يثير رد الفعل التلقائى أى UR ، CSأى المنبه المصطنع يثير الاستجابة R ولكن عقب تكرار التجربة حيث يحدث ارتباط زمنى بين CS ، US فان C S وحده يستطيع أن يحدث على الأقل R جزئيا الذى يصير فى تلك اللحظة CR .

هذه الصياغة تسمح لنا بأن نفهم حقيقة الموقف التجريبى الذى كان موضع عناية بافلوف ومن بعده طلبته وحواريه :

(أ) فهو وقف يقوم على أساس عملية ضبط المتغيرات والتحكم فى الظاهرة . واضع التجربة يتحكم فى الظاهرة لافقط من حيث اصطناعها بل وكذلك بدقة من حيث نتائج الموقف أى رد فعل المنبه موضع التحليل[٢]. وقد استطاع بافلوف أن يحدد كمية اللعاب إلى جزء من السنتيمتر المكعب .

---

(١) لويس ، م. س.ذ. ، ص ١١٢ وما بعدها.

(٢) لاحظ الفارق بين associated reflex وما ينسب إلى بافلوف باسم : conditional reflex ؛ انظر فلوجل ، م. س. ذ. ، ص ٢١٧ .

(ب) كذلك عملية ضبط التجربة لاتتجه فقط إلى الواقعة موضع الإثارة بل إلى اللحظة التي تبرز فيها تلك الواقعة.

(ج) وقد ارتبط بذلك ما أسماه بافلوف عملية الانتقال الوراثي لبعض ردود الفعل المفتعلة لتصير بدورها ردود فعل تلقائية.

وهكذا نستطيع أن نحدد المراحل المتتابعة التي تنقلت خلالها العلوم النفسية منذ أن فتح الطريق ديكارت. فالفيلسوف الفرنسي استطاع أن يخلق قنطرة بين عصر النهضة وفكر أرسطو مدخلا في تحليل ظاهرة السلوك مفهوم العلاقة الميكانيكية للحقيقة العضوية ثم تتابعت الخطوات حتى وصلنا إلى «بافلوف» فاذا بنا ازاء التحليل المعملي والتجريبي للظاهرة السلوكية كحتمية مستقلة بذاتها تعكس وجودا ذاتيا يرفض أن يتحدد فقط بالتطور العقلي أو عملية الضمير الداخلية[1].

ولو أردنا أن نلخص مجموعة الخطوات المتتالية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بل وإلى حد ما القرن التاسع عشر لاستطعنا أن نلخصها في مقومات ثلاث كل منها تعكس تقدما واضحا ولكنها تظل دائما تسير في فلك تقاليد أرسطو:

(١) تجزئة العملية المرتبطة بالضمير أو بالتطور العقلي إلى عناصر وجزئيات ودراسة كل جزئية على حدة.

(٢) مواجهة علاقة تلك الجزئيات أو العناصر كل منها بالأخرى على أنها جديرة بالاستكشاف وعلى أن عملية الاستكشاف بالنسبة لتلك الجزئيات هي وحدها التي تسمح باعطاء التحليل والدراسة طابعا ديناميكيا.

(٣) السعي إلى اكتشاف القوانين التي تحكم مختلف تلك العلاقات.

في جميع الحالات فان دراسة السلوك هو المدخل لفهم الحالة العقلية أو الضمير

---

(١) هذا هو مدلول الاصطلاحات الواردة في النص:

US : Unconditioned Stimulus	م ت =
UR : Unconditioned Response	ا ت =
CS : Conditioned Stimulus	م م =
CR : Conditioned Response	ا م =
R : Response	ا =

انظر التفاصيل في لويس، م. س. ذ.، ص ١١٣ وقارن برودنت، م. س. ذ.، ص ٢٧ وما بعدها.

الذاتى[1] . جاء «بافلوف» وبدون قصد فدفع الدراسة دفعة إلى الأمام بحيث لم يجعل من تلك الحالة العقلية محور الاستكشاف رغم أنها كانت تمثل بالنسبة له الهدف من الدراسة والتجريب . وأضحى موضوع الدراسة هو الظاهرة ذاتها مستقلة عن الحالة العقلية أو الضميرية التى تستتر خلف السلوك .

وكان على فقه القارة الجديدة أن يتلقف بدوره هذا الاستكشاف ليتكامل المنطق السلوكى كما صاغه ووضع قواعده « واطسون » . إن الباب قد أضحى متسعا يسمح للنبوغ الخلاق بأن يحدث ثورته الفكرية والمنهاجية. وهذا ما فعله العالم الأمريكى[2] .

ولكن لماذا حدث هذا فقط عبر الأطلنطى ولم يحدث فى أرض الحضارات التى وضعت أصول ذلك التطور ؟ سؤال يجب أن نجيب عليه لنستطيع أن نفهم التقاليد الأمريكية فى مناقشة الظاهرة السلوكية أولا وفى مناقشة نظرية الحركة ثانيا وما يرتبط بها من نتائج ليس أكثرها أهمية عملية صنع القرار ثالثا .

§ ٩ — النظرية السلوكية والتقاليد العلمية فى القارة الجديدة :

نشأت وترعرت الثقافة السلوكية فى التقاليد الأمريكية بحيث يمكن القول بأن تكاملها فى شكل علم مستقل قائم بذاته يرتبط بتقاليد الثقافة الأمريكية . فأول من بدأ فى الإعلان عن المنهاجية السلوكية هو واطسون وأول استخدام لكلمة علوم سلوكية كان فى أحضان مدرسة «شيكاغو» . بقى أن نتساءل لماذا لم تتكامل هذه الثقافة إلا فى التقاليد الأمريكية ولماذا ارتبطت بالحضارة الأمريكية ؟

هناك عاملين أساسيين ساعدا على هذا التطور :

(أ) من جانب استقبال النظريات الحديثة التى غمرت القرن التاسع عشر وبصفة خاصة نظرية «داروين » فى التطور ونشوء الأجناس[3]. فهذه النظريات

---

(١) قارن ملاحظات ، ورغم طابعها الفلسفى ، العالم الرومانى :

GOULIANE, Le marxisme devant l'homme, 1968, p. 64.

(٢) تابع التفاصيل فى :

NAVILLE, La psychologie du comportement : le behaviorisme de Watson, 1963, p. 37.

(٣) نجيب اسكندر ، م. س . ذ. ، ص ٤٧ .

الجديدة لم تستطع أن تغزو التقاليد الفكرية الأوروبية[1] بسهولة حيث كانت هناك نظريات سائدة وأوضاع ثابتة من حيث المفاهيم وتأصيل المذاهب الفكرية. على العكس من ذلك فأمريكا بما تمتاز به من فراغ ثقافى استطاعت أن تستقبل هذه المفاهيم وتستوعبها بسهولة . نظرية «داروين» بصفة خاصة التى تربط بين الإنسان والحيوان استطاعت أن تخلق قنطرة العلاقة بين تحليل السلوك الحيوانى والسلوك الإنسانى . أضف إلى ذلك عامل حاسم بل وأكثر أهمية : ذلك أن نظرية داروين استطاعت أن تسد فراغا إيديولوجيا فى المجتمع الأمريكى . ذلك أن هذه النظرية تقوم على مبدأ « الصراع فى سبيل البقاء والبقاء للأصلح » . وما كان من الممكن أن يوجد خيراً من هذا المفهوم ليبرر ويفسر حقيقة النشاط الفردى والجماعى فى المجتمع الأمريكى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهكذا احتضن الفكر الأمريكى نظرية «داروين» وجعل منها علامة من علامات تطوره الاجتماعى والحضارى[2] .

(ب) طبيعة تكوين المجتمع الأمريكى من جانب آخر فرضت ازدهار العلوم السلوكية . لقد سبق أن رأينا كيف ارتبطت نهضة تلك الثقافة وإيناعها بعملية المقارنة المنهاجية : مقارنة بين سلوك الشعوب ، ثم مقارنة بين سلوك الإنسان والحيوان . المجتمع الأمريكى بحكم طبيعة تكوينه فرض المقارنة فى أوسع معانيها ودعا علماء النفس لفرض تساؤلات ما كان يستطيع الفكر أن يجيب عليها إلا استنادا إلى النظرة السلوكية فى التحليل . ذلك أن المجتمع الأمريكى لم يكن — وإلى حد ما حتى هذه اللحظة — يكون مجتمعا قوميا واحدا وإنما كان يتكون من العديد من المجتمعات . عملية تباين التركيب الاجتماعى هذه كانت واضحة وضوحا عجيبا أيضا فى خلال النصف الأول من القرن العشرين . ترتب على ذلك تنوع واختلاف فى نماذج السلوك

---

(١) تغلغل داروين فى الحضارة الأمريكية ظاهرة على حدة . سوف نرى فيما بعد كيف يصفه كريك بأنه هيجل أمريكا . والواقع أن تأثيره لم يقتصر على ناحية واحدة أو بعد واحد من أبعاد الوجود الثقافى . حتى أن عالم القانون الدستورى « وودر ويلسون » يعلق على هذا فى صدر مؤلفه عن الحكومة الدستورية الأمريكية بقوله : « فى أيامنا هذه ، حينما أردنا مناقشة هيكل أو تطور أى شىء فإننا نتابع داروين » . انظر المصادر فى المرجع المشار إليه فى الهامش التالى ، ص ٤٦ — ٤٨ .

(٢) انظر فى الفقه الأمريكى الذى يعتبر داروين فى تاريخ تطور العلوم الإنسانية فى القارة الجديدة بمثابة هيجل الأمريكى ، المؤلف التقليدى :

CRICK, The american science of politics, its origins and conditions, 1959, p. 45.

الفردى فى داخل نفس المجتمع الأمريكى تبعا للأصل القومى للمواطن[1] . ففى مواجهة موقف واحد من حيث عناصره نجد أن سلوك المواطن يختلف ويتعدد ويتباين تبعا لما اذا كان أصله ايطالى أوفرنسى أو ألمانى أو سويدى . ولنقدم نموذجا لذلك . موقف المواطن العادى ازاء ظاهرة الخيانة الزوجية . فالإيطالى لابد وأن يثأر من زوجته وممن يتهمه بمشاركتها فى نقض عهد الوفاء . والألمانى يقابل الموقف بحمل حقيبته ومغادرة منزل الزوجية بهدوء وبرود . أما الفرنسى فقد يثور ويصاحب ثورته بصخب ووعيد ولكنه فى أغلب الأحيان ينتهى بقبول الأمر الواقع. هذا التعدد فى نماذج السلوك كان لابد وأن يثير هذا التساؤل : لماذا هذا الخلاف فى السلوك ؟ وكان على علماء الظاهرة النفسية السعى لتقديم إجابة شافية على هذه التساؤلات . من هنا نشأت وترعرعت ظاهرة الطابع القومى وكذلك الدراسات الحيوانية الخاصة بتحليل السلوك ومنها تحليل السلوك السياسى والتحزب العنصرى .

(ج) أضف إلى العاملين السابقين عامل آخر برز واضحا خلال الحرب العالمية الأولى ولكنه فرض نفسه بشكل خاص أثناء الحرب العالمية الثانية[2] . ذلك أن الجيش الأمريكى فى أوروبا الذى كان يتكون من عدة ملايين كان يعيش فى صعيد واحد ويندمج فى اطار نظامى واحد . وقد سبق أن رأينا كيف أن سلوك المواطن الأمريكى العادى يتنوع تبعا لأصله العنصرى. وكان من الطبيعى أن تعكس الظاهرة وجودها بصورة أكثر وضوحا وقد تجمعت تلك العناصر المختلفة وغير المتناسقة فى صعيد احتكاك واحد ومشترك من العلاقات اليومية ذات الطابع الجاف والعنيف . ومن هنا برزت الحاجة إلى اكتشاف لغة مشتركة واحدة وقواعد متجانسة للسلوك والتخاطب فى العلاقة بين تلك الأجناس المختلفة . وماكان يمكن أن يدعى للقيام بهذه الوظيفة سوى خبراء علم النفس . ولعل هذا يفسر كيف أن أهم الأبحاث العلمية التى دفعت بالعلوم السلوكية فى النطاق الجماعى تعود إلى تلك الخبرة التى عاصرها المجتمع الأمريكى خلال القتال العسكرى فى غرب أوروبا .

---

(١) فلوجل ، م. س. ذ. ، ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢) Watson : 1878 - 1958.

(٣) ولد واطسون فى ٩ يناير ١٨٧٨ . حصل على درجته الجامعية الأولى فى عام ١٩٠٠ . ثم على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٠٣ . رسالته كانت على سلوك الفأر الأبيض . ظل مساعداً بجامعة شيكاغو حتى عام ١٩٠٨ عندما انتقل كأستاذ مساعد ثم أستاذ ومدير معمل علم النفس التجريبى بجامعة « جون هوبكينز » حيث ظل حتى عام ١٩٢٠ . انتقل عقب ذلك إلى « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى » وبها ظل يزاول أبحاثه خلال أربعة أعوام . فى عام ١٩٢٤ هجر العمل الجامعى وتفرغ للتجارة .

انظر فى تحليل ذلك المراجع التى سوف نحيل إليها فى هامش رقم ٣ ص ٥٤ .

§ ١٠ – واطسون وعملية بناء الاطار الفكرى للتحليل السلوكى :

سبق أن رأينا كيف أن واطسون بدء حياته العملية بدراسة السلوك الحيوانى جاعلا من الفأر ميدانا لتجاربه مستخدما المنهاج التجريبي المقارن(١). قدم رسالته إلى جامعة «شيكاغو» حيث عاش جو المدرسة النفسية فى أعظم تقاليدها خلال الأعوام الأولى من القرن العشرين ومنها انتقل إلى جامعة «جون هوبكينز» حيث أنشأ أول معمل حقيقى لتحليل السلوك فى الجامعات الأمريكية. فى تلك الجامعة تكاملت أفكار واطسون التى خرج بها على العالم قبيل الحرب الأولى باسم «النظرة السلوكية».

فى عام ١٩١٣ صدر أول بحث لواطسون فى شكل مقالة بعنوان : «علم النفس كما يتصوره رجال المدرسة السلوكية». ويسلم علماء التحليل الاجتماعى أن هذا المقال بداية للثورة السلوكية : ثورة حقيقية فى تاريخ الثقافة الاجتماعية. الأفكار التى قدمها «واطسون» فى مقاله ليست جديدة، ولكن الأمر الذى لاشك فيه أنها أحدثت انفصاما كاملا فى تطور العلوم النفسية بحيث يمكن القول بأن العلوم النفسية فى حالتها السابقة على مدرسة واطسون تختلف عنها عقب مدرسة واطسون(٢).

ما هى خصائص العلوم النفسية قبل ثورة «واطسون»؟

نستطيع أن نلخص الوضع العام للثقافة النفسية قبل الحرب العالمية الأولى فى ثلاثة عناصر :

(أولا) اخفاق المدرسة النفسية الكلاسيكية فى خلق لغة علمية تسمح ببناء نظرية لتفسير الظاهرة النفسية. فأسلوب التحليل هو ما يسمى بالتحليل الذاتى، وهو لايسمح بتقديم مدلول علمى للظاهرة موضع التحليل. ونفس الأسلوب فى صورته المطورة لدى «فرويد» ما كان يمكن أن يقدم لنتائج وضعية تسمح بالصياغة الكمية للظاهرة تمهيداً لتعميم النتائج وبالتالى لصياغة القوانين التى تحكم التطور والعلاقات الارتباطية بين الظواهر. موضوع التحليل هو الضمير أو الوعى وهذا لايمكن أن يقدم سوى انطباعات وليس تفسير للظواهر. وتظهر تلك الحقيقة واضحة عندما نتعرض لتلك المواقف التى تنبعث منها أحاسيس مركبة أو مزدوجة بحيث تعكس الأضداد : شخص شاهد طفل وقد هجم عليه وحش مفترس فهناك الإحساس بالخوف من الوحش وفى نفس الوقت الإحساس بالشجاعة لإنقاذ الطفل. نموذج آخر فى حالات التمزق :

---

(١) MENDRAS, Eléments de sociologie, 1967, p. 17è

(٢) فريس، م.س. ذ.، ص ٤٥ وما بعدها.

طفل يعيش مع غير والده المنفصل عن والدته ، فهو يشعر نحو والده بالحب والكراهية فى آن واحد ، الحب وهو عاطفة طبيعية من الابن نحو والده يزيد من اشتعالها بعد الوالد عن ابنه والكراهية لأنه يشعر بأنه قد خانه وهجره بزواجه من غير والدته[1] .

*** حالة رقم ١ : الازدواج فى العواطف :

فتاة فى السادسة والعشرين من عمرها عندما تقدمت تعرض نفسها على المحلل النفسى .

نشأت وترعرعت فى بيئة متوسطة . انفصل الوالدان وهى لا تزال فى العام الأول من عمرها . تزوج والدها وهو من رجال القضاء كذلك تزوجت والدتها بأحد رجال البوليس . عاشت الطفلة مع والدتها لكنها كانت تتردد على والدها . كلا الوالدين أنجبا من حياتهما الأخرى أكثر من طفل واحد . نشأت الفتاة منطوية على نفسها منعزلة لا تختلط بأحد . لم يكن لها من أصدقاء حقيقيون سوى زميلة توثقت صلاتها بها خلال أعوام الدراسة الثانوية . صفاتهما على طرفى نقيض . فالفتاة موضع التحليل تميل إلى الخجل والحزن والتشاؤم والانطواء ، أما الأخرى فهى قوية متسلطة شجاعة صريحة ومرحة . نشأت بينهماعلاقة فيها من التعلق

---

(١) فولكييه ، م. س. ذ. ، ص ٥٩ وما بعدها .

ويحدد هذا المؤلف المراحل المتعاقبة للمدرسة السلوكية الأمريكية بالتالية :

(أ) فى ١٨٩٢ يبدأ العالم ليب Loeb تدريسه فى معهد روكفلر بنيويورك حيث يعمم ملاحظاته على الحيوانات .

(ب) ثورنديك فى ١٨٩٧ يستخدم اختبارات معملية على بعض الحيوانات .

(جـ) فى ١٩٠٧ واطسون يعلن عن مشروعه فى خلق علم نفس بشرى يخضع لنفس القواعد التى اتبعها ثورنديك فى تحليله للسلوك الحيوانى ودون الالتجاء إلى فكرة التحليل الذاتى .

(د) فى ١٩١٢ يدعو كاتل العالم الشاب واطسون إلى جامعة كولومبيا ليعرض بعض أفكاره ونتائج العديد من تجاربه .

(هـ) فى ١٩١٣ يصدر واطسون بحثه المشهور « علم النفس كما يتصوره رجال المدرسة السلوكية » .

(و) فى ١٩١٦ يطلع واطسون على أبحاث بختروف Bechterev ويدخل فى مفاهيمه فكرة اختلاق رد الفعل أو الاستجابة .

لاحظ كذلك أن واطسون نشر دراساته على حلقات متتابعة وفى بعض الأحيان تحت عناوين متشابهة . فهو أولا نشر أول بحث له الذى أشرنا إليه فى النص عام ١٩١٣ فى مجلة Psychological Review بعنوان « Psychology as the behaviourist views it » فى العام التالى نشر أفكاره بطريقة أكثر تنسيقا وأكثر تفصيلا فى مؤلف بعنوان : « Behavior : an introduction to comparctive psychology » ثم عاد عقب انتهاء الحرب العالمية الأول لنفس الموضوع ولكن بطريق أكثر كمالا وأكثر تأصيلا عام ١٩١٩ فى مؤلف بعنوان : « Psychology from the standpoint of a behaviorist » انظر فلوجل ، م. س. ذ. ، ص ٢١٥ .

والشذوذ أكثر من أن تكون مجرد صداقة عادية . لم يستطع التحليل أن يفصح عن مدى هذا التعلق[1].
انتقلت كلا الفتاتين إلى الجامعة . فى خلال الدراسة الجامعية تعلقت الفتاة موضع التحليل بأحد أساتذتها وراحت تلاحقه . أستاذها شخص خيالى ومثالى ، أحب سابقا وقتلت حبيبته فى حادثة سيارة . شعر نحو الفتاة بعاطفة الأبوة وعندما عرف بظروفها حتى علي ا وتابعها فى دراستها وحياتها ماديا ومعنويا . فى خلال ذلك كانت الفتاة الأخرى قد تزوجت ولكن زواجها كان فاشلا ودون أن ينفصل الزوجان . تزوج الأستاذ من طالبته وأحاطها بكل عطف وحنان . لم يألو جهداً فى أن يقدم لها كل ما تريد . نقلها من الظروف القاسية التى كانت تعيش فيها بين والدة تهمل فى كل ما يتصل بها وزوج أم يذكرها فى كل لحظة بأنها دخيلة على المنزل ، إلى حياة تملك فيها كل شىء .

من سؤالها عن حياتها الجنسية تبين الآتى : (أولا) الفتاة لم تقدر لها حياة جنسية طبيعية مع زوجها لسبب وجود مرض عضوى ونفسى فى الفتاة . الأمر الذى جعل زوجها يلح عليها فى عرض نفسها على طبيب ولكنها كانت دائما ترفض . وظل هذا الوضع حوالى عامين .(ثانيا) أن الفتاة فى خلال طفولتها وفى ظروف لم تستطع أن تتذكرها خضعت لاعتداء عضوى من جانب زوج والدتها كانت نتيجته فقد بكارتها[2] .

لاستكمال الصورة فإن الفتاة فقدت والدها عقب زواجها مباشرة . وخلال الأعوام التى قضتها مع زوجها لم تستطع أن تؤثث منزلها بسبب فقرها وكانت خلال ذلك وتحت تأثير والدتها تطلب منه اقتراض نقود لم يتردد فى أن يقدمها لها لإرضائها من جانب ولاعتقاده من جانب آخر أنها تستخدمها لتأثيث منزلها ولعلاج حالتها الجنسية والنفسية .

السبب الذى من أجله تقدمت الفتاة إلى الطبيب يتلخص فى أن الزوج كان قد عاد من رحلة طويلة فى الخارج وهو يحمل مجموعة من الهدايا . فانتهزت الفتاة فرصة نومه بحجرته ودخلت انتقت أجمل ما حمل وغادرت المنزل إلى منزل والدتها . ومن منزل هذه الأخيرة اتصلت به تليفونيا تطلب منه أن يطلقها . ظن الزوج أن الفتاة تريد منه نقودا أو شيئا معينا وأنها تحت تأثير والدتها لجأت إلى هذا الأسلوب . وبسؤاله اعترف بأنه كان قد لاحظ دائما أن الفتاة عقب قضاء يوم أو يومين لدى والدتها تعود وقد سيطرت عليها نوازع شريرة فضلا عن أسلوب غير مهذب فى السلوك . ولكن الذى تبين له عند مقابلتها هو حالة من التمزق العنيف والازدواج فى الشخصية . حملها إلى الطبيب النفسى .

استغرق تحليل الفتاة عدة جلسات . تبين من سؤالها أنها تتنازعها دوافع مشتركة وأحاسيس مزدوجة[3] . فقد كانت تحب والدها وتكرهه فى آن واحد : أحبته لبعده عنها وأعجبت به لكثرة ما قيل عنه من أنه رجل ممتاز . كانت إذا خرجت معه لاحظت إعجاب الجميع به واحترامهم له . فهو مستشار سابق ومحام ناجح . وذلك على عكس زوج والدتها : شخص غير مهذب تعود أسلوبا سليطا فى معاملة الناس . الجميع لا يذكره بأى كلمة فيها ثناء . ولكنها كرهته لأنه تزوج غير والدتها ولأنه تركها تعيش مع زوج أمها . نحو والدتها

(١) حالة مماثلة أوردها

CAPRIO, l'homosexualité de la femme, 1959, p. 229.

(٢) قارن أيضاً :

KRETSCHMER, Paranoïa : et censibilité, 1963, p. 142.

(٣) انظر كولمان ، م. س.ذ. ، ص ١٣٣ وما بعدها .

تتجاذبها عواطف متناقضة . حب وكراهية . الحب لأنها اعتنت بها فى طفولتها ولم فتتركها رغم زواجها الجديد . ساعد على ذلك أن الأم كانت دائما تذكرها بذلك . ولكن الكراهية لأنها ميزت فى معاملتها بين أبنائها . جعلت منها خادمة لأخواتها . تتذكر الفتاة دائما الأعياد بألم : فهى ترى أخواتها يلبسن الجديد وهى لا تعرف شيئا من هذا . ازدواج فى العواطف أيضا بالنسبة للصديقة : لقد أحبتها دائما وعوضت فى شخصها جميع عواطفها المكبوتة. ولكن زاجها جعلها تشعر بأنها خائنة فكرهتها . أما عن علاقتها بزوجها فقد ظلت لا يسيطر عليها سوى الحب حتى قدر له أن يفترق عن الفتاة فى رحلة طويلة تغيب فيها حوالى أربعة أشهر. فى خلال غيابه عانت من الوحدة والضيق وهى تعيش فى منزل والدتها حيث ماكانت تستطيع أن تحصل على ماكان يهيؤه لها زوجها . ترددت على صديقتها ولا حظت راحتها رغم عدم سعادتها بزواجها . ازدادت فى نفسها عوامل الحب والكراهية . تحولت هذه الأحاسيس فصبتها على نفسها . أضحت تحب نفسها وتكرهها فى آن واحد . تدريجيا تحولت أيضا نحو زوجها . تحبه وتكرهه . تكره فيه قصوره بأنه لا يشعر بمشاكلها وبأنه خانها عندما تركها لدى والدتها خلال غيابه [١].

(ثانيا) نجاح مدرسة السلوك الحيوانى . وهنا تبدو بشكل واضح نواحى الضعف فى علم النفس التقليدى . ففى مواجهة أسلوب التحليل الذاتى الذى يرفض أى منهاجية موضوعية وأى أسلوب من أساليب ضبط النتائج ، نجد أن كلا من مدرسة السلوك الحيوانى من جانب ومن جانب آخر علم الفسيولوجيا أووظائف الأعضاء ، قد استطاع أن تحقق كل منها فى ميدانه نجاحا لاموضع للمناقشة فى دلالته . فان تحليل الظواهر العضوية وكذلك السلوك الحيوانى قد استطاع أن يصل إلى وصف العمليات المرتبطة بهذه الظواهر وتحليلها تحليلا علميا دون أن يستند فى منهاجيته إلىفكرة التحليل الذاتى [٢] . ومن ثم فلماذا لانلجأ فى تحليل السلوك الإنسانى إلى نفس المنهاجية وأن نطبق نفس القواعد : لماذا لانجعل موضوع دراسة السلوك البشرى المظاهر الخارجيةللتعبيرات العضوية أى ردود الفعل المعبرة عن العلاقة بين الجسد الحى والمجتمع أو الوسط الذى يعيش فيه مصدر تلك التعبيرات الحركية ؟ إن علم النفس الحيوانى قد قدم نتائج علمية لاموضع للمناقشة فى صحتها أوعلى الأقل فى دلالتها . ويكفى أن نتذكر مدرسة بافلوف وما ارتبط بها من اختلاق للظاهرة وضبط لها أى تحليل تجريبى بأعمق ما تعنيه هذه الكلمة من مفاهيم بحيث أضحينا أمام ثقافة تجمع جميع صفات العلم كالعلوم الطبيعية . فلماذا لانحاول نفس المنهاجية فى نطاق علم النفس البشرى ؟

(ثالثا) ظهور مدرسة علم النفس الاجتماعى . وفى خلال ذلك كانت مدرسة علم النفس الاجتماعى قد استطاعت أن توأصل تقاليدها [٣] . فعلم النفس يدرس

---

(١) حالة واضحة لما نسميه disintegration of personality

(٢) WOODWARD, The development of behaviour, 1971, p. 13.

(٣) ديوى ، م. س. ذ. ، ص ٦ وما بعدها . انظر الخلاف حول التسمية بين علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع النفسى فى المراجع الواردة فى نفس المؤلف هامش رقم ١١ .

الوجود الفردى فى ذاته منفصلا عن أى حقيقة أخرى سوى وجوده المعنوى. وعلم الاجتماع يدرس من ناحية أخرى الجماعة: التنظيم والعادات وما يرتبط بكل ذلك كحقائق كلية. بقيت العلاقة بين الفرد والجماعة، أى عملية التفاعل ابتداء من الحقيقة التطورية التى تفترضها إلى النتائج التى تفرضها. موضوع علم النفس الاجتماعى بهذا المعنى ليس الفرد فى ذاته، وليس المجتمع فى ذاته، وإنما الفرد وهو فى حركة ليتقابل مع المجتمع فيؤثر فيه ويتأثر به، أو بعبارة أخرى، موضوع علم النفس الاجتماعى هو عملية التفاعل والسعى للكشف عن خصائصها العامة وصفاتها المشتركة.

وكما سبق ورأينا كيف أن مدرسة السلوك الحيوانى دفعت بالنظرة السلوكية دفعات حاسمة فى عملية تأصيل النواحى المنهاجية لدراسة السلوك الانسانى سواء بالمعنى المعملى أو بمدلول المقارنة المنهاجية، فكذلك مدرسة علم النفس الاجتماعى أحدثت آثارها فى تطور النظرة السلوكية[١]. فأول ما نلاحظه أن اثنين من أهم واضعى علم النفس الاجتماعى ينتميان إلى مدرسة شيكاغو[٢]، وهما «جون ديوى»[٣] وكذلك «جورج هربرت ميد». كذلك فان نقطة الالتقاء بين كلا مدرستى علم النفس الاجتماعى والعلوم السلوكية واضحة لاموضع للمناقشة: الأثر الواضح والحاسم للوسط الاجتماعى على السلوك الفردى. ورغم أن النظرة السلوكية وحتى الحرب العالمية الثانية تظل مرحلة من مراحل التطور فى تحليل السلوك الفردى، إلا أن الالتقاء فى المفاهيم وبصفة خاصة من حيث النظرة إلى السلوك على أنه نوع من المخرجات التى يستتر خلفها العديد من العوامل ولكن من بينها دائما العامل الاجتماعى، كان لابد وأن يشجع على تأكيد النظرة السلوكية وتمكنها ولو بطريق غير مباشر من نشر دعوتها وتأسيس منطقها التحليلى.

وهكذا قامت أفكار «واطسون»[٤] على مبادىء ثلاث:

(أ) رفض فكرة التحليل الذاتى كأساس لتحليل السلوك الفردى.

(ب) النظرة إلى السلوك على أنه يتحدد بالوسط الاجتماعى وليس فقط نتيجة للعوامل الوراثية.

(ج) اعتبار عملية الوسط الاجتماعى نوع من التحكم فى رد الفعل الفردى ازاء المنبهات الاجتماعية[٥].

---

(١) انظر تصورا مختلفا للمتابعة التاريخية فى فريس، م. س. ذ.، ص ٥١ وما بعدها.

(٢) انظر تعريف مدرسة شيكاغو فى فريس، م. س. ذ.، ص ٣٧

(٣) Dewey : 1859 - 1952.

(٤) نافيل، م. س. ذ.، ص ٤٤.

(٥) برودنت، م. س. ذ.، ص ٢٣.

ولو تركنا جانبا عملية تقييم هذه المبادىء وما تضمنته من مبالغات كانت موضع تجريح فى نظرية واطسون ، إلا أن هناك أبعاد معينة فرضتها أفكار العالم الأمريكى لاموضع للمناقشة فى أهميتها وفى دلالتها فى خلق النظرية السلوكية :

١ ـ أن واطسون يعلن بصراحة بأن رغبته من النظرة السلوكية ليس مجرد وصف الظاهرة وإنما التنبؤ بالسلوك مع إمكانية ضبطه واخضاعه لعملية التحكم، على أن يفهم هنا السلوك فى أوسع معانيه أى سلوك الحيوان وكذلك سلوك الإنسان(١).

٢ ـ واطسون بهذا المعنى ولأول مرة منذ أرسطو يحطم أهمية الإنسان كمركز الثقل ونقطة الالتقاء فى كل تحليل للظاهرة السلوكية ، كما فعل تماما «كوبرنيكوس» أربعة قرون من قبل عندما ألغى الوجودالأرضى كمحور لتفسير العالم .

٣ ـ كذلك واطسون يعلن بصراحة أن منهاجيته وحدها سوف تسمح بخلق علم النفس الوضعى حيث يصير موضوع الظاهرة موضع التحليل مستقل ـ كما يحدث بالنسبة لجميع العلوم الأخرى ـ عن شخص الباحث . إن التحليل الذاتى يمنع استقلال من يتولى الملاحظة من جانب وموضوع الملاحظة من جانب آخر حيث يجعل الأول عنصر من عناصر النظام أوالمنطق الذى نسعى إلى اكتشافه . جعل السلوك وحده هو موضع التحليل يمكننا من هذه الخطوة وبالتالى يسمح ببناء وتأصيل علمية الدراسة النفسية(٢).

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) قارن أيضا نفس المرجع ص ٣٥ وما بعدها .

أما عن تقييم واطسون فنفس مؤرخى العلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة لم يتفقوا على رأى واحد . بينما « روباك » يعتبره مجرد ناقل لحركة قائمة وسابقة عليه فى العالم الغربى ، « بورنج » يعترف بأن نجاح واطسون يعود إلى المناخ العام الذى كان على استعداد لتقبل أفكاره ولكنه يسلم بأن واطسون هو رئيس وخالق مدرسة علمية يجب أن تحمل اسمه . على كل فهذا الخلاف لا يعنينا من حيث كونه لا ينفى الاتجاه السلوكى أو النظرة السلوكية ولا يشكك فى أنها لم تتكامل إلا فى الولايات المتحدة .

انظر فى تحليل ذلك بصفة خاصة :

ROBACK, History of American Psychology, 1948.

المبحث الثانى

السلوك وتحليله

§ ١١ — بناء الاطار الفكرى لتحليل الظاهرة السلوكية :

أول سؤال يفرض نفسه علينا ونحن بصدد التقديم للعلوم السلوكية هو تحديد موضوع الدراسة أو التحليل بوجه قاطع وصريح لالبس فيه ولاغموض بحيث لايكون هناك موضع للخلط أو التداخل بين الثقافة السلوكية وتلك العلوم الأخرى التى ترتبط بالوجود البشرى ، وبعبارة أخرى أن نعلن عن ذلك الذى يسمى وحدة التحليل التى تدور حولها عملية جمع المعلومات والتفسير بالنسبة للعلوم السلوكية . فالعلوم النفسية وحدتها « النواحى المعنوية للوجود الإنسانى » ، وعلم الاجتماع وحدته « ظاهرة التجمع البشرى » ، وعلم النفس الاجتماعى وحدته « عملية التفاعل » ، فما هى وحدة العلوم السلوكية ؟

(أ) واضح مما سبق وقدمناه أن هذه الوحدة هى السلوك بأوسع معانيه[1] . ولكن مثل هذه الإجابة لاتتضمن تحديدا قاطعا واضحا وصريحا ، ومن ثم فهى غير كافية . يجب أن تحدد خصائص هذه الظاهرة بحيث نعزلها عن غيرها ، كذلك يجب أن نتغلغل فى أعماق الظاهرة لنحدد مقوماتها قبل أن ننتقل لمتابعة ديناميات السلوك فى تطوراته المتعاقبة .

السلوك هو حركة ، وككل حركة فلابد أولا من أن يكون لها مصدر ، وأن

---

(١) انظر حول ما يسميه بعض علماء علم النفس « السلوك العاطفى » ، كلينبرج ، علم النفس الاجتماعى ، جزء ثانى ، م. س. ذ. ، ص ١٩٠ وما بعدها . السلوك العاطفى أو كما يعبر عنه باللغات الأجنبية comportement affectif يكاد يختلط بما نسميه الانفعال . ومصدر هذا الربط هو أبحاث ونظريات مكدوجال ، فهو يعتبر كل انفعال محدد مرتبط ومصطحب بغريزة : فمثلا غريزة الهرب والإحساس بالخوف ، الغريزة القتالية والإحساس بالغضب ، الغريزة الجنسية والإحساس بالحب وهكذا . على أن هذا يتضمن خلطا بين السلوك فى معناه الذى حددناه ومبررات السلوك أو الخلفية العقلية والذهنية التى تنطوى تحت خصائص الشخصية ، كأحد مقومات السلوك . انظر أيضاً :

FRANKENSTEIN, The roots of the ego, 1966, p. 112.

تسعى ثانيا إلى تحقيق هدف ، وهى فى خلال كل ذلك تعبر ثالثا عن وجودها بمظاهر مختلفة . الحركة طاقة ، كذلك السلوك فى التعبير عن نفسه ، فى مظاهر ذلك التعبير ، فى فناء الحركة المرتبطة به ، لابد وأن يخضع لمتغيرات معينة . فما هى تلك المتغيرات ؟

الظاهرة السلوكية هى إذن مجموعة التصرفات أوالأفعال التى تعبر بها الحقيقة عن حركتها فى إطار ديناميكيتها الوجودية . بهذا المعنى يصير السلوك علامة ومظهر لوجود الحقيقة الحية . وكل حقيقة حية لابد وأن تعبر عن وجودها بحركتها ، بتفاعلها، بتصرفاتها أى بسلوكها . الذرة لها سلوك كالحيوان وليس فقط الإنسان . الأجرام السماوية لها بدورها سلوكها الذى يعكس مدارها فى علاقتها بالعالم اللانهائى[1] . السلوك بهذا المعنى يتقيد بالإطار أو العالم الذى تنتمى اليه تلك الحقيقة الحية .

وهكذا نستطيع أن نعرف خصائص الظاهرة السلوكية فى أوسع معانيها :

(أولا) الظاهرة السلوكية هى مجموعة تصرفات خارجية أوتعبيرات مستقلة ، ذات كيان قائم بذاته بحيث بمجرد صدورها تنفصل عن مصدرها ويصير لها وجودها الذاتى . وهى بهذا المعنى قابلة لأن تلاحظ بحيث تخضع للتحليل المباشر الموضوعى الذى لايقوم على التصور وإنما يستند إلى إمكانية الإمساك والاحتضان للظاهرة .

(ثانيا) هذه التصرفات رغم استقلالها الذاتى إلا أنها تخضع لعلاقة معينة بين الباطن الذى تصدر منه والعالم المحيط بالذات مصدر الظاهرة . هذه العلاقة التى هى بدورها تعبير عن منطق عام للظاهرة هى التى يجب أن نبحث عنها لاكتشافها وصياغتها فى شكل قانون علمى .

(ثالثا) السلوك بهذا المعنى يصير مرتبطا ومعبراً ولازما لكل دراسة ديناميكية أو حركية لأى ظاهرة من الظواهر .

(ب) لونقلنا هذا المفهوم إلى نطاق السلوك البشرى لاستطعنا أن نعرف السلوك بأنه : مجموعة التصرفات والتعبيرات الخارجية التى يسعى عن طريقها الفرد لأن يحقق عملية الأقلمة والتوفيق بين مقومات وجوده الباطنى ومقتضيات الإطار الاجتماعى الذى يعيش فى داخله[2] .

---

(١) هومانز يتحدث عن صور أخرى للسلوك : انظر ما يقوله عن operant behavior أو ما يسميه voluntary behavior فى مؤلفه :
HOMANS, Social behavior ; its elementary forms, 1961, p. 17.
كذلك لاحظ أننا نستخدم هنا كلمة سلوك ليس بمعنى الحركة العضوية اللاشعورية وإنما بمعنى التصرف الإرادى حتى لوارتبط باتجاه غريزى . يجد القارىء تفصيل ذلك فى نفس المرجع السابق الإشارة إليه ص ١٧ وما بعدها .

(٢) فرانكشتاين ، م. س. ذ. ، ص ١٨٨ .

ومن ثم نستطيع أن نحدد بعض خصائص السلوك البشرى :

(أولا) السلوك البشرى هو فى حقيقته عملية مواجهة للإنسان فى المواقف المختلفة التى يتعين عليه أن يجتازها منذ طفولته حتى مماته . والوجود البشرى بهذا المعنى ما هو إلا نوع من الأقلمة المستمرة بين الأحاسيس والغرائز والانفعالات (١) التى منها يتكون الوجود النفسى للفرد والمحيط الخارجى اجتماعيا كان أم طبيعيا لذلك الوجود الفردى . السلوك يصبح حلقة الوصل بين الأحاسيس والغرائز والانفعالات والوسط الذى يوجد فيه ويرتبط به الإنسان . كذلك هذه الطبيعة أوهذه العلاقة تفترض تأثيراً مزدوجا ومستمرا فكما أن الفرد يتأثر فى سلوكه بالوسط والبيئة فكذلك هذه البيئة لابد وأن تعكس وأن تتأثر بخصائص الشخصية الفردية من حيث صلاحيتها وقدرتها على التأقلم بالوسط والبيئة . بطبيعة الحال علاقة التأثير والتأثر تختلف من حيث مداها تبعا لطبيعة ومدلول البيئة : فالبيئة الاجتماعية أكثر حساسية وأقل مقاومة على عكس البيئة الطبيعية إذ تقف من الفرد موقف المقاومة العنيفة ولن تخضع لعملية التأثير بنفس درجة خضوع البيئة الاجتماعية . بل إن الجماعة ذاتها التى يتكون منها الفرد كأحد جزئياتها لابد وأن تعكس بدرجة أوأخرى خصائص الصفة الغالبة لسلوك المواطن العادى فى سلوكها الجماعى . وتتجلى هذه العلاقة بشكل واضح فى علاقة السلوك الفردى السياسى باتجاهات الرأى العام . أليست هذه صورة من صور التعبير عن السلوك الجماعى ؟

(ثانيا) هذه المواجهة بين الذات التى تنبعث منها الطاقة فى شكل سلوك والوسط الذى تعيش فيه تفترض رد فعل معين يأخذ صورة وقائع أو استجابات من خلالها تسعى الذات الحركية لتحقيق رغباتها بأسلوب معين أو لدرجة معينة . هذه الاستجابات التى تمثل قمة التطور الذاتى هى السلوك البشرى . على أننا هنا يجب أن نلاحظ نوعا من التدرج فى الاستجابة : فقد تكون الاستجابة من الذات إلى الذات ولا تخرج

---

(١) feelings, instincts, emotions. الأول اصطلاح عام يحيل إلى كل ما له صلة بالنواحى العاطفية للخبرة . يستخدم بصفة خاصة لما له صلة بالأحاسيس كالسمع والبصر واللمس . الكلمة الثانية ، فى معناها الأصيل تشير إلى تلك الحوافز الحيوانية impulse أى إلى موجات الاحتياج التى تنقل عبر الأعصاب وينشأ عنها نشاط فسيولوجى . الاصطلاح الثالث يثير الكثير من النقاش فى الفقه . كل يصفه ويعرفه بأسلوبه . ولكن الجميع يتفق على أن الكلمة تعكس حالة معينة ترتبط بنوع من الهيجان أو الاضطراب حيث يسود الموقف نوع من الأحاسيس القوية وفى أغلب الأحيان تستتر خلفها إحدى الحوافز الحيوانية التى تدفع إلى صورة محددة من صور السلوك . انظر الحالة رقم (١) السابق تحليلها و قارن أيضا كلينبرج ، م. س. ذ. ، جزء أول ، ص ٧٢ .

عن ذلك النطاق فاذا بها سلوك ذاتي[1] . العشق النرجسي أو حب الذات صورة واضحة ودلالة صريحة لإمكانية تصور السلوك الذاتي حيث لاتتعدى العلاقة الحركية دائرة مصدر الطاقة أو النشاط . ولكن عندما تفيض الطاقة إلى الخارج فاذا بها تفرض علاقة مع فرد آخر أوطاقة أخرى تصير سلوكا فرديا . السلوك الجنسي نموذج آخر . ولكن السلوك الفردي مقدمة للسلوك الجماعي حيث تتحرك الجماعة كحقيقة كلية أوعلى الأقل جزء منها حيث تفنى في مقوماته الجزئيات الفردية. ظاهرة الرأي العام صورة واضحة لهذا النموذج الثالث .

(ثالثا) السلوك بهذا المعنى هومن حيث حقيقته خاتمة صراع معين: صراع بين الفرد ونفسه ، بين الإنسان والوسط الذي يحيط به ، سواء فهم ذلك الوسط بالمعنى العام فاذا به الطبيعة والإطار الجغرافي والمناخي ، أوفهم بمعنى ضيق ليصير مرادفا للمجتمع مبتدئا من أضيق مدلول لهـــذه الكلمة بمعنى الأسرة ليتضخم تدريجيا فاذا بالوسط يصير مرادفا لكلمة الأمـــة أو القوم أو الجماعة التي ينتسب اليها الفرد ويحمل مميزاتها ويعبر عن طابعها. وهو في جميع هذه التطبيقات إنما يعيش في صراع مع نفسه ليكتشف حقيقة هويته وغرائزه . يستوي في هذا الصراع الفردي أم الجماعي . وإذا كان صراع الفرد مع الطبيعة انما يدور حول حقيقة ماتقدمه له تلك الطبيعة من وسائل وأدوات تسمح له باشباع تلك الغرائز ، فان صراع الجماعة مع ما يحيط بها من جماعات إن هو إلا تعبير عن رغبة كل جماعة في الاستئثار بما قدمته الطبيعة من ثروات وكنوز . والحقيقة البشرية تظل دائما في بحث مستمر حتى تجد ذلك الأسلوب وتلك الوسيلة

---

(١) لعله جدير بالملاحظة أن نلفت نظر القراء إلى الإنتاج العربي بهذا الخصوص وهو إنتاج ليس فقط غزير ومتقدم على عصره وزمانه بل وفي بعض جزئياته يتفوق على الإنتاج المعاصر . نسوق على سبيل المثال مؤلف : أحمد بن محمد بن أبي الربيع بعنوان « كتاب سلوك المسالك في تدبير الممالك على التمام والكمال » . انظر تفصيل تحليلنا لهذا المؤلف في حامد ربيع ، أبحاث في النظرة السياسية ، محاضرات كلية الاقتصاد ١٩٧٢ . ولعل القارىء لا بد أن يتساءل : ماالذي يقصده بكلمة « سلوك » المؤلف العربي وقد جعل منها عنوانا لكتابه ؟ رغم أنه لا يقدم تعريفا للاصطلاح إلا أنه يجعل منه مرادفاً لما أسماه « سيرة الإنسان » ، وهكذا نجد المفهوم أقرب إلى التعريف المتداول حاليا . انظر ص ٧٣ من المخطوط . ولعله مما هو جدير بالتأمل تقسيمه لما أسماه أصناف السيرة فميز بين أربعة أنواع من المخلوقات : (أولا) الذي له عقل وحكمة وليس له طبيعة وشهوة وهم الملائكة .(ثانيا) الذي له طبيعة وشهوة وليس له عقل وحكمة وهم الحيوان غير الإنسان . (ثالثا) الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة وهم الجماد والنبات . (رابعا) والذي له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وذلك هو الإنسان . انظر ص ٥٨ — ٥٩ . والمؤلف يجعل كل تصويره للقواعد السلوكية ينبع من مبدأ واحد : الاعتدال والتوازن بين الطبيعة والشهوة من جانب والعقل والحكمة من جانب آخر . انظر بصفة خاصة ص ٧٩ وما بعدها .

أو الأداة التى تجعل الغرائز تصل به إلى حالة التشبع والاسترخاء[1] . على أن هذا الصراع ليس فقط مستويات بل هو ينقلب على مصدره بحيث يصور حركة دائمة إلى الأمام وإلى الخلف : كما أن الفرد يدخل فى صراع مع نفسه ومع الطبيعة ومع الجماعة، فكذلك الجماعة تدخل فى صراع مع الطبيعة ومع الفرد ومع الجماعات الأخرى . وهكذا علاقة الفرد بالجماعة هى علاقة صراع واحتواء فى آن واحد : الحقيقة البشرية فى صراع دائم مع المجتمع لأن هذا المجتمع هو الذى يخلق من القواعد والقيم ماقد يقف عائقا يمنع الفرد من أن يصل إلى حالة الإشباع إلا بعد طقوس واجتياز عقبات متعددة ومن ثم فهو يمنع من وضع حد لحالة الإثارة التى تخلقها الغرائز الفردية . فالفرد الذى يشعر بحاجة إلى الطعام لسد غريزة الجوع يتعين عليه أن يذهب يسعى عن طريق المفاوضة والمساومة للحصول على ما يسد غريزته . النظام الاجتماعى لايسمح له أن يحصل على ما يشبع جوعه دون أن يدفع ثمنه ، وهذا يعنى أن عليه التزام بتدبير ذلك المقابل مقدما . والفرد الذى تسيطر عليه غريزة الجنس فى حاجة إلى أن يجتاز سلسلة من العقبات التقليدية التى قد تختلف من مجتمع إلى آخر ولكنها تتفق جميعا فى أنها تضع أمام الفرد مجموعة من « الشلالات » التى عليه أن يتخطاها ليستطيع تحقيق وإشباع تلك الرغبة . مثل هذه القواعد والنظم تفرض عليه مسارا معينا فى سلوكه ومن ثم فلابد من أن يصطدم بها فيوءقلم سلوكه ويخضع تصرفاته لمقتضياتها . وإن لم يفعل وصف سلوكه بأنه شاذ وغير طبيعى[2] .

(رابعا) وهكذا نلحظ أن السلوك يجب أن يعبر عن نفسه تعبيراً خارجيا . هذه التعبيرات الخارجية قد تختلف وقد تتنوع ، وقد تكون بسيطة وقد تكون مركبة . وهنا تتدخل عوامل عديدة لاحصر لها فى تشكيل السلوك وتحديد لافقط صورته بل وكذلك توقيته . ولكنه دائما حقيقة خارجية تستقل عن شخص صاحبها ومن ثم يوصف بأنه واقعة[3] أومجموعة من الوقائع للتعبير عن أنه لايقتصر على مجرد الفكرة المجردة أو الحالة العقلية أوالذهنية الذاتية المستترة فى شخص صاحبها[4] .

---

(١) مفهوم الصراع كأحد عناصر الوجود الاجتماعى والتطور بين مختلف مقومات الحقيقة البشرية يجد القارىء له عرضا تفصيليا فى
COSER, The fonctions of social conflict, 1965.

(٢) abnormal behavior.

(٣) fact.

(٤) قارن رغم ذلك ما سبق وقرناه بخصوص السلوك العاطفى . انظر أيضا كولمان ، م. س.ذ. ، ص ١١٧ .

ظاهرة السلوك البشرى إذن متعددة النماذج والأنواع . فكيف نميز بين أنواع السلوك الإنسانى ؟ وما هى معايير هذا التميز ؟ وهل القواعد التى يخضع لها السلوك البشرى دائما واحدة ؟ أم أنها متغيرة ؟

(ج) على أن السلوك بغض النظر عن مقوماته أونماذجه ظاهرة ديناميكية . ومن ثم فهى تخضع لعمليات متعاقبة من التطور والتنقل من وضع إلى آخر . وهى بهذا المعنى لابد وأن تدور فى حلقة مقفلة أساسها تحقيق الغاية التى نبع منها السلوك كليا أو جزئيا . كذلك فإن الحاجة بطبيعتها متغيرة ، والظروف المحيطة بالسلوك بدورها متغيرة . ومن ثم فإن الموقف الذى تتحدد به الحركة ، وفى أثناء السعى لتحقيق الهدف من تلك الحركة لابد وأن يصيبه، أى ذلك الموقف من حيث مقوماته نوع من التغير والتبدل فى مقوماته . ومن ثم فان السلوك لابد وأن يخضع لهذه المتغيرات فى تطوراته المتعاقبة . الدراسة التحليلية الجامدة للظاهرة السلوكية لاتغنى ولاتكفى للفهم الكامل الحقيقى للظاهرة . يجب أن نضيف إلى ذلك التحليل الديناميكى الذى يسمح بمتابعة تقابل وتفاعل المقومات المختلفة التى منها تتكون الظاهرة السلوكية .

أنواع السلوك ، مقومات السلوك ، تطور السلوك : هذه هى الأبعاد الثلاث التى يجب أن تنبع منها عملية تحليل الظاهرة السلوكية[1] .

§ ١٢ — أنواع السلوك البشرى : التمييز بين السلوك الذاتى ، السلوك الفردى ، السلوك الجماعى والسلوك الجماهيرى :

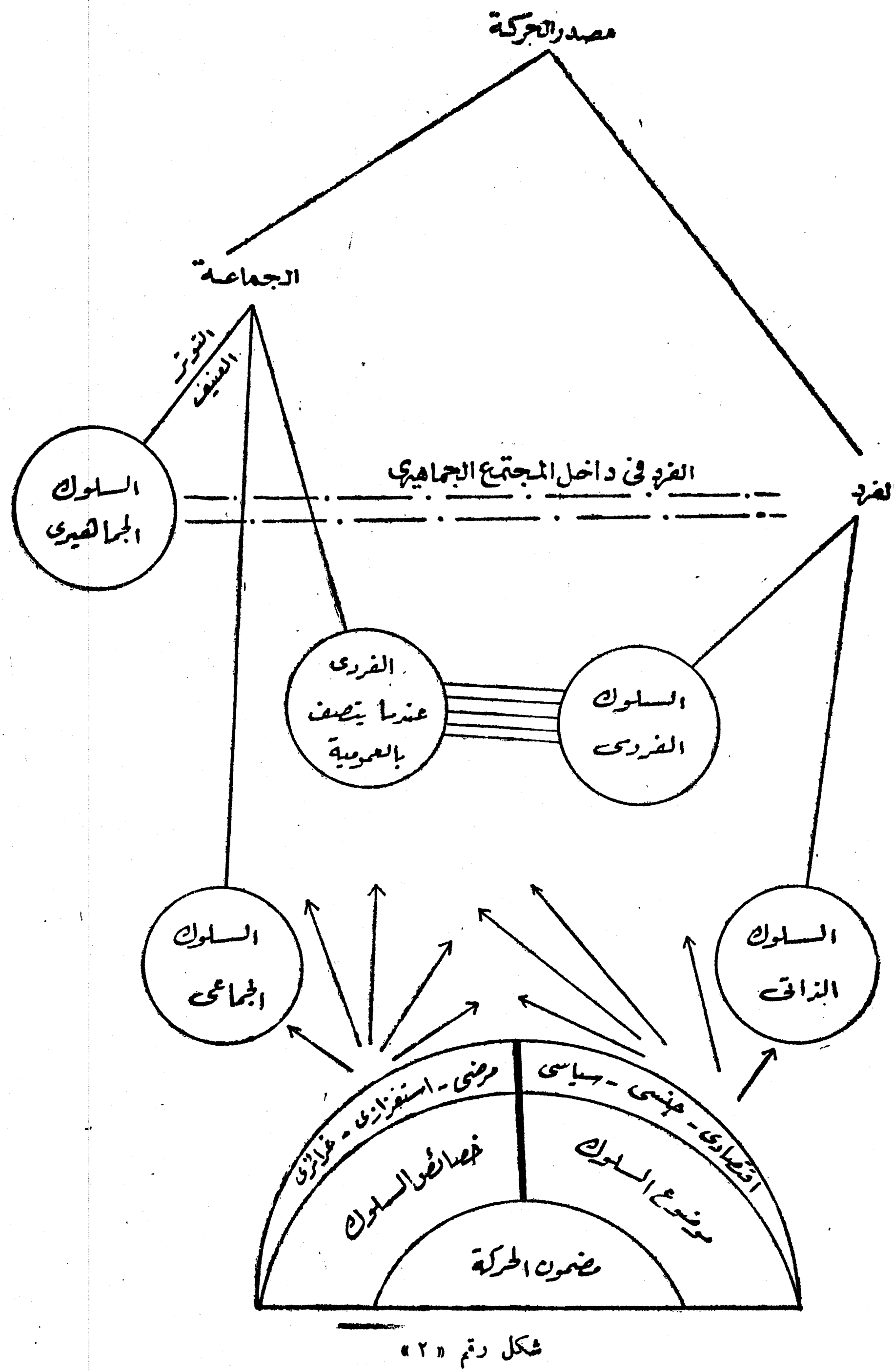
السلوك البشرى ككل ظاهرة متعددة الأبعاد من الممكن أن يقدم أكثر من نموذج واحد . وبالتالى فأنواع السلوك الإنسانى عديدة لا حصر لها[2] . ولكننا نستطيع أن نميز بين أنواع السلوك تبعا لمعايير متعددة : فأولا الذات التى تنسب اليها الظاهرة السلوكية سبق ورأيناها تسمح بتعدد مظاهر السلوك الإنسانى وتنوعها من سلوك ذاتى إلى سلوك فردى فسلوك جماعى . كذلك نستطيع أن نميز بين أنواع السلوك تبعا لمضمونها أو لجوهرها أوبعبارة أخرى تبعا لطبيعة النشاط والطاقة التى تستتر خلف الحركة والتى تحدد بدورها الهدف الحركى : نماذج ذلك كثيرة . السلوك الجنسى ، والسلوك السياسى والسلوك الاقتصادى ليست إلا بعض تطبيقات . ومن جانب ثالث نستطيع

---

(١) انظر هومانز ، م.س.ذ. ، ص ٣٠ ومابعدها .

(٢) لا يوجد أى مؤلف حتى الآن حاول أن يبوب أنواع السلوك وأن يضع قواعد واضحة للتفرقة بين كل من تلك النماذج . انظر ملاحظات نافيل ، م.س. ذ. ، ص ١٦٩ ومابعدها .

أنــــواع الســلوك



شكل رقم « ٢ »

أن نميز بين أنواع السلوك تبعا للصفة الغالبة على طبيعة النشاط الذي ينبع منه السلوك . فالسلوك قد يكون عدوانيا ، وقد يكون شاذا وغير طبيعى.فى مثل هذه الحالة فإن إحدى خصائص الحركة قد ارتفعت وتضخمت فاذا بها تصبغ السلوك بأجمعه كرد فعل فى مواجهة موقف معين .

(أ) أول التقسيمات للسلوك تسمح بتبويبه من حيث مصدره والعلاقة التى تستتر خلف السلوك موضع التحليل : هل هى علاقة بين الفرد ونفسه أم علاقة بين الإنسان وإحدى الوحدات الأخرى البشرية التى منها يتكون المجتمع الذى يحيط به فيصير السلوك فرديا . فاذا أضحى السلوك صادرا من الحقيقة الاجتماعية فى كلياتها أى كحقيقة متكاملة أضحى السلوك جماعيا[1] . كذلك فان السلوك فى حالة الهيجان والاضطراب حيث يفقد الفرد قدرته على التحكم وتنقلب الجماعة فاذا بها كتلة لاشعورية تنتفض بالتفاعلات العنيفة يصير سلوكها جماهيريا .

فلنتابع هذه التطبيقات المختلفة بشىء من التحديد .

---

(١) فلنلاحظ منذ الآن الفارق بين الصفة الاجتماعية social والصفة الجماعية collectif للسلوك . الأولى تعنى أنه يفرض طابع العلاقة التى تستتر خلف السلوك حيث أنها تعبير عن تعدد الوحدات التى ترتبط بتلك العلاقة فردين أو ثلاثة أو أكثر . أما الصفة الجماعية فهى تعنى أن السلوك ينتسب إلى الجماعة كحقيقة كلية فهو لا ينبع ولا يتحدد فقط بفرد تحدد زمانا ومكانا . وإنما ينبع من جماعة تحددت زمانا ومكانا سواء كان السلوك فى تحدده بالجماعة ينسب إلى الذات الفردية التى هى جزئية الجماعة أم ينسب إلى الجماعة الكلية كحقيقة متميزة .

ولو أردنا أن نبسط هذه المفاهيم نستطيع أن نميز بين صور ثلاثة من السلوك البشرى. صورة أولى فردية بطبيعتها وبمدلولها . شخص يتصف بالشذوذ الجنسى ومن ثم فإن سلوكه الاجتماعى غير طبيعى سواء فى علاقته بزوجته أو بأصدقائه . ثم صورة ثانية جماعية بطبيعتها وبمدلولها أيضا . مجتمع سياسى يميل إلى التعدى والاعتداء على جيرانه فهو مجتمع استفزازى . هذه الصورة هى صورة جماعية . ولكن هناك صورة ثالثة لا بد وأن تفرض التساؤل : هل هى جماعية أوفردية ؟ وهى لو تصورنا فى مجتمع معين الصفة الغالبة على أفراد ذلك المجتمع فى علاقتهم الفردية هى صفة الشذوذ الجنسى مثلا أوصفة الاستفزاز والتعدى ؟ أى الصفة التى سبق ورأينا تطبيقا لها فى العلاقات الفردية ولكنها هنا عمت فأضحت غالبة على مجتمع معين أو الصفة الجماعية وقد انتقلت فلم تعد تميز فقط السلوك الجماعى أى سلوك الجماعة كحقيقة كلية وإنما أضحت صفة غالبة للسلوك الفردى فى ذلك المجتمع . هى فردية بطبيعتها ولكنها جماعية بمدلولها . هذه الصورة الثالثة هى تلك التى ترتبط فى بعض الأحيان بما نسميه الطابع القومى . مثل هذه الصورة أيضا يجب التسليم بأنها تطبيق من تطبيقات السلوك الجماعى .

انظر وقارن

GILLIS, Human behavior in illness, 1962, p. 22.

لاحظ خلط بعض الكتاب بين السلوك الجماعى والسلوك الجماهيرى . انظر مؤقتا

SMELSER, Theory of collective behavior, 1962, p. 5, p. 71.

(أولا) أول صور السلوك البشرى من حيث مصدره ومصبه أى من حيث طبيعة العلاقة التى تستتر خلف مظاهر التعبير عن الطاقة المنبعثة من الذات الإنسانية هى السلوك الذاتى ، وهو ما عبر عنه الأقدمون[١] بقولهم « سيرة الإنسان فى نفسه » . سلوك الإنسان نحو نفسه أو نحو بدنه قد يأخذ صورة عادية متوقعة تفرضها طبيعة الأشياء ولكنها قد تصير حالة مرضية كما سبق ورأينا تلك الصورة التقليدية التى تسمى بعشق الذات أو النرجسية وعلى كل فمثل هذا التطبيق من التطبيقات السلوكية ينتمى إما إلى علم الأخلاق وإما إلى العلوم الطبية ولذلك فان العلوم السلوكية تهمله عن قصد :

*** حالة رقم ٢ : عشق الذات :

من الواجب التمييز بين الشبقية الذاتية وبين عشق الذات . فى الشبقية الذاتية يسعى الشخص للحصول بطريقة ميكانيكية على الاشباع اللذى ، أى أن ظواهرها تكون احساسات لذية داخلية . ليس هناك انفعال عاطفى وإنما هناك سعى وراء لذة جسدية داخلية . بينما عشق الذات هو عشق حقيقى وغرام للشخص نفسه[٢]

وقد ذكر هرشفيلد حالة فلاح قوى البنية عمره سبع وثلاثون سنة ، كان جامد الحس مع النساء والرجال على السواء ، فى حين أنه كان يجد اللذة كل اللذة فى مشاهدة جسده عاريا . وقد ذكر أن أول تهيج جنسى ذاتى وقع له فى بدء البلوغ عندما شاهد جسمه عاريا لأول مرة وهو واقف أمام المرآة . وقد حدث فى أثناء فحص هذا الرجل فحصا طبيا بواسطة هرشفيلد[٣] أن رأى صورته فى المرآة بعد أن خلع ملابسه فاعترته ثورة جامحة وانتصاب شديد وأقبل على المرآة يقبل خياله قبلات حارة ويضغط جسمه على المرآة حتى تمت النشوة بالقذف . وقد كتب هذا الرجل للطبيب يعبر عن إحساساته ومشاعره : « اننى أحب نفسى حب العبادة . وليس سوى جسمى ينبه غريزتى الجنسية ... وعندما أرى نفسى فى المرآة أتخيل أن صورتى شخص آخر يشاركنى العملية الجنسية ويبادلنى القبل ... وأكبر ما تكون نشوتى عندما تكون المرآة ضيقة تسمح لى بأن أرى جسمى كله من قمة الرأس إلى إخمص القدم . وأكبر أمانى أن أعيش عارى الجسد أمام المرآة مدى الحياة » .

عشق الذات[٤] فى أغلب الأحيان هو نتيجة لتدليل الطفل وسوء تربيته . وهى تعكس حالة طفولة

---

(١) العالم العربى السابق ذكره ، حيث يحدد « سيرة الإنسان فى نفسه » بأنها تلك التى تسعى إلى « استعمال ما قدمنا من إصلاح أخلاقها وتجويد أفعالها واجتهادها فى بلوغ الكمال » . انظر م. س. ذ. ، ص ٧٣ وما بعدها .

(٢) أوردها موريس ابراهيم الديك ، الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ، ١٩٤٧ ، ص ٣٩ ما بعدها .

(٣) الحالة كانت موضع دراسة وتحليل فى

HIRSCHFELD, Geschlechts Anamalien und Perversionen, 1957, p. 93 - 94.

(٤) الاصطلاح المتداول narcissism على أن الكاتب السابق ذكره يستخدم اصطلاح آخر ويثير إمكانية الالتجاء إلى كلمات أخرى أكثر تعبيراً عن مدلول الظاهرة . فكلمة auto-érotisme

دائمة . وهى تنتشر اليوم بين الممثلات والفنانات بسبب ما تحيطه بهن عمليات الدعاية المبالغ فيها وخصوصا عندما يكون لديهن استعداد لذلك من سن الطفولة لاحد الأسباب السابق ذكرها. ويحدثنا هسنارد عن حالات يكون فيها عشق الذات أحد نتائج الإخفاق مع الطرف الآخر فينطوى المرء على نفسه ويوجه كل قواه العاطفية نحو ذاته وقد يأخذ ذلك التكتل العاطفى ليس بعدا جنسيا وإنما يصير تعبيراً عن بعد مهنى .

والشخص المصاب بهذه الحالة فى أغلب الأحيان يتصف بالخجل والطفولة والأنانية وعدم القدرة على مواجهة الصعاب والتهرب من المشاكل بالانطواء ورفض الحياة الاجتماعية . على أنه إذا وجد نفسه فى موقف المضطر لاتخاذ القرار كان مندفعا أهوج لا يقدر عواقب تصرفه . نموذج تاريخى واضح يعكس هذه الحالة الزعيم الألمانى أدولف هتلر (١) .

(ثانيا) السلوك الفردى ، وهو التطبيق أوالنموذج الثانى من حيث طبيعة العلاقة التى تستتر خلف المظاهر الحركية للنشاط . لأول وهلة قد يفهم من وصف السلوك بأنه فردى أنه غير اجتماعى وهذا غير صحيح . فباستثناء السلوك الذاتى ، فان أى صورة أخرى من صور السلوك هى سلوك اجتماعى . كذلك السلوك الفردى يفترض علاقة بين اثنين أوأكثر ، ويفترض أن الاستجابة أورد الفعل فى مواجهة حقيقة بشرية أخرى ، ومن ثم فالسلوك الفردى هو سلوك اجتماعى . السلوك هنا على المستوى الجزئى أو كما يوصف هو سلوك ميكروكزمى حيث الوحدة هى فرد قد تحدد مكانا وزمانا . ومن ثم فتحليل السلوك الفردى يعنى دراسة مقومات الذات التى تنبعث منها الطاقة ، ثم أثر هذه الطاقة ذاتها سواء على من تتجه اليه سواء على من صدرت اليه : هل حققت الغاية منها ؟ هل أعقب التوتر استرخاء ؟ وكيف قابلها الطرف الآخر ؟ هل كانت فى ذاتها ، حيث هى واقعة ، مصدرا لسلوك آخر مواجهامن

متداولة كما أن Rohleder يستخدم إصطلاح auto-monosexualité على حين هرشفلد يفضل كلمة monosexuel دون الحاجة إلى إضافة auto . رغم ذلك فإن الاصطلاح المتداول قد دخل العرف ولا يوجد مايدعو لتغييره . هذا مع ملاحظة أن كلمة الحب الذاتى من الممكن أن تكون مجموعة سلوكية أكثر اتساعا من عشق الذات أو النرجسية حيث تصير هذه تطبيقا هاما ولكن ليست التطبيق الوحيد . انظر المرجع السابق ذكره ص ٨٧ ومابعدها . وقارن :

NACHT, Le masochisme, 1965, p. 33

(١) حول تحليل شخصية هتلر الفقه لا زال متناقض ولكن فى بعض الملامح العامة من الممكن أن نسوق بعض الدلالات . انظر بخصوص ماقررناه بصفة خاصة :

SHIRER, The rise and fall of the third Reich, trad. fr., 1960, p. 146 ; BULLOCK, Hitler : a study in tyranny, trad. it., 1955, p. 314

كذلك يجب ملاحظة أن « عشق الذات » يرتبط فى بعض الأحيان بالتعذيب الذاتى وهو ما تعكسه شخصية هتلر . انظر شيرر ، م. س.ذ. ، ص ١٤٨ وما يشير إليه بخصوص خطاب هتلر إلى ابنة شقيقته التى انتحرت بسبب تصرفات هتلر ويعترف لها فيه باتجاهاته الماسوشية . قارن أيضا بولوك ، م.س. ذ. ، ص ٣١٧ .

الطرف الثاني؟ على أن الملحوظة العامة التي يجب أن نؤكدها منذ الآن هي حول العلاقة الوثيقة بين السلوك الذاتي والسلوك الفردي. هذه العلاقة التي تثير تارة الخلط وتارة عدم التفرقة بينهما تسمح بفهم كيف أن السلوك الفردي هو امتداد طبيعي للسلوك الذاتي[1].

هذه العلاقة الوثيقة هي التي جعلت الكاتب العربي المشهور أحمد بن محمد بن أبي الربيع في كتابه السابق ذكره بعنوان « سلوك المالك في تدبير الممالك » يجمع بينهما على صعيد واحد ويفصل عن ذلك التميز في السلوك البشري بين ما أسماه « سيرة الإنسان في نفسه » من جانب و« سيرة الإنسان في بدنه » من جانب آخر. وعندما تعرض لسيرة الإنسان في بدنه ميز بين « الهواء أولا والطعام والشراب ثانيا وما أسماه الحركة والسكون ثالثا والنوم واليقظة رابعا ثم الاستفراغ خامسا وأخيراً الجماع ». وصف الأول بأنه « لكونه خلفا لما يتحلل من روحه ومعدلا لحرارته الغريزية ». وبرر الثاني بأنه « ليصير خلفا لما يتحلل من جسمه ويحفظ رطوباته ». ثم علق على الثالث فحدده بأنه « ليتصرف في ضرورياته ويستريح وقت حاجاته ». وعندما توقف أمام الرابع علله بقوله « لاستراحة القوى النفسانية وتتميم الأفعال الطبيعية ». أما عن الصورة الخامسة فلم تكن في حاجة إلى تحديد : « لإخراج ما لا حاجة اليه من فضول البدن » وكذلك الأخيرة فهي « ليبقى النوع إذ لا سبيل إلى بقاء الشخص دونها[2] ».

ولعل نموذجا عمليا يعكس هذه العلاقة بصورة أكثر وضوحا :

** حالة رقم ٣ : الحب الذاتي وتطوره الى سلوك فردي شاذ :

ذكر لنا كابريو في مؤلفه عن الشذوذ الجنسي لدى المرأة حالة تقليدية لذلك الشذوذ الذي سبق ووصفناه في النموذج السابق بأنه « العشق الذاتي » وقد تحول ليصير تطبيقا من تطبيقات الاشتهاء الجنسي المماثل.

سيدة في الواحد والثلاثين من عمرها جميلة نشطة رشيقة موهوبة للموسيقى والفن تعيش منعزلة عن أسرتها. ذهبت إلى الطبيب تشكو من أرق شديد مع أزمات متتابعة وحادة للقلق والخوف الذي يصل بها إلى

---

(١) السلوك الذاتي مرتبط بالسلوك الفردي بحيث أنه مقدمة له وبحيث يصير هذا الأخير امتداد له. كذلك السلوك الفردي وهو سلوك اجتماعي حلقة تنقلنا إلى السلوك الجماعي وخصوصا في أحد تطبيقاته كما سبق وأوضحنا في هامش ١، ص ٦١. بل ان السلوك الفردي والسلوك الجماعي يتفاعلان كحقيقة واحدة في ظاهرة السلوك الجماهيري. تقدم الأولى الظاهرة القيادية والثانية تعكس مظاهر التوتر والعنف الذي يرتبط بالحالة الجماهيرية. رغم ذلك فإن هذه العلاقة لم تكن موضع عناية علماء الدراسات السلوكية حتى هذه اللحظة. انظر على سبيل المثال وقارن :

FESTER, PERROT, Behavior principles, 1968, p. 280.

(٢) م. س. ذ.، ص ٧٣

حالة من حالات الشلل الذهنى الكامل[1] . من مراجعة تاريخ حياتها فى خلال المراحل الأولى للطفولة والمراهقة تبين فى خلال مرحلة الطفولة أنها كانت موضع تدليل غير عادى من جانب والدتها . كانت تحنو عليها وتحيطها بعطف لا حدود لها . تقول المريضة أنها فى خلال تلك الفترة لم تكن تتصور الحياة ذاتها دون والدتها . كانت تتمنى دائما أن تموت قبل والدتها . وظلت كذلك حتى حدث من جانب والدتها أن اكتشفت تصرفات لها مع شقيق المريضة غير مهذبة فعاقبتها بالضرب العنيف . كانت تستخدم حزاما من الجلد وتظل تضربها به حتى تدمى ظهرها وأقدامها وفى كثير من الأحيان كان يقع ذلك أمام صديقات الفتاة مما كان يثير من جانبهن السخرية منها ومن والدتها . هذه العلاقة بين الأم وابنتها أدت إلى خلق نوع من الشعور بالتخلى وعدم الطمأنينة بل وبالعداوة من جانب الفتاة إزاء والدتها . وإزاء هذا التطور غير الطبيعى راحت الفتاة تسعى لتحقيق عملية احلال فى شخص والدها . ولكن الوالد كان سكيراً عصبيا لم يستطع أن يحقق آمال الفتاة اللاشعورية . ومن هنا اتجه بصرها إلى اخواتها : طفلين وفتاة[2]. المريضة هى أصغر الأبناء الأربعة . لم يكن هناك من بين الإخوة والأخوات من يجذب بصرها سوى الأخ الأكبر . هذا تصفه الفتاة بأنه : « أنانى كذاب وقح » . رغم هذه الكراهية فإن هذا الشاب الذى كان يكبرها بأكثر من ثلاث سنوات كان هو موضع اهتمامها وأملها اللاشعورى باعطائها الحنان الذى فقدته. وهذا الاهتمام لم يأخذ صورة طبيعية : فهى تهتم به لأنها تريد أن تتشبه به ، تريد أن تكتسب جميع صفاته من القوة واللامبالاة . الفتى حاول أن يقيم معها علاقات جنسية . وكانت لهذه المحاولات غير الناجحة أثرها فى خلق العقدة النفسية التى غيرت مجرى سلوكها . أحدث بها ما يسمى traumatisme psychique . فى خلال تلك الفترة أحبت فتاة زميلة لها فى الدراسة و طدت معها علاقات جنسية ايجابية وسلبية . كانت أحلامها تبرزها على أنها عاهرة تتصيد الرجال دون أن يحقق لها ذلك أى إشباع جنسى . مشاعرها تدور حول الشعور بالذنب وعدم الأمان وكراهية الجنس الآخر وتمنياتها بأن تملك مقومات الذكر[3]. وهى لذلك تنتقد الرجال

---

(1) CAPRIO, L'homosexualité de la femme, 1959, p. 237.

(2) انظر تفصيلات ، م. س. ذ. ، ص ٢٤٣ — ٢٤٩

(3) تعترف الفتاة على لسانها كما ورد فى المرجع السابق ذكره بأنها .

« Je ne suis par sûre de mes sentiments. Je manque de stabilité. Je suis sujette a de fortes crises de dépression nerveuse qui me dérangent, qui me privent de bonheur et d'espoir. Je ne suis pas equilibrée et ne puis pas me comporter comme une adulte. L'anxiété domine tout, elle m'empêche d'utiliser mon intelligence, de continuer à me développer, d'être heureuse. Je suis comme un bateau en mer qui ne sait pas ou jeter l'ancre .... ».

وهذه ترجمة حرفية لعبارات المريضة : « لست واثقة من أحاسيسى . أفقد كل شعور بالاستقرار. أخضع لأزمات عنيفة من الانهيار العصبى التى لا تقتصر على أن تخلق فى نفسى حالات ضيق بل وتقودنى إلى أن أفقد أى شعور بالسعادة أو الأمل . لست معتدلة ولا متزنة ولا أستطيع أن أتصرف كشخص بلغ النضج . القلق يسيطر على كل شىء ، يمنعنى من استخدام ذكائى ، من أن أتطور وأنمو ، من أن أكون سعيدة . أشعر بأننى كسفينة فى مهب الرياح لا تعرف أين تلقى بمرساها » .

انظر نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

وتسعى بجميع الوسائل لإذلالهم فضلا عن أنها فى حياتها العاطفية تسعى لأن تؤدى تلك الوظيفة مع غيرها من الفتيات .

تحليل الطبيب المعالج : حالةعنيفة من حالات الحب الذاتى تطورت إلى مقاصة ايجابية بحب لذات الجنس (١)

(ثالثا) الصورة الثالثة من نماذج السلوك البشرى هى السلوك الجماعى : عندما تتحرك الجماعة الكلية بأسرها فى مواجهة علاقتها بجماعة أخرى . الجماعة هنا قد تكون جماعة تابعة وقد تكون جماعة مستقلة . مثال الأولى الأسرة ، الحزب ، النقابة أوالجماعة . مثال الثانية الأمة أو الدولة . كذلك بالمعنى الثانى نتحدث اليوم عن السلوك الدولى (٢) . أيا من هذه التجمعات تصبر مظاهر التعبير عن مواقفها واستجاباتها لتلك المواقف أيضا صورا من صور السلوك البشرى . وصف سلوك جماعة معينة بأنه سلوك استفزازى يعنى بأن تلك الجماعة تتجه فى علاقتها بالجماعة المحيطة بها إلى خلق حالة من التعدى والعدوان بمناسبة أوبدون مناسبة (٣) .

على أن التطبيق الأصيل لمدلول السلوك الجماعى يختلط بمفهوم السلوك الفردى ، أو كما سبق وذكرنا هو سلوك فردى من حيث مقوماته ولكنه يتجه إلى التعميم بحيث يصير سلوكا متداولا ومتقبلا بل وأساسا للسلوك السائد فى مجتمع معين (٤) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

(٢) KELMAN, International behavior, 1966 ; HENKIN, How nations behave, 1968.

(٣) انظر بصفة خاصة حامد ربيع ،فلسفة الدعاية الاسرائيلية ، ١٩٧٠ ، ص ١٦٩ وما بعدها .

(٤) لاحظ أن بعض المؤلفين لا يزال يخلط بين السلوك الجماعى والسلوك الجماهيرى ، والبعض الآخر يخلط بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى . انظر تعريف سملسر للسلوك الجماعى بأنه :

« An uninstitutionalized mobilization for action in order to modify one or more kinds of strain on the basis of a generalized reconstitution of a component of action ».

انظر سملسر ، م. س. ذ. ، ص ٧١ وما بعدها . وهو نتيجة هذا الخلط ينتهى بأن يرفض اعتبار ظاهرة الرأى العام أحد تطبيقات السلوك الجماعى . وهو يكتب فى ص ٧٦ معلقا على ذلك دون أن يستطيع أن يبرر موقفه بقوله :

« Despite these links between public opinion and our definition of collective, we do not treat public opinion as a type of collective behavior .... ».

على أن النقد الجوهرى الذى يجب توجيهه للمؤلف السابق ذكره هو اشتراطه فى السلوك الجماعى لصفة التنظيم ، وهو شرط يؤدى به إلى أن يرفض هذه الصفة على الكثير مما تواضع العرف على اعتباره من قبيل السلوك الجماعى دون أن يخبرنا أين موضعه . والمثل الواضح لذلك هوماأسماه ceremonial behavior . انظر نفس المرجع السابق ذكره ص ٧٤ – ٧٥ .

*** حالة رقم ٤ : العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى : مجتمع تشامبولى :

السؤال الذى نثيره نستطيع أن نعبر عنه بأسلوب آخر أكثر وضوحا : هل السلوك الجماعى عندما يتكون من وحدات سلوكية فردية هو مجرد تجميع للسلوك الفردى أم أنه شىء آخر يعكس خصائص ومواصفات ان لم تكن متباينة فهى على الأقل مختلفة؟ فمثلا فى مجتمع معين ولنفرض بأنه (أ) فإن الرجل هو صاحب المبادرة فى كل ما له صلة بالعلاقة الجنسية ، وعلى العكس ففى مجتمع آخر (ب) نجد أن هذه المبادرة هى من اختصاص وحق المرأة ، مع ما يعنيه ذلك من نتائج فى الموقف المرتبط بالعلاقة بين الرجل المرأة ، فهل نصف هذا التباين السلوكى بأنه سلوك جماعى أم سلوك فردى ؟ إنه فى حقيقته سلوك فردى ولكن صورة التعميم التى ترتبط به والتى تجعله علما على مجتمع معين تجعلنا نصفه بأنه سلوك جماعى . فهل هذا السلوك الجماعى هو مجرد تجميع لبعض الصفات السلوكية لدى الأفراد الذين يكونون الجماعة أم أنه يعكس حقيقة أخرى تبعد عن أن تكون مجرد تجميع لصفات فردية ؟

فلنقدم نموذجا يوضح الخلاف قبل أن نحاول الإجابة عليه .

قبيلة تشامبولى هى إحدى المجتمعات التى تقيم فى داخل جزيرة غينيا الجديدة . بفضل دراسات متعددة قام بها عالم الانثروبولوجيا « ميد » نستطيع أن نصف خصائص العلاقات الاجتماعية التى تسيطر على تلك القبائل[1] . فالمنزل يتكون عادة من الرجل مع زوجته أوزوجتان (فى أغلب الأحيان تربطهن علاقات الدم أو الانتماء إلى نفس العشيرة) وكذلك الأبناء غير المتزوجين وفى بعض الأحيان واحد أو أكثر من الأبناء المتزوجين مع زوجاتهم . العلاقة بين الزوجات يسودها الحب والتفاهم والتضامن . رغم أن المنزل والأرض اسميا تنتمى إلى الزوج الذى هو رب الأسرة بل وتنتقل من الأب إلى الابن الذكر ولكن العرف ينسب المنزل إلى الزوجة على أنه منزلها . الرجال يقضون القليل من الوقت فى منزل الأسرة حيث أن أغلب وقتهم يقضونه فى المنازل المخصصة للطقوس الجماعية . فنشاط الرجال يدور حول هذه الطقوس حيث أن كل رجل هو فنان يوجه كل قدراته إلى واحد بل وأكثر من صور الفن : الرقص، النقش، الرسم بالألوان ليست إلا بعض نماذج . كل رجل لا يوجه همه إلا إلى ذلك الذى يتصل بهذا النشاط وتبعا لمركزه الاجتماعى فى داخل القبيلة : يقضى الرجال كل وقتهم فى هذه المنازل لإعداد طقوسهم أو لتنمية قدراتهم الفنية وتزيين أجسادهم . ترتب على ذلك أن علاقاتهم بعضهم بالبعض يسودها الشك المتبادل وعدم الثقة . كذلك نتيجة لهذا الوضع فإن الذكور يعيشون عالة على نشاط الزوجة . لأن هذه هى التى تتولى جميع النشاطات المرتبطة بالنواحى المعيشية لا فقط داخل المنزل وتلك المتصلة باعداد الطعام بل وكذلك تلك الخاصة بالوظائف الاقتصادية فى أوسع معانيها من صيد ورعى وما فى حكم ذلك . وهكذا نجد أنه من حيث الواقع فإن الرجال يجدون أنفسهم فى حالة تبعية تكاد تكون مطلقة فيما يتعلق بحاجات الحياة اليومية للمرأة[2] . ونتيجة ذلك أن الرجال لايستطيعون أن يتمموا لا فقط زواجهم بل وزواج أبنائهم دون أن تكون العمليه برمتها قد تمت بموافقة المرأة المسئولة فى المنزل . بينما علاقات الرجال يسودها عدم الثقة والشك فإن علاقات الرجال نحو النساء يسودها الخوف وعدم الطمأنينة . الرجل يواجه المرأة بخجل ومرد ذلك بطبيعة الحال أن الطمأنينة المادية للذكر تتوقف على ما تعطيه إياه الأنثى . النساء على العكس قوية وشجاعة تتصف بعدم المبالاة والاستهتار الذى يبلغ حد الإباحية. فيما بين النساء نوع من الصداقة والتضامن يربط بينهن . المرأة تميل دائما إلى أن تأخذ بعملية المبادرة بخصوص النواحى الجنسية وقيادة الموقف حيث تنظر إلى الرجل على أنه الجنس الضعيف.

---

(١) MEAD, Sex and temperament, 1965.

(٢) NEWCOMB, Social psychology, 1958, p. 39.

على أن هذا التميز بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى يصير أكثر وضوحا فى نطاق تحليل وقياس الرأى العام[1] .

والواقع أن هذا السؤال أثار الكثير من النقاش . فهل من المكن تصور رأىعام جماعى مختلف عن مجموعة الآراء الفردية التى يعلن عنها قسم معين فى داخل المجتمع؟ الإجابة تعنى التفرقة بين الرأى العام الجماعى والرأى العام الفردى ، وبعبارة أخرى لنفترض أننا بصدد البحث عن اتجاهات الرأى العام جاءت الينا النتائج بأن قسما ضخما من المجتمع يتفق فى رأيه حول الموضوع ولكن دون أن تكون الوحدات التى عبرت عن آرائها تعبر عن صفات مشتركة أوفى تعبيرها عن صفات مشتركة لاتعكس وحدة اجتماعية متماسكة وبعبارة أخرى لم يكن هذا التوافق سوى نتيجة المصادفة . ولنفترض أننا فى موقف آخر فاذا بجميع الأفراد أوأغلبهم الذين ينتمون إلى وحدة اجتماعية معينة — طبقة اجتماعية ، وحدة إقليمية ، أقلية سياسية ، تجمع حزبى مثلا — قد عبروا عن رأى واحد . فى الحالة الأولى نستطيع أن نقول بأن الرأى العام هو تجميع لآراء فردية ، أما فى الحالة الثانية فهو تعبير عن رأى جماعى[2] . فلو طرحنا مثلا على الرأى العام الفرنسى موقفه من الجنرال ديجول ، ولنتصور أن ٣٥٪ من الحاضرين أجاب بتأييده فان هذا فى ذاته لايعنى رأيا عاما جماعيا . ولكن لوتبين لنا من تحليل الإجابات أن طبقة المثقفين المقيمين فى الريف تؤيد الجنرال ديجول فى حين أن غير المثقفين فى الريف وغير الريف لايؤيدون الجنرال ديجول وعلى العكس من ذلك فان المثقفين فى المدن الكبرى يرفضون أن يدلوا برأى واضح . فان هذا يعنى أن هناك رأيا عاما جماعيا حيث أن الرأى يعكس اتجاه وحدة بشرية هى ليست مجرد مجموعة من الأفراد وإنما هى تجمع جماعى بكل ما تعنيه هذه الكلمة .

*** حالة رقم ٥ : تطور الرأى العام المحلى فى قرية الموود :

وهذا مثل آخر واقعى يثبت كيف أن الرأى العام الفردى ليس هو الرأى الجماعى . فى قرية صغيرة فى ضواحى مدينة نيويورك باسم الموود[3] ، أثيرت مسألة إعادة بناء المدرسة المحلية . المشكلة مردها أنه لم يعد بالقرية عدد كاف من الأطفال لبناء مدرسة جديدة ومن ثم فقد دار التساؤل حول رأى أهالى القرية فى اتخاذ واحد من حلول ثلاثة : إعادة بناء المدرسة رغم ذلك فى القرية ، أم الاكتفاء ببناء مدرسة فى القرية المجاورة بحيث تغطى احتياجات كلا القريتين ، أو إعادة بناء مدرسة فى قرية أخرى أو مكان آخر يفضله أهل قرية الموود ، جاءت الإجابة بالشكل التالى :

---

(١) MENDRAS, Elements de sociologie, 1967, p. 76.

(٢) قارن نفس المرجع ص ٧٧

(٣) Elmwood أورده المرجع السابق ، ص ٧٨ .

- ١٥٪ يطالبون ببناء المدرسة فى القرية.
- ٦٢٪ يعتقدون أن أى حل من الحلول الثلاثة مقبول.
- ٣ ٪ يرون بناء المدرسة فى مكان آخر غير القرية.

وهكذا يتضح من هذه الإجابات أنه لم يكن هناك رأى جماعى. عقب ذلك وعقب دراسة الموضوع أخطرت الوزارة المختصة الإدارة المحلية بالقرية بأنه قد تقرر بناء المدرسة وأنه من الضرورى اتخاذ قرار بموضوع البناء[١]. ومن ثم طرح الموضوع مرة ثانية فجاءت الإجابة على الشكل التالى:

- ٧٧٪ يطالبون ببناء المدرسة فى القرية.
- ٦ ٪ يقررون بأنهم يفضلون البناء فى القرية المذكورة.
- ٦ ٪ دون رأى محدد.
- ١ ٪ يقترحون مكانا آخر.

وهكذا ولد رأى عام جماعى. ويفسر هذا علماء الاجتماع بأنه فى خلال تلك الفترة كان قد تكون رأى عام جماعى حيث أضحت المشكلة موضع مناقشة وتأمل. ويستنتج من هذا علماء الاجتماع ملحوظة هامة وهى أنه لا يجوز عمل استبيان وتساؤل لمعرفة آراء المجتمع حول مشاكل لم تتكون بخصوصها بعد آراء واضحة أو محددة[٢].

والخلاصة التى يجب أن ننتهى إليها هى أن العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى واضحة ومحددة: فعندما يكون السلوك الفردى حقيقة قائمة بذاتها مستقلة لا ترتبط بتجمع معين له ملامحه وهيكله المعبر فان السلوك يظل فرديا. ولكن فى الحالة الثانية أى حيث يقبل السلوك الفردى لظاهرة التعميم، ولكن ليس التعميم الذى هو دليل المصادفة وإنما نتيجة للارتباط بمتغير معين يعود أساسا إلى الصفة الجماعية فانه يصير سلوكا جماعيا.

(رابعا) النموذج الأخير من نماذج السلوك البشرى يحدد بأنه سلوك جماهيرى[٣]. ذلك أن الجماعة البشرية، كالفرد، تصيبها من آن لآخر حالات من التمزق العنيف فاذا بها تنتقل إلى حالة الهياج والتوتر الذى يرتبط به ويصاحبه الكثير من أعمال العنف

---

(١) يقدم لنا الكاتب السابق ذكره أسلوبا عمليا من حيث التحليل الاحصائى لاكتشاف من خلال تحليل البيانات عن حقيقة الرأى العام الذى عبرت عنه الأرقام: هل هو رأى عام فردى أم أنه رأى عام جماعى؟ انظر نفس المرجع، ص ٧٧ – ٧٨

(٢) قارن أيضا نفس المرجع، ص ٧٩.

(٣) المراجع فى هذا الموضوع لا حصر لها. فى مطول علم النفس الاجتماعى الذى سوف نحيل إليه كثيراً، وبمناسبة تحليل ظاهرة السلوك الجماعى قدم لنا أكثر من ثلثمائة مرجع.

انظر:

MILGRAM, TOCH, Collective behavior, crowds and social movements, in LINDZEY, ARONSON, The handbook of social psychology, vol. IV, 1969, p. 603 - 610.

كالتخريب والضرب والاعتداء الجسدى الذى قد يبلغ حد القتل . هذه الصور المختلفة من صور الهياج الجماعى أضحت اليوم ظاهرة متكررة تطالعنا بها الصحف يوميا[١] . ورغم اختلاف درجات العنف قوة وضعفا ، انتشارا وتكرارا من عدمه ، فإن ما يميز السلوك الجماهيرى هو عدم الاقتصار على التعبير عن حالة الغضب أوالتوتر بسلوك قوى أو بأفعال معتدلة . أنه يمتاز بالتطرف والعنف:

الظاهرة الجماهيرية بهذا المعنى هى ظاهرة جماعية ولكنها تتميز بخصائص معينة تبرر أن نفرد لها دراسة مستقلة . كذلك فان السلوك فى داخل تلك الجماعة يختلف ويخضع لقواعد متميزة . هو يختلف أولا سواء على مستوى الفرد أو الجماعة . فالسلوك العنيف الذى قد يصل إلى حد الجريمة يبرز فى صورة استثنائية بل وفى كثير من الأحيان لاشعورية حتى أن الفرد عندما تهدأ حالة التحزب ويعود إلى وعيه يتساءل عن أسباب إتيانه لتلك التصرفات . وهو سلوك مؤقت كما يشتعل بسرعة ينتهى وينطفىء بسرعة لتعود الجماعة إلى حالة الاسترخاء الطبيعى . وهو يرتبط بظواهر معينة ومحددة كالقيادة والخوف أو الذعر والإشاعة : جميعها ظواهر جماعية تصير ذات مذاق خاص وأبعاد مختلفة فى حالات التوتر الجماهيرى[٢] .

---

(١) انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٥١١ وما بعدها حيث يجمع من خلال متابعة جريدة نيويورك تايمز فقط خلال عام ١٩٦٤ مائة حادثة جماهيرية . وقارن أيضا ملاحظاته م.س. ذ. ، ص ٥١٥ — ٥١٧ .

(٢) حقيقة يجب أن نلفت نظر القارىء إليها رغم أننا سوف نعود إلى تحليلها تفصيلا فيما بعد . ولكن كونها ترتبط بالأسس العامة الفكرية التى نبنى عليها نظريتنا فى تحليل الظاهرة السلوكية ، وقد بدأت تتضح بعض ملامحها منذ الآن تفرض علينا أن ننبه إليها القارىء . فالذات التى تنبع منها الحركة ليست هى السلوك الذى هو مظهر التعبير عن الحركة . إن الوجود البشرى لا يعدو أن يكون فردا — ذكرا كان أم أنثى — ثم جماعة . وهكذا فمصادر الحركة لا تعدو أن تكون إما فرد أم جماعة . ولكن السلوك يتعدد دون أن يرتبط ارتباطا حتميا مطلقا مع مصدر الحركة . فالفرد قد ينبع منه سلوك ذاتى ، أو سلوك فردى أو سلوك جماعى ، بل إنه هو ذاته يصير مصدرا للسلوك الجماهيرى فى داخل حالة التوتر الجماهيرى تبعا لوظيفته فى الفتق العنيف الذى أدى إلى السلوك الجماهيرى . كذلك الجماعة هى بدورها مصدر للسلوك الجماعى والسلوك الجماهيرى ولكنها أيضا تؤثر وتتأثر وتتفاعل إيجابا وسلبا بالسلوك الفردى .

ولعل إلقاء نظرة على الشكل رقم (٢) المرفق يسمح بفهم موجز لهذه الملاحظة ، ص٦١ .

كذلك يجب أن نتذكر أيضا أن الظاهرة الجماهيرية mass phenmena ليست هى المجتمع الجماهيرى mass society . الأول يرتبط بالسلوك الجماهيرى . كما حددناه فى النص ، أما الثانى فيقصد به المجتمع السياسى المعاصر فى خصائصه العامة حيث أضحى يتميز بسيادة الكم على الكيف وسوف نعود لتفصيل ذلك فيما بعد . قارن أيضا البحث الأساسى رغم قدمه نسبيا :

BROWN, Mass phenomena, in LINDZEY, Handbook of social psychology, vol. II, 1954, p. 833.

*** حاله رقم ٦ : الشغب الجماعى فى لوس انجلوس ١١-٨-١٩٦٥ :

أحد نماذج الشغب الجماهيرى التى تتكرر يوميا تقريبا فى المجتمع الأمريكى يسمح لنا بفهم نموذج للسلوك الجماهيرى . الظاهرة كان مسرحها الحى الذى يقيم به الزنوج فى لوس انجلوس خلال الأسبوع التالى ليوم الأربعاء الموافق ١١ أغسطس ١٩٦٥ . المواطن العادى فى تلك المنطقة كان يقيم فى منزل صغير قديم ليست به أى مظاهر الراحه أو التقدم . الاحصاءات تفصح بوضوح عن عمق المشاكل الاجتماعية التى تسيطر على المجتمع الزنجى الذى انبعثت منه حركة الشغب . فالأبناء أغلبهم من أسر محطمة حيث ٣٠٪ لا يعيشون مع آبائهم. متوسط الطلبة الذين يطردون من مدارسهم كان أكثر من ضعف العدد العادى فى أى مدرسة أخرى خارج ذلك الحى . فقط ثلث الأبناء المقيمين قدر لهم الاستمرار فى المدارس المتوسطة . أغلبية المقيمين أصلهم مهاجر من الجنوب وهم كذلك من حيث المهنة التى يؤدونها يندر أن يوجد بينهم من يمثل مهارة فنية معينة . نسبة التعطل بين أهالى المنطقة كانت تزيد عن ثلاثة أضعاف نسبتها فى المناطق الأخرى المحيطة بالحى الزنجى . أكثر من خمس الأسر دخلها يقل عن ثلاثة آلاف دولار فى العام وهو أكثر المستويات انخفاضا فى المجتمع الأمريكى . الشغب نشب فى شهر أغسطس وبالذات خلال فترة وصفتها الصحافة اليومية بأنها من أكثر الفترات التى عرفتها البلاد من حيث الحرارة والرطوبة(١) .

ارتبطت بالشغب المذكور بعض وقائع قدمت له جديرة بأن تكون موضع التنويه لفهم الإطار النفسى العام الذى ساد الفترة الزمنية . ففى نفس اليوم الذى بدأ فيه الاضطراب الذى قاد إلى حالة الشغب العنيف كانت قد بدأت عملية تسجيل الناخب الأسود فى الجنوب تنفيذا لقانون الحقوق المدنية . والواقع أن الثورة السوداء كانت قد بدأت تأخذ صورة واضحة وعنيفة منذ ثلاثة أعوام على الأقل سابقة على حوادث الشغب المذكورة . وفى نفس الفترة من العام السابق حوادث عنيفة مماثلة وقعت بصفة خاصة فى نيويورك وروشستر . أضف إلى هذا واقعة هامة : قانون مكافحة الفقر الذى كان قد أصدره الرئيس جونسون لم يقدر له التطبيق الحقيقى فى مدينة لوس انجلوس بسبب عدم ارتياح حاكم المدينة لما ورد به من نصوص وما تضمنه من إجراءات(٢) .

بدأت الحوادث يوم الأربعاء ١١ أغسطس ١٩٦٥ عندما ألقى ضابط بوليس من الجنس الأبيض القبض على شاب أسود فى حالة سكر وهو يقود سيارة . الشاب حاول المقاومة فى حضور تجمع من المارة كانت نياته العدائية ضد الضابط واضحة . لجأ هذا الأخير إلى طلب المعونة من سيارة بوليسية لمساعدته بعد أن أخرج مسدسه مهددا به الشاب .

لم يقتصر الضابط على القبض على الشاب بل قبض على والدته وشقيقه وحملهم معه فى سيارة البوليس . استخدم العصا فى ضرب الشاب الأسود لحمله على الصعود إلى السيارة . وكان ذلك دائما بحضور الجمهور الذى تجمع حول المشهد . أحد الحاضرين(٣) قرر فيما بعد لمراسل جريدة التايم : « عندما حدث ذلك أصاب جميع الحاضرين نوع من الجنون . كذلك أنا فقد أصابنى نفس الشعور » .

---

(١) San Francisco Chronicle, August 18, 1965.

(٢) Newsweek, August 20, 1965.

(٣) ينقل إلينا ملجرام ، توش ، م. س. ذ. ، ص ٥٧١ نفس عبارات المتظاهر :

« When that happened, all the people standing around got mad. And I got mad ». Time, August 20, 1965.

ما أعقب ذلك جدير بالتحليل :

(أ) إشاعات حول وحشية البوليس بدأت تنتشر بسرعة بين الجماهير . ولم تمض عدة ساعات حتى كانت الجمهرة قد ارتفعت إلى مالا يقل عن الفى وخمسمائة شخص . ولم يقف هذا الحشد ساكنا إذ راح يقذف سيارات البوليس المارة بالحجارة والطوب بل وفى مرحلة لاحقة تعدى ذلك إلى السيارات الأخرى التى لا علاقة لها بحفظ الأمن .

(ب) فى خلال اليومين التاليين بدأت ظاهرة التجمهر تزداد حدة وتعبر عن نفسها بأعمال عنيفة ووحشية فردية وقليلة فى أول الأمر سرعان ما انتشرت إلى درجة مخيفة فى نهاية اليوم التالى . ففى صباح اليوم الأول التالى مباشرة للحادث بدأت تظهر تجمعات فى مختلف أحياء المدينة مرتبطة ببعض أعمال العنف لتكسير النوافذ وتخريب بعض المحلات والدخول فى بعض « البارات » بشكل استفزازى وتحطيم بعض ما بها . فى اليوم الثانى بدأ الصباح بتجمعات ثلماة ولكن كانت قد أعدت خلال ذلك بعض القنابل اليدوية . أعمال العنف امتدت لتغطى أكثر من نصف المدينة . بدأت أعمال الاعتداء تتحدد ضد الرجل الأبيض . الاعتداءات فقط على هؤلاء ومصحوبة بعبارات كهذه : « هاهو الأبيض ، امسك به واقتله » . أو « اقتل يا ولد واحرق » ، قدر عدد المشتركين فى مساء اليوم الثانى فى أعمال العنف بأنهم ارتفعوا إلى مالا يقل عن عشرة آلاف من بينهم فتيات وشيوخ مسنين بل وبعض الأطفال.

(ج) فى اليوم الثالث بدا أن الأمر وقد بدأ يفلت من يد السلطات . فقد اتسع الشغب وخرج يمتد إلى خارج المدينة . ولوحظ الإقبال على شراء البنادق وكان ذلك بطبيعة الحال من البيض لمحاولة الدفاع الذاتى عن النفس . بدأ البوليس والحرس القومى يخرج عن التحفظ ويطلق النار على كل من يشك فى أمره . تم احتلال المنطقة مصدر الشغب من جانب الحرس القومى الذى كان قد دعى للتدخل . كانت حصيلة الشغب : ٣٤ قتلى ، ١٠٣٢ جرحى ، خسارة قدرت بحوالى ٤٠ مليون دولار منها ٨٠٠ منزل ومبنى دمرت تدميراً مخيفا [١] .

ورغم أن هذا الاضطراب لم يخضع لدراسة ميدانية متكاملة إلا أن من تعرض له بالتحليل يضع « وحشية البوليس» كمحرك أساسى فى خلق حالة التوتر التى قادت إلى هذا الشغب الجماعى . ينقل إلينا العالم الأمريكى توش أحد من تناول هذا النموذج بالدراسة عبارة وردت على لسان أحد المتظاهرين أدلى بها إلى محرر جريدة « سان فرانسيسكو كرونيكل » كافية للتعبير عن هذه الحقيقة [٢] يقول المتظاهر : «ان الشغب سوف يستمر لأننى أنا الأسود ينظر إلى من جانب البوليس وتلقائيا على أننى مجرم . وإذا وجدت مع امرأة جميلة برفقتى فلا بد وأن تعتبر مومسا حتى لوكانت زوجتى أووالدتى » .

(ب) إذا تركنا جانبا الذات التى تنبع منها الحركة والتى بها تتحدد خصائص السلوك ونظرنا إلى مضمونه أو بعبارة أخرى إلى حقيقة الهدف الذى يكون الطاقة التى منها ينبعث السلوك واليها يتجه فاننا نستطيع أن نميز بين نماذج عديدة . السلوك فى حقيقته وبغض النظر عن تطبيقاته هو لا يعدو أن يكون سعيا لإيجاد حل لمشكلة معينة لم يستطع الفرد أن يجد حلا لها استنادا إلى قواه الذاتية . وهو لذلك يسعى

---

(١) انظر التفاصيل ، فى نفس المرجع السابق ذكره ، ص٥٧٢ ومابعدها .

(٢) أورده نفس المرجع ، ص ٥٧٤ .

إلى مستوى من مصادر الطاقة أكثر اتساعا من مصادره الذاتية [١] .

وبهذا المعنى يفترض السلوك حقيقة مزدوجة :

(أولا) أن الفرد يستطيع أن يتأقلم ويتفاهم مع العالم الأكثر اتساعا من عا
المقيد دون أن يعنى ذلك نوعا من التوتر أو الاخفاق فى عالمه النفسى .

(ثانيا) أن العالم الذى يحيط به يقبل الأخذ والعطاء، فى حركة دافقة تقدم وتأخذ ؤ
آن واحد . وهكذا فان السلوك فى صورته الطبيعية تعبير عن التكامل والثقة والقوة
السلوك الذاتى رأيناه فى أحد تطبيقاته هو تعبير عن حالة مرضية وهو اتجاه الفر
لأن ينطوى على نفسه ويرفض تحقيق حاجته الجنسية إلا انطلاقا من ذاته ودو
التعانق مع وحدة بشرية أخرى .

مضمون السلوك أو جوهره بهذا المعنى صوره عديدة :

١ ــ فهناك أولا السلوك الجنسى وهو أكثر صور السلوك البشرى تعقيدا وأكثره
صعوبة فى التحليل رغم أنها كانت ولاتزال موضع الاهتمام الخاص من علماء النفس
الاكلينيكى . والسبب فى ذلك يعود إلى عوامل متعددة : فالى جانب أهمية السلو
الجنسى الذى يدفع بفرويد واستنادا إلى حقائق ذات دلالة إلى أن يجعل منه محو
الوجود الفردى ، فان هذا السلوك هوأحد النماذج الواضحة بل الوحيدة التى تجم
فى الإنسان بين خصائص السلوك العاطفى والسلوك الغريزى بمعايير متساوية يصعب
بل ويستحيل الفصل بينها . أضف إلى ذلك أن السلوك الجنسى بالذات هو صور
واضحة للتحليل الاجتماعى حيث يصعب بل ويستحيل البحث التجريبى بمعنى خل
التجربة والإمساك المباشر بالظاهرة. ورغمأن العالمين الأمريكيين ماسترز وجونسو
قد استطاعا خلال ستة أعوام انشاء معمل حقيقى لتحليل السلوك الجنسى ، إلا أ
هذه التجارب لايمكن إلا أن تثير الكثير من السخرية من جانب علماء التحليـــ

---

(١) هذه هى القاعدة العامة . ولكن الاستثناء يصير هو السلوك الذاتى عندما يتجه الفرد إلى قو
ومصادره الذاتية لإشباع تلك الحاجة. وذلك بطبيعة الحال بشرط أن تكون طبيعة الحاجة هى التى تفرض عليه الالتج
إلى القوى غير الذاتية لإشباع الحاجة . فالطبيعة تأبى مثلا أن يشبع الإنسان حاجته الجنسية عن طريق الاتج
إلى ذاته . هذا المفهوم نستطيع أن نتوسع فى تطبيقه : سواء بأن تفهم الذات على أنها ليست فقط النفس ؛
وكذلك امتداداتها الطبيعية . فالأبناء بالنسبة للآباء هم امتداد لذاتهم . ومن ثم فالأب الذى يعاشر ابنته أو الأ
التى تتصل جنسيا بابنها هى صورة لذلك الحيوان الذى يصيبه الجوع فيتجه إلى أبنائه يلتهمهم . هذه جميع
صور شاذة للسلوك فى تطبيقاته الذاتية . انظر قائمة المراجع فى :

BRECHER, An analysis of human sexual response, 1966, p. 313.

السلوكى[1] .

٢ ــ ثم هناك السلوك السياسى الذى يجعل من مضمون التعامل مع السلطة وحدة وجوهر السلوك الفردى . فالمواطن فى علاقته بالسلطة لايعدو أن يكون واحدا من ثلاث : أما حاكم يزاول السلطة فهو يريد أن يحتفظ بها . وأما محكوم عليه أن يخضع طائعا أو مكرها لأوامر السلطة ولتعاليمها . وأما معارض ينتمى إلى طائفة المحكومين ولكنه يتحين الفرصة وينتظر اللحظة المناسبة لأن يستطيع أن يثب على السلطة فينتقل من موقف المحكوم إلى مقعد الحاكم . هذه المواقف الثلاث تفرض أنماطا مختلفة للسلوك تدور جميعها حول معاملة السلطة السياسية . وهذا مانسميه بالسلوك السياسى .

السلوك السياسى على المستوى الجماعى يعيد إلى الذهن نفس التعقيد ويكرر نفس الصعوبات التى ذكرناها بخصوص السلوك الجنسى . والواقع أن أصعب صور السلوك من حيث التحليل تتركز فى هذين النموذجين . ذلك أن السلوك السياسى بدوره وبسبب ما يحتويه من شحنات انفعالية وما يفرضه من تعصب وعنف يبلغ فى بعض الأحيان حد الصور المرضية ، يثير مشاكل عديدة لاحصر لها . أضف إلى ذلك تعدد المتغيرات إلى مالانهاية التى منها وبها يتكون ويتشكل السلوك السياسى[2] .

٣ ــ إلى جانب هذين النموذجين ، فان نماذج السلوك لاحصر لها تبعا للموضوع وللمضمون الذى قد يتكون منه السلوك . فهناك السلوك الاجتماعى . وهناك السلوك العاطفى مثلا[3] . وهنا يجب أن نلاحظ أن أيا من هذه الصور قد يتكون من العديد من الصور السلوكية التى تتجمع حول هدف واحد والتى قد يكون البعض منها مقدمة لسلوك آخر أو خاتمة لسلوك سابق . إحدى الصور التى سوف نتعرض لها بشىء من التفصيل هو السلوك الاقتصادى أى ذلك المرتبط بالحاجات الاقتصادية أى تلك ذات القيمة المادية .

على أن الملاحظة العامة الجديرة بالذكر هى أنه إذا كان كلا السلوكين الجنسى والسياسى صالحين للدراسة التحليلية المستقلة عن الصور السلوكية الأخرى حيث أنها

---

(١) قارن رغم ذلك وعن تلك التجارب الوارد ذكرها فى النص مقال العالم الأمريكى بريخير وزوجته بعنوان « الجنس فى المعمل » ، فى المرجع السابق ذكره فى الهامش السابق ، ص ١٧ وما بعدها . وبصفة خاصة ملاحظات نفس الهامش ص ١٠٣ وما بعدها حيث يتساءلان :

« Should this sex research be allowed to go on ? »

(٢) انظر حامد ربيع ، نظرية الدعاية الخارجية ، محاضرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٦٨ — ١٩٧٠

(٣) emotional behavior.

تملك كيانا مستقلا قائما بذاته ، فإن الصور الأخرى السلوكية لايمكن فصلها عن الإطار العام للوجود الاجتماعى . ولعل هذا يفسر لماذا البعض[1] عندما يتعرض لدراسة السلوك الاقتصادى يفضل أن يطلق على تحليله « الإطار الاجتماعى للسلوك الاقتصادى » .

(ج) على أن السلوك قد يخضع لتنوع آخر تبعا للصفة الغالبة عليه : وبهذا المعنى يتداول اصطلاح « السلوك المرضى » أو « السلوك العدوانى » أو « السلوك الغريزى » . على أن أول ما يجب أن نلاحظه أن هناك فارق هام وأساسى بين التمييز بين أنواع السلوك تبعا لإحدى خصائصه الواضحة التى تصبغ على السلوك صفة عامة معبرة والتفرقة بين نماذج السلوك تبعا لموضوع أوهدف أومضمون السلوك . ذلك أن السلوك فى هذه الحالة الثانية يرتبط بنظام عام كلى للمواجهة الفردية . أنه ليس مجرد وصف للسلوك وإنما هو إحالة للسلوك إلى عالم كامل من القيم والمبررات يرتبط بها السلوك لافقط من حيث وجوده وعدمه بل وكذلك من حيث مختلف مظاهر التعبير عن وجوده . فالقول بأن هذا السلوك مثلا هو سلوك جنسى يعنى الإحالة إلى عالم كامل من القيم السلوكية والاتجاهات المرتبطة بإشباع الحاجة التى تستتر خلف السلوك . على العكس من ذلك وصف السلوك بأنه سلوك مرضى لايعنى أكثر من صبغه باحدى خصائصه التى تبرز من بعض مظاهره أوتعبيراته .

١ ــ السلوك الغريزى هو ذلك المرتبط أساسا باحدى الغرائز الثلاث : الجوع والعطش والجنس . وهنا بصفة عامة فى هذه المظاهر السلوكية الثلاث يقترب السلوك الإنسانى من السلوك الحيوانى بحيث يصبر هذا الأخير مصدر هام من مصادر جمع المعلومات والتجريب بالنسبة أيضا للسلوك البشرى[2] .

٢ ــ السلوك المرضى يعنى كل صورة من صور السلوك تتضمن خرقا للتطور الطبيعى لتكوين رد الفعل ازاء المنبه الذى حدد الحركة والذى هو مصدر انطلاق الطاقة . السلوك بصفة عامة يتحدد بعاملين : التطور النفسى للذات الفردية من جانب ثم طبيعة ومدى حالة التأزم التى خلقت الموقف الذى منه انبعث التصرف . أى عامل خارجى أو داخلى يؤدى إلى تطور خاطىء للمقومات النفسية أو لتضخيم حالة التأزم فان هذا لابد وأن يؤدى إلى نوع من الاضطراب . ومن ثم فان السلوك لابد وأن يخضع لهذا الاضطراب فاذا به سلوك مرضى . الحالة المرضية بهذا

---

(١) على سبيل المثال انظر:
TUCKER, The social context of economic behavior, 1964, p. 4.

(٢) BARUK, La psychologie expérimentale, 1964, p. 100 - 104.

المعنى لها بدورها درجات تبدأ من الصور البسيطة وحيث الكلمة لاتكاد تعبر عن وجودها إلى تلك الصور التى تبلغ أقصاها فاذا بنا فى حالات من الجنون الحقيقى أو الإجرام العنيف (١) .

٣ ــ السلوك الاستفزازى (٢) بدوره تطبيق من تطبيقات السلوك المرضى . يقصد به فى أوسع معانيه كل سلوك عدوانى حيث لايسبقه ما يبرر هذا التعدى . هو يفترض حالة من التحدى الدائمة بحيث أن الذات البشرية تندفع فى مواجهة الحقيقة البشرية الأخرى فى سعى للقضاء عليها أوشل حركتها دون أن يصدر من هذه الأخيرة ما يبرر ذلك .

*** حالة رقم ٧ : تعدد أنواع ونماذج السلوك : أبحاث ستاينيجر على الفأر الأسود :

الخصائص والتقسيمات السابقة تتفاعل الواحد منها مع الآخر ، بحيث أن السلوك الفردى أوالجماعى أو الجماهيرى من الممكن أن يكون جنسيا أو سياسيا أواقتصاديا كما أنه من الممكن أن يكون مرضيا أو غريزيا أواستفزازيا .

ولنضرب بعض الأمثلة :

فالسلوك الجماهيرى مثلا من الممكن أن يكون جنسيا . والنموذج الواضح المعبر عن ذلك هو هتك العرض الجماهيرى . فى صيف عام ١٩٥٨ خرجت علينا الصحافة الإيطاليه بحادثة تبدو غريبة لأول وهلة ولكنها صحيحة أدت إلى توتر العلاقات الدبلوماسية بين ايطاليا والسويد . تتلخص وقائعها فى أن فتاتين من السويد كانتا تقضيان العطلة الصيفية ببولونيا ، مدينة ايطالية مشهورة بجمالها تقع فى منتصف الطريق بين روما وميلانو . وتعودت كلتا الفتاتين أن تقضيا اليوم فى حمام للسباحة خاص يتردد عليه أغنياء المنطقة . ويجب أن نتذكر

---

(١) كولمان ، م.س.ذ. ، ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) Aggressive behavior.

لاحظ أنه من الممكن ترجمة هذا الاصلاح كما يفعل البعض بالسلوك العدوانى ولعل هذه الترجمة أكثر تعبيراً عن المدلول الحرفى ، إذ أن كلمة agression ترجمتها الحرفية هى التعدى أو الافتئات أو كما يعرفه صاحب المورد « هجوم لم يسبقه استفزاز يبرره » . على أننا فضلنا أن نصف ذلك السلوك بأنه استفزازى لتأكيد أن فكرة العدوانية لا يفترض فيها أن تكون فعلية وجسيمة بل يكفى أن تكون قوية أومحدودة بحيث أنه يتحقق فى كل حالة لا يوجد فيها توازن بين الحركة الإيجابية من مصدر السلوك العدوانى والمنبه الذى خلق حالة الشعور بالعداوة . ولعل هذا أكثر اقترابا من المدلول الحقيقى للمفهوم. على كل فن الممكن استخدام كلا الاصلاحين كمرادفين وهوما قد فعلناه فى أكثر من موضع واحد فى هذا المؤلف .

انظر فى الموضوع وكذلك مراجعه :

LORENZ, On aggression, 1967, p. 93.

أن هذه المدينة بالذات أحد قلاع الأرستقراطية الإيطالية . على أن كلا الفتاتين ، كما أظهر التحقيق ذلك فيما بعد ، تعودتا كل يوم أن تشجعا اثنين من الشبان ليتوليا المرافقة فى المساء بين الأندية وفى المطاعم الأنيقة[١] . وكانت خطة الفتاتين تتلخص فى كلمتين : من جانب عدم تكرار الدعوة لأكثر من يومين ، ومن جانب آخر رفض أى تشجيع للشباب الذى يتطوع بالمرافقة . ولكن الأمر لم يقتصر على هذا الحد ، بل كان دائما يرتبط بانفاق ضخم . ظل الحال على هذا المنوال حوالى شهر كامل حتى كان يوم الحادث فى منتصف أغسطس . وتحدثنا الصحافة اليومية عن أن ذلك اليوم كانت درجة الحرارة فيه قد ارتفعت إلى مستوى لم تعرفه المدينة من قبل مع رطوبة شديدة تزهق الأنفاس لم تتعودها بولونيا من قبل . فى خلال سباحة إحدى الفتاتين حدث منها أن انزلق - لم يثبت التحقيق كيف حدث ذلك - أحد أجزاء رداء الاستحمام الذى كان يتكون من قطعتين . هاجمها أحد الحاضرين فحاولت أن تفر منه إلا أنها سقطت على الأرض خلال تلك المحاولة . تجمع حولها الحاضرون وأغلبهم من ذلك الشباب الموتور وأحاطوا بالفتاة فى منتصف حمام السباحة واغتصبت من جانب عدد قدرته الفتاة بأنهم خمسة عشر شخصا[٢] . على أن الظاهرة الغريبة التى ارتبطت بالواقعة أبعد من عملية الاغتصاب ذاتها . فأولا تم الاغتصاب فى ذلك المكان العام دون أن يحرك أحد من الحاضرين (حيث توجد أسر عديدة كاملة وخدم وحرس) أى أصبع للتدخل لحماية الفتاة . والظاهرة الأكثر من هذا خطورة أن الفتاة الأخرى عندما رأت ما حل بزميلتها أسرعت تختبىء فى الحجرات المعدة لتغيير ملابس النساء ، فلم يتركها الحشد الذى وصل إلى حالة لا مثيل لها من الهياج والعنف الجماهيرى بل هاجمها فى داخل ذلك المكان وأخضعها لنفس ما أخضع له زميلتها . ومما روته تلك الفتاة أن النساء اللاتى تصادف وجودهن فى ذلك المكان لم يقتصرن على تشجيع الشباب المهاجم بالأقوال بل وبالأفعال ، وأن من أرشدت الحشد المهاجم إلى الضحية كانت إحدى السيدات الأرستقراطيات التى تصادف وجودها فى ذلك المكان .

مثل آخر يفسر لنا كيف يمكن أن يكون السلوك العدوانى سلوك جماعى ونستمده من تجارب ستاينيجر على الفئران السمراء[٣] . إذ جمع طائفة ضخمة من الفئران من أماكن مختلفة ووضعها فى مكان متسع مغلق حيث تستطيع أن تجد كل ما هى فى حاجة اليه للمعيشة . فى أول الأمر بدا أن الفئران كل منها خائفا من الأخرى . لم يكن أحد يعتدى أو يسعى لاستفزاز الفئران الأخرى. فى فترة لاحقة بدأت معالم ظاهرة مزدوجة تتحدد : من جانب بدأت الفئران تتركز كل مجموعة فى منطقة معينة . وفى نفس الوقت بدأت تتكون أزواج فى كل من تلك المناطق . وبمجرد أن يتم ذلك تبدأ حركة التعدى المنظمة وتزداد عنفا من جانب تلك الأزواج فى مواجهة الفئران الأخرى التى لم يقدر لها ذلك التزاوج[٤] . بل فى بعض الأحيان كان

---

(١) قارن بصفة خاصة الصور الواقعية التى يعرضها .

HAMBLETT, DEVERSON, Generation X, 1964.

(٢) انظر نواح أخرى متصلة بنفس الموضوع من حيث العلاقة بين العامل الجنسى والسلوك الاجتماعى

WALKER, FLETCHER, Sex and society, 1965, p. 219 ; COMFORT, Sex in society, 1966, p. 48 ; CHESSER, Sexual behaviour, 1964, p. 160; LEWINSOHN, A history of sexual customs, 1964, 24.

(٣) نتائج هذه الأبحاث يجدها القارىء تفصيلا فى :

STEINIGER, Zur Soziologie und sonstigen Biologie der Wanderratte, in Z. Tierpsychol. vol. VII, p. 356 - 379.

(٤) أورده بايجاز لورينز ، م. س. ذ. ، ص ١٣٥ وما بعدها .

تكوين الزوج من الفئران مانعا من تكوين زوج آخر فى المنطقة . ويقرر ستاينيجر أنه كان يكفى أسبوعين لأن يستطيع زوج واحد من الفئران فى منطقته لأن يقتل جميع الفئران الأخرى مهما بلغ عددها . ويضيف إلى ذلك أنه لا حظ أسلوبا للقضاء على الخصوم يقوم على أساس الخداع تخصصت فيه أنثى الفأر حتى أضحت قاتلة متخصصة . يكتب العالم المذكور[1] معلقا على ذلك بقوله : «كانت الفأر الأنثى تتسلل خلسة وفجأة وبلا مقدمات تثب فوق الضحية التى تكون فى تلك اللحظة منشغلة بتناول طعامها ببراءة لتقضم عنقها ومن ثم محدثة لتمزق الشريان السباق . الصراع لم يكن يستغرق أكثر من عدة ثوانى ... » .

§ ١٣ ـ مقومات السلوك ، تحليل للمتغيرات :

لماذا يصير البعض[2] مدمنا على الخمر لايستطيع أن ينقطع عنها ليل نهار ، والآخر يرفض مجرد وجود الخمر فى منزله بأى صورة كانت ؟ لماذا يصير البعض خارجا على القانون متوغلا فى السلوك الإجرامى والآخر يرفض باقتناع وإيمان أن يرتكب أى فعل من الممكن أن يخدش الحياء العام ؟ لماذا البعض يتجه فى أشباع رغباته الجنسية إلى نفس الجنس الذى ينتمى اليه ولايشعر بالاسترخاء والراحة إلا عندما يتعانق جسديا مع مثيله ان كان ذكر أم كانت أنثى بينما الآخر ينظر إلى مثل هذه العلاقة نظرة احتقار وازدراء ولايستطيع أن يتصور العلاقة الجنسية إلا بين شخصين كل منهما ينتمى إلى الجنس الآخر ، ثم آخرون[3] يرفضون ويحتقرون عن اعتقاد وإيمان

---

(١) وهذه عباراته حرفيا منقولة عن المؤلف السابق ذكره ، ص ١٣٦ :

« They slink up stealthily, suddenly spring at their victim which is perhaps eating innocently at the feeding - place, and bite it in the side of the neck, frequently injuring the carotid artery .... ».

(٢) كولمان ، م. س.ذ. ، ص ١١٦

(٣) يتساءل شيسير ، م. س.ذ. ، ص ١٦٠ ، عن كيفية التحديد بالسلوك الطبيعى والسلوك المرضى بصفة عامة وبخصوص الظاهرة الجنسية بصفة خاصة . وينتهى بقوله : فلنسلم بأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يصف نفسه بأنه طبيعى :

« We are faced with difficulties immediately we attempt to define such terms as normal and abnormal. Particularly is this so in regard to our sexual expression .... Thus it is regarded as highly insulting to suggest that a person is not normal, although, in truth, the completely normal person does not exist .... ».

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك عدة ملاحظات (الأولى) تدور حول طبيعة العلاقة بين السلوك والموقف. فالسلوك الذى قد يبدو طبيعيا فى موقف معين يصير تعبيراً عن أقصى حالات الشذوذ أو التصرف غير الطبيعى من نفس الشخص فى موقف آخر . ولعل هذا أحد الأبعاد التى أبرزتها بشكل واضح المدرسة المجالية كما سوف نرى فيما بعد . (الثانية) أن التطور المعاصر للمجتمع جعل علم النفس يقلب معاييره التقليدية .=

كل ما له صلة بالجنس وبممارسته لأنه تعبير عن إهدار للآدمية الإنسانية ؟ لماذا ترى شخصا وقد أضحت السياسة بالنسبة له نوع من الحقائق الأصيلة التى تسيطر على وجوده وعلى جميع مظاهر حركته ، فهو لايلبس إلا ذلك الرداء الذى يلبسه قائده المفضل ، ولايضع رباط عنق إلا من ذلك الطراز الذى على صدر زعيمه ، وهو إن تحدث فى خلال تناوله لوجبة طعام أو مع أصدقائه فليس لديه من حديث سوى أفكار وآراء معبوده السياسى ، ثم آخر تمضى عليه الأيام والأسابيع دون أن يقرأ صحيفة واحدة ودون أن تعنيه السياسة فى كثير أو قليل بل هو يضطر لأن يذهب يدلى بصوته فى تلك المناسبة التى لاتتكرر إلا كل عدة أعوام مكرها أو خوفا فقط من العقوبة التى يفرضها القانون على الممتنع عن أداء واجبه الانتخابى ؟

(أ) أسئلة جميعها تثيرها نظرية العلوم السلوكية[1] وتسعى للإجابة عليها من الواقع التجريبى باسم « سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات » . أهمية ذلك تعود إلى أكثر من اعتبار واحد . ففهم أى ظاهرة يجب أن يسبقه تحليل لمقومات تلك الظاهرة . دراسة المتغيرات المختلفة التى يتكون منها السلوك والتى تتحدد بحصيلتها خصائص السلوك هى الخطوة الأولى لفهم الظاهرة السلوكية . فالمنهاجية التحليلية هى المنهاجية العلمية فى معناها التجريبى .ولكن هناك ناحية أخرى أكثر أهمية ترتبط بالواقع الذى يعيشه المجتمع المعاصر : فعملية التغير الاجتماعى التى أضحت أحد خصائص عملية التطوير السريع الذى تسعى إلى تحقيقه الدولة العصرية تقوم وتستند إلى فكرة زرع قيم جديدة والدفع بعجلة التطور نحو أهداف معينة تحددت مقدما . هذه العملية تفترض امكانية ضبط النمو الإنسانى والتحكم أو على الأقل امكانية التأثير فى السلوك الفردى والجماعى[2] . وهذا بدوره يفترض فهم أى العناصر أكثر قابلية

= فقد كانت القاعدة وبصفة عامة قبل فرويد هى أن السلوك المرضى هو الاستثناء . اليوم يجب أن نسلم بأن السلوك غير المرضى هو الاستثناء . وحيث أن القاعدة هى الأصل ، والاستثناء هو الفرع ، وحيث أن السلوك غير المرضى هو الاستثناء ، فإن السلوك الطبيعى أضحى من حيث حقيقته يمثل لا فقط الاستثناء ، بل هو فى ذاته الحالة المرضية . (الثانية) على أن السلوك ليس هو الشخصية . ومن ثم فن الطبيعى أن نتصور أن الشخص قد يكون طبيعيا ولكنه فى بعض الأحيان وإزاء بعض المواقف قد يصير تصرفه غير طبيعى أو مرضى . ولولم نسلم بذلك لكان معناه أن المجتمع المعاصر أضحى يتكون من مستشفى ضخم لمختلى العقل .

انظر بهذا الخصوص تحليل المجتمع الألمانى خلال فترة الحكم النازى فى :

JASPERS, Freiheit und wiedervereinigung : über Aufgaben deutscher Politilk, 1960.

(١) من المؤلفات التقليدية فى هذه الناحية والمتوفرة باللغة العربية : اناستازى وجون فولى ، سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات ، ترجم تحت إشراف السيد محمد خيرى ، مصطفى سويف ، الجزء الأول ، ١٩٥٩ .

(٢) م.س.ذ. ، ص ١٣٦ وما بعدها .

للتحكم وأنها يرفض تلك العملية، ثم أنها يسمح بالتغير وأنها لايسمح بذلك التغير أو يسمح به ولكن إلى نتائج غير المقصودة ؟ السلوك بتنظيم وضبط الانجاب هو نموذج سلوكى جديد لم تعرفه المجتمعات التقليدية ، فكيف نستطيع خلقه فى تلك المجتمعات؟ وكيف نخلق ذلك السلوك دون أن يترتب عليه التحلل الأخلاقى أوالإكثار من التجارة الجنسية ؟ كل هذا يفرض دراسة مسبقة لمقومات السلوك وعناصره . والدراسة فى تحليل مقومات السلوك ليس القصد منها مجرد ابراز العناصر العامة المشتركة وإنما أيضا تفسير التعدد فى النماذج والتباين فى مظاهر الاستجابة للمنبه الواحد المشترك [١] .

لأول وهلة يبدو أن السلوك هوعملية ضرب أو تفاعل بين عامل الوراثة من جانب والبيئة من جانب آخر . الأول يدور حول تلك العناصر التى تلقاها الفرد فى شخصه وكيانه العضوى والنفسى عن أبيه وأمه ومن خلالها عن أجداده الأوائل . والثانى يتحدد بتلك المجموعة من المؤثرات التى يتلقاها الوجود البشرى منذ بداءة تكوينه فى رحم أمه حتى مماته والتى مصدرها الوسط الذى يعيش فيه سواء فهم هذا الوسط بالمعنى الضيق أى الأسرة أو بالمعنى العام الواسع أى الجماعة [٢] . رغم ذلك فإن مثل هذا التحديد يعيبه أمران : أولها أنه يبسط تحليل الظاهرة حيث يبرز عناصر أخرى جاعلا منها فرعيات لهذه المقومات الأولى . ومن جانب آخر فهو ينسى أن عامل الوراثة بدوره ينبع من البيئة بحيث أن البيئة تحدد خصائص المقومات الوراثية .

والواقع أن هذه التفرقة الازدواجية تعكس تقليدا فقهيا عفى عليه الزمن أساسه التمييز بين السلوك الفطرى والسلوك المكتسب : الأول سلوك غريزى ليس فى حاجة إلى تعلم وتعود يكتشفه المرء بنفسه، والثانى لابد من تقاليد تنصب فى الوعاء الشعورى واللاشعورى قبل أن يعبر عن نفسه فى شكل سلوك فردى . فالإنسان ليس فى حاجة إلى أن يتعلم الجنس ليزاوله أو ليشعر بحاجة اليه . ولكنه فى حاجة إلى الحياة فى المجتمع ليعلم أنه عليه ليتزوج من فتاة معينة أن يتبع طقوسا وتقاليد معينة . « أن النظرية التى تنص على الانتقال الوراثى لوظائف سلوكية برمتها قد أهملت بوجه عام فى علم النفس المعاصر وأصبح من المعروف الآن أن كل سمة للفرد وكل رد فعل يصدره يقوم على وراثته وبيئته معا [٣] » .

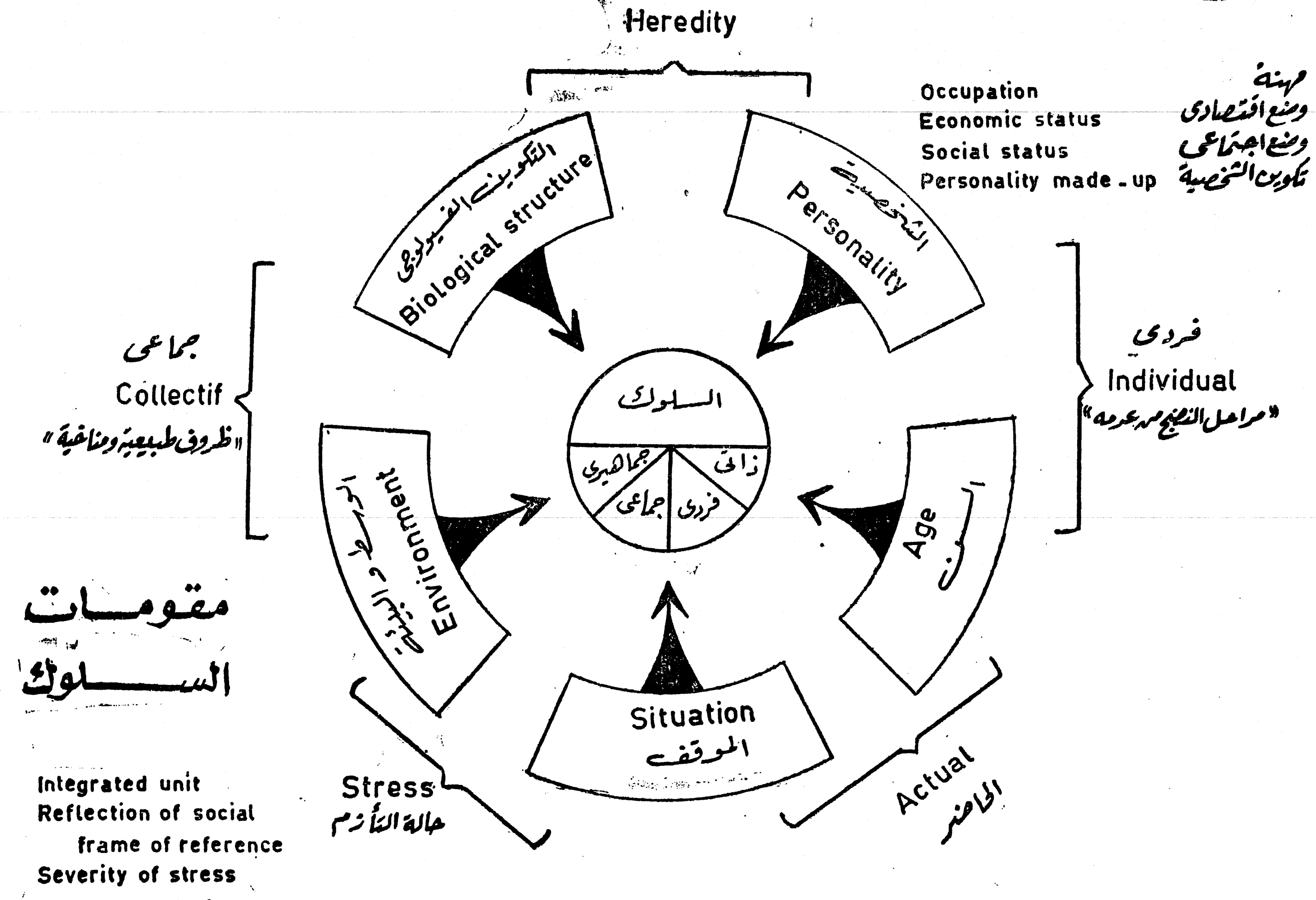
---

(١) حامد ربيع ، بحث حول إعداد الرأى العام لتقبل موضوع تنظيم النسل ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، جزء أول ، ١٩٦٩ ، ص ٧٣ مابعدها (غير مطبوع) .

(٢) أناستازى ، م.س.ذ. ، ص ١٥٤

(٣) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ١٤٩ — ١٥٠

شكل رقم "٣٠"


"عوامل ومتغيرات وراثية"
Heredity
Occupation
Economic status
Social status
Personality made - up
مهنة
وضع اقتصادي
وضع اجتماعي
تكوين الشخصية
التكوين الفسيولوجي
Biological structure
الشخصية
Personality
جماعي
Collectif
"ظروف طبيعية ومناخية"
فردي
Individual
"مراحل النضج من عمره"
السلوك
زاتي
جماهيري
جماعي
فردي
Environment
الوسط والبيئة
Age
السن
Situation
الموقف
Stress
حالة التأزم
Actual
الحاضر
مقومات
السلوك
Integrated unit
Reflection of social frame of reference
Severity of stress

(ب) بقى السؤال الذى بدأنا به وهو : مم يتكون السلوك ؟

فلنبسط الموضوع بأن نقدم نموذجا واقعيا من السلوك الفردى . فلنتصور مجموعة من الأفراد يجلسون فى مكان عام للسمر كناد رياضى مثلا ، وفجأة أقبل أحد زملاء الحاضرين ومعه شقيقته فتاة رائعة الجمال عظيمة الأناقة ، فما هورد فعل هذا المنبه ؟ ولنتصور بمجموعة الحاضرين شباب من كلا الجنسين ، ومعهم فريق من المسنين . كذلك فان الحاضرين من الشباب البعض منهم مع زوجته أوخطيبته والآخر وحيد ومنفرد . ولنتصور سلوك الحاضرين : الشباب لابد وأن يختلف سلوكه عن أولئك الذين تجاوزوا تلك المرحلة بفترة طويلة. قد يفكر المسن الذى حرمته الظروف من أبنائكم كان يتمنى أن تهبه الطبيعة مثل تلك الفتاة ابنة له . وهو لابد وأن يكون سلوكه الرغبة فى الحماية والدفاع . على العكس من ذلك فان الشباب لن ينظر اليها نفس تلك النظرة : الإعجاب ولكن تستتر خلفه دوافع ذاتيه تختلف اختلافا كاملا ، بل هى سوف تختلف من الذكر عن الانثى . فالإعجاب فى الأول يجعله ينظر اليها برغبة وتلهف أما فى الثانية فهو يحسد وقد يرتبط بحقد وبالرغبة فى الإيذاء . والتباين لن يقتصر على هذا الحد : فان الشاب المتزوج الذى ترافقه زوجته لن يعبر عن إعجابه بنفس الأسلوب الذى قد يعبر به الشباب غير المتزوج . وهذا الأخير فى مدى ذلك الإعجاب والرغبة فى الاستئثار لابد وأن يعكس شخصيته ومدى ثقته بنفسه وشجاعته وخبرته من عدمها .

فلنحاول أن نستكشف هذه المتغيرات :

(أولا) فأول هذه العناصر هو السن أو بعبارة أخرى المرحلة التى تعبر عنها الحقيقة البشرية من حيث التكامل الذاتى : ففى نفس الموقف وبالنسبة لنفس المنبه لايمكن أن يكون سلوك الشاب مطابق لسلوك الشيخ أو الرجل المسن[1] . انمايثير انفعال شاب ويجعله على استعداد لأن يرتكب أكثر الأفعال اجراما قد لايحرك نفس الشخص بعد عشرين أوثلاثين عاما .

(ثانيا) كذلك فإن الجنس قدسبق ورأينا أنه يكون المتغير الثانى. على أن الجنس بدوره ينصهر فى إطار أكثر اتساعا وهو العوامل البيولوجية . إلى جانب الجنس بمعنى الذكورة أم الأنوثة فهناك الأصل والتكوين أى نفس الخصائص العضوية[2] . ان شخصا مصاب

---

(١) انظر حامد ربيع ، أبحاث فى النظرية السياسية ، محاضرات كلية الاقتصاد ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٩ وما بعدها .

(٢) ڤارن كولمان ، م.س.ذ. ، ص ٧٠ ؛ وبصفة خاصة ديوى ، م.س.ذ. ، ص ٢٩ ومابعدها .

بالعرج لايمكن أن نتصوره يسرع إلى تلك الفتاة يدعوها للرقص أولمشاركته فى إحدى صور الرياضة الجماعية .

(ثالثا) ثم هناك خصائص الشخصية أى ملامح الوحدة البشرية كحقيقة مستقلة بذاتها . فلا يعقل أن الشخص الخائف غير الواثق من نفسه المتردد سوف يندفع فى نفس السلوك الذى يعكسه الشخص الآخر الشجاع المستهتر . الأول يتريث ، يتأكد من أنه لن يخضع لصدمة فى دعوته للفتاة أوفى محاولة الحديث معها . الثانى لايعنيه ذلك وهو على استعداد للمحاولة حتى ولو انتهت بفشل علنى .

(رابعا) كذلك الوسط بمعنى الإطار الذى يعيش فيه الإنسان معنويا كان أم ماديا . فالزوج لن يكون سلوكه هو نفس سلوك غير المتزوج . كذلك غير المتزوج ولكن الذى ترافقه خطيبته بدوره لن يكون سلوكه لا أسلوب المتزوج ولاغير المتزوج .

(خامسا) أضف إلى ذلك أن الموقف الذى تقابل فيه المنبه مع مصدر الحركة ، بمعنى مجموعة الظروف التى ارتبطت بعملية المواجهة والتقابل بين المنبه ورد الفعل لابد وأن تؤثر بدورها فى عملية الاشتعال التى هى من حيث حقيقتها مصدر الانبثاق للطاقة وبالتالى للسلوك . فلنفترض فى المثل السابق أن الشاب (أ) مشهور عنه الاندفاع وعدم التريث والاستعداد لمغازلة كل فتاة . وبمجرد وصول تلك الفتاة أسرع الشاب فنقل الكرسى الذى كان يجلس عليه إلى جوارها . وقابلته الفتاة أوشقيقها بما يعبر عن الاشمئزاز وعدم الارتياح بشكل واضح وملفت للنظر . ثم جاءت عقب ذلك فتاة أخرى أكثر جمالا وأكثر أناقة . فان صاحبنا لن يجرؤ على التحرك من مكانه ولو أن هذه الأخيرة كانت قد وصلت قبل ذلك بعدة دقائق أى قبل الفتاة الأولى بعدة دقائق لما كان قد تردد صاحبنا[1] من أن يعبر عن إعجابه بأسلوب أكثر صراحة وأكثر حركية .

هذه المتغيرات الخمس هى التى يتكون من تقابلها السلوك البشرى[1] .

ولكن الأمر الذى يجب أن نلاحظه هو العلاقة المباشرة بين هذه المتغيرات ، فهى تكون كلا متصلا : حيث أن كل مجموعتين منها ترتبط بعلاقة استمرارية . فالشخصية الفردية والسن كلاهما ينبع من الفرد . على أن السن من جانب آخر وكذلك الموقف يعبران عن الحاضر وقد تحدد من حيث الزمان باللحظة التى اصطدم فيها المنبه بمصدر الحركة . فاذا حللنا الموقف وجدنا أنه ينتمى إلى الوسط أو بعبارة أدق كلاهما ينبع من

---

(١) قارن أسلوب آخر فى تحليل المتغيرات والعلاقة بينها فى ، فرانكشتاين ، م. س.ذ. ، ص ٨٥ ومابعدها .

الحقيقة الاجتماعية . الوسط وكذلك العوامل البيواوجية من جانب آخر ينتميان إلى الماضى بحيث أنهما يمثلان مرحلة سابقة على اللحظة التى انطلقت فيها محركات الحركة . بل هناك فارق بين الوسط والعوامل البيولوجية بمعنى أن هذه الأخيرة فقط يمكن أن توصف بأنها عناصر موروثة بالنسبة لمصدر الطاقة أى الذات الفردية . على أنه ينضم إلى الإطار البيولوجى فى هذه الصفة كذلك مجموعة العناصر المرتبطة بمتغير آخر مستقل ولو إلى قسط معين وهو الشخصية[1] .

(ج) تحليل هذه المتغيرات وموضع كل منها من العملية السلوكية يكون ما يسمى بالاقتراب الجزئى أو التحليل الميكرو للظاهرة بحيث يحيلها إلى الذرات التى من مجموعها ومن تكاملها تبرز الحقيقة الكلية . مثل هذا الأسلوب فى التحليل يفترض عدة مقدمات منطقية لصلاحيته :

(أولا) إمكانية تجزئة الظاهرة إلى مقومات فرعية أى إلى تلك الذرات التى من مجموعها وفقط من مجموعها تتكون الظاهرة الكلية .

(ثانيا) ألا يترتب على تلك التجزئة تشويه الحقيقة الكلية بمعنى أن التجزئة لاتعنى الانتقال إلى عالم آخر من الظواهر يختلف عن ذلك العالم الكلى الذى نحن بصدد دراسته .

(ثالثا) وهذا يفترض بدوره إمكانية الوصول إلى تحديد واضح لحقيقة وأبعاد العلاقة التى تربط الجزء بالكل . وذلك بحيث يكون الانتقال من الجزء إلى الكل وبالعكس من الكل إلى الجزء له دلالته وله معناه موضحا ومفسرا حقيقة المنطق الكلى الذى يحكم ذلك الوجود الذى ينتمى اليه عالم الحركة السلوكية[2] .

أثبتت دراسة الظواهر الطبيعية إمكانية تحقق هذه المفترضات . فهل كذلك الظواهر النفسية والسلوكية تستطيع أن تقدم نفس الإمكانيات ؟ الظاهرة الطبيعية تملك منطقها الذاتى وهى تتحدث بنفسها وليس على العالم سوى أن يكتشف كيف يمكن أن يفرض على الظاهرة أن تنطق ، فهل الأمر كذلك بالنسبة للظاهرة السلوكية ؟ مما لاشك فيه أن المدرسة التقليدية التى كانت تجعل منهاجية التحليل تدور حول ما أسميناه « التحليل الذاتى » أى أن يلاحظ الفرد حالته العقلية وتطوره النفسى بأسلوب علمى ، ماكانت تسمح بتحقيق هذه الغاية . ذلك أن التحليل العلمى للظاهرة يفترض أن يكون القائم بالملاحظة خارج النظام الذى يلاحظه وليس جزءاً منه كذلك مما لاشك فيه أن مدرسة

---

(١) انظر ديوى ، م.س.ذ. ، ص ١٨ .

(٢) حامد ربيع ، نظرية التحليل السياسى ، محاضرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٧١ ، ص ١٠٦ مابعدها .

واطسون الذى اخضع الظاهرة السلوكية للمنهاجية التجريبية لابد وأن ممكننا من تحقيق التحليل الميكروكزمى . ولكن السؤال الذى كان لابد وأن يثيره أولئك الذين سوف يتصدون للمنهاجية السلوكية هو الآتى : اليس مثل هذا المسلك مما لابد وأن يؤدى إلى تشويه الحقيقة حيث نعيش فى الجزئيات وننسى الحقيقة الكلية ، تلك الحقيقة التى تختلف اختلافا كليا عن المقومات التى منها تتكون ؟

سؤال أثارة الفقه الألمانى فى حملة عنيفة كان لابد وأن تزعزع الفقه الأمريكى[1] فى أول الأمر لتعدل من المنهاجية السلوكية فى مرحلة لاحقة .

§ ١٤ ـ نظرية ((المجال الحيوى)) واستقبالها فى الفقه الأمريكى :

الربع الأول من القرن العشرين عرف أكثر من ثورة فكرية واحده . ورغم أن أخطرها بالنسبة لموضوع دراستنا هى تلك التى تعرضنا لها باسم الثورة السلوكية إلا أننا ولنستطيع أن نفهم تطور المنهاجية السلوكية فى خلال النصف الأول من قرننا الحالى ، فانه يتعين علينا أن نوسع آفاق التحليل لنلقى بنظرة سريعة على حركات التجديد الأخرى ، ليس فقط لأنها تكون بالضرورة عنصرا من التراث الفكرى العام لمرحلة الانتقال من القرن التاسع عشر ـ قرن تحطيم الفواصل بين الثقافات ـ إلى القرن العشرين ، قرن الظاهرة الجماهيرية والمجتمع الجماهيرى ولكن بصفة خاصة لأن هذه الحركات التجديدية أثرت بدورها فى نفس النظرة السلوكية ، بل وعدلت من صياغتها لنفس العلاقة التى تحكم مختلف جزئيات الظاهرة السلوكية .

فبينما كان واطسون يدق بثقة وعنف ناقوس الثورة السلوكية فى القارة الجديدة ، بدأ يظهر فى ألمانيا اتجاه آخر يعبر من مفاهيمه التحليلية فى دراسة السلوك البشرى باسم « الجشطلت » أو « نظرية المجال » .

(أ) هذه المدرسة التى تعكس أساسا التقاليد الألمانية[2] وتنبع من طبيعة العصر والحوادث التى كانت تجتازها الحضارة الجرمانية فى خلال تلك الفترة تجعل بنيانها الفكرى[3] يقوم على الأسس التالية :

---

(١) انظر تفاصيل استقبال لوين فى المدرسة السلوكية وظروف ذلك فى :

FOULQUIE, La psychologie contemporaire, 1951, p. 79 - 81.

(٢) انظر فى المرجع السابق بصفة خاصة ، ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) انظر التفاصيل فى المرجع الذى يجب أن يكون أساسا لكل دراسة تاريخية للمدارس السلوكية ، والذى أشرنا إليه فى المراجع العامة ، دويتش ، م . س . ذ . ص ٢١ .

(أولا) أن المعرفة بالحقيقة لايمكن أن يتم علميا إلا من خلال الإدراك بتلك الحقيقة إدراكا كليا . ان كل اتجاه إلى الدراسة التحليلية أو الذرية للظاهرة لايمكن أن يؤدى إلا إلى تشويه الحقيقة الكلية . المعرفة الكلية أى الظاهرة فى تكاملها فى شكلها ، فى هيكلها لايمكن أن نصل اليه عن طريق المعرفة بجزئياتها . الحقيقة الكلية ، الكيان المتكامل للسلوك هو نقطة البداية .

وهذا يعنى :

١ — أن نقطة البداية فى دراسة السلوك هى الوسط الاجتماعى أو البيئة الاجتماعية وليست الفرد أوغرائزه .

٢ — السلوك ليس مجرد عملية تجميع لمقومات . قد تختلف المقومات ومع ذلك فالسلوك يظل هو نفسه دون أن يتعدد . وقد تتحد المقومات ومع ذلك يتعدد السلوك . الذى يعنينا هو السلوك ذاته كحقيقة كلية بغض النظر عن مقوماته[١] .

٣ — كذلك فان رفض المنطق التحليلى يعنى أن النظرة التقليدية التى أساسها إمكانية تجزئة السلوك إلى عناصر مستقلة وهى : الإدراك ، والانفعال ، والنزوع ، لاتصلح لتفسير السلوك . بل ان هذا المنطق التقليدى لايزال غير صالح لتفسير السلوك عقب أن أصابه التعديل سواء على يد مكدوجال أو بفضل منهاجية فرويد . فالنظرة التقليدية كانت تجعل الوجود النفسى يتلخص فى ظواهر ثلاث : إدراك وما يعنيه من عمليات مختلفة متعلقة بالفهم والذكاء ، انفعال وما يرتبط به من حقائق دفينة فى النفسية الفردية ، ثم غرائز تدور حول حاجات أولية للوجود البشرى[٢] . ولو استطعنا أن نحلل كلا من هذه النواحى على حدة لكان هذا كافيا لفهم السلوك الإنسانى . مكدوجال[٣] رغم أنه يجعل محور الحقيقة السلوكية الناحية الانفعالية بحيث يربط هذه سواء بالغرائز من جانب أوبالإدراك من جانب آخر ، إلا أنه يظل فى نطاق المنطق التحليلى الذى يقربه من المدرسة السلوكية التقليدية من حيث المنهاجية وان كان قد خضع لهجوم عنيف من جانب أنصار هذه المدرسة بدعوى عدم العلمية التجريبية حتى أن كلمة «غريزة» وهى المفهوم الذى بنى حوله مكدوجال أفكاره أضحت كلمة مطرودة وممنوع استخدامها فى بعض أقسام العلوم النفسية بالجامعات الأمريكية . كذلك فرويد لايخرج عن نفس التقاليد من الناحية المنهاجية فأسلوبه تحليلى . ورغم أنه بدوره ركز جهوده حول الطاقة النفسية المرتبطة بالجنس ودوافعه ليفسر المظاهر السلوكية المختلفة إلا أنه ظل

---

(١) نجيب اسكندر ابراهيم ، م.س.ذ. ، ص ١٠٧ ومابعدها .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٨ .

(٣) Mcdougall : 1871 - 1938.

دائما فى نطاق المنهاج التحليلي أى النظرة إلى عناصر السلوك ومقوماته وجعل تحليل تلك العناصر كافيا لفهم الحقيقة الكلية[1] .

(ثانيا) ولو نقلنا هذا المفهوم أى النظرة الكلية الشاملة للحقيقة ، إلى نطاق تحليل الظاهرة النفسية والسلوكية ، لكان معنى ذلك أن نجعل دراستنا للظاهرة ابتداء من العالم الذى ينتمى اليه الفرد أومصدر الطاقة . نقطة البداية هى الجماعة أو البيئة أو الموقف الذى تحدد فى داخله السلوك . وهذا هو الذى عبر عنه باصطلاح «المجال الحيوى» . يقول « لوين » أشهر زعماء هذه المدرسة : ان السلوك الفردى يتكون من مجموعة من المتغيرات تضم كلا الفرد ذاته والوسط أو البيئة التى ينتمى اليها الفرد . هذه المجموعة من المتغيرات هى « المجال الحيوى » الذى يشمل مجموعة الوقائع التى تؤثر فى الفرد سواء كانت تلك الوقائع اجتماعية أم طبيعية ، شعورية أم لا شعورية[2] . ولايقتصر لوين على أن يصوغ أفكاره من واقع مدرسة الجشطلت أو على الأقل يتأثر بها ، بل هو ينقل إلى ميدان الدراسة السلوكية أفكار «نيوتن» . تدور هذه الأفكار بتبسيط مطلق حول أن الأجسام المادية رغم كونها تتكون من جزئيات دقيقة إلا أنها تؤثر كل منها فى الأخرى بحيث أن الكون هو نوع من الدفع والشد ومن ثم يمكن القول بأن المجال الذى ينتمى اليه الوجود له كيانه المستقل المختلف والمنفصل عن كيان جزئياته[3] . وهكذا لونقلنا هذا المفهوم إلى نطاق الوجود السلوكى لكان معنى ذلك أن الظاهرة السيكولوجية هى عالم مستقل يعنى حركة نفسية فى داخل اطار من الحيز الحيوى تملك خصائصها ونظامها المستقل والمختلف عن مفردات ذلك العالم بما فيه الفرد الذى تنبع منه الحركة . الحيز الحيوى هو البيئة السلوكية التى تتحدد بها جميع عناصر السلوك وتنبع منها وتتشكل بها بما فى ذلك الإدراك .

وانطلاقا من هذا المفهوم نستطيع أن نصل إلى النتائج الآتية :

١ - علينا فى تحليل السلوك أن نبدأ من الموقف أوبعبارة أدق خصائص الموقف كحقيقة كلية . يقول لوين للتعبير عن هذا المفهوم : « بدلا من أن نعزل عنصراً أو آخر من الموقف ولانستطيع تقدير أهميته إلا فى ضوء الموقف بكليته فان النظرة الحالية تجد من الأكثر فائدة كقاعدة أن تبدأ بخصائص الموقف كله. بعد هذه النظرة التقريبية الأولى نلجأ إلى تحليل الجوانب والأجزاء المختلفة للموقف بدرجة أكبر من التحديد والتفصيل[4] » .

---

(١) فلوجيل ، م. س. ذ. ، ص ٢٢٨ ومابعدها .
(٢) بياجيت م. س .ذ. ، ص ٥٦ — ٥٨ .
(٣) نجيب اسكندر ابراهيم ، م.س. ذ. ص ٩٢ .
(٤) نفس المرجع أورده ، ص ٩٦ .

٢ — ومن ثم فانه من الخطأ النظر إلى الكائن الحى على أنه ذو كيان مستقل عن البيئة التى يعيش فيها . ان الفرد هو جزء من تلك البيئة وهو فى جميع معالم وجوده إنما يعكس عملية اتصال بينه وبين بيئته . إن عملية الإدراك ذاتها ليست إلا تجاوب بين الفرد والموقف الكلى الذى يتحرك فى داخله ويدفعه للحركة .

٣ — وهذا يعنى مرة أخرى عودة إلى رفض المنطق التحليلى . فالقول بأن السلوك لايعدو أن يكون مثيرات واستجابات كل منها مستقل عن الآخر ولكن ارتباطها وتفاعلها يعنى تكوين السلوك ، ينتهى بنا إلى ترك الحقيقة المجالية جانبا . السلوك ليس مجرد حقيقة ميكانيكية كما تصورته المدرسة السلوكية . إنه حقيقة ديناميكية حيث يحدث تجاوب كامل أو جزئى بين البيئة من جانب والحقيقة البشرية من جانب آخر .

٤ — والواقع أن النظرة الثنائية للسلوك تفترض سلبية الحقيقة البشرية ازاء المثير أو المنبه بمعنى أنها تقف منه منتظرة وقوعه لتستجيب له . الواقع أن الحقيقة البشرية بدورها تختار وتنتقى وتتشكل فى موقفها وفى تقبلها أيضا للمثيرات والمنبهات . وهى عند ذلك قد يبدو بأنها خضعت للمثير فى شكل استجابة ولكنها فى الواقع حددت أيضا بعمل إرادى أولاشعورى خصائص وقوة وزن المثير فى طريقه اليها وبالتالى حددت بطريق غير مباشر قوة وخصائص الاستجابة .

(ثالثا) وإذا وصلنا إلى التسلم بأن المجال الحيوى[١] هو نقطة الانطلاق الحقيقية التى يجب أن ينبع منها كل تحليل للظاهرة السلوكية ، فان هذا يعنى أن هذا المجال الحيوى لايمكن فهمه أو المعرفة به إلا من خلال الدراسة الديناميكية . من الطبيعى أن المدرسة المذكورة أومدرسة الجشطلت لاترفض مدلول علاقة البيئة . فأى عالم فى دراسة الظاهرة السلوكية لايستطيع أن يتخلى عن منطق البيئة سواء أسميناه بالغريزة ، أم بالعامل الشبقى ، أم بالاتجاه . ولكن الأمر الذى تضيفه تلك المدرسة هوأن السلوك من حيث حقيقته نوع من إعادة التوازن بين القوى ، وفى صورته المبسطة بين الفرد والجماعة ، هذا التوازن الذى اختل نتيجة تدخل المنبه إذ أحدث حالة من حالات التوتر[٢] .

(ب) عملية إعادة التوازن هذه تخضع لجميع المتغيرات التى تنبع من الموقف . بل من الموقف كما يتصوره ويدركه مصدر السلوك . وهكذا ننتهى بتأكيد نتائج معينة :

١ — أول ما يجب أن نؤكده فى ضوء هذا المفهوم هوأنه لايجوز أن نبدأ فى دراسة السلوك بدراسة الطبيعة الإنسانية للفرد . « ان هذه الدراسة لن تؤدى إلى الارتباط

(١) المجال الحيوى : life space . انظر المراجع فى فلوجيل ، م . س . ذ . ، ص ٣٧٢ .

(٢) وهذا هو الذى يسميه لوين dynamic constructs أى عملية البنيان الديناميكية للتحليل. انظر ملاحظات بياجيت ، م. س. ذ. ، ص ٥٧ .

العضوى بين الفرد وبيئته الاجتماعية » : على العكس من ذلك يجب أن نجعل « نقطة البداية هى المجال الاجتماعى والإطار الثقافى بما فى ذلك من عادات وتقاليد وقيم وآراء وأفكار واتجاهات سائدة ينشأ الفرد فيها منذ ولادته ويتفاعل معها »[١] بعبارة أخرى وأكثر دقة يجب أن نجعل مدخل التحليل السلوكى هو ما نسميه بالمدخل الموقفى[٢] .

٢ — على أن هذا لايمنع من أن نقطة البداية فى مدرسة الجشطلت تظل دائما هى مشكلة الإدراك . ورغم أن الإدراك لايظل حقيقة فردية وإنما يصير نوعا من المثيرات البعيدة[٣] إلا أنه يظل دائما هو نقطة البداية فى عملية الانطلاق السلوكى التى تصير بدورها نوعا من استجابة الكائن لعملية التنظيم الإدراكى . وهكذا فى هذه المدرسة نجد الحقيقة الحية تعيش بين بيئتين : أحدهما مادية والأخرى نفسية ، الأولى تحدد المثيرات البعيدة والثانية تتولى التنظيمات الحسية لاستقبال تلك المثيرات البعيدة وقد تحولت إلى مثيرات قريبة من خلال البيئة أو الوسط المحيط بالحقيقة الحية ، ومن ثم هى التى تخلق وتنظم عملية الاتصال الحقيقية بالبيئة المادية .

٣ — وهكذا فان القانون الأعلى والأعم الذى يفسر الظاهرة السلوكية هو ماأسماه « فرتيمر » بقانون انتماء الجزء إلى الكل الذى يحتويه[٤] . ومعنى ذلك ليس فقط أن خصائص الجزء تنبع من الكل بل ان ادراكنا بالجزء انما ينبع من إدراكنا للكل ويتحدد

---

(١) نجيب اسكندر ابراهيم ، م.س. ذ. ، ص ١٢٠

(٢) situational approach قارن أيضا فى معنى آخر ومن وجهة نظر أخرى :

WILKINS, Social policy, action and research, 1967, p. 41.

(٣) distant stimulus على عكس تلك الأخرى القريبة التى يعبرون عنها باصطلاح : proximal stimulus كما يعبر عن مفهوم التنظيمات الحسية بكلمة sensory organizations انظر أيضاً :

McDOUGALL, An introduction to social psychology, 1960, p. 39-76.

(٤) أول من عبر عن هذا القانون هو الفيلسوف الألمانى Ch. von Ehrenfels فى مقاله مشهور عام ١٨٩٠ بعنوان خصائص الشكل حيث دافع عن فكرة المجاميع Gusammen hänge فى نطاق الوجود النفسى . انظر فولكيه ، م.س.ذ. ، ص ٢٦٢ ومابعدها . ولكن الصياغة ندين بها للعالم فرتيمر (Wertheimer : 1880 - 1943) العالم الألمانى ذو الأصل البلغارى والذى انتقل عقب ذلك إلى نيويورك حيث تولى التدريس فى « المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى » . ويمكن القول بأن المؤسسين الحقيقيين للمدرسة التى نحن بصدد تحليلها ضم إلى جوار هذا العالم : كوهلر (Kohler : 1882) وكوفكا : (Koffka : 1886 - 1941) الثلاثة قدر لهم أن يهاجروا ويستقروا بالولايات المتحدة . انظر عرضا موجزاً لأفكارهم فى مؤلف :

KOHLER, Psychology, 1947 ; GUIRAUD, Psychiatrie générale, 1950, p. 249.

بذلك أن صفات الجزء تختفى بعزلها عن الكل بل وتتغير إذا انتقلت من وحدة كلية إلى وحدة كلية أخرى :

٤ — النتيجة المنطقية لهذا التصور هى أن مشاكل الدراسة النفسية ما عاد من الممكن اثارتها انطلاقا من منطق أرسطو وإنما يجب أن نخضعها لمنطق جاليليو : ليس عن طريق التحديد بطبيعة الأشياء أى بادراجها فى طبقات ومجموعات محددة من حيث الخصائص نستطيع أن نصل إلى فهم الظاهرة ، وإنما يجب أن نجعل نقطة الابتداء هو تحديد علاقات الظواهر بالأشياء أى ابتداء من اكتشاف القوانين التى تحكم حركة الظواهر[١] .

(ج) مفهوم البناء الديناميكى لتحليل الظاهرة السلوكية هو الخاتمة المنطقية لمدرسة «الجشطلت» الذى كان لابد وأن يحدث أثره فى الفقه الأمريكى . ورغم أن القارة الجديدة ظلت تقف من مدرسة « المجال الحيوى » موقف المعارضة إلا أن المدرسة السلوكية ماكانت تستطيع أن تظل جامدة إزاء عملية التجديد المنهاجى وأن تقف بمعزل عما فرضته تلك المدرسة . وكان لهجرة قادتها فى أعقاب النظام النازى إلى الولايات المتحدة ونشر أبحاثهم ومؤلفاتهم باللغة الإنجليزية دوره الفعال فى عملية التطوير . أهم العلماء الذين أثروا فى الفقه الأمريكى بهذا الخصوص هو العالم الذى ذكرنا اسمه فى أكثر من مناسبة وهو « لوين » أستاذ فى جامعة برلين سرعان ماهاجر إلى الولايات المتحدة حيث استقر حتى وفاته تاركا خلفه « مركز أبحاث ديناميات الجماعة » الذى يتبع حاليا جامعة ميتشيجان ويعتبر من أعظم انجازات هذه المدرسة[٢] . ويكفى لتأكيد أهمية هذا العالم فى تطوير التحليل العلمى للظاهرة النفسية أن نتذكر كيف أن كلا المدرستين السلوكية من جانب و«الجشطلت» من جانب آخر تتنازعان أفكاره حتى أن المدرسة الأمريكية تعتبره أحد بناة التقاليد المرتبطة بالنظرة السلوكية فى القارة الجديدة[٣] .

ما هو أثر هذه المدرسة على التحليل السلوكى والنظرة الأمريكية للسلوك ؟

سبق أن رأينا كيف أن النظرة السلوكية تنتهى بأن تجعل السلوك علاقة بين منبه ورد فعل عبرنا عنه فى صورة مبسطة بالصياغة م ـ أ . مثل هذه النظرة تنسى الخصائص المعبرة عن الحقيقية البشرية والتى تميز الإنسان عن الحيوان :

---

(١) بياجيه ، م. س. ذ. ، ص ٥٧ .

Lewin (1890 - 1947)

(٢) انظر مقالا تحليليا لأفكار العالم المذكور ونقدا للمفاهيم التى بنى عليها نظريته النفسية فى :

GIROD, Les théories et les méthodes psycho-sociologiques de **Kurt Lewin, in Cahiers int. Social, 1950, p. 129 - 155.**

(٣) فولكييه ، م. س. ذ. ، ص ٧٩ .

(أولا) فالإنسان لايفعل شيئا إلا بحب وكراهية . وهو خلافا لأى حقيقة حية أخرى حتى فى طعامه وشرابه وبصفة خاصة فى ممارسته للجنس، أى فى سلوكه الغريزى الذى يقربه من الحيوان ، يخلط بين الغريزة والعاطفة بل وفى كثير من الأحيان نجد العاطفة تتغلب وتتحكم فى الغريزة . النماذج التى نرى فيها الرجل الذى أحب فتاة معينة أوالأنثى التى تعلقت بشاب معين ، وترتب على ذلك رفض لأى مزاولة للجنس فى خارج تلك الدائرة العاطفية ، عديدة .

(ثانيا) كذلك فالإنسان حيوان ناطق . ونقصد بذلك أنه قد وهبته الطبيعة القدرة على الاتصال . وهذا يعنى نقل المفاهيم ومن ثم تغيير فى خصائص ومعالم الإدراك .

وإذا سلمنا بأن الإدراك هوأحد عناصر التحريك للطاقة التى منها يتولد النشاط لفهمنا كيف أن هذين العاملين يفرضان علينا ألا نقبل مثل تلك الصياغة دون تعديل[١] .

منهاجية جديدة ، مفاهيم جديدة ، كان لابد وأن تقود إلى تغيير فى معالم النظرة السلوكية . وهكذا حلت محل الصياغة التقليدية صياغة ليست ثنائية وإنما ثلاثية لتحليل الظاهرة السلوكية : منبه واستجابة ولكن بينهما ما أسمته « الكائن الحى » أوما نفضل أن نعبر عنه بكلمة « الحقيقة الحية »[٢] . ومن ثم فعقب الصياغة الأولى م/أ نستطيع أن نتحدث عن صياغة معدلة : م-ج-ا . أهم ما تعنيه هذه الصياغة المعدلة هو إدخال النظرة الديناميكية لتحليل الظاهرة السلوكية ، التى تعنى أن مجرد تحليل مقومات السلوك لا تكفى لفهم الظاهرة بل يجب أن نضيف إلى ذلك تحليل ديناميكى بمعنى متابعة عملية التفاعل من حيث مراحلها المتنقلة من انبعاث المنبه حتى الانتهاء بالاسترخاء الذى يعنى تحقيق الغرض من الحركة[٣] .

---

(١) قارن ملاحظات نجيب اسكندر ابراهيم ، م. س. ذ. ، ص ١١٤ وما بعدها . انظر أيضاً فى معنى آخر ملاحظات

ROSEMAN, MAYO, COLLINGE, Dimensions of political analysis, 1966, p. 7.

(٢) يعبر عن ذلك المفهوم بكلمة organism

(٣) ومن ثم نستطيع أن نلخص هذه الصياغات بالشكل التالى :

(أولا) الصياغة الثنائية :

منبه ⟵ استجابة = م/أ أى :

Stimulus ⟶ Response = S - R

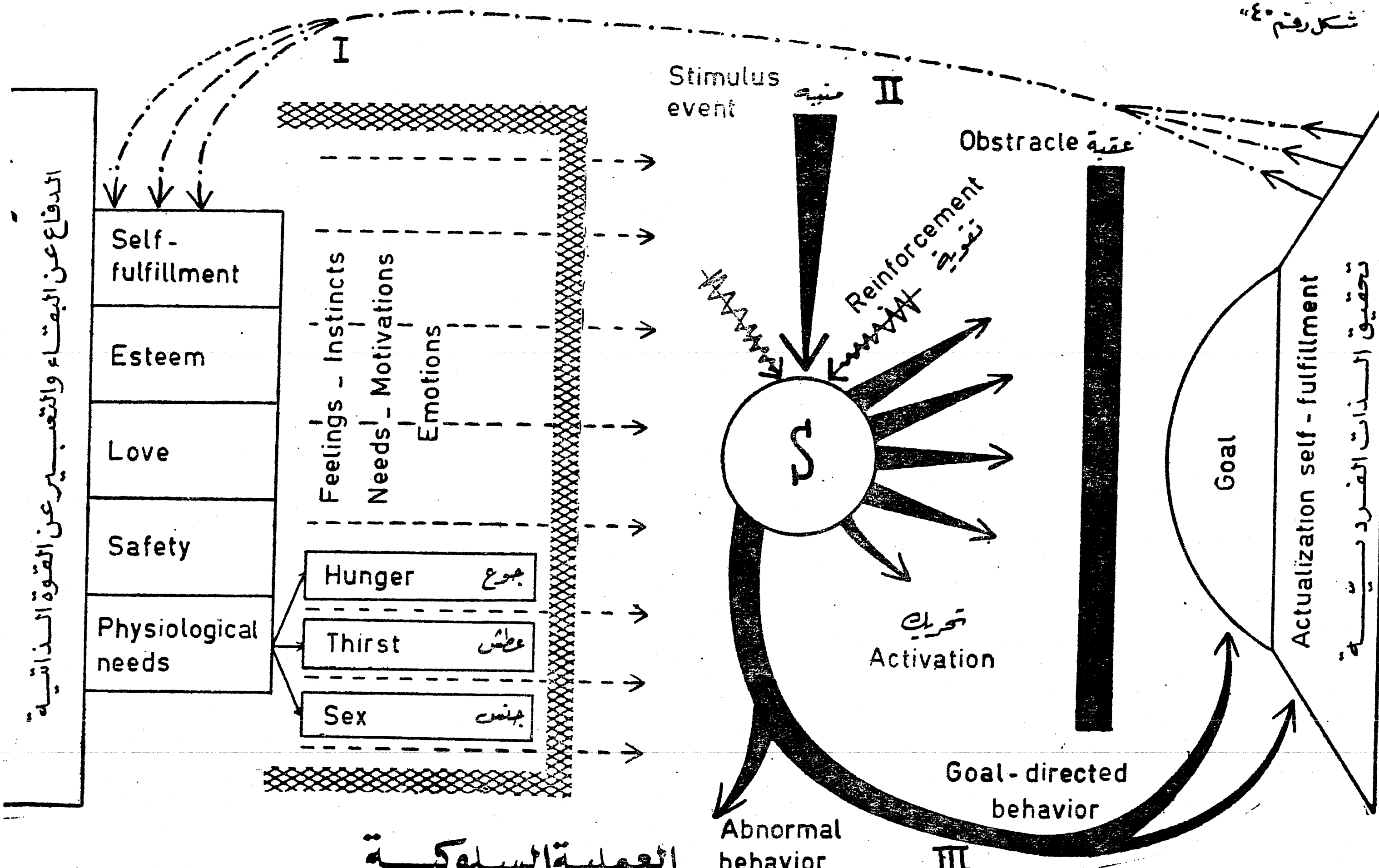
(ثانيا) الصياغة الثلاثية :

منبه ⟵ حقيقة حية ⟵ استجابة= م/ج/أ أى :

Stimulus ⟶ Organism ⟶ Response = S - O - R

انظر كذلك شازلزورث ، م. س. ذ. ، ص ١٢

شكل رقم "٤٠"



العملية السلوكية
(Process of behavior)

§ ١٥ - التحليل الديناميكى ودراسة عملية التطور السلوكى :

العرض السابق سمح لنا بأن نصل إلى نتيجتين : من جانب الدراسة التحليلية للسلوك ليست كافية إذ يجب أن تكملها الدراسة الديناميكية . ومن جانب آخر فان السلوك هو تفاعل يسعى لتحقيق عملية توازن بين مصدر الطاقة والحركة المعبرة عن انبعاث الطـــاقة . فكيف يتم ذلك ؟

لو نظرنا إلى الحقيقة الحية فى عملية تفاعلها مع البيئة التى تحيط بها لاستطعنا أن نميز بين مراحل أربعة فى حركتها المرتبطة بالموقف السلوكى والمعبرة عن التطور الكلى للظاهرة السلوكية كمظهر من مظاهر التعبير عن التوازن بين الوجود الحى والبيئة المحيطة بذلك الوجود الحى :

(أولا) مرحلة المبررات[١] : وهى حالة باطنة سابقة على الحركة ومعدة لها . كل حقيقة بشرية، فردا أوجماعة، تسيطر عليها غريزة الدفاع عن البقاء والتعبير عن قواها الذاتية . هذه الخلفية العامة من اللاشعور تعبر عن نفسها بدرجة أو بأخرى فى حاجات نفسية واضحة ومحددة تمتاز بالتصاعد والتبعية . فهناك الغرائز الثلاث المعروفة : الجوع والعطش والجنس . ثم إلى جانب ذلك سلسلة من المبررات الاجتماعية تتدرج ابتداء من الحاجة إلى الشعور بالأمان وتنتهى بالرغبة فى تحقيق الذات الفردية .

جميع هذه المبررات تظل صامته حتى يقدر لها أن تصطدم بالمنبه .

(ثانيا) المنبه هو واقعة أو حدث لابد وأن يعقبه نوع من الاضطراب الذى يؤدى إلى سعى من جانب الحقيقة الحية لإعادة ذلك التوازن . حركة تعنى وضع الجسد الحى موضع الحركة ومن ثم فهو يسعى فى مظاهر متعددة من ردود الفعل للوصول إلى حالة التوازن المفقود . تصدر منه تبعا لثقافته وإدراكه وخبرته حركات عديدة كل منها يسعى بأسلوب أو بآخر لتحقيق الهدف الذى لابد وأن يصطدم بعقبات عديدة فى محيطه مردها البيئة والمجتمع[٢] .

(ثالثا) واحد من تلك الاستجابات الحركية هو وحده الذى يستطيع أن يتخطى العقبة متجها نحو تحقيق الغاية من الحركة وهى إعادة التوازن . هذا التصرف أورد الفعل

---

(١) المبررات motivations – الحاجات needs تحقيق الذات self-actualization
(٢) كولمان ، م. س. ذ. ، ص ٧٨ وما بعدها .

الذى يحقق الهدف هو وحده الذى يمثل استمرارية الحركة وعدم اخفاق الحقيقة الحية فى تحقيق التوازن بين الوجود الذاتى والبيئة الاجتماعية أو الوسط الذى ينتمى اليه ذلك الجسد :

(رابعا) تحقيق الهدف باعادة التوازن يعنى العودة إلى نقطة البداية. وهى الاسترخاء النفسى أو ان شئنا بعبارة أدق تحقيق الذات الفردية فى أوسع معانيها :

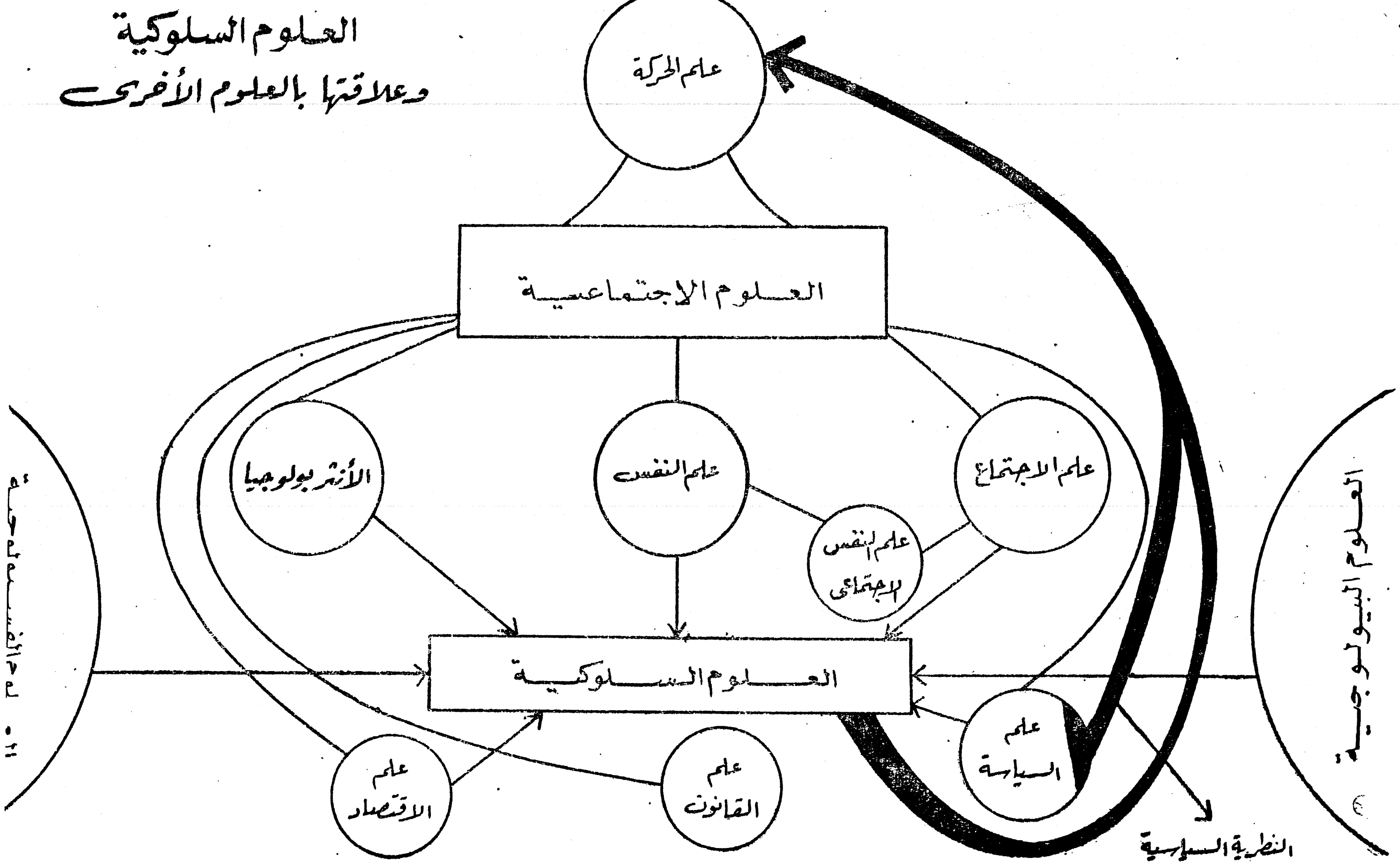
---

(١) فلنتصور طفلا رضيعا تركته أمه وحيدا وإلى جواره الزجاجة التى تعود أن يحصل منها على غذائه، شعر بالجوع . بدأت امعاؤه تتقلص . اتجه إلى ما حوله . وجد جريدة فراح يقضم أطرافها . لم يشعر بالشبع . وصل إلى الزجاجة وتمكن من أن يضعها فى فمه بالأسلوب وبالطريقة التى تعودها . حصل على حاجته من الغذاء . شعر بالامتلاء ، ومعنى ذلك الاسترخاء والعودة إلى حالة التوازن الطبيعى التى كانت قد اختلت عندما شعر بالجوع وبالتالى بدأ يبحث عن وسيلة للتخلص من تلك الحالة .

هذه هى الظاهرة السلوكية فى أبسط معانيها .

تفصيل هذا الموضوع سوف نتعرض له باسهاب كاف فى الكتاب الأول من هذا المؤلف

العلوم السلوكية وعلاقتها بالعلوم الأخرى



شكل رقم (٥)

المبحث الثالث

السلوك بين علم النفس وعلم الحركة

§ ١٦ — التمييز بين التطبيقات المختلفة لمفهوم الحركة فى نطاق العلوم الاجتماعية :

السلوك حركة . أليس السلوك هو تعبير عن السعى نحو تحقيق التوازن الذى اختل بسبب عملية التلاقى بين الجسد والمنبه ؟ والحركة سلوك : وهل الحركة سوى انطلاق ونشاط فى عملية السعى نحو التعبير عن الوجود فى محاولة تحقيق الذات البشرية ؟ السلوك حركة ، والحركة سلوك . ولكن كيف نستطيع تنظيم العلاقة الفكرية بين كلا الظاهرتين : الظاهرة السلوكية والظاهرة الحركية ؟

فلنبدأ بتحديد المفاهيم . لقد سبق ورأينا مدلول كلمة السلوك . وعلينا لنستطيع أن نحدد العلاقة بين السلوك والحركة أن نحدد أيضا على وجه الدقة وبكل وضوح ما الذى نقصده بكلمة الحركة . وهنا أول ما سوف نلاحظه هو أن استخدام هذا الاصطلاح متعدد وتطبيقاته لاحصر لها[1] . كلمة الحركة فى الواقع تستخدم فى أكثر من مدلول واحد . فهى تارة تعبر عن فلسفة معينة توصف بأنها « فلسفة الحركة » . ولكنها فى بعض الأحيان الأخرى ترتبط بكلمة البحث بحيث تصير الكلمة لصيقة بنوع معين من أنواع التحليل والدراسة فيقال بأن هذا بحث « حركى » . على أنها قد ترتفع فى صورة

---

(١) انظر المراجع التالية بخصوص التعريف بمدلول الاصطلاح « حركة » أو « action » :

DE FINANCE, Etre et agir, 1943, p. 79 ; MARC, Dialectique de l'agir, 1955, p. 123 ; BOUVIER, Acte, action, agent, in Revue de Systèse, 1937, p. 191 ; MILLER, The problem of action, in The Modern Schoolman, 1946, p. 135.

قارن أيضاً فى التاريخ الفلسفى العام وبصفة خاصة فى المدرسة الألمانية وفى المثالية الألمانية والتى لم نستطع أن نتعرض لها فى هذه الدراسة السريعة :

MAQUARDT, St. Thomas et l'action transitive, in Rev. de philosophie, 1925, p. 130 ; HARTMANN, Die philosophie des deutschen Idealismus, 1923, p. 93 ; GREDT, Die aristotelisch-thomistische Philosophie, Vol. I, 1935, p. 103.

ثالثة من صور تطبيقات استخدام المفهوم فاذا بها مدلول لنوع معين من الثقافة العلمية وتعبير عن تطور معين فى مدلول المعرفة ومستواها فيوصف ذلك الجسد من المفاهيم المرتبط بالكلمة بأنه « علم الحركة » . مما لاشك فيه أن هناك صلة خفية تستتر خلف هذه الاستخدامات الثلاث ، بحيث أن كل تطبيق منها يعبر لافقط عن حقيقة فكرية واحدة بل وبحيث يصير كل منها ممثلا لحقبة زمنية ترتبط بتطور مدلول الثقافة الاجتماعية وخصائصها من حيث علاقتها بالواقع والتطور اليومى[1] .

أول هذه الاستخدامات للاصطلاح وأكثرها شيوعا من الناحية التاريخية يجعل من الكلمة مرادفا لمذهب فلسفي معين . كلمة « فلسفة الحركة » تدخل فى العرف وتصير اصطلاحا متداولا بصفة خاصة عقب الرسالة المشهورة [2] التى تقدم بها « بلونديل » إلى جامعة السوربون فى عام ١٨٨٢ . المدلول العام للكلمة ورغم الغموض الذى يفرض تعدد استخدام الاصطلاح يدور حول كل فلسفة تعلق المعرفة على الحركة وتعرف فى هذه الأخيرة أى الحركة وفى مبدؤها ، أى الإرادة ، أساس الحقيقة والثقة . وهكذا يصير الاصطلاح وقد أضحى يعبر عن تيار ضخم متسع يضم أكثر من رافد واحد : الواقعية ، البراجماتية ، بل وكل ما نستطيع أن نتلمس فيه صورة من صور الحركة الإرادية .

إذا انتقلنا إلى التطبيق الثانى للاصطلاح عندما يرتبط بنوع معين من البحث والتحليل فيوصف بأنه « بحث حركى » لوجدنا أنفسنا فجأة وقد ألقينا بأبعاد التحليل فى أعقد المتاهات المرتبطة بالمسالك المنهاجية[3] . فلنحاول أولا أن نبسط المفهوم . إن التحليل الاجتماعى درج على أن يقتصر على الوصف أو التشخيص ولكنه حتى وقت قريب

---

(١) انظر بشكل عام الأبعاد النفسية فى :

GREGOIRE, La nature du psychique, 1957, p. 18

(٢) BLONDEL, L'action, 1893 ; ABBAGNANO, Storia della filosofia, vol. II, tom. II, 1950, p. 506 ; CREMER, Le problème religieux dans la philosophie de l'action, 1912, p. 39 ; DUMERY, La philosophie de l'action, 1948, p. 139.

(٣) لا يجوز أن نخلط بين ما أسميناه البحث الحركى أو Action research وذلك الذى تعود علماء الاجتماع على تسميته بالحركة الاجتماعية Social action انظر فى تحديد هذه المفاهيم بالتفصيل الكافى الذى لا تسمح به طبيعة هذه الدراسة المراجع فى :

MILGRAM, TOCH, Collective behavior, in LINDZEY, ARONSON, The handbook of social psychology, Vol. IV, 1969, p. 553.

كذلك فى التعريف بالإطار العام المنهاجى لمدلول البحث الحركى انظر فى نفس المرجع السابق ذكره :

DEUTSCH, Field theory in social psychology, in LINDZEY, cit., Vol. I, 1968, p. 465.

لم يكن يتصور أن يتدخل فى عجلة التطور فيدفع بها ناحية معينة . بعبارة أخرى كان الفارق واضح بين التحليل العلمى والتحليل الاجتماعى . الأول يميز بين الاستكشاف والاختراع : الاستكشاف يعنى التوصل إلى تفسير ظاهرة معينة ، الاختراع هوتحويل ذلك الاستكشاف إلى أداة تسمح بتوفير الجهد الإنسانى فى نشاطه اليومى . هذا التمييز الذى هو طبيعة البحث العلمى ظل بعيداً عن البحث الاجتماعى . ولكن سرعان ما غزا بدوره خلال النصف الثانى من القرن العشرين التحليل الاجتماعى ومن ثم تسربت أيضا إلى هذا الميدان فكرة الانتفاع بالاستكشاف فى التوجيه والتحكم فى الحركة الاجتماعية بمعنى التخلص من مشاكل الحياة اليومية . رجل الحركة يريد من عالم الاجتماع أن يكون مفيداً ، ومعنى ذلك أن يتقدم بالمساعدة لحل مشاكل الحياة اليومية . ولكن كيف يستطيع عالم الاجتماع ووظيفته أن يصف الحقيقة ، أن ينقلب فاذا به ساحر يقدم وسيلة التخلص من مشاكل الساعة ؟

لقد استطاع عالم الاجتماع أن يخلق أدواته المنطقية التى تمكن من التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل القريب : تضخم فى عدد السكان ، تطرر معين فى الرأى العام بالاهتمام أو عدمه ، إقبال على نوع جديد من السلع الاستهلاكية[1] . ولكن ألا يتضمن القول بامكانية التدخل لتغيير الوقائع ، أى للتحكم فى التطور ، نوعا من المبالغة والابتعاد عن حقيقة وظيفة عالم الاجتماع؟ مرة أخرى تتقدم التقاليد الأمريكية لتدفع بتطور الثقافة الاجتماعية خطوات عملاقة يقودها « لوين » باسم ديناميات الجماعة . وقد سبق أن رأينا هذا الاسم يتردد ذكره بخصوص تطور المدرسة السلوكية وتنقلاتها المتتابعة نحو ما أسميناه التحليل البيئى للسلوك الفردى . الذى يعنينا تأكيده فى هذا الخصوص هوأن البحث الحركى يفترض مقومات ثلاث : بحث تطبيقى ، عملية تغيير ، عناصر للتدخل ومعنى ذلك أن البحث الحركى يفترض كنقطة بداية القيام بالبحث الميدانى بقصد فهم وتغيير الظاهرة . مفهوم التغير يبرز واضحا من خلال الخبرة التى عاناها المجتمع الأمريكى فى أثناء الحرب العالمية الثانية . فالعالم المذكور دعى فى أكثر من مناسبة للتدخل للقيام ببعض التعديل فى العادات والتقاليد القومية من جانب والعسكرية من جانب آخر . من أمثلة ذلك عندما دعى لتغيير العادات السلوكية المرتبطة باستهلاك اللحم فى المجتمع الأمريكى . قام لوين بتنظيم مجموعة من المحاضرات يشرح فيها لسيدات الأسر القيمة الحرارية للحوم وغيرها من المواد البديلة . واستطاع من خلال متابعة أثر هذه المقابلات الشخصية أن يسجل تعديلا متتابعا فى الإقبال على استهلاك اللحوم وصل

---

(١) هذه المشكلة تتناول كما هو واضح جميع العلوم الاجتماعية . انظر المراجع الواردة فى :
MENDRAS, Eléments de Sociologie, 1967, p. 24

إلى ٣٢٪ فى بعض الأحيان . وهو انطلاقا من هذه التجربة وتجارب أخرى مماثلة استطاع أن يفسر فعالية التدخل فى الحركة الاجتماعية[1]. أساس ذلك فى نظر لوين آن كل جماعة تعرف نوعا من التوازن المؤقت الذى يسانده العديد من المتغيرات ولكن بصفة خاصة مجموعتين من المقومات : المجموعة الأولى وهى مجموعة من القوى تتفاعل فى سبيل الاحتفاظ بمستوى السلوك فى الجماعة فى درجة معينة من التوازن فيما يتعلق بعادات الاستهلاك السابق ذكرها . ثم مجموعة ثانية تحدث أثرها فى الفرد الذى ينتمى إلى الجماعة بحيث تمكنه من تحقيق توازنه الجماعى . هذه القوى هى التى تكون القواعد السلوكية . بغض النظر عن هذا التحليل ومدى ما يتضمنه من عناصر منطقية فانه أطلق عقال النظرة الجديدة التى أساسها دعوة علماء الاجتماع لحل مشاكل الحياة اليومية .

المعنى الثالث الذى تستخدم فيه كلمة الحركة يقودنا إلى علم الحركة . فى المعنى السابق رأينا البحث الحركى أداة للتدخل فى الحقيقة الاجتماعية أوبعبارة أخرى مصدر يسمح لعالم الاجتماع أن يؤدى فى نطاق الحياة الاجتماعية مايؤديه العالم بالنسبة للعلوم البحتة فى نطاق الظاهرة الطبيعية . ولكن كل ذلك يتم من خلال نظرة جزئية من جانب ودون صياغة علمية مجردة من جانب آخر . أما عن النظرة الجزئية فلأنها لاتعدو أن تكون عملية التدخل فى إحدى المشاكل اليومية المحددة . خلق رابطة التضامن بين فريق الطيارين فى القتال الجوى ، اكتشاف أسباب الخلاف والصراع بين الزوجين وتدخل لوضع حد لحالة النزاع ، البحث فى أسباب نقص الإنتاج الصناعى فى إحدى الوحدات عن مثيله فى الوحدات الأخرى والتدخل لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعى ، كل هذه جزئيات فرعية للوجود الاجتماعى لاتعنى ولاتفرض مواجهة الظاهرة فى كلياتها بمعنى الإمساك بالموقف الكلى والتحكم فى تطوراته[2] . كذلك من جانب آخر فان كل موقف من هذه المواقف الجزئية يفرض منطقه وتصير العملية مجرد نبوغ من جانب العالم فى تلمس المتغيرات المختلفة وصلاحية أوقدرة شخصية على إمكانية الإمساك بذلك المتغير الأصيل ومتابعة للتعديل فى أبعاد ذلك الموقف الجزئى . ولكن صياغة ووضع إطار عام لذلك التدخل لايزال تنقصه عملية التجريد الفكرية .

هنا يتدخل علم الحركة .

---

(١) لاحظ أن كلمة action research والتى تفيد الحركة من خلال واستنادا إلى البحث كأداة يترجمها علماء التحليل السلوكى فى التقاليد الفرنسية بكلمة recherche active ويقصد بذلك فى الدلالة الحرفية « بحث نشط » على أننا نفضل الأصل الإنجليزى الذى يسود اليوم الفقه الأوروبى بما فى ذلك الإيطالى والألمانى . انظر دويتش ، اتجاهات علم النفس الاجتماعى ، م. س . د . ، ص ٥٣ .

DAVAL, BOURRICAUD, DELAMOTTE, DORON, Traité de psychologie sociale, Vol. I, 1963, p. 24.

§ ١٧ — التعريف بعلم الحركة ووظيفته فى التطور المعاصر للثقافة العلمية :

لنستطيع أن نفهم مدلول علم الحركة يجب أن نعود قليلا إلى الإطار العام الفكرى الذى صبغ العالم خلال الربع الثانى من القرن العشرين . فكل علم له مناخه وكل اكتشاف له مبرراته التى يفرضها الإطار الفكرى العام المرتبط بالتطور . لقد سبق أن رأينا كيف أن كلمة العلوم السلوكية ما كان يقدر لها أن تونع وتزدهر خلال الأعوام الأولى للحرب العالمية الأولى ولم يكن الإطار العام الفكرى مستعداً لتقبل ذلك الاصطلاح وها نحن نرى تطبيقاً آخراً بالنسبة لكلمة علم الحركة[١] . فهى تونع وتتطور من خلال أحداث الحرب العالمية الثانية وبصفة خاصة خلال العشرة أعوام اللاحقة لذلك الصراع لأن الإطار الفكرى العام كان ينتظر انطلاق ذلك المفهوم ليؤدى وظيفته الخلاقة فى نطاق التطور العام للثقافة العلمية .

دون التدخل فى تفاصيل فرعية فمن الممكن أن نحدد التطور العام للثقافة الاجتماعية المعاصرة فى أبعاد أربعة : (أولا) لم يعد يقبل العلم الاجتماعى بالمعنى الضيق وإنما أضحى علم الجماعة يتسع ليضم كل ما له صلة بالحقيقة الإنسانية ثم (ثانيا) لم يعد يقبل علم الاجتماع المفهوم الماكروكزمى أو الميكروكوزمى للتحليل وإنما أضحى يقوم على أساس الجمع بين الناحيتين . كذلك (ثالثا) فعلم الجماعة لا يقبل أن يظل علما للقيم وإنما يتجه ليصير علما قياسيا . (رابعا) أخيراً عقب أن اجتازت الثقافة الاجتماعية مرحلة العلم والملاحظة، انطلقت فى نطاق العلم الحركى[٢] .

لنستطيع أن نحدد مدلول علم الحركة علينا أن نفهم بإيجاز هذه الأبعاد الأربعة لتطور الثقافة الاجتماعية وكيف ساعد على ذلك ما أسميناه الاتجاه السلوكى فى التحليل الاجتماعى . المدلول الأول للتطور يبدو واضحا فى نطاق كلا علم السياسة والاقتصاد : فعقب فترة طويلة ظلت فيها الثقافة السياسية وكذلك الثقافة الاقتصادية منعزلة فى عالمها المستقل بدأت تبرز بوضوح نظرة جديدة للتحليل السياسى وكذلك للتحليل الاقتصادى . كان علماء السياسة أول من أسرع إلى الإقبال على هذه النظرة الجديدة التى أساسها رفض التخصص المطلق فى نطاق أى من الثقافات الاجتماعية المختلفة والتسليم بأن هناك مفهوم اجتماعى لأى ثقافة اجتماعية متخصصة . المفهوم الاجتماعى للثقافة السياسية هى المنطلق

---

(١) PARSONS, The role of ideas in social action, in Essays in Sociological theory, 1954, p. 19.

(٢) WOLFF, Sociologie économique, Vol. I, 1971, p. 127

الأول فى تحليل ظاهرة السلطة. وسرعان ما أقبل على نفس الاتجاه علماء الاقتصاد. كذلك علم الاقتصاد له مفهومه الاجتماعى الذى يفترض أن أيا من هاتين الثقافتين لا يمكن بدعوى التخصص أن تنعزل عن الثقافات الأخرى. وكان من الطبيعى أن النظرة السلوكية للتحليل لابد أن تساعد فى عملية التقارب هذه. عبر عنها العالم الأمريكى ميتشل [١] الذى أصدر مقالا فى العام اللاحق لبحث واطسون السابق الإشارة اليه بعنوان: «السلوك الإنسانى والاقتصاديات». ورغم أن آثار مثل هذه النظرة لم تعبر عن نفسها بوضوح وصراحة فى التحليل الاقتصادى إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما بدأت تغزو المدرسة الميكروكزمية وتعبر عن نفسها بشكل واضح فى التقاليد الأمريكية على يد « كاتونا » [٢] ومدرسته، إلا أن التأثير والتأثر وبصفة خاصة عملية التداخل بين العلوم السلوكية وعلم الاقتصاد عبرت عن وجودها فقط فى أعقاب الحرب العالمية الثانية [٣].

الناحية الثانية والتى مدارها الجمع فى التحليل بين الناحيتين الميكروكزمية والماكروكزمية هى بدورها نتيجة منطقية للصفة الأولى. فحيث نسلم بأن فهم الظاهرة فى كلياتها يفترض تحليل جزئياتها وأن فهم إحدى الجزئيات لا يمكن أن ينفصل عن فهم الكليات، فإن هذا لابد وأن يقودنا إلى التسليم بضرورة البحث الكلى والجزئى فى آن واحد أى التحليل المكروكزمى والميكروكزمى [٤].

الناحية الثالثة تعكس بوضوح عملية تقارب أخرى بين الثقافة الاجتماعية والثقافة العلمية. علم الاجتماع ظل متميزاً ومختلفا عن العلوم الطبيعية من حيث جوهره ومنهاجيته حتى القرن التاسع عشر. العلوم الطبيعية علوم كمية وقياسية بمعنى أنها تخضع ظواهرها للتعبير الرقمى: طول أو عرض، وزن أو سرعة يعبر عنها بلغة حسابية. الظاهرة الاجتماعية ظاهرة تدور حول قيم ومبادىء ترفض مثل هذا الأسلوب فى التحليل: عدالة، حرية، توازن جميعها مفاهيم تمثل أحكام قيمية وترفض التعبير الرقمى. ولكن ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر وبصفة خاصة خلال النصف الأول من القرن

---

(١) انظر قائمة بالمراجع الأساسية ومتابعة موجزة لتطور الأبعاد النفسية فى التحليل الاقتصادى فى
RENAUD, La psychologie économique, 1954, p. 212 (Bilans de la connaissance économique : No. 4).
Mitchell, Katona.

(٢)

(٣) انظر لنفس المؤلف السابق ذكره فى الهامش الأخير مؤلفه الموجز عن:
RENAUD, La psychologie économique, 1964, p. 34

(٤) حامد ربيع، نظرية التحليل السياسى، م. س. ذ.، ص ١١٥

العشرين بدأت تبرز ملامح تعبر عن تطور ضخم فى العلوم الاجتماعية أساسها اخضاعها لعملية القياس. واستطاعت النظرية السلوكية فى هذه الناحية بأساليبها وطرق تحليلها الكمية والمعملية من خلال تلك القنطرة التى اقترضتها وأنمتها بغزارة وهى السلوك الحيوانى وما يتصل بصفة عامة بعلم الأحياء أن تدفع بهذه الناحية دفعة قوية ماكانت تستطيع العلوم الاجتماعية مستقلة عن المدرسة السلوكية أن تصل اليها أو تحققها حتى جزئيا(١) .

التطور الأخير والرابع يقودنا إلى صميم علم الحركة . عالم الاجتماع ظل حتى الحرب العالمية الثانية كما سبق ورأينا يقتصر على أن يلاحظ دون أن يسعى للتدخل الحركى. مدرسة ديناميات الجماعة القت بنا فى ميدان الحركة وأبرزت لنا كيف يستطيع عالم السلوك أن يقدم حلولا وضعية لمشاكل الحياة اليومية . ولكن كما سبق ورأينا لم يكن قد استطاع بعد لا أن يصوغ تلك الحلول فى نظرية عامة ولا أن يتجرد عن الواقع الجزئى فى سعيه للتخلص من مشكلة معينة . بعبارة أخرى لم يكن قد استطاع بعد أن يقدم تلك التأصيلات الفكرية التى سوف تقوده فيما بعد إلى حد القدرة على التنبوء(٢) .

إمكانية التنبوء وصياغة هذه الإمكانية فى شكل نظرية عامة مجردة بالنسبة للحركة الإنسانية هى الخطوة التى كان فى حاجة اليها عالم الاجتماع ليستطيع أن يقفز بثقافته إلى مستوى علم الحركة . كيف تم ذلك ؟

سوف نعود فيما بعد لدراسة علم الحركة وعلاقته بالعلوم السلوكية . ولكن يتعين علينا منذ الآن أن نتابع فى أبعادها العامة كيف تطورت الثقافة الاجتماعية لتخلق ما يسمى بعلم الحركة . أول من تحدث عن النظرية العامة للحركة حديثا واضحا صريحا هو العالم الأمريكى بارسونس(٣) . وهو يجعل منطلقه فى بنائه لنظرية الحركة مزدوجا :

---

(١) انظر رغم أنه مجرد مبادىء عامة وتوجيهات أوليه ولكنها كافية لمتابعة التطور العام للثقافة الاجتماعية فى أبعادها الرئيسية مؤلف :

PINTO, GRAWITZ, Méthodes de sciences sociales, 1964, Vol. I, p. 24 ; Vol. II, p. 875.

(٢) قارن رغم عدم ارتباطه مباشرة بالموضوع:

HOFFER, Language and action, in ROSEMA, MAYO, COLLINGE, Dimensions of political analysis, 1966, p. 260.

(٣) Parsons . مدير قسم العلاقات الاجتماعية فى جامعة هارفارد . يجب أن نسلم بأنه الشخصية المسيطرة على جميع اتجاهات التحليل الاجتماعى الأمريكى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فبفضله أعاد=

السلوك النفسى من جانب والإطار الثقافى للنظام الحركى من جانب آخر. على أن الواقع أن الاقتصار على القول بأن هذا العالم هو الذى شق الطريق نحو خلق علم الحركة يقدم صورة مشوهة لحقيقة التطور العام الذى خضعت له الثقافة الاجتماعية . والواقع أننا لو أردنا أن نحدد كيف تكاملت الأصول الفكرية لخلق علم الحركة لتعين علينا أن نتابع هذه المصادر فى ثلاثة تيارات : التيار الأول رياضى واحصائى يدور حول المصادر الأولى لنظرية الاحتمال . التيار الثانى نفسى يستمد مصدره من مدرسة فرويد وحواريه ثم أضف إلى ذلك مدرسة ديناميات الجماعة التى سبق وعرضنا لها بايجاز .

لو عدنا إلى دراسة نظرية الاحتمالات لهالنا أن نلاحظ كيف أنها فى بدايتها اتجهت أساسا لخلق القواعد العامة أوالمبادىء التى يجب أن تحكم التنبؤ فى السلوك . المفاهيم الثلاثة التى نبعت منها أفكار باسكال وبرنولى[1] تدور حول : المصادفة ــ الاستراتيجية ــ الحركة . رغم أن أيا منهما لم يستخدم كلمة « علم الحركة » إلا أن الفكرة الأساسية التى سيطرت على كلاهما تتركز فى هذا التساؤل : كيف نستطيع أن نحدد متابعة الوقائع

=علم الاجتماع الأمريكى إلى التقاليد الأوربية . وبعد أن ظل الفقه الأمريكى يعيش علما يسميه الوقائع أو data ناسيا أو متناسيا بوضع البناء النظرى فى أى تحليل علمى ، جاء بارسونس وحطم هذه الأسطورة وأدخل فى تقاليد القارة الجديدة عملية التجريد الفكرية التى تظل هى دائماً عصب التحليل العلمى لدراسة أى ظاهرة . على أن أهم ما يجب أن يعنينا من هذا العالم عودته لا فقط إلى حظيرة التقاليد الفكرية الأوروبية بل وكذلك إلى تقاليد التحليل الاجتماعى فى نظرية ماكس فيبر . فهذا الأخير يعرف علم الاجتماع بأنه « علم الحركة الاجتماعية» . ومن هذا المتطلق كانت جميع جهود بارسونس . وكان من الطبيعى أن يجد هذا الاتجاه مثلا خصبا فى المجتمع الأمريكى حيث الظروف كما سبق وشرحنا تؤهل لذلك.

يعرف بارسونس النظام الاجتماعى بأنه « يتكون من مجموعة من الأفراد النشطين الذين يندمجون فى عملية تأثير متبادل تتطور فى إطار موقف تحدد ببعض الخصائص الطبيعية . هؤلاء الأفراد تتحد حركتهم برغبتهم فى الحصول على أكبر قسط من الاشباع حيث الموقف تحدد وتشكل بمجموعة من الرموز المنظمة بالثقافة والحضارة التى ينتمون إليها » . وهكذا يصل إلى أن أى نظام اجتماعى يجب أن تتم دراسته من خلال مسالك أربعة : الاستقرار والذى يعنى التمسك بالقواعد النظامية ، التناسق الداخلى وهذا بدوره يقود إلى مبدأ الاندماج ثم تحديد الغاية الذى نستطيع أن نعبر عنه بمتابعة الأهداف ، وأخيراً عملية التوفيق التى تعنى ربط الوسائل بالوظيفة .

انظر إلى جوار المراجع السابق الإشارة إليها بصفة خاصة :

PARSONS, Social action, 1937 ; Working papers in the theory of action, 1953 ; Eléments pour une sociologie de l'action, 1955 ; SOROKIN, Tendances et déboires de la sociologie américaine, 1959.

(١) PASCAL : 1923 - 1662 ; BERNOUILLI : 1667 - 1748

الأكثر احتمالا فى حدوثها لوأن الحركة الفردية تابعت نفسها فى طريقها الطبيعى حتى نهايتها ؟ مايريده التحليل فى تلك اللحظة هو الإعداد الرياضى للقرار الذى تنبع منه الحركة . من هذا نبتت الأصول الفكرية للصياغة المجردة لمفهوم القرار : علم لايسعى لتفسير الوجود وإنما لتفسير عدم الوجود أوبعبارة أخرى يريد أن يفسر الحركة كمجموعة من القررات المحتملة والقابلة لأن تحدد رياضيا . أنه لاينظر إلى الواقعة كحقيقة طبيعية وإنما إلى الواقعة كحقيقة محتملة [1] .

رغم أن التطورات اللاحقة لاتعنينا إلا من حيث كونها ساعدت على بناء نظرية الاحتمالات إلا أن الذى يجدر بنا أن نؤكده أن نلاحظ كيف أن الاهتمامات بخلق هذه النظرية كانت أساسا اهتمامات اقتصادية وسياسية . يقول بهذا الخصوص العالم الفرنسى فاستل [2] وهو يفسر طبيعة هذه الاهتمامات « تكاد تكون جميع الوقائع بالنسبة لمعلوماتنا حقائق تنبع من المصادفة . يتعين علينا أن نتأمل بخصوصها الاحتمالات المختلفة لنستطيع من خلال ذلك أن نبنى قواعد التصرف . أعظم رجال السياسة لم يهتموا إلا بحل المشاكل الاحتمالية . وأكثرهم براعة هم أولئك الذين عرفوا كيف يمسكون بعناصر الموقف ويحولونها إلى معادلات . أنهم يقومون بهذه العملية دون تفكير : روح الملاحظة ، الذاكرة ، العادات المستقرة ، القدرة الضخمة على الاهتمام تسمح لهم بأن يستعيضوا عن القواعد والصياغات » . ولو عدنا إلى مؤلف برنولى المشهور [3] لوجدنا أن هذه العبارة تحمل فى ذاتها كل الدلالات : « إن فن التكهن أوتطبيق حساب الاحتمالات نعرفه بأنه فن قياس بأكثر دقة ممكنة احتمالات الأشياء بحيث نستطيع فى أحكامنا وفى حركتنا اختيار دائما ذلك الذى يجب أن نعترف بأنه خير القرارات ، بأنه أكثرها أفضلية ، بأنه أكثرها تأكيدا ، وبأنه أصلحها من حيث الإصدار . سلوك فى جوهره تتحدد به كل ما له صلة بحكمة الفيلسوف وحيطة رجل السياسة » .

يأتى فرويد ليكمل هذا الاطار الفكرى لعلم الحركة . فرويد نظر إلى جهوده على

---

(١) بودريكو ، م . س . ذ . ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) Vastel : أورد العبارة التالية المرجع السابق ذكره فى الهامش السابق ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) هذا المؤلف بعنوان ars conjectandi وهى عبارة لاتينية الكلمة الأولى منها تعنى فن والثانية من فعل conjecto التى تعنى التنبؤ أووضع الافتراضات . بهذا المعنى نستطيع أن نترجم هذا العنوان بأنه « فن التنبؤ » . انظر نفس المرجع ، ص ٣١ .

(٤) قارن فى معنى آخر ، نفس المرجع ، ص ٤٩ وما بعدها .

أنها أساس للتخلص من الحالة المرضية الفردية . استطاع بعبارة أخرى أن يخلق العلاقة الوثيقة بين كلمتى حركة وسلوك . السلوك هو طاقة والحركة تسمح بالتدخل فى خلفيات تلك الطاقة فاذا بها تعدل من السلوك . التدخل الأكلينيكى يصير إطاراً علاجياً لامكانيات التلاعب بعناصر السلوك الفردى . تاريخ التطور اللاحق لمدرسة فرويد وأتباعه بل وبصفة عامة للعلوم النفسية ليس إلا سعياً نحو تحقيق حقيقة مزدوجة : الأولى نقل لمفهوم التحليل الأكلينيكى أو بعبارة أخرى العلاقة بين الحركة والسلوك من نطاق السلوك الفردى إلى نطاق السلوك الجماعى . علم النفس المعاصر لم يفعل سوى أن يوسع من نطاق مفهوم النشاط . النشاط لا يعدو أن يكون تحقيقاً لغاية ولهدف بحيث يؤدى إلى شعور بالانتصار أو بالاخفاق . رغبة ، هدف ، احساس بالنجاح أو الاخفاق : هذه لحظات الحركة[1] . ومن جانب آخر السعى نحو توحيد جميع العلوم النفسية حول مفهوم الحركة .

يتلقف بارسونس هذا التراث ويوصله فى أبعاد جديدة باسم علم الحركة . والتطور الذى نعاصره فى هذه اللحظة يدعونا إلى أن نتساءل : هل نعود إلى تقاليد التراث اليونانى بالغاء التفرقة بين الثقافة العلمية والثقافة الاجتماعية بمعنى محاولة تأصيل العلاقات المرتبطة بتحرك الحقيقة الحية بأى معنى من معانيها إنسان كان أم حيوان أم طاقة ؟ سؤال سوف تجيب عنه الأيام المقبلة .

الأمر الذى يجب أن نؤكده فى خاتمة هذا التقديم للعلوم السلوكية ، هو دلالة هذا التطور العام للثقافة الاجتماعية . لم تعد هذه مجرد دراسة وصفية ، وإنما أضحت فى أقصى تعبير لها من حيث الصياغة الفكرية تسعى لأن تساند رجل الواقع بدفع التطور فى أبعاد جديدة ولتحقيق أهداف محددة[2] ، أن الإنسان الذى أصبح سيد نفسه إزاء الطبيعة يستطيع بدوره أن يتحكم فى ذاته فردياً كان أم جماعياً . ومن هذا المفهوم نبعت دراسات جديدة وآفاق بعيدة للحركة السلوكية . علم التغير الاجتماعى ، النظرية السياسية ، نظرية

---

(١) انظر الانتقادات التى يوجهها الأمريكى ويلز إلى فرويد بهذا الخصوص فى Psychanalyse pour la personne, 1962, p. 119. والتى تتلخص فى أن فرويد لم يكن قادراً على أن يربط الظواهر بالإطار الاجتماعى كما تفرض المناهجية العلمية . والواع أن ويلز Wells فى هذا مبالغ وهو ينسى ملاحظات لاجاش Lagache الفرنسى من أن نقطة البداية فى أفكار فرويد هى دائماً مثالية . قارن فولكييه م. س. ذ. ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) مندراس ، م. س. ذ. ، ص ١٩

التخطيط ، ميادين ثلاث كل منها يعبر فى ناحية من نواحى الثقافة الإنسانية عن أقصى درجات الالتقاء بين العلوم السلوكية والثقافات الاجتماعية الأخرى النوعية حول مدلول تأصيل ظاهرة الطاقة فى إطار «علم الحركة» .

علوم سلوكية ، علم للحركة ، ولكن أين موضع كل هذا من الثقافة الاجتماعية ؟ سؤال يجب أن نجيب عليه ولو بايجاز :

§ ١٨ ـ العلوم السلوكية وتبويب العلوم الاجتماعية :

من العرض السابق نستطيع أن نلحظ كيف أنه لا يمكن فصل تطور العلوم السلوكية عن الاطار العام للمعرفة الإنسانية وللتطور الحضارى[١] . وكما أن القرن التاسع عشر سيطرت عليه اللامنطقية فقد كان من الطبيعى أن تدور دراسة الإنسان أولا حول أبعاده النفسية : شخصية ، عواطف ، مبررات . القرن العشرين وهو قرن الوضعية العلمية كان لا بد وأن يفرض النظرة التجريبية والدراسة الواقعية للوجود البشرى : وهكذا كان التتابع المنطقى يعنى الانتقال من علم النفس إلى علم النفس الاجتماعى ومنه إلى علم السلوك . كل هذا يفسر كيف أن العلوم السلوكية هى جزء من أجزاء العلوم النفسية حيث تتجمع هذه الدراسات حول تحليل السلوك البشرى وحيث تستخدم منهاجية معينة .

رغم ذلك فهناك اعتبارات معينة تفرض علينا ألا نكتفى بهذه العموميات :

أولا : كما أن القرن التاسع عشر حطم الحواجز بين أنواع المعرفة فقد كان من الطبيعى أن يتلقف القرن العشرون نتيجة هذا التطور فى جميع ميادين الثقافة بما فى ذلك الثقافة الاجتماعية . العلوم السلوكية هى صورة من هذا التطور حيث تقابلت جميع العلوم الاجتماعية وغير الاجتماعية[٢] .

ثانياً : كذلك فان النصف الثانى من القرن العشرين الذى يقوم على الربط بين الثقافة والمهنة كان لا بد وأن يقود إلى ذلك التخصص الوظيفى فى الثقافة الجامعية . وهكذا فرض هذا التطور تعقيداً آخر حيث كان من الطبيعى أن نتساءل : لأى نوع من

---

(١) انظر أيضا ملاحظاتنا فى حامد ربيع ، أبحاث فى النظرية السياسية ، م. س. ذ. ، ص ٩١ وما بعدها . وقارن
KLUCKHOHN, Culture and behavior, 1965, p. 8.

(٢) انظر تصوراً آخر موضع نظر وجدير بالمناقشة فى :
ARON, Les étapes de la pensée sociologique, 1967, p. 43

المهن تعد العلوم السلوكية ، وأين موضع هذه العلوم من مختلف التخصصات المهنية[1] ؟

ثالثاً : كذلك تطوراً آخر سبق أن رأينا بعض ملامحه وهو استخدام العلم والثقافة أداة للحركة العلمية بصفة عامة والحركة السياسية بصفة خاصة . زاد من ذلك اعتبارات معينة مرتبطة بالتطورات التى نعيشها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك يعنى أن نثير تساؤلات أخرى ، العلوم السلوكية ليست فقط ذات وظيفة ثقافية ، بل تؤدى أيضاً وظيفة حضارية[2] ، فكيف ومتى وما هى مقومات تلك الوظيفة الحضارية للعلوم السلوكية ؟

تساؤلات عديدة لا نستطيع أن نجيب عليها بتفصيل واف ولكن يجب أن نطرحها ولو بايجاز لنستطيع أن نفهم أبعاد هذه الدراسة .

(ا) نقطة البداية هى أن نتساءل : ما هو موضع العلوم السلوكية من الثقافةالعلمية ؟

أحد المشاكل التى تزال تواجة الكثير من التساؤلات والتى بدورها تعكس التطور الحضارى والتقدم الفكرى . أوجست كونت سبق أن ميز بين العلوم التجريبية والعلوم التجريدية[3]. الأولى تشمل سبعة فروع : الرياضيات وهى علوم المنطق ، ثم علوم الطبيعة التى تتناول ثلاثة فروع : علم الفلك وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء ، ثم العلوم النفسية والتى بدورها تتناول علوم ثلاثة : علم الاحياء ، علم الاجتماع ثم علم الأخلاق . إلى جانب ذلك هناك علوم مركبة كعلم النفس الاجتماعى حيث تتقابل الأخلاقيات مع علم الاجتماع ، ثم هناك العلوم التجريبية أو التطبيقية . ومن بينها علم الجيولوجيا ، علم المناخ ، علم النبات ثم علم التربية . هذا التقسيم الذى ظل إلى فترة معينة والذى لا يزال يملك أنصاره يقوم على أساس التميز بين الظواهر الغير قابلة للتجزئة والظواهر القابلة

---

(١) قارن أبعاد مختلفة ومتعددة فى :

PIGANIOL, VILLECOURT, Pour une politique scientifique, 1963, p. 41 ; JACCARD, Sociologie de l'éducation, 1962, p. 194 ; BORN, La responsabilité du savant, 1967, p. 149.

(٢) قارن على سبيل المثال الوظيفة التى تؤديها العلوم السلوكية بصفة خاصة والعلوم الاجتماعية بصفة عامة فى التطور النفسى المعاصر للشخصية الإسرائيلية بإيجاز فى :

ZWEIS, Israel : the sword and the harp, 1969, p. 64.

(٣) انظر البورت ، م. س. ذ. ، ص ٨ وما بعدها.

للتجزئة . الأولى هى التى تكون العلوم التجريدية[1].

تقسيما آخر بدأ يبرز ويسيطر على بعض العلماء المعاصرين الذى أساسه أن العلوم الاجتماعية — وقد ميزناها عن علوم الطبيعة — يمكن ارجاعها إلى أسرتين كبيرتين : أساس ذلك ما إذا كانت دراسة الجماعة تتجه إلى التعمق فى أحد أبعادها أو نواحيها أو على العكس تتجه إلى الاحاطة أو الاتساع فى إحدى صورها . بعبارة أخرى هذه الدراسة تسير فى بعد رأسى أو أفقى ، البعد الأفقى يعنى دراسة صور الجماعات أما البعد الرأسى فيعنى تحليل أحد مقومات الجماعة أو التجمع البشرى . وهكذا نستطيع أن نميز طبقاً لهذه النظرة بين ما يسمى بالعلوم الاجتماعية الجزئية والعلوم الاجتماعية الكلية[2].

من قبيل الأسرة الأولى نستطيع أن نسوق علم المورفولوجيا الاجتماعى ، علم الديموجرافيا أو علم السكان ، علم الاقتصاد ، علم السياسة . جميع هذه الفروع تتناول بالدراسة والتحليل أحدى جزئيات الجماعة ، وهى عرضة بدورها لأن تتفتت كلما تعمقنا فى ذلك التحليل : وهكذا نجد فروعاً أخرى جديدة كعلم الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الأخلاقى . فاذا انتقلنا إلى العلوم الاجتماعية الكلية لوجدنا أنفسنا إزاء ثقافات تتجه إلى التخصص لا استناداً إلى نوع معين من النشاط وإنما إلى نوع معين من الجماعات وهكذا نجد أنفسنا إزاء تطبيقات عديدة : علم اجتماع الأسرة ، علم اجتماع الجماعات الصغيرة ، علم اجتماع الجماعات الفطرية ، علم الأنثربولوجيا ، على سبيل المثال . ونستطيع أن نضيف إلى هذا الفرع الثانى من فروع العلوم الاجتماعية ذلك الذى يسمى عادة باسم علم الاجتماع العام والذى يكاد يكون تلخيصاً أو تأصيلا مجرداً لمختلف فروع العلوم الاجتماعية[3].

---

(١) واضح أن هذا التأسيس غير علمى . ذلك أن كل ثقافة علمية يجب أن تتجه إلى تجزئة الظاهرة وتحطيمها إلى جزئيات والعودة بكل منها إلى أصولها المكونة ومن ثم فإن العلم الحقيقى يجب أن يقوم على أساس اكتشاف الذرة التى تتكون من تجمعاتها وحركاتها وتنقلاتها وتشكيلاتها مختلف صور الظاهرة موضع لتحليل . الوصول إلى هذه الذرة atom هو الهدف النهائى من كل ثقافة علمية . انظر حامد ربيع ، نظرية لتحليل السياسى ، م. س. ذ. ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢) هذا التقسيم هو الذى يتبعه ديفرجيه فى مؤلفه التقليدى عن مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية . نظر :

DUVERGER, Méthodes des sciences sociales, 1961, p. 38.

(٣) لم يحاول العالم المشهور وينخ فى مؤلفه المتداول عن فكرة العلم الاجتماعى تأصيل أو تفريع لعلوم الاجتماعية . انظر :

WINCH, The idea of a social science, 1960, p. 45, 86.

على أننا نعتقد أن جميع هذه التقسيمات لم تعد تتجانس مع طبيعة التطور المعاص للثقافة كما سبق وأبرزنا معالمها . والواقع أن الأعوام الأخيرة بدأت تؤكد على صو جديدة من الثقافة حيث تتجمع مسالك عديدة للمعرفة وتتقابل أنواع متباينة للدراسا وللظواهر فى بوتقة واحدة : العلاقات الاجتماعية ، التنمية البشرية ، العلوم السلوكية العلاقات الإنسانية ، صور أربع من صور المعرفة تقوم على أساس الدمج بين تحلي الظاهرة البيولوجية والظاهرة الاجتماعية والظاهرة النفسية[1] .

وإذا أردنا أن نترجم هذه الحقيقة فى مدلولها الصحيح لكان علينا أن نميز فى وحدا الثقافة بين ثلاث بؤر كل منها تختلف من حيث طبيعتها وان كانت كل منها تقود إ الأخرى ، الطبيعة ، الإنسان ، المجتمع .

١ ـ الطبيعة ونقصد بها تلك الظواهر المادية التى لا تنبع من إرادة الفرد وإنما ترتب بالعالم والكون الذى يحيط به ، الفرد يواجهها ولا يستطيع سوى أن يحاول فهمها و قدر له التقدم فهو يسعى للتحكم فيها .

٢ ـ الإنسان وهو الفرد كحقيقة بيولوجية ، الفرد فى ذاته كحقيقة حية بما يع ذلك من أحاسيس وغرائز فضلا عن نشاط وسلوك .

٣ ـ المجتمع وهو الفرد وقد انخرط واندمج فى مجموعة أكثر اتساعاً : التج البشرى. على أن هناك علاقة دائرية تقود أياً من هذه الكليات للكليات الأخرى . فالطب ظواهر مادية : أليس الإنسان أحد ظواهر الطبيعة ، والإنسان هو حقيقة بيولو- ونفسية ولكن أليس هو الوحدة النهائية التى منها يتكون المجتمع ؟ والمجتمع الذى عر بأنه التجمع البشرى أليس بدوره لقاء بين الطبيعة والإنسان ؟

هذه العلاقة الدائرية تفسر عملية الربط الفكرى التى يجب أن تربط بين عا الطبيعة وعلوم الإنسان والعلوم الاجتماعية. العلوم السلوكية إحدى قنوات هذا الربط وأ مظاهر التعبير عنه .

قد يتساءل البعض ولكن أين الرياضيات ؟ أين المنطق ؟ أين علم الأخلاق ؟

الواقع أننا إذا استثنينا الأخير الذى يجب أن يندمج فى العلوم الإنسانية فان الأخ لا تعدو أن تكون إلا مناهج أو أساليب للوصول إلى المعرفة وليست هى المعرفة

---

(١) مطابق ، البورت ، م. س. ذ. ، ص ٩ .

ذاتها . وعلم مناهج البحث لا يعدو أن يكون علماً تابعاً يرتبط بموضوع البحث ومصدر المعرفة .

(ب) هذا التميز بين مختلف فروع الثقافة يقودنا إلى مشكلة أخرى وهى أهمية دراسة العلوم السلوكية . لقد سبق أن رأينا مختلف أبعاد تلك الأهمية ، فلنحاول أن نحددها بايجاز[1] .

أولا – العلمية المنهاجية : فالعلوم السلوكية هى وحدها التى سمحت للعلوم الإنسانية بامكانيات تصور تطبيق المناهج الكمية والتجريبية فى نطاق التحليل الاجتماعى . سبق أن رأينا مدرسة بافلوف والمدرسة التجريبية الألمانية بصفة عامة ، ورأينا كيف أن هذا الاتجاه قاد إلى الثورة الواضحة بصفة خاصة فى مناهج التحليل النفسى فى التقاليد الأمريكية .

ثانياً – أضف إلى ذلك أن هذه العلوم السلوكية سمحت بتحقيق حدثين فى آن واحد. من جانب القيام بعملية التجميع للثقافات الاجتماعية بأن صهرت مختلف أبعاد التحليل الاجتماعى حول ظاهرة السلوك فى بوتقة واحدة . ولكنها من جانب آخر خلقت تلك القنطرة التى كانت مقتضيات العصر تفرضها بين العلوم البحتة بمنطقها الكمى والعلوم الاجتماعية بمنطقها الفلسفى . هذا التزاوج الذى بدأ يعبر عن نفسه بشكل واضح فى الأعوام الأخيرة تارة باسم علمية الثقافة الإنسانية وتارة باسم إنسانية الثقافة العلمية ما كان يمكن أن يتحقق لولا جهود المدرسة السلوكية .

ثالثاً – على أن هناك ناحية أخرى فى منتهى الأهمية بالنسبة لواقعنا المعاصر وبصفة خاصة فى عالمنا العربى . ذلك أن العلوم السلوكية التى قادت إلى علم الحركة والتى استطاعت أن تفرض بفضل امكانياتها فى تطبيق المنطق العلمى الذى أساسه القدرة على التنبؤ ، أن تتدخل فى توجيه التطور[2] ، أثبتت أنها تستطيع أن تؤدى وظيفة خطيرة فى المجتمعات النامية . فالمجتمع المتخلف هو أساساً حقيقة سلوكية . وتطويره لا يعنى سوى خلق نماذج سلوكية جديدة مع ربطها بقيم حضارية معينة ودفع كلاهما ، القيم والسلوك ، نحو إعادة تشكيل الطابع القومى . وليس أدل على ذلك مما حدث ونشاهده حالياً فى المجتمع الاسرائيلى : فاليهودى الذى كان فى مجتمع الجيتو شخص منعزل يتصف بصفات عديدة ليس أرزلها الجبن والمادية والانطواء والاباحية ، أضحى اليوم وقد انتقل إلى إسرائيل وعامة فى جو آخر وبفضل عملية التشكيل الدائمة التى تقوم بها الدولة الإسرائيلية

---

(١) MILLS, L'imagination sociologique, 1971, p. 18

(٢) انظر بصفة خاصة دوبى ، مقدمة فى علم النفس الاجتماعى ، م . س . ذ . ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

كأحد مظاهر التعبير عن وظيفتها العقائدية مستخدمة فى ذلك جميع مظاهر التقدم العلمى والاجتماعى والنفسى والسلوكى، بمثل خصائص سلوكية مختلفة فى بعض الأحيان متباينة بل ومتناقضة مع النموذج التقليدى الذى عرفناه والذى ما زال يعبر عن نفسه فى مجتمعات الجيتو التقليدية[1].

ألا يدعونا هذا للتساؤل : ألا يستطيع المجتمع العربى بدوره أن يلجأ انطلاقاً من هذه المفاهيم ومستغلا نفس الدلالة فى الخبرة إلى إعادة تشكيل الطابع القومى بما يعبر عن خصائص العصر ومقتضيات التطور ؟ سؤال قد يبدو أقرب إلى الخيال ولكن أكثر من عالم واحد أثاره وأجاب عليه بما يشعر بأنه أحد المسالك التى يجب أن نتوقعها فى الأعوام القادمة والتى على الدولة الإسرائيلية أن تدخلها فى اعتبارها فى تخطيطها السياسى فى ربع القرن القادم . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال العالم الأرمنى الأصل « ديكميجان »[2] الذى بمتابعته لدراسة تطورتاريخ الطابع القومى المصرى ابتداءاً من عام ١٩٥١ يتساءل : أليس من الممكن أن يصيب ذلك الطابع ما أصاب المجتمع اليهودى بما تعنيه هذه العملية من نتائج ؟ وهنا نضيف : أليست العلوم السلوكية بما تستطيع أن تقدمه من مسالك وأدوات هى خير منطلق لتحقيق مثل هذه الأهداف ؟

(حـ) هذه الملاحظات تفسر وتبرر تقسيمنا لهذه الدراسة . فعقب أن نتناول الظاهرة السلوكية فى تأصيل عام مطلق ننتقل لتناول تلك النماذج التى تعنينا بشكل خاص . كلا هذين القسمين ، الظاهرة السلوكية ثم النماذج السلوكية يكونان الاطار الفكرى العام للتحليل الحركى . والتحليل الحركى له شقين : منهاجية من جانب ثم منطق من جانب آخر . وهكذا نخصص للناحية الأولى القسم الثالث والناحية الثانية القسم الرابع . ومن ثم نقسم دراستنا على النحو التالى :

الكتاب الأول : الظاهرة السلوكية .

الكتاب الثانى : النماذج السلوكية .

الكتاب الثالث : المنهاجية السلوكية .

الكتاب الرابع : علم الحركة[3].

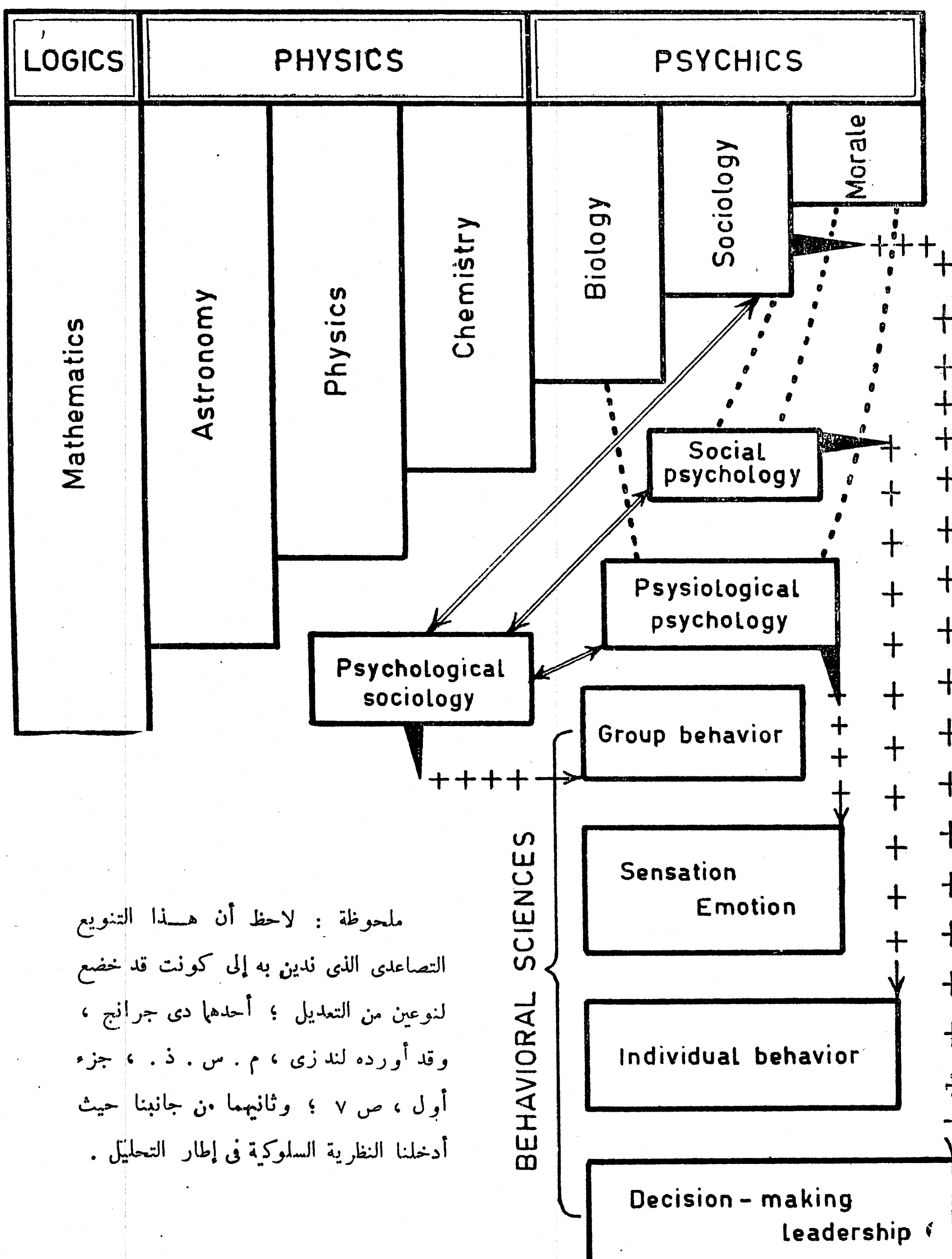
---

(١) حامد ربيع ، فلسفة الدعاية الإسرائيلية ، ١٩٧٠ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) DEKMEJIAN, Egypt under Nasser : A study in political dynamics, 1971, p. 247.

(٣) سوف نتعرض لعلم الحركة فقط من حيث علاقته بالنظرية السلوكية . انظر أيضاً حامد ربيع ، أبحاث فى النظرية السياسية ، م . س . ذ . ، ص ٢٧ وما بعدها .

شكل رقم « ٦ »



ملحوظة : لاحظ أن هـذا التنويع التصاعدى الذى ندين به إلى كونت قد خضع لنوعين من التعديل ؛ أحدهما دى جرانج ، وقد أورده لندزى ، م . س . ذ . ، جزء أول ، ص ٧ ؛ وثانيهما من جانبنا حيث أدخلنا النظرية السلوكية فى إطار التحليل .

العلاقة بين العلوم المجردة وموقع العلوم السلوكية

الكتاب الأول

الظاهرة السلوكية

§ ١٩ ـ المفاهيم الهيكلية : بين « لوين » و « فستنجر » :

من العرض السابق استطعنا أن نصل إلى تأكيد حقائق ثلاث : الطبيعة الاجتماعية للظاهرة السلوكية ، العلاقة الديناميكية التى تربط مختلف أجزاء الظاهرة السلوكية ، التنظيم التصاعدى للمظاهر السلوكية . تحديد بشىء من التفصيل هذه النواحى الثلاث يسمح لنا بفهم أبعاد تحليل الظاهرة السلوكية .

الظاهرة السلوكية ظاهرة اجتماعية[١] . وسواء كانت الظاهرة السلوكية تأخذ صورة التطبيق الفردى أو التطبيق الجماعى أو الجماهيرى فهى دائماً ظاهرة اجتماعية ، تتجلى هذه الصفة واضحة لو عدنا إلى نظرية المجال الحيوى كما عبر عنها العالم الأمريكى « لوين » . ورغم أن « لوين » كما سبق ورأينا ينتمى إلى مدرسة برلين ونظرية « الجشطلت » إلا أنه منذ أن استقر فى القارة الجديدة بدأ ذلك الاتجاه الواضح الذى سبق وأبرزنا معالمه والذى يدور حول جعل محور الاهتمام الرئيسى فى التحليل السلوكى هو فكرة المبررات[٢] . لأول وهلة يبدو واضحاً أن الحديث عن المبررات يعود بنا إلى مدرسة علم النفس التقليدى التى سبق ورأينا كيف أن المدرسة السلوكية قامت على رفضها ولكن الواقع أن هذا غير صحيح لأن المنهاجية لم تعد تعكس التقاليد الأولى فضلا عن أن دراسة المبررات هى من حيث جوهرها تؤكد واقعية التحليل الذى يرفض أن يعامل السلوك الفردى على أنه تطبيق عادى للسلوك الحيوانى . لا تعنينا هذه الجزئية بقدر ما يعنينا التأكيد على أن المدرسة الحالية ابتداء من « لوين » وبفضله استطاعت أن تؤكد بوضوح الطابع الاجتماعى للسلوك[٣] .

---

(١) انظر سابقا ص ٨٤ وما بعدها .

(٢) كذلك دويتش ، م . س . ذ . ، ص ٥٣ .

(٣) قارن المراجع والملاحظات الواردة فى :

BROOM, SELZNICK, Sociology, 1963, p. 255 ; LEWIN, Field theory in social science, 1967, p. 188 ; WOODWARD, The development of behavior, 1971, p. 35 ; SCHACHTER, The psychology of affiliation, 1959, p. 93 ; JOHNSON, Decision making, conflict and psychological arousal, in Journal of Abnormal and Social Psychology, 1963, p. 114.

وابتداء من هذه النظرة تطرقت إلى النظرية السلوكية الكثير من الاصطلاحات التى تعكس بوضوح مدى هذه الحقيقة .

أول هذه الاصطلاحات ما تعارف الفقه الغربى على تسميته باصطلاح « المجال الحيوى » والذى يقصد به فى حقيقة الأمر النطاق أو الفراغ الذى يستطيع فى داخله مصدر السلوك أن يتحرك . فكل حقيقة بشرية فى سعيها نحو إعادة التوازن إزاء المنبه الذى خلق الاختلال لا بد وأن تتقيد فى هذه الحركة بنطاق معين فرضته طبيعة الموقف ومختلف المتغيرات المرتبطة بذلك الموقف والتى لا تستطيع إزاءها القوة الحركية إلا أن تنحنى . انطلاقاً من هذا المفهوم قام « لوين » بتأصيل ما أسماه « منطق الديناميات » والذى يعنى أن جميع الثقافات العلمية تخضع لمنطق واحد أساسه حركة الوجود وطبيعة العلاقة بين مقومات الوجود . « لوين » فى هذا — متأثراً بأستاذه الفيلسوف الألمانى « كاسيرير » — ومتابعاً نفس الاتجاه الذى عبر عنه أيضاً أينشتاين[1] ، حاول أن يخلق ما أسماه « العلم المقارن للعلوم » . جهوده فى هذه الناحية باءت بالفشل ، ولكنه ترك لنا تراثاً ضخماً من الاصطلاحات تعكس تأصيلا كاملا لمفاهيم استطاعت بدورها أن تمكن من عملية بناء النظرية العامة للسلوك . ورغم أن هذه العملية لا تزال فى بدايتها ولا تزال فى حاجة إلى القدرة الخلاقة على جمع مختلف المظاهر السلوكية فى إطار واحد من التحليل إلا أنها وصلت إلى درجة من التكامل الذى يسمح بابراز بعض أبعاد ذلك التأصيل[2] .

الحقيقة الاجتماعية للسلوك لا موضع للمناقشة فيها وقد سبق وأبرزناها . ولكن ذلك لا يمنع أن نتذكر بعض أبعاد تلك الصفة . فقد رأينا أن السلوك قد يكون فردياً ، ولكنه أيضاً قد يكون جماعياً ، وقد يتوسط بين الأول والثانى فيعكس ما أسميناه بالصفة الجماعية للسلوك الفردى . العلاقة بين السلوك والجماعة ذات أبعاد متعددة : فالجماعة هى وحدها التى تقدم النماذج السلوكية والفرد فى عملية اختياره بين رد فعل وآخر إنما يخضع لعامل الجذب بين ما تقدمه الجماعة وبين ما يعتقد أو ما يتصور أنه خير رد فعل لذلك المنبه . ولكن أين وجه الالتقاء بين مختلف المظاهر السلوكية فى حقيقة عامة واحدة مطلقة تفسر جميع أنواع السلوك ؟ المفاهيم التى قدمها « لوين » تسمح بالاجابة ولو جزئياً عن هذا السؤال .

أول هذه المفاهيم فكرة التأزم[3] . ويقصد بذلك حالة الجذب بين أكثر من قوة

---

(١) Ernst Cassirer, Einstein

(٢) LEWIN, The conceptual representation and measurement of psychological forces, in Contributions to Psychological Theory, Vol. I, 1938, p. 39.

(٣) LEWIN, Psychologie dynamique, 1959, p. 129

واحدة تخضع لها الذات الساعية نحو الحركة فى سبيل اختيارها لتلك الصورة أو الأخرى من صور رد الفعل . فكرة التأزم بهذا المعنى تعكس خصائص فكرية معينة . فهى أولا حالة لمنطقة تسعى لتعديل نفسها بحيث تصبر مماثلة لحالة مناطق أخرى قريبة . ثم هى ثانياً تفترض وجود قوى أخرى على حدود تلك المنطقة التى تعانى من حالة التأزم . بعبارة أخرى فان الحقيقة البشرية عندما تواجه موقفاً جديداً تجد نفسها موضع جذب بين أكثر من نظام واحد من النظم الشعورية أو اللاشعورية للحركة . ويتوقف السلوك على طبيعة العلاقة بين هذه النظم فى صراعها وصدامها ، فى قوتها وضعفها . كل هذا يحدد خصائص الموقف العام الذى منه تنبعث الحركة والتى بها تتحدد المظاهر السلوكية . بعبارة أخرى طبيعة السلوك ومظاهره أى رد الفعل وعلاماته تتوقف بدورها على طبيعة المواقف المتعارضة فى داخل الذات موضع السلوك . « لوين » يميز بهذا الخصوص بين نماذج ثلاث من التعارض فى القوى الشعورية أو اللاشعورية المستترة خلف الموقف . مرد ذلك التمييز قدرة الوحدة البشرية على مواجهة مصادر الجذب والاندماج فى ذلك العالم الذى تصير بالنسبة له تلك الوحدة البشرية إحدى ذرات الوجود الإنسانى : الأول حيث يكون الفرد فى موقف وسط بين مجموعتين من القوى الايجابية المتساويتين من حيث الفاعلية . النموذج التقليدى « حمار برودانو » الذى يموت جوعاً وهو واقف بين كيسين من العلف[٢] . فى مثل ذلك الموقف ينقلب الوضع لمجرد أن يحدث اختلال ولو مكانى فى صفات هذه القوى مصدر التأزم . التطبيق الثانى عندما نجد الحقيقة البشرية بين قوتين سلبيتين ولكن كل منهما تمثل نفس القوى التى تمثلها القوة الأخرى . العقوبة نموذج واضح لهذه الصورة من صور الصراع . وهى صورة بدورها متعددة التطبيقات . فقد يكون هذا الموقف أساسه قوة سلبية جاذبة دون أن يتضمن ذلك إكراهاً للحقيقة البشرية على البقاء فى ذلك الموقف . مثل ذلك فتاة تجد نفسها بين أن تتزوج شخصاً لا تقبله ويثير فيها النفور أو تظل عانساً . وقد نجد الموقف وإذا بنا إزاء قوتين سلبيتين ولكن الفرد لا يستطيع أن يترك ميدان ذلك الصراع . نموذج لذلك شخص ينتمى إلى جمعية سرية معينة ولا يستطيع أن يتخلى عن انتمائه لتلك الجمعية يجد نفسه بين واحد من موقفين : إما أن يؤدى عملا طلب منه أداؤه ليستطيع أن يظل منتمياً لتلك الجمعية ومايعنيه ذلك من أن يفقد مكانته الاجتماعية وإما العكس . وقد نجد أنفسنا إزاء موقف ثالث حيث الحقيقة البشرية تخضع لقوة سلبية وتستطيع أن تتخلص منها ولكن من خلال مرورها

---

(١) الفكرة العامة لحالة التأزم يمكن أن نتصورها عضوياً بالشكل التالى . هناك ضغط على جزء معين من الجسد . يترتب على ذلك أن هذا الجزء من الجسد يصير فى حالة مختلفة عن الأجزاء الأخرى فيسعى لأن يستعيد حالته الأولى السابقة على حالة التأزم . انظر دويتش ، م . س . ذ . ، حتى ٥٤ .

(٢) نفس المرجع السابق الإشارة إليه ، ص ٦٥ وما بعدها .

بمنطقة تسيطر عليها قوة سلبية أخرى . نموذج لذلك شخص قدم للقضاء بتهمة عدم احترام الهيئة النيابية عندما رفض الشهادة على بعض معارفه المقربين بأنهم ينتمون أو لا ينتمون إلى الحزب الشيوعى ، والذى ليستطيع أن يتخلص من هذا الموقف ليس أمامه سوى أن يقبل التعامل مع السلطات كأحد الجواسيس[١] . بغض النظر عن هذه النماذج المختلفة فان الصفة المشتركة فى جميع التطبيقات هى أن الفرد تتنازعه قوى سلبية متماثلة من حيث القوة لا يستطيع إزاءها أن يتخذ قراراً بالاختيار . هذا النموذج ذو أهمية واضحة فى الحياة الاجتماعية لأنه يمثل التطبيق الذى يغلب على الفرد العادى أن يواجهه حيث أن الصراع بين القوى السلبية يعنى صراع بين الحواجز الاجتماعية التى يفرضها الإطار العام الحضارى . ويترتب على هذا الصراع أن نجد الشخص مصدر الحواجز الاجتماعية يصير وقد أضحى من جانب الحقيقة البشرية التى تصطدم بتلك الحواجز فى مركز العداوة . فالخادمة التى تجد نفسها فى منزل معين لا تستطيع أن تحصل على ما تريد دون إذن سيدتها ولا تستطيع أن تترك المنزل لأن هذا يعنى فقد مصدر تعيشها تنتهى بأن تنظر إلى تلك السيدة نظرة الكراهية والحقد وذلك مهما قدمت لها من وسائل الارتياح والطمأنينة . التطبيق الثالث من التطبيقات الأساسية لعملية التنازع عندما تكون الحقيقة البشرية معرضة لنوعين من القوى المتعارضة إحداها قوة جاذبة إيجابية والأخرى قوة جاذبة سلبية . نموذج واضح لهذا التطبيق الثالث نجده فى موقف اليهودى فى المجتمع الأمريكى فهو يتمزق بين قوة انتمائه إلى مجتمع الجيتو من جانب ورغبته فى الاندماج فى المجتمع الأمريكى حتى ولو تم ذلك عن طريق الزواج المختلط الذى يعنى رفع مستواه الاجتماعى والاقتصادى وتمكينه من صورة من صور الارتياح المادى ما كان يمكن أن يصل إليها لو ظل فى وضع الانتماء اليهودى .

مفهوم التأزم يقود إلى ما يسمى بعملية صنع القرار[٢] . القرار هو حركة شعورية

---

(١) ص ٦٦ . قارن أيضا ص ٦٩ من نفس المرجع .

(٢) بهذا المعنى نستطيع أن نحدد الأبعاد الثلاثة التى يجب أن تدور حولها عملية بناء نظرية عامة للظاهرة السلوكية : أولا نظرية التمزق أو التأزم ، ثانياً نظرية التماسك ، ثالثاً نظرية صنع القرار .

الأولى : والتى نستطيع أن نجد مصادرها المباشرة فى أفكار لوين تدور حول عملية الشد والجذب بين القوى المتعارضة والتى تنتهى بحالة الاسترخاء التى تعقب الاشباع . أبحاث لوين بهذا الشأن رغم جميع الانتقادات التى وجهت إليها جديرة بأن تكون عملية البناء الفكرى . ونتذكر على سبيل المثال تلك الأبحاث المتعلقة بنسيان النجاح وتذكر الفشل : فقد ثبت أن الشخص يتذكر بسهولة حالات الاخفاق أو عدم اكتمال النشاط وينسى بسهولة حالات النجاح أو الوصول بالحركة إلى خاتمتها المطلوبة . نظرية التماسك التى تكون الباب الثانى فى الاطار الفكرى لبناء النظرية العامة للظاهرة السلوكية سبق أن رأيناها على مستوى الفرد حيث تصير مرادف =

بقصد التخلص من موقف معين . رغم أن هذا سوف نعود له فيما بعد بتفصيل أكثر دقة إلا أن الذى يعنينا هنا ونحن بصدد تحديد الصفة الاجتماعية للسلوك أن نؤكد الطبيعة المشتركة لعملية صنع القرار . القرار هو انهاء للصراع بين قوى التأزم وسواء كان ذلك على مستوى الفرد أو الجماعة فهو دائماً حقيقة واحدة وظاهرة ذات أبعاد مشتركة . وتبدو هذه الحقيقة واضحة عندما نحاول أن نجيب عن السؤال : متى تكون عملية صنع القرار واضحة وصريحة ؟ رغم أن « لوين » لم يقدر له أن يقدم تأصيلا كاملا لديناميات الجماعة إلا أنه وضع الخطوط العامة فى هذا التحليل . فهو يذكرنا بأن حقيقة الجماعة ليست هى التشابك أو عدم التشابك بين خصائص أفرادها وإنما هى الترابط بين أعضائها . فالجماعة قد توصف بأنها حتيمة ديناميكية رغم أنها تتكون من عناصر متناقضة فى صفاتها ولكنها مترابطة ترابطاً كاملا فى تلك اللحظة . كذلك فان الجماعة قد تتكون من أفراد يشتركون فى جميع الصفات ولكن أعضاءها مفككون الأمر الذى ينفى عن تلك الجماعة صفة الديناميكية . هذه الصفة هى الشرط الأول اللازم لإمكانية اتخاذ القرار بسرعة وبما يجب من الحذر وبعد النظر . وهى ظاهرة مشتركة بين الفرد والجماعة . فكما أن الجماعة يجب أن تكون مترابطة فكذلك الشخصية الفردية يجب ألا تكون متصفة بأى صفة من صفات التحلل فى مختلف عناصرها ومقوماتها . الشخص الخائف المتردد تطبيقه المماثل المجتمع غير المترابط المفكك . فى كلا الحالين نحن أمام ظاهرة التماسك النفسى التى تحيل على مختلف القوى التى تسمح بتوحيد الأجزاء المتعددة لكيان واحد والتى بهذا المعنى تحمى هذا الكيان وتمكنه من أن يقاوم أى تأثيرات مدمرة[1]

=القوة الجاذبة التى تمنع الفرد من الانفصال عن الجماعة ، على أن الواقع أن نظرية التماسك أبعد من ذلك وأكثر تعقيداً . فالتماسك أولا ظاهرة اجتماعية يرتبط بمقومات الجماعة والعلاقات المتداخلة بين الجماعات الفردية والجماعات الكلية ثم هو يرتبط ثانياً بالشخصية الفردية وسوف نرى ذلك فيما بعد فى إحدى صوره وتطبيقاته بالنسبة للعلاقة بين الاتجاه والسلوك القولى والسلوك الفعلى . ولكنه أيضاً يدور حول علاقة الفرد بالجماعة . وهذه الناحية الأخيرة وحدها هى التى كانت موضع عناية من فستنجر والتى أثارت التمييز بين ما وصفه بأنه in-group و out-group . أما الناحية الثالثة والتى أسميناها بصنع القرار فهى النتيجة النهائية لحالة التمزق أو التأزم فى شكل اعلان عن إرادة . عملية صنع القرار بدورها ليست فقط حقيقة فردية ولكنها أيضاً حقيقة جماعية ، وهنا تبرز بشكل واضح عملية بناء نظرية عامة للظاهرة السلوكية . فالفقه المعاصر يلاحظ عليه بصفة عامة تجزئة تحليل ظاهرة صنع القرار أو ما يسمى decision-making والتمييز بين مايسميه النواحي النفسية ثم النواحي الاقتصادية ثم النواحي السياسية حتى أن الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية عندما أرادت أن تغطى هذه الكلمة وجدت نفسها مضطرة إلى أن تلجأ إلى أكثر من كاتب واحد كل منهم يتناول ناحية معينة دون أى ترابط بل وقراءة ما قدمه كل من العلماء الثلاث ، نفسياً ثم اقتصادياً ثم سياسياً يلحظ بعض التناقضات وعدم التناسق بين الأبعاد أو النواحى الثلاث للظاهرة .

انظر الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية ، م . س . ذ . ، جزء رابع ، ص ٣٤ وما بعدها .

(١) دويتش ، م . س . ذ . ، ص ٧٧ .

« فستنجر » هو الذى قدم لنا تأصيلا واضحاً لمفهوم التماسك الاجتماعى واستطاع من خلال هذا المفهوم واستناداً إلى بعض الأبحاث الميدانية أن يحدد لنا بعض النتائج ذات الأهمية الواضحة فى عملية التحليل السلوكى . وهى نتائج تبدو أكثر وضوحاً ودقة لو ربطناها ببعض المفاهيم[1] التى سبق وقدمها لنا أبو المدرسة المجالية « لوين » .

يعرف « فستنجر » مفهوم التماسك بأنه : « الميدان الكلى للقوى التى تزاول آثارها على أفراد وأجزاء الظاهرة لتفرض عليها البقاء فى الجماعة » . وهكذا التماسك يصير لدى «فستنجر» نتيجة لظاهرة أخرى وهى مدى فاعلية القوى الحركية فى منع أحد أفراد الجماعة من أن ينسحب من تلك الجماعة . بطبيعة الحال هذه القوى تختلف من فرد لآخر كما أنها تختلف من جماعة لأخرى . والواقع أن الأبحاث الميدانية التى قام بها العالم المذكور استخدمت أكثر من أداة واحدة لقياس ظاهرة التماسك ولكن الذى يعنينا هو أن نلاحظ علامات ومظاهر هذه الظاهرة . فالجماعة المتماسكة تعرف التخصص فى الوظائف والتقسيم الدقيق للنشاطات فضلا عن التنوع بل والتباين فى سلوك أعضائها . وهنا لابراز وإيضاح هذا المفهوم وكيف أنه يعكس إحدى الحقائق التى يشترك فيها كلا السلوك الفردى والسلوك الجماعى علينا أن ننتقل إلى أفكار « لوين » بخصوص تحليله لما يسمى بالوضع القائم . الوضع القائم لدى « لوين » ليس حقيقة جامدة وإنما هو عملية ديناميكية تخفى وتستتر خلفها حقيقة تطورية من الممكن اكتشافها . وهو فى سبيل التعريف بتلك الحقيقة يلجأ إلى اصطلاحات علم الطبيعة ويستخدم ما يسمى « بالتوازن فى حالة شبه الاستقرار » للتعبير عن ذلك الذى أسميناه بالحالة القائمة . معنى ذلك لو أن هناك وضعاً معيناً فان ذلك الوضع ليظل على ما هو عليه فى حاجة إلى قوة ذاتية لاستمرار التوازن الذى يفرضه ذلك الوضع[2]. وهذه بطبيعتها حالة ديناميكية . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن تغيير الوضع القائم لا يأخذ صورة واحدة : كما أن ذلك قد يتم نتيجة الاصطدام بقوى أخرى جديدة تخضع لها الظاهرة موضع الحالة القائمة ، فقد يتم ذلك التغير نتيجة ضعف أو نقصان فى إحدى القوى التى من مجموعها يتكون ذلك التوازن . بطبيعة الحال هناك فارق بين الحالتين : فى حالة القوى الجديدة فان حالة التأزم تكون أكثر ارتفاعاً حيث أن القوى المعارضة لا بد وأن تكون أكثر قوة على عكس نقص إحدى القوى الذاتية حيث أن القوى المتوازنة لم تتضخم فى مجموعها بأى عامل خارجى . على أن النتيجة

---

(١) LEWIN, Group decision and social change, in NEWCOMB, HARTLEY, Readings in social psychology, 1959, p. 197.

(٢) انظر المراجع الواردة فى دويتش ، م . س . ز . ، ص ٨٠ هامش رقم ٤٠ — ٤٤ .

الأخرى ذات العلاقة المباشرة بتحليل الصفة الاجتماعية للسلوك هى تلك المتعلقة بسلوك الأفراد فى تلك المواقف. « لوين » يعلن أنه من غير الممكن تغيير السلوك الفردى ابتداء من التأثير على الأفراد فى ذاتهم وإنما يجب أن يتم ذلك من خلال توجيه القوى المؤثرة إلى الجماعة كحقيقة كلية .

بعبارة أخرى فان دراسة السلوك الفردى لا يمكن أن تتم إلا من خلال الجماعة التى ينتمى إليها[1] ذلك الفرد الذى صدر عنه السلوك .

ويأتى « فستنجر » عقب أستاذه فيقدم لنا نظرية جديدة بعنوان «المقارنة الاجتماعية ». وهى نظرية خضعت لتطورات متعاقبة ابتداء من فكرة الاتصال الاجتماعى[2]. الافتراض الذى تقوم عليه النظرية يدور حول أن الأفراد يندفعون بطريقة تلقائية لاكتشاف مدى صحة آرائهم الفردية . فالفرد العادى يميل لأن يطابق بين رأيه ورأى الآخرين فى داخل الجماعة التى ينتمى إليها وهو فى هذا يخضع لأكثر من متغير واحد . تقوده جميعها لرغبته فى خلق نوع من التناسق بينه وبين من يحيط به . وقد قام « شاختر » بأبحاث ميدانية عديدة بقصد الصياغة الكاملة لهذه النظرية[3]. بغض النظر عن المناقشات العديدة التى تثور بهذا الخصوص فمن الواضح أنه فى النموذج الأكثر شيوعاً فان الوحدة الفردية على استعداد حتى لو تخلت عن بعض مبادئها أن تنزل من مستواها الفكرى والعقلى لتتجانس ولتشعر بالارتباط مع أفراد الجماعة التى تعيش فى داخلها ، بل ولوحظ فى تلك الأبحاث الميدانية أن الفرد الذى يخرج عن تلك القاعدة لا بد وأن يقابل بنوع من الضغط من جانب الجماعة يأخذ شكل تماسك فى الموقف ضد ذلك الفرد وينتهى بطحنه وتسوية تضاريسه أو بالصدام المطلق أو الجزئى معه .

الظاهرة السلوكية هى ظاهرة اجتماعية . التطبيق الفردى لا يعدو أن يكون بدوره تعبير عن هذه الحقيقة : فالسلوك الفردى هو تعبير عن طاقة فى مواجهة فرد آخر ومن ثم رغم وصفه بأنه فردى يفترض علاقة بين شخصين على الأقل ، هذه العلاقة لا يمكن أن تكون سوى اجتماعية . تعقد الحياة فى المجتمعات المعاصرة وتضخم المشاكل المرتبطة بالإشباع الغريزى للحاجات كان لا بد وأن يزيد من تأكيد هذه الحقيقة. إن الفرد المنعزل الذى يعيش فى الكهف ويشبع جوعه وعطشه لم يعد من الممكن تصوره فى العالم المعاصر .

---

(١) قارن ملاحظات مور ، م. س. ذ. ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) FESTINGER, A theory of social comparaison processes, in Human Relations, Vol. VII, 1954, p. 117.

(٣) SCHACHTER, Op. cit., p. 37

وحتى فى أبسط صور الجماعات البدائية فان السلوك الفردى هو دائماً سلوك اجتماعى . ألم نقل أن الجنس هو إحدى الخلفيات الأساسية فى الاشباع الغريزى وأن السلوك الجنسى هو أهم صور السلوك الفردى وأكثرها تعقيداً وتركيباً ؟ وهل السلوك الجنسى يمكن أن يكون سوى سلوكاً اجتماعياً ؟ أليس بطبيعته فى صورته العادية ، بل وفى صورته المرضية علاقة بين فردين ؟ كذلك فان عنصر الجماعة يبرز فى ناحية أخرى : الإطار العام للاحالة وهو ما يسمى فى بعض الأحيان بفكرة الجماعة المرجعية[1] . ويقصد بذلك أن الفرد عندما يواجه بمشكلة معينة فهو يلجأ فى تصور حل تلك المشكلة أو بعبارة أخرى فى التعبير الحركى عن عملية التوفيق بين حالة التأزم والتخلص من مصدر تلك الحالة إلى تلك الصور السلوكية التى تعودتها الجماعة وتقبلتها وجعلت منها ناموساً للحياة اليومية . بطبيعة الحال هذا التقبل يختلف ويتأثر تبعاً لشخصية كل فرد ولطبيعة كل موقف ولكن يظل دائماً وجود تلك الصور السلوكية واستقرارها فى الجماعة اطار عام لتحديد حدود الحركة الفردية .

الناحية الثانية التى أبرزناها بإيجاز ودون أن نتعمق فى تحليل أبعادها هى تلك المتعلقة بالطبيعة الديناميكية للظاهرة السلوكية . فالسلوك على مستوى الفرد أو الجماعة لا يمكن أن يفهم ابتداءاً من التحليل الميكروكوزمى أو التحليل الجامد أو الاستاتيكى . أن تحليل العملية السلوكية يفترض أن يجمع بين أبعاد أربعة[2] .

أولا : تحليل ميكروكوزمى أى دراسة لمختلف الجزئيات والعناصر التى تتكون منها الظاهرة السلوكية . فلو تصورنا أن « ا » فى علاقته بشخص آخر وليكن « ب » يخضع لقواعد معينة تعكس درجة معينة من درجات الاحترام والتقدير . إذا أردنا تحليل هذا السلوك فأننا لن نستطيع أن نفهم الأبعاد الحقيقية لهذه الصورة من صورة السلوك الفردى إن لم تتضمن الدراسة جميع جزئيات الموقف بما فى ذلك الشخص الموجه إليه الاحترام . ولعل هذا يفسر الاهتمام بالنواحى المقارنة فى التحليل السلوكى حيث يزيد من تأكيد الدلالة ، فاحترام « ا » قد يختلف عندما يواجه بشخص ثالث وليكن « حـ » زيادة أو نقصاً . وهنا يثور أكثر من سؤال لماذا وكيف ؟ أسئلة جميعها لا يمكن أن نتناولها إلا من خلال التحليل الميكروكوزمى .

---

(١) مور ، م . س . ذ . ، ص ٢٩٢ .

(٢) قارن أيضاً بهذا الخصوص وبصفة خاصة فيما يتعلق بالسلوك السياسى ملاحظات :

ROKKAN, The comparative study of political participation, notes toward a perspective on current research, in RANNEY, Essays on the behavioral study of politics, 1963, p. 47.

ثانياً : تحليل مكروكوزمى ، وهذا واضح وليس فى حاجة إلى تفصيل . الظاهرة السلوكية تفترض التجريد والتعميم . والنظرية ضرورة لازمة لا فقط لتفسير السلوك ، بل ولإمكانية التنبوء به، لقدسبق أن رأينا آن علم الحركة هو الخاتمة الطبيعية للدعوة التى تسيطر اليوم على العلوم الاجتماعية والتى أساسها ضرورة تدخل العالم المتخصص فى توجيه الحركة الإنسانية . كذلك فهم الظاهرة فى كلياتها لا يمكن أن يكون صحيحاً وكاملا إلا إذا استند إلى ذلك التجرد . كذلك سبق أن رأينا كيف أن الظاهرة السلوكية ظاهرة اجتماعية بمعنى أنها ليست مجرد تجميع لوحدات وإنما هى حقيقة مختلفة عن مجموع تلك الوحدات . وإذا كانت تلك الحقيقة قد تبدو غير واضحة نسبياً فى السلوك الفردى فإنها تبدو صريحة مطلقة فى السلوك الجماعى .

ثالثاً : التحليل يجب أن يكون استاتيكياً [1]. ونقصد بذلك افتراض توقف الحركة فى لحظة معينة وتجزئة عناصر الظاهرة . الدراسة الجامدة تعنى الدراسة التحليلية : إعادة الشيء إلى مقوماته . هكذا فعل أرسطو وهكذا لا بد أن نفعل فى أى دراسةعلمية لظاهرة مركبة . والظاهرة السلوكية بطبيعتها ظاهرة مركبة .

رابعاً : كذلك الظاهرة السلوكية ظاهرة ديناميكية ولا يمكن فهمها إلا انطلاقاً من هذه الحقيقة . وهى حقيقة مطلقة لا تقبل الاستثناء . لقد سبق أن رأينا كيف حلل « لوين » الوضع القائم بأنه حقيقة ديناميكية[2] وهذا تعبير عن تلك الطبيعة . فالوضع القائم رغم ثباته أو تصور ثباته يتضمن قوى داخلية تتحرك لتأكيد ذلك الثبات . ولو أردنا أن نفهم حقيقة الظاهرة السلوكية من هذه الناحية فلنتصور راقصاً يعبر على حبل مشدود فى الهواء . أنه لينتقل من وضع إلى آخر لا بد وأن يزاول حركات معينة تسمح له بالتوازن ولتمنعه من السقوط . ولكن لنفترض أنه عقب أن وصل إلى نقطة معينة تتوسط ذلك الحبل الذى يحمله لم يستطع أن يتقدم وأراد أن يظل ولو لعدة دقائق فى ذلك الوضع . هل يستطيع أن يفعل ذلك إن لم يبذل مجهوداً معيناً ليحفظ لنفسه التوازن إذا أراد ألا يسقط على الأرض ؟ لا شك فى أن هذا المجهود أقل من ذلك الذى هو فى حاجة إليه ليستمر فى طريقه ولكن هذا لا ينفى أن حماية الوضع القائم يفترض مجهوداً ذاتياً ونشاطاً ديناميكياً للمحافظة عليه . هكذا الجماعة وهكذا الفرد فى حياة أى منهما وبالتالى فى تعبيراته الحركية المرتبطة بنشاطه السلوكى .

---

(١) انظر أيضاً حامد ربيع ، نظرية التحليل السياسى ، م . س . ذ . ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) دويتش ، م . س . ذ . ، ص ٥٤ .

الحقيقة الثالثة التى أبرزناها لماماً هى ما أسميناه بالتنظيم التصاعدى للمظاهر السلوكية[1]. ونقصد بذلك أن السلوك هو تعبير عن نظام عام شامل للمواجهة. ومن ثم فان السلوك يتدرج فى هذا النظام بحيث يصير مجموعة من الوقائع كل منها ترتبط بالأخرى كصورة سلوكية كلية أو جزئية كرد الفعل لمواجهة الموقف. ولنقدم لذلك مثلا : السلوك السياسى. فالسلوك السياسى يعنى علاقة الحقيقة البشرية بالاكراه السلطوى. بهذا المعنى قد يكون سلوكاً فردياً ولكنه قد يكون جماعياً أو جماهيرياً. ولكنه من جانب آخر فى ذاته أى السلوك السياسى يتكون من العديد من المظاهر السلوكية المتتابعة والمتدرجة. فالسلوك بالمشاركة قد يعبر عنه المواطن بأكثر من واقعة واحدة كل منها تكون فى ذاتها ظاهرة سلوكية[2]. كل هذا يفسر ملاحظتين : الأولى أن تقسيم الظاهرة السلوكية هو دائماً تقسيم نسبى ومتداخل بمعنى أن الكليات ليست مطلقة. وقد سبق ورأينا أن السلوك من الممكن أن يتنوع تبعاً لمصدره أو تبعاً لموضوعه أو تبعاً للصفة الغالبة عليه. فالسلوك الجنسى قد يكون فردياً وقد يكون جماعياً وقد يعبر عن نفسه جماهيرياً وقد سبق أن رأينا صوراً لذلك. وهو أيضاً قد يكون مرضياً وقد يكون طبيعياً، والنماذج فى هذا الخصوص عديدة لا حصر لها. رغم تداخل الكليات السلوكية إلا أن الظاهرة السلوكية تخضع من جانب آخر لنوع معين من أنواع التنظيم التصاعدى بمعنى أن السلوك عندما يتحدد بمصدره وبموضوعه فاذا به يتشعب فى داخله بالعديد من الجزئيات السلوكية التى

---

(١) قد يكون من السابق لأوانه أن نتعرض لظاهرة القيادة ولكن التأكيد على الناحية الاجتماعية للسلوك تدفع بنا لأن نثير موضوع العلاقة بين المفكر والاطار الاجتماعى. أكثر من كاتب يتساءل عن حقيقة النبوغ الفكرى وهل هو نوع من الإيحاء ؟ النظرية السلوكية تغنينا عن هذه التساؤلات. إنها تحدد حقيقة الظاهرة الفكرية كنبوغ فردى كما تفسر طبيعة القيادة كظاهرة جماعية وسوف نرى ذلك تفصيلا بالنسبة لهذه الأخيرة فيما بعد حيث أنها نعرفها بأنها نوع من رد الفعل لمنبه صادف ذاتا فردية ذات حساسية من درجة معينة. فاذا كان المنبه « ا » مثلا لا يحدث فى الشخص العادى أى أثر فان مثل هذا المنبه قد يحدث فى شخص آخر أثراً قد يصل إلى حد ارتكاب جريمة القتل، كذلك الأمر بالنسبة للمفكر، المنبه بالنسبة له يصير التراث الحضارى والمشكلة السياسية أو الثقافية التى يواجهها المجتمع الذى ينتمى إليه ذلك المفكر. إن بعد الرؤيا أو صيحات التحذير لا تصير فى تلك اللحظة أكثر من رد فعل لمنبه لا يشعر به الآخرون والمفكر يصير تربة أكثر حساسية من الآخرين. ايسقراط تحدث عن الوحدة اليونانية فى وقت لم يكن فيه أحد يشعر بضرورة تلك الوحدة وحذر من انهيار المجتمع اليونانى إن لم يواجه مصيره متكاتلا مترابطاً، الأمر الذى تحقق بعد عصره بعدة قرون. فيشت فى ألمانيا أعاد نفس القصة بلغة أخرى. قوة كارل ماركس هى فى أنه كان من الشفافية والحساسية بحيث وصف أحداث العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين قبل ذلك بأكثر من ثلاثة أرباع القرن. انظر حامد ربيع، التعريف بعلم السياسة، ١٩٧٢، ص ١٢١ وما بعدها.

(٢) وهذا ما يسميه لوين : Hierarchical Organization انظر
LEWIN, Field theory, cit., p. 101.

كل منها تكون سلوكاً على حدة وان كانت فى مجموعها تترابط فى علاقة انسجام وتوفيق لتعكس رد فعل عام ومطلق إزاء موقف معين تحدد مكاناً وزماناً[1].

هذه الحقائق تفرض علينا فى متابعة هذه الدراسة أننا ونحن بصدد تحليل الظاهرة السلوكية وبغض النظر عن موضوعها أن نتابع ذلك التحليل ابتداء من السلوك الجماعى الذى يمثل الاطار العام ونقطة البداية فى فهم الحقيقة البشرية كحركة وانطلاق. ثم يعقب ذلك دراسة السلوك الفردى قبل آن نختم هذا الجزء بدراسة السلوك الجماهيرى كتطبيق معين من تطبيقات الالتقاء بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى فى حالة معينة من حالات الهيجان وعدم الاستقرار. على أن هذا العرض ليكون كاملا يجب أن يتناول أيضاً عملية التفاعل التى تميز التقاء الحركة بين سالب وموجب أو بعبارة أخرى بين الشخص الذى تنبعث منه الحركة والشخص الذى يخضع لتلك الحركة وقد يعبر بدوره عن رد فعل متقابل أو متعارض مع الحركة الأولى الموجهة إليه.

نتابع هذه الدراسة فى أقسام أربعة :

القسم الأول : السلوك الجماعى.

القسم الثانى : السلوك الفردى.

القسم الثالث : عملية التفاعل[2].

القسم الرابع : السلوك الجماهيرى[3].

---

(١) انظر النموذج والملاحظات التى يسوقها الكاتب السابق ذكره فى نفس المرجع، ص ١٠٢.

(٢) واضح من هذا أن هذه الكايات الثلاث تمثل الاطار العام الفكرى لتجريد الظاهرة السلوكية. نماذج السلوك وهو الكتاب الثانى من المؤلف يتناول التطبيقات التى بدورها لا تعدو أن تكون جزئيات فى عملية التجريد العامة للظاهرة السلوكية. انظر فيما بعدتعريفنا للنموذج السلوكى. وقارن :
LEVY, The structure of society, 1952, p. 57.

(٣) يجب التمييز فى الظاهرة الجماهيرية بين سلوك الفرد وسلوك الجماعة. الأول سلوك فردى، والثانى سلوك جماعى. سبق أن أشرنا إلى ذلك وسوف نعود إليه تفصيلا فيما بعد. ولعل هذا هو أحد أسباب غموض ظاهرة السلوك الجماهيرى فىالفقه المعاصر من‌حيث مداخله الفكرية. انظر أيضا ستوتزل، م. س. ذ.، ص ٢٤١ وما بعدها.

*** حالة رقم ٨ : حول قياس الصراع بين التزام الصداقة والالتزام بالانتماء الاجتماعى :

أحد التطبيقات الواضحة حيث يجد المرء فيها نفسه فى حالة صراع وبالتالى تأزم بين قوتين كل منهما تجذبه نحو صورة سلوكية معينة، هى حيث يجد المرء نفسه موزعاً بين التزامات تفرضها عليه علاقة الصداقة والتزامات أخرى تفرضها طبيعة علاقة الانتماء التى تربط المواطن بالمجتمع الكلى الذى ينتمى إليه الفرد . ولعله من قبيل الاستطراد التذكير بأن ذلك موضعه أن كلا العلاقتين تكونان وقد وصلتا إلى درجة معينة من التنظيم والاستقرار . فعلاقة صداقة عابرة لا يمكن أن تحدث مثل هذا الصراع . كذلك يندر أن تثور المشكلة بالنسبة للأقليات وخصوصاً تلك الحديثة العهد بالانتماء الاجتماعى بالنسبة للمجتمع الكلى أو القومى .

فى بحث قام به العالمان الأمريكيان «ستوفر» و«توبى» نجد محاولة واضحة لقياس هذه الظاهرة(١). لا تعنينا نتائج الدراسة التى أجريت ميدانياً فى جامعة هارفارد ، فى شهر فبراير عام ١٩٥٠ ، على ٦٤٨ طالب حيث أن عملية اختيار العينة باعتراف الباحثين لم تخضع لأى مواصفات دقيقة وبصفة خاصة من حيث عملية التمثيل .

ولكن الذى يعنينا أن نسوقه هو بعض الأسئلة التى وجهت إلى الحالات والتى تعكس المواقف التى تصورها الباحثان ممثلة لحالة التمزق موضع الاستكشاف :

(أ) أنك وقد تصادف أن كنت مع صديقك العزيز والمقرب أثناء قيادته لسيارته فى منطقة من الممنوع فيها السير بسرعة تزيد عن عشرين ميلا فى الساعة . ومع ذلك فان صديقك كان يقود بسرعة لا تقل عن خمسة وثلاثون ميلا . وقعت حادثة خلال تلك القيادة أدت إلى قتل أحد المارة . لا يوجد أى شاهد آخر سواك . أخبرك محمى الصديق بأن شهادتك لا بد وأن تنقذ صديقك أو تقوده إلى أسوأ النتائج .

١ – ما هو الحق الذى تعتقد أن صديقك يجب أن يتوقعه منك ؟

علم على الإجابة التى تعتقد أنها أقرب إلى موقفك :

– صديقى من حقه على بلا منازع أن أشهد بأنه لم يتعد فى قيادته عشرين ميلا فى الساعة .
– صديقى من حقه إلى حد ما أن يتوقع أن أشهد بأنه لم يتجاوز العشرين ميلا أثناء قيادته .
– ليس من حق صديقى أن يتوقع من جانبى أن أشهد بأنه لم يتجاوز العشرين ميلا .

٢ – وماذا تعتقد أنت بأنه أكثر احتمالا لو طلب منك أن تؤدى واجبك بالشهادة بخصوص صديقك ؟

– أن تشهد بأنه كان يسير بسرعة عشرين ميلا فى الساعة .
– ألا تشهد بأنه كان يسير بسرعة عشرين ميلا فى الساعة(٢).

(ب) أنت ناقد أدبى فى جريدة خاصة . صديقك عزيز وضع كل مدخراته فى إنتاج مسرحية فنية . قدر لك أن تراها وحكمت عليها بأنها حقيقة سيئة .

١ – ما هو الحق الذى يجب أن يتوقعه منك صديقك ؟

– من حقه ، بلا مناقشة ، كصديق أن يتوقع منك ألا تكون قاسياً فى تعليقك على المسرحية .

---

(١) البحث كاملا يجده القارئ فى :
STOUFFER, TOBY, Role conflict and personality, in American Journal of Sociology, 1951, p. 395.

(٢) انظر نماذج لمواقف أخرى فى نفس البحث ، م. س. ذ. ، ص ٤٠١ وما بعدها .

- من حقه إلى حد ما أن تقل ذلك بوصفه صديقا لك .
- ليس من حقه كصديق أن يتوقع منك أن تفعل ذلك من أجله ومن أجل صداقته .

٢ - وأنت هل تتخذ موقفاً صريحاً من المسرحية احتراماً لالتزامك نحو قارئك أم أنك سوف تتخذموقف التساهل احتراماً لحق صديقك نحوك ؟

(حـ) خرجت من اجتماع سرى أنت أحد أعضائه عقب أن عرفت بأن صديقاً عزيزاً عليك سوف ينتهى الأمر به إلى الخراب الاقتصادى الكلى الشامل إذا لم يسحب نفسه من السوق بسرعة وقبل أن يعلن القرار الذى اتخذ فى ذلك الاجتماع . وتصادف أن كنت مدعواً للعشاء لدى صديقك فى منزله فى تلك الليلة وعقب ذلك الاجتماع(١) .

١ - ما هو الحق الذى يجب أن يتوقعه منك صديقك ؟

- من حقه كصديق وبلا منازعة أن أعمل على اخراجه من تلك الورطة .
- قد يكون من حقه إلى حد ما أن أساعده على إخراجه من تلك الورطة .
- ليس من حق الصديق بأى وجه أن أقدم له العون لاخراجه من تلك الورطة ؟

٢ - ماذا أنت فاعل إزاء هذا الموقف ؟ هل تقدم العون لصديقك أم أنك سوف تظل محتفظاً بالتزامك إزاء الشركة ؟

من الناحية المنهاجية قد يثور أكثر من سؤال واحد بخصوص عملية قياس الصراع والتأزم استناداً إلى هذه الأسئلة . والواقع أن العالمة ماتيلدا ريليى تقدم بهذا الخصوص الكثير من الملاحظات الجديرة بالتأمل . لكن المواقف المختلفة التى عبرت عنها الأسئلة (ا ، ب ، حـ) تعكس صوراً لحالة التأزم التى عرضنا لها فى دراستنا على أنها جوهر الحقيقة السلوكية(٢).

§ ٢٠ - التمييز بين الاتجاه والسلوك القولى والسلوك الفعلى :

قبل أن نتابع الدراسة وننتقل إلى تحليل مختلف تطبيقات الظاهرة السلوكية نسرع بتحديد بعض المفاهيم . لقد سبق أن رأينا أن تأصيل نظرية عامة للظاهرة السلوكية لا يزال موضع البناء . رغم أننا سوف نحاول ذلك محاولة جزئية عندما نتعرض لعملية التفاعل إلا أن نتائج عدم التأصيل النظرى لموضوع هذه الدراسة فى شكل نظرية عامة تحكم جميع أنواع مظاهر الحركة الإنسانية لا بد وأن يؤدى إلى نتائج عديدة من حيث عدم الدقة والغموض فى تحديد مدلول المفاهيم .

---

(١) انظر ملاحظات :
RILEY, Sociological research, a case approach, 1963, p. 428.

(٢) قارن الاحالات الواردة فى المرجع السابق ذكره ، ص ٤٢٩ ، هامش رقم ٢٢ والملاحظات الأخرى ص ٤٣٤ وما بعدها .

ويبدو ذلك واضحاً عندما نحاول أن نحدد تعريفاً اجرائياً لكل من الكليات الثلاث المرتبطة بمظاهر التعبير عن الوجود الاجتماعى للحقيقة البشرية : الرأى ، الاتجاه ، السلوك[1] .

سوف نعود إلى هذه الناحية بتفصيل أكثر عندما نتعرض لدراسة السلوك السياسى ولكننا نسرع منذ الآن لتحديد مدلول كل من هذه الكليات فى فقهنا المرتبط بتفسير الظاهرة السلوكية . فكلمة الرأى لن نستخدمها إلا كمرادف لما نسميه بالسلوك القولى وبعبارة أخرى نجعل التعبير الحركى فى مواجهة الموقف يرتبط بكليات ثلاث بالتتابع التالى :

أولا : الاتجاه ونقصد بذلك الاستعداد لرد فعل معين إزاء موقف لم تتحدد أبعاده بعد . الاتجاه إذا هو حقيقة باطنة لم تقدر لها بعد عملية التفاعل الموقفى ولم تعبر بعد عن وجودها بواقعه أو بوقائع تعلن عن وجودها الحركى . هى حالة باطنة لم تصطدم بالموقف الذى يتحكم بدوره فى خلق رد الفعل .

ثانياً : السلوك القولى وهو رد فعل عبر عن ذاته برأى . انه اتجاه قد اصطدم بالموقف ولكن صاحبه لم يجد نفسه فى حاجة لأن يعبر عن رد فعله سوى ببعض تعبيرات شفوية[2] .

---

(١) انظر فى محاولة لجمع أهم التعريفات المتداولة عن الاتجاه مقال :

ALLPORT, Attitudes, in FISHBEIN, Readings in Attitude theory and measurement, 1967, p. 3.

يقدم لنا الكاتب المذكور التعريف التالى :

An attitude is a mental and neural state of readiness, organized through experience, exerting a directive or dynamic influence upon the individual's response to all objects and situations with which it is related.

ويترجم هذا التعريف نجيب اسكندر ، م . س . ذ . ، ص ٢٩٢ بالشكل التالى : « حالة استعداد عقلى عصبى نظمت عن طريق التجارب الشخصية ، وتعمل على توحيد استجابة الفرد لكل الأشياء والمواقف التى تتعلق بهذا الاستعداد » . انظر أيضاً ثبت كامل بالمراجع فى البورت ، م . س . ذ . ، ص ١٢ — ١٣ .

(٢) يستخدم نجيب اسكندر ، م . س . ذ . ، ص ٢٩٨ وما بعدها اصطلاح « الاتجاه اللفظى » للدلالة على ذلك الذى أسميناه « السلوك القولى » . ونحن نفضل الاصطلاح الأخير لعاملين : أولهما أن التعبير بالرأى فى ذاته واقعة وقد تبلورت فى صورة خارجية مستقلة عن مصدرها . هى طاقة انفجرت فى كلمات وألفاظ ومن ثم فهى سلوك. ولعل الاصطلاح الانجليزى أكثر صراحة فى هذا المجال Verbal behaviour . العامل الثانى إن هذا الاصطلاح الآخر يخلط بين الدلالة المستمدة من اللفظ أو السلوك القولى على وجود الاتجاه وبين السلوك القولى ذاته .

=

ثالثاً : السلوك الفعلى وهنا التعبير ليس مجرد كلمات وإنما حركة إيجابية ونشاط حركى يأخذ صورة واقعة أو أكثر محددة قد تكون ايجابية وقد تكون سلبية ولكنها تكشف عن تغير فى القوة البشرية أى فى الذات الفردية أو الجماعية من حيث موقفها الواقعى إزاء المنبه مصدر رد الفعل .

ولنقدم نموذجاً يوضح هذه التفرقة .

موضوع التحكم فى عملية الانجاب أو عدمه يقدم أحد المظاهر السلوكية للعلاقة بين المواطن والجماعة . فلو افترضنا شخصاً يؤمن بضرورة هذا السلوك ولكنه لم يتزوج بعد وهو على استعداد لو قدرت له مواجهة المشكلة لما تردد فى أن يقصر انجابه على طفلين ولو اضطر فى سبيل ذلك إلى تحمل نوع من الضيق أو التنظيم فى علاقته بزوجته وقد يصل به الأمر إلى تصور اجراء عملية جراحية للتحكم فى عملية ضبط الانجاب بعد الحصول على طفلين . فمثل هذا الشخص يعبر عن اتجاه لأنه لم يواجه بعد الموقف ولم يعبر عن مواجهته لهذه المشكلة بتعبير حركى[1].

= وتبسيطا للقارئ مؤقتاً نستطيع أن نوضح العلاقة بين هذه الكليات الثلاث فى الصورة الآتية :

(أ) اتجاه ← قد يعبر عن نفسه وقد لا يعبر عن نفسه .

(ب) إذا عبر عن نفسه تلقائياً فإن تعبيره قد يكون فى شكل آراء وقد يرتفع إلى استجابات واقعية أى قرارات سلوكية تم تنفيذها فعلا .

(حـ) إذا لم يعبر عن نفسه فمن الممكن البحث عن وجوده من خلال تعبيرات مفتعلة أى غير تلقائية وهذه قد تكون ذات دلالة معينة على وجود الاتجاه .

وهكذا :

اتجاه ← تعبيرات قولية (تلقائية أو مفتعلة) ← قرار بالاستجابة لدلالة الاتجاه فى الحياة العملية ← سلوك فعلى

attitude → opinion → decision → behavior

هذه المفاهيم غير واضحة لدى الكثير من العلماء . انظر على السلمى ، العلوم السلوكية ، ١٩٧١ ، ص ٢٢٥ حيث يعرف الاتجاه بأنه : « الاتجاه عبارة عن وجهة نظر يكونها الفرد فى محاولة للتأقلم مع البيئة المحيطة به » . إن الاتجاه ليس وجهة نظر. الاتجاه ليس عمل إرادى . والاتجاه لا يكونه الفرد وإنما هو يولد مع الذات ويتطور تبعاً لتطور الذات الفردية ، بل وقد يوجد دون علم الفرد ذاته بالاتجاه . المثل التقليدى هو اتجاه الشخص إلى الشذوذ الجنسى الذى لا يكتشفه إلا وهو فى سن متقدمة وقد لا يصل به الأمر إلى أن يكتشفه إلا وقد تجاوز الخمسين من عمره . انظر تفاصيل ذلك فى

GIESE, L'homosexualité de l'homme, 1959, p. 115.

(١) انظر التفاصيل فى :

STEPHAN, Possibilities and pitfalls in the measurement of attitudes and opinions of family planning, in KISER, Research in family planning, 1962, p. 423.

ولكن نفس هذا الشخص لو ووجه بهذا الموضوع فى اجتماع عام فعبر عن رأيه بالتأييد بدرجة أو بأخرى ، فمن الممكن أن يوصف بأنه قد خرج من دائرة الاتجاه إلى دائرة السلوك القولى . هو سلوك بمعنى أنه تعبير عن رد فعل محدد إزاء منبه تحدد مكاناً وزماناً . السلوك القولى لا يعنى مواجهة للموقف المرتبط بالاتجاه وإنما هو مواجهة للموقف المرتبط بتقييم ذلك الاتجاه . ولذلك السلوك القولى يمكن أن يوصف بأنه نوع من الحكم على موضوع الاتجاه[1] .السلوك الفعلىهو مواجهة صريحة للموقف المرتبط بموضوع الاتجاه . وذلك فى المثل السابق ذكره يتحدد عندما يقدر لذلك الشاب أن يتزوج وأن تكون زوجته ليست بالعاقر فاذا به يواجه بمشكلة تضخم الأسرة ويتعين عليه أن يتخذ موقفاً واضحاً وصريحاًمن هذه المشكلة :

هذا التميز يسمح لنا بعدة ملاحظات :

١ ــ أن الفارق بين الاتجاه والسلوك القولى والسلوك الفعلى ليس مجرد فارق فى الدرجة وإنما هو خلاف فى الطبيعة . فالاتجاه موقف لا يزال فى حيز التكوين وقد لا يقدر له التكوين . الشخص السابق ذكره تزوج بامرأة لا تنجب إذن فهو لن يواجه الموقف بأى صورة من الصور . السلوك القولى من حيث طبيعته ليس مواجهة للموقف موضوع الاتجاه وإنما هو مواجهة لموقف آخر مرتبط بموضوع الاتجاه وهو الحكم على ذلك الاتجاه .

٢ ــ أن هناك علاقة رغم ذلك بين هذه الكليات الثلاث أساسها أن درجة التناسق بين الاتجاه والسلوك القولى والسلوك الفعلى يعكس درجة معينة من درجات تماسك الشخصية ، فالشخصية القوية المتماسكة هى التى لا تتناقض فى تعبيراتها الثلاثة. علىالعكس من ذلك فان التناقض بدرجة أو بأخرى لا بد وأن يعكس شخصية غير متماسكة .

٣ ــ كذلك فان السلوك القولى مستقل عن الاتجاه ، بل ومستقل عن السلوك الفعلى ويبرز هذا بشكل واضح فى المجتمعات المتخلفة . وقد سبق أن رأينا كيف أن الفرد العادى يميل إلى ألا يعارض فى وجهات نظره الرأى السائد فى المجتمع الذى ينتمى إليه . وهو عند ذلك لا بد وأن يجد نفسه فى بعض الأحيان وقد خالف اتجاهه ، بل وقد يعلن

(١) Evaluation — Judgement

عن رأيه فى شكل ساوك قولى مخالف لسلوكه الفعلى . ولنتصور الشخص السابق ذكره وقد وجد نفسه فى مجتمع متدين يوئمن بأن تنظيم النسل عمل مخالف للتعاليم الدينية . وعندما أخذ رأيه عبر عن ذلك بما يتفق مع الرأى السائد فى ذلك المجتمع . فان كان لم يتزوج بعد فان سلوكه القولى مخالف لاتجاهه . وان كان قد تزوج وزاول فعلا تنظيم نسله ورغم ذلك عبر بسلوك قولى فى ذلك المعنى فان سلوكه القولى يصير متناقضاً مع سلوكه الفعلى .

والخلاصة أن الظاهرة السلوكية تتضمن فى حقيقتها حركة وتطور . ودراستها لايمكن أن تجزأ أياً منهما عن الآخر . فلنتابع تحليلنا للظاهرة انطلاقاً من هذا الأطار[1] .

---

(١) تناولنا للأبعاد النفسية للظاهرة السلوكية سوف نرجئه لموضعه من تحليل السلوك الفردى . انظر أيضاً ظاهرة التعذيب Frustration التى يجعل منها لوين إحدى كليات موقف التأزم ، والتى لم نستطع أن نتعرض لها فى هذه العجالة .
LEWIN, Psychologie dynamique, cit., p. 84.

القسم الأول

السلوك الجماعى

خلاصة :

التعريف بالسلوك الجماعى – الخصائص – نظرية الطابع القومى : تحليل المفهوم ، نماذج وتطبيقات – ظاهرة الرأى العام : المقومات ، المراحل، القياس ، الوظيفة – الإشاعة : أنواع الاشاعة وقوانينها ، الاشاعة والحرب النفسية، تحليل الإشاعة – القيادة : النماذج التجريبية، الخصائص، القيادة السياسية – ظاهرة الموضة .

• • •

١ – تلفت نظر القارئ إلى أن الاحالات المرجعية بهذا الخصوص تخلط بين السلوك الجماعى والسلوك الجماهيرى . والفقه الأجنبى لا يزال حتى هذه اللحظة وبصفة خاصة من جانب علماء الاجتماع الذين لم يقدر لهم التخصص الكافى فى تحليل الظاهرة السلوكية يجعل ما يسمى بالسلوك الجماعى حقيقة مطلقة تضم وتحتوى لا فقط ذلك الذى أسميناه بالسلوك الجماعى ، بل وأيضاً السلوك الجماهيرى . وليس أدل على ذلك من بروم ، علم الاجتماع ، م . س . ذ ، ص ٢٥٥ وما بعدها حيث يجعل مدخله فى دراسة السلوك الجماعى ظاهرة العدوى العاطفية ويدخل فيها سواء الرأى العام والدعاية ، سواء حالات التحزب والقتل والعنف الجماعى .

٢ – من بين المراجع الأساسية التى نحيل عليها فى تحليل السلوك الجماعى بالمعنى السابق ذكره نشير بصفة خاصة إلى المراجع التالية :

LANG, KURT, Collective dynamics, 1961.

SMELSER, Theory of collective behavior, 1963.

SWANSON, A preliminary laboratory study of the acting crowd, in American Sociological Review, 1953, p. 522.

TURNER, RALPH, Collective behavior, in ROBERT, FARIS, Handbook of Modern Sociology, 1964, p. 382.

MOORE, Social structure and behavior, in LINDZEY, ARONSON, The Handbook, cit., Vol. VI, 1969, p. 283.

BERELSON, STEINER, Human behavior, an inventory of scientific findings, 1964.

INKELES, Sociology and psychology, in KOCH, Psychology : a study of a science, Vol. VI, 1963, p. 317.

PARSONS, The social system, 1951.

SKINNER, Science and human behavior, 1953.

• • •

§ ٢١ ـ التعريف بالسلوك الجماعى وخصائصه : التمييز بين الحقيقة المكروكزمية والحقيقة الميكروكزمية فى تحليل السلوك الجماعى :

سبق أن ميزنا فى أنواع السلوك البشرى كطاقة وحركة تسعى إلى إعادة التوازن بين المنبه وما أحدثه من تغير فى الموقف المرتبط بالاستجابة ، بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى . وحددنا مرد التميز أساساً فى مصدر الحركة : هل هو الفرد كحقيقة ذاتية ومستقلة أم الجماعة كحقيقة كلية . وبهذا المعنى فان السلوك الجنسى يصير سلوكاً فردياً أما انتشار الإشاعة أو توتر الرأى العام يصير سلوكاً جماعياً . كذلك سبق ورأينا أن السلوك الجماعى يجب أن يفهم فى أكثر من معنى واحد وبصفة أساسية فى تطبيقات ثلاث[١] .

أولا : سلوك الجماعات الفرعية أو الكلية فى علاقاتها الواحدة منها بالأخرى . بهذا المعنى فان الصراع الطبقى أو الحركات الثورية أو عملية رفض الشباب والأجيال الجديدة هى تعبير وتطبيق للسلوك الجماعى .

ثانياً : على أن السلوك الجماعى ليس فقط حقيقة كلية أو مكروكزمية ، بل هو أيضاً قد يكون تعبيراً عن التحليل الميكروكزمى أو الجزئى . وذلك عندما يتم تحليل السلوك الفردى فى اطاره الجماعى بمعنى أن يتم تحليله كأحد خصائص المجتمع السياسى . فعبادة السلطة فى مجتمع معين أو انتشار الشذوذ الجنسى فى مجتمع آخر أو حب المال والادخار فى مجتمع ثالث ، هذه جميعها صفات سلوكية فردية ولكن انتشارها والتصاقها بمجتمع معين بحيث تصير أحد علاماته ترفعها إلى مستوى الصفة الجماعية .

ثالثاً : كذلك فان السلوك الجماعى قد يأخذ صورة التوتر الفجائى العنيف كالقتل أو هتك العرض فيوصف بأنه سلوك جماهيرى : تطبيق ثالث من صور التحليل الجماعى للسلوك[٢] .

دراسة السلوك الجماعى تفترض منا التعرض بالتفصيل لهذه التطبيقات الثلاث على أننا يجب أن نبدأ بأن نحدد بعض المفاهيم الأساسية :

(أ) ما المقصود أولا بكلمة « جماعة » ؟

هذا الاصطلاح الذى قد يبدو واضحاً لأول وهلة ، يعكس العديد من المفاهيم

---

(١) انظر فيما سبق ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) نعود إلى السلوك الجماهيرى فى القسم الرابع من هذا الكتاب .

ويفترض العديد من المقومات[1]. فكلمة جماعة التي نطلقها بالعربية على كل تجمع بشرى يفترض تعددا فى الوحدات بمعنى اثنين أو أكثر من الأفراد تقابل بأكثر من اصطلاح واحد باللغات الأجنبية .

ولدينا بالذات هذه الاصطلاحات الثلاث :

أولا : كلمة group أو تجمع حيث توجد علاقات وثيقة للأخذ والعطاء بحيث أن المنبهات والاستجابات فى داخل تلك الجماعة دائمة ومستمرة لا تنقطع[2].

ثانياً : كذلك اصطلاح association الذى يرمز إلى التجمع الإرادى حيث يوجد نوع من المزاملة والمصادقة والتوافق .

ثالثاً : أضف إلى ذلك اصطلاح آخر أكثر اتساعاً وأكثر شمولة هو كلمة community وهو يكاد يرادف مفهوم المجتمع القومى . يعرف بأنه « كل تجمع لأفراد من مختلف الأعمار ومن كلا الجنسين حيث يملكون حضارة مشتركة[3] ويعيشون فى إطار جغرافى محدد» . وبهذا المعنى كثيراً ما نصادف كلمة national community كمرادف للاصطلاح الإسلامى « الأمة » .

رابعاً : وذلك دون أن ننسى الكلمة المتداولة والتى تضم كل هذا وتصير الأصل الذى تتفرع منه مختلف تطبيقات الظاهرة البشرية وهى society.

على أن السؤال الذى يعنينا بغض النظر عن هذه الاصطلاحات هو : ما الذى يضفى على ظاهرة التعدد البشرى ظاهرة التجمع وصفة العمران ؟ بعبارة أخرى هل الجماعة هى مجرد تعدد فى الوحدات بحيث لا تعدو أن تكون حقيقة كمية أم أنها حقيقة كيفية ؟

الواقع أن الجماعة فى أوسع معانيها وبغض النظر عن مختلف تطبيقات المفهوم هى تجمع أكثر من شخصين فى حالة تفاعل interaction اجتماعى[4]. وهكذا فان زوج وزوجته دون أطفال ودون أى وجود آخر بشرى فى محيطها يكون جماعة ولكن عشرة أشخاص كل منهم يعيش مستقلا عن الآخر فى منزل واحد لا تتكون منهم جماعة .

---

(١) NELSON, RAMSEY, UERNER, Community structure and change, 1960, p. 33.

(٢) MENDRAS, Elements, cit., p. 45

(٣) YOUNG, Handbook of social psychology, 1969, p. 219

(٤) GOUDENOUGH, Cooperation in change, 1963, p. 349.

والتفاعل من هذا المنطلق ، التفاعل الاجتماعى ، يسمح بأن نميز فى التجمع البشرى بين ما يسمى التجمعات الأولية primary groups والتجمعات الثانوية secondary. الأولى حيث تكون فيها علاقات التبادل والتعاون علاقات مباشرة ومواجهة أو كما يصفها علماء الاتصال face to face للتعبير عن علاقة الاتصال المباشرة ودون وسيط . مثل ذلك الأسرة(١). أما التجمعات الثانوية فهى تقف من الأخرى على طرف النقيض . جماعة أكثر اتساعاً حيث تصير العلاقات مباشرة وغير مباشرة وحيث تتحدد بشكل واضح وظيفة كل عضو ومن ثم تستقل القواعد المنظمة للسلوك عن شخص الأفراد وتصير أساس ومعيار للحركة فى العلاقة بين مختلف أجزاء الجماعة . مثل ذلك الحزب السياسى ، والنقابة ، والتجمعات الدينية .

كذلك فان عامل التفاعل الاجتماعى من حيث خصائصه يسمح لنا باجراء تمييز آخر بين الجماعات البشرية . هل التفاعل يفترض ويستند إلى عامل التضامن والولاء والاستعداد للتضحية أم على العكس من ذلك يستتر خلفه عامل التخلص والكراهية والخوف ان لم يكن التصدى والعداوة ؟ فى الحالة الأولى توصف الجماعة بأنها ingroup أو ذات انطواء ذاتى والا فهى out group أى جماعة مفككة . نموذج واضح للتطبيق الأول الأمة أو المجتمع القومى . على عكس التطبيق الثانى إذ نلمسه فى الأقسام الأكاديمية بالجامعات وبصفة خاصة فى المجتمعات المتخلفة حيث لا نجد بين أعضاء القسم أى رابطة من التضامن أو التعاون أو الولاء . بل على العكس الكراهية والحقد والرغبة فى تشويه صورة الآخرين .

(ب) ويرتبط بهذا المفهوم الأول وينبع منه مفهوم آخر يعبر عنه باصطلاح « عملية الضبط الاجتماعى ». وعلى الرغم من أن تحليل هذا المفهوم يلقى بنا فى متاهات علم الاجتماع القانونى إلا أن العلاقة الوثيقة التى تربط هذا المفهوم من الناحية الوظيفية بالظاهرة السلوكية تبرر ألا نتركه جانباً دون شىء من الإيضاح(٢).

السؤال الذى يثيره الفقه الاجتماعى عندما يتعرض لهذا المفهوم ، بسيط فى دلالته معقد فى مقوماته : كيف يستطيع الفرد أن يندمج فى الحقيقة الاجتماعية ؟ بعبارة أخرى كيف تستطيع الجماعة أن تفرض على الفرد أن يعيش ويتعايش سلوكياً مع الحضارة التى

---

(١) ميندراس ، م . س . ذ . ، ص ٩٩ .

(٢) SHAFFER, SHOBEN, The psychology of adjustment, 1956, p. 158.

تمثلها تلك الجماعة بحيث يشارك الاتجاهات الجماعية ويتقاسم القيم والقواعد ويحقق بدقة وظيفته الاجتماعية محترماً التقاليد والعادات التى توارثها عن الآباء والأجداد ؟

يجيب الفقه الانجلوسكسونى بكلمة عامة وغامضة : Social control فى مفهومها العام تحيل إلى عملية الرقابة والجزاء ولكنها فى حقيقتها تعكس مفهوماً أكثر عمقاً وأكثر تعقيداً وهو عملية الدمج والاندماج بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى .

السلوك البشرى فى أوسع معانيه هو حقيقة نفسية واجتماعية ونظامية فى آن واحد[1] . بالمعنى الأول هو لا يعدو أن يكون رد فعل للمنبه الذى خضع له الفرد فى حياته اليومية . وهو بهذا المعنى مهما تعددت تطبيقاته يصبح فى جوهره دائماً حقيقة فردية . ولكنه أيضاً حقيقة اجتماعية ليس فقط بمعنى أن البيئة أحد عناصره ولكن لأن المجتمع هو الذى يقدم نماذج الاستجابة المتداولة والمتقبلة التى يصبح الخروج عنها نوعاً من الشذوذ الذى يرفضه المجتمع ولا يتقبله . بهذا المعنى يصبح السلوك حقيقة اجتماعية بمعنى أنه يصبح وقد أضحى مجموعة من نماذج رد الفعل المرتبطة وظيفياً بالكيان الحضارى . بعبارة أخرى يصبح من حيث طبيعته مفهوم مجرد ينبع ويتحدد ويرتبط بالتقاليد والتراث التاريخى ، بل وقد يرتفع ليصبح أحد العلامات المميزة لذلك التراث التاريخى . وإذا حدث وخالف الفرد تلك النماذج المتداولة فان على السلطة المنظمة وعلى الوعى الجماعى أن يتدخل لحماية تلك التقاليد ولوضع حد لتلك المخالفة ومن هنا تبرز الناحية النظامية للحقيقة السلوكية .

فلنقدم نموذجاً يوضح هذه الأبعاد الثلاث :

الغريزة الجنسية هى أحد المنبهات الفردية التى تتحدد بها مظاهر عديدة للسلوك البشرى[2] . سبق أن رأينا ذلك ولمسنا كيف أن السلوك الجنسى كسلوك فردى هو أعقد وأكثر صور السلوك تركيباً . رغم ذلك فان المجتمع يفرض على الاشباع أن يتجه لا إلى ذات الجنس وإنما إلى فرد من الجنس الآخر . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فهو يفرض نواميس وقواعد معينة يجب احترامها كطقوس لازمة وسابقة على مزاولة السلوك تختلف تبعاً لكل جماعة وتبعاً لكل حضارة . وهكذا فان السلوك الفردى هو فى حاجة إلى أن يحترم أو على الأقل أن يتشكل بتلك التقاليد وتلك القواعد المرتبطة بالتراث

---

(١) قارن بصفة عامة ومن حيث الدلالة التاريخية فى مختلف المدارس الاجتماعية :

THOMPSON, Sociological perspectives, 1971, p. 482 ; LINDENFELD, Reader in political sociology, 1968, p. 321 ; MADGE, The origins of scientific sociology, 1962, p. 478.

(٢) انظر بصفة خاصة ميدج ، م . س . ذ . ، ص ٣٣٣ وما بعدها .

التاريخى والحقيقة الحضارية . فاذا وجد الفرد الذى لم يحترم تلك القواعد سواء أخذ ذلك صورة شذوذ أو عدم احترام للتقاليد — وكلاهما ينتهيان بأن يصيرا حقيقة واحدة — تصير المشكلة هى عملية الضبط الاجتماعى .

وهكذا يصير هذا المفهوم مرادفاً لعملية خلق قنوات الاتصال بين الفرد والجماعة بحيث يتقبل الفرد ما تفرضه الجماعة ويستجيب له ويتأقلم به وبحيث تحافظ الجماعة على ضمان حد أدنى من الاحترام لتراثها وتقاليدها . عملية الضبط الاجتماعى بهذا المعنى هى من حيث حقيقتها وسيلة من وسائل التعبير عن تنظيم العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى (١) .

(ج) بقى أن نتساءل : ما هى أدوات عملية الضبط الاجتماعى ؟

سؤال الاجابة عليه تخرج عن نطاق تحليل الظاهرة السلوكية . ولكن نستطيع أن نحدد مسالك عملية الضبط الاجتماعى وأدواتها فى ثلاثة : القيم ، القواعد النظامية ، ثم التقاليد والعادات . يقصد بالقيم تلك المبادئ الخلقية التى ترتبط بالواقع الاجتماعى والتى ترتفع عن مستوى المناقشة وتصير ذات دلالة فى ذاتها بحيث تعبر عن الكمال السلوكى والحركى . هذه القيم التى تمثل التراث التاريخى وتعكس الواقع الاجتماعى يتكون منها صمام الأمان بحيث تتفاعل فى ذاتها وتنصهر فى بوتقة واحدة يتكون من مجموعها نظام مثالى يصير هو المثل الذى نحتذيه والذى يسعى المواطن الذى ينتمى إلى تلك الجماعة إلى أن يطابق بينه وبين سلوكه أو على الأقل أن يقترب منه ولا يناقضه . هو يخشى أن ينال منه فى استجاباته اليومية ، وان حدث فهو يسعى لأن يغطى تلك المخالفة بنوع من السرية والكتمان . على أن القيم فى ذاتها لا تكفى إذ يجب أن تتحول إلى قواعد نظامية normes تفرض وجودها على الفرد والجماعة وتربط بين الحاكم والمحكوم بما تقدمه من ضمانات وتقيمه من جزاءات . القواعد النظامية فى حقيقتها ليست سوى عملية اخراج للقيم إلى حيز الواقع الفعلى اليومى ، هى تحويل للمبادئ الخلقية إلى جزئيات سلوكية يتكون من مجموعها النظام القانونى الذى يربط مختلف أجزاء الجسد الاجتماعى فى وجوده وسلوكه ، فى سكونه وحركته ، فى حاضره ومستقبله . يكمل هذا البناء من القيم والقواعد تلك المجموعة من العادات والتقاليد التى تسود كل جماعة وتتحدد بكل مرحلة زمنية من مراحل تطورها (٢) .

---

(١) LAPIERRE, Social change, 1965, p. 383

(٢) للتعمق فى هذه الناحية انظر توجيهات أولية فى :
MOORE, Social change, 1964, p. 118

(د) عملية التوفيق process of adjustment :

مفهوم ثالث لا يقل أهمية عن كلا المفهومين السابقين ويرتبط بهما بل ويتفرع عنهما ، وذلك رغم طابعه النفسى الواضح : التوفيق(١). لقد سبق أن رأينا الحقيقة السلوكية على أنها مجموعة من الخطوات المتتابعة تبدأ من الشعور بالحاجة وتنتهى باشباع تلك الحاجة . وان لم يحدث اشباع فان الفرد يقف حائراً بين الصراع مع نفسه والصراع مع المجتمع الذى يقف عقبة دون ذلك الاشباع . هذه الحالة التى يوجد فيها الفرد عندما لا يحقق رغباته وحاجياته هى الظاهرة موضع المناقشة وهى بهذا المعنى تفترض عناصر معينة .

أولا : أن الحركة الفردية فى سعيها نحو الاشباع أصابها نوع من التعويق الذى لم يستطع الفرد أن يتغلب عليه أو يتخطاه أو يتخلص منه .

ثانياً : أن هذه العقبة خلقت نوعاً من رد الفعل المستقل بحيث يمكن أن توصف بأنها فى ذاتها بمثابة منبه مكره للطاقة أو للحركة على أن تتجه فى مسارها إلى قنوات جديدة ما كانت لتتفق مع الحاجة الأولى الأصلية .

التوفيق بهذا المعنى قد يأخذ صورة من أربع :

١ ـ التوفيق بطريق الدفاع adjustment by defense والذى صورة من صوره السلوك الاستفزازى أو السلوك العدوانى .

٢ ـ التوفيق بطريق التهرب adjustment by escape حيث يكون رد فعل الحقيقة البشرية إزاء الموقف هو الفرار من مقتضيات الموقف : الرفض هو السلاح الوحيد ، أو كما يعبر عن ذلك بعض علماء النفس : moving away from people وهكذا يصبح رفض الحركة هو النتيجة المنطقية والطبيعية فى مثل هذه الصورة من صور التوفيق(٢).

---

(١) ثابت كامل بالمراجع يجده القارئ فى شافر ، م . س . ذ . ، ص ٦١٩ وما بعدها حيث جمع المؤلف خير ماكتب عن الموضوع فى أكثر من سبعمائة بحث ودراسة . انظر أيضاً وبصفة خاصة NEWCOMB, TURNER, CONVERSE, Social psychology, 1965, p. 43.

(٢) لاحظ كذلك الفارق بين مادرج على تسميته بعملية التوفيق أو Process of adjustment وعملية الأقلمة أو Process of adaptation . انظر أيضاً نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٣) شامز ، م . س . ذ . ، ص ٩ .

٣ – التوفيق المتضمن عملية تركيز خوفية adjustment involving focal fears وهى صورة تبلغ فيها حالة الخوف أقصاها . ذلك أنه فى كل حالة يتم فيها التوفيق الحقيقى بمعنى الاندماج الكامل بين السلوك الفردى والاطار الجماعى للسلوك لا بد وأن يترتب على ذلك نوع من القلق يفرض نفسه على التعبيرات السلوكية . ولكنه فى بعض الأحيان قد يرتفع إلى حالة مرضية تأخذ صورة الهلع من الأشياء أو الأفراد المرتبطين بحالة القلق وهو ما يعبر عنه بمرض الفوبيا phobia حيث يسيطر الخوف غير المنطقى ولكنه المحدد والمركز بحيث يصير مجرد ذكر اسم بعينه أو مرأى شيئاً معيناً كافياً لخلق الحالة المرضية .

٤ – التوفيق المرتبط بالاعتلال الجسدى adjustment by ailments صورة أخرى مرضية ولكن نتائجها ليست فقط فى حالة من الهستريا النفسية وإنما تصحبها حالات من الاعتلال الجسدى كالصداع والتقلصات ، بل وقد تبلغ حالة الشلل . وهو أسلوب قد يستطيع به الفرد بطريق لاشعورى أن يبرر رفض الحركة أو عدم القدرة على مواجهة الموقف بما يفترضه من تكتيل للطاقة فى اتجاه معين . ورغم أن هذا الاعتلال الجسدى قد لا يكون مرده فى أول الأمر اختلال عضوى حقيقى ، فان استمراره والمثابرة عليه قد يؤدى بالحقيقة البشرية إلى ذلك الاختلال العضوى[1] .

فاذا لم يقدر للفرد أن يحقق أياً من النماذج السابقة فى حالة عدم التفاعل والاندماج الكامل أو الجزئى بين سلوكه الفردى والاطار الاجتماعى للسلوك – أو بعبارة أخرى إذا لم يستطع أن يخرج من تلك الصعوبات أو العقبات التى وضعتها الظروف فى طريقه نحو تحقيق هدفه من الحركة أى اشباع الحاجة التى خلقت التنشيط الحركى وكونت بالتالى الخلفية العامة لعملية التنبيه الذاتية – فإنه يقع فى حالة من القلق يعبر عنها علماء النفس بكلمة anxiety states أى « الحصر النفسى » ، حالة مرضية تعنى عدم التوفيق الكلى أو الجزئى .

وهكذا نستطيع أن نفهم العلاقة بين السلوك الفردى والحقيقة الجماعية ، سواء كانت

---

(١) التفصيل فى نفس المرجع السابق ذكره ، ص ١٥٨ وما بعدها .

هذه سوكاً مستقلا يلتصق بالجماعة ، أم سلوكاً فردياً يصير أحد ملامح الانتماء إلى الجماعة أم إطار عام يتعين على السلوك الفردى أن يتأقلم ويتشكل به .

فلنتابع مظاهر تلك الحقيقة الجماعية فى النطاق السلوكى بشىء من التفصيل[٢] .

---

(٢) الاختلال فى التوازن قد يكون إيجابياً . انظر مظاهر ذلك فى حالات النبوغ genius والقدرة الخالقة creativity وتشكيل الطبائع character فى :
LONDON, ROSENHAN, Foundations of abnormal psychology, 1968, p. 201.

الفصل الأول

نظرية الطابع القومى

خلاصة : التحليل العلمى لمفهوم الطابع القومى ، أهمية ووظيفة الظاهرة فى نطاق التحليل السلوكى – التمييز بين الطابع القومى ، مبدأ القومية ، الصورة القومية – الطابع القومى ومقوماته – الوظيفة السياسية لمفهوم الطابع القومى – نماذج لتحليل الطابع القومى – الطابع القومى والبحث الحركى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية – التعريف بالطابع القومى المصرى – الطابع القومى المصرى وموقف الفقه – تحليل مقوماته – ملامح وخصائص الطابع القومى المصرى – الطابع القومى اليهودى بين التشويه والتأليه .

• • •

١ – دراسة الطابع القومى تدين بوجودها لعلماء علم النفس التقليدى ، وبصفة خاصة تحت تأثير الاتجاه القومى فى التحليل الاجتماعى . يبرز هذا بشكل واضح فى الإنتاج العلمى الذى يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية . فى أعقاب ذلك حدث انتكاص واضح للاهتمام بهذه الناحية . ولكن تلقف هذا الموضوع التحليل السياسى وجعل من نظرية الطابع القومى أحد المداخل الرئيسية للدراسة المكروكوزمية لظاهرة السلطة . وكما تأثر علم السياسة بالعلوم السلوكية كان على النظرية السلوكية أن تتأثر بدورها بعلم السياسة . هذه الحقيقة واضحة فى فقهنا سواء فى بناءنا للنظرية السياسية ، سواء فى تحليلنا للظاهرة السلوكية . وهو أمر أيضاً لا يقل وضوحاً فى الاتجاهات المعاصرة للفقه الإسرائيلى وبصفة خاصة ابتداء من الستينات حيث بدأ يتجاوب مع التطور العام للدولة العبرية بخصوص عملية إعادة تشكيل الطابع القومى اليهودى .

٢ – سوف نجعل احالاتنا فى هذا القسم موجزة وتتصف أساساً برابطة الاتصال الفكرى لموقفنا من نظرية الطابع القومى :

INKELES, LEVINSON, National character: the study of modal personality and sociocultural systems, in LINDZY, ARONSON, The handbook of social psychology, Vol. IV, 1969, p. 418.

KARDINER, The individual and his society, 1939.

DUFRENNE, La personnalité de base, 1953.

STOETZEL, La psychologie sociale, 1963.

MARTINDALE, Community, character and civilization, 1963.

BARNOUW, Culture and personality, 1963.

CANTRIL, The pattern of human concerns, 1965.

HOFSTADTER, The paranoid style in American politics, 1965.

LIPSET, LOWENTHAL, Cultural and social character, 1961.

MEAD, The study of national character, in LERNER, LASSWELL, The policy sciences, 1951, p. 70.

• • •

§ ٢٢ – حول التحليل العلمى لمفهوم الطابع القومى ، أهمية ووظيفة الظاهرة فى نطاق التحليل السلوكى :

مفهوم الطابع القومى يوصف بأنه رغم أهميته فى نطاق التحليل الاجتماعى إلا أنه موضع الكثير من النقاش . ورغم أن علم النفس هو الذى أبرزه فى لحظة معينة كما سبق ورأينا من خلال دراسة تاريخ المنهاج التجريبى فى ألمانيا ، إلا أنه سرعان ما عدل عنه الفقه النفسى ليتلقفه الفقه السياسى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ليصبح أحد أعمدة التحليل المكروكزمى لظاهرة السلطة . وليس أدل على ذلك من أن مؤلفاً كالعالم الأمريكى روزنو وهو فى معرض تحليله للنواحى المنهاجية لنظرية السياسة الخارجية يفرد للموضوع فصلا مستقلا(١). كذلك «سبروت» فى مؤلفه التقليدى عن السياسات الدولية يفرد لنفس المشكلة قسما كاملا(٢). وإذا كان الموضوع فى هذه اللحظة يعانى نوعاً من الشك فى مدى صحة الدلالات التى يفرضها التسليم بعملية ظاهرة الطابع القومى إلا أنه لم يعد أحد يرفض تأكيد أن هذا المفهوم أحد الأسس التى تسمح بتوحيد مختلف الثقافات الاجتماعية وهو الهدف الذى يستتر خلف نظرية العلوم السلوكية .

ولكن ما المراد أولا بالطابع القومى ؟

فى أوسع معانيها يقصد بهذه الكلمة « تلك المجموعة من الخصائص والأنماط السلوكية والسمات بين أعضاء المجتمع الواحد التى تسوده نفس العادات ويرتبط بنفس التقاليد ويسيطر عليه نظام ثقافى مشترك » . فاذا قيل الطابع القومى اليابانى يسوده مبدأ الاحترام الزائد بين الجنسين على عكس الطابع القومى الانجليزى الذى يقوم على مبدأ الاحترام المتبادل بين الذكر والأنثى بينما المجتمع السويدى يقدم طابعاً قومياً يتناقض فى هذه الناحية

---

(١) BRODERSEN, National character, an old problem re-examined, in ROSENAU, International politics and foreign policy, 1961, p. 300.

لاحظ رغم ذلك أن الطبعة التالية من نفس المؤلف تعلن عن تغير غير خفى ولكنه غير واضح . فبدلا من الاهتمام بالطابع القومى سوف نجد دائرة الاشعاع تنتقل لتتسلط على مفهوم الصورة القومية ؛ انظر :

ROSENAU, International politics, 1969, p. 422

( ) SPROUT, Foundations of international politics, 1964, p. 488.

مع الطابع القومى اليابانى[1] ، فان هذا لا يعنى أكثر من :

أولا : أن الطابع القومى هو مفهوم مجرد عام يرتبط بواقع اجتماعى معين دون أن يعنى التعبير عن حقيقة أو صورة سلوكية واقعية ومن ثم فان الطابع القومى هو أحد عناصر التحديد بالسلوك الفردى أكثر من أن يكون صورة محددة للسلوك الفردى .

ثانياً : وهو لذلك مفهوم جماعى رغم أنه يعكس إطاراً فكرياً للسلوك الفردى . ولعل هذا يفسر كيف أن مفهوم الطابع القومى يقف عند حدود كلا السلوك الفردى والجماعى . فهو أحد مقومات السلوك الفردى من جانب وهو يعكس مفهوماً مجرداً للسلوك الجماعى من جانب آخر .

ثالثاً : وهو يفترض نوعاً من الاستقرار والثبات ومقاومة التغير بحيث يمكن فى بعض الأحيان اطلاق المفهوم ليرتبط بمجتمع معين وقد ألغى عامل الزمان . وهكذا عندما يقال أن أحد خصائص الطابع القومى المصرى — بغض النظر عن الصحة من عدمه — هو عبادة السلطة فان هذا المفهوم أو هذه السمة تنطلق فتضم وتحتضن المصرى الذى وجد وارتبط بذلك المجتمع منذ الفراعنة حتى اليوم[2] .

رابعاً : كذلك فان مفهوم الطابع القومى لا يرتبط ولا يعبر إلا عن الشخص العادى من جانب والناضج من جانب آخر . هو لا يرتبط ولا يعبر عن الشخص الذى يمثل الاستثناء سواء فى أبعاد قوية أم ضعيفة للشخصية ولذلك ففى بعض الأحيان يوصف بأنه تعبير عن الرجل العادى common man كذلك هو لا يحاول تفسير تطور الشخصية ابتداء من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج والكمال[3] .

---

(١) جدير بالقراءة والتأمل الفصل الذى أفرده العالم الأمريكى كاهن فى تحليله للمعجزة الاقتصادية اليابانية عن الطابع القومى :
KAHN, L'ascension japonaise, 1970, p. 37.

(٢) غير واضح هذا المفهوم فى عبد العزيز رفاعى ، الطابع القومى للشخصية المصرية ، ١٩٧١ ، ص ٥ وما بعدها .

(٣) ويمكن القول بصفة عامة أن وظيفة نظرية الطابع القومى أساساً هى تفسير أثر الشخصية المشروطة modal personality فى السلوك الفردى والجماعى من حيث تطوراته وتغيراته المختلفة. انظر انكيليس ، م . س . ذ . ، ص ٩٧٧ .

*** حالة رقم ٩ : خصائص الطابع القومى اليابانى

دراسة الطابع القومى لشعب من الشعوب لم تعد تمثل مجرد الفضول العلمى وإنما أضحت أحد الأدوات العلمية ذات الطابع الحركى التى تمكن من تحقيق غرضين : أولهما فهم منطق وأسلوب تفكير ذلك الشعب . وثانيهما تصور ردود الفعل المختلفة والمتوقعة أو بعبارة أخرى التنبؤ بما يمكن أن يحدث أو يحتمل حدوثه من شعب معين لو تحدد .وقف معين . وهكذا نرى العلوم الساوكية تصير حلقة الوصل بين الحركة السياسية والثقافة العلمية .

من بين النماذج الواضحه بهذا الخصوص تطبيقين لم نكن نعلم عنهما شيئاً ولا نزال نجهل بخصوصهما الكثير من التفاصيل . الأول الشعب الألمانى والثانى المجتمع اليابانى . كلاهما يمثل العداوة التقليدية والخطر الحقيقى على الديموقراطية الأمريكية : أحدهما حربة موجهة إلى المحيط الأطلسى وثانيهما حربة مغروزة فى وسط المحيط الهادى . وكان من الطبيعى أن تتجه السياسة الأمريكية لأن تضع لها هدفا محدداً فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . كيف نشل هذا الخطر أو على الأقل نتحكم فى حركته ؟ وكان من المنطقى أن نلجأ إلى علماء التحليل الساوكى بقصد اكتشاف طبيعة خصائص كل من هذين المجتمعين ، خطوة أولى فى سبيل وضع خطة حركية ترمى إلى تقليم أظافر كلا المجتمعين(١).

لم نعلم ولا نزال لا نعلم شيئاً عن التفاصيل . ولكن فى عام ١٩٥٤ خرج علينا الفيلسوف الأشهر « سالومون » بكتاب بعنوان « سوف أظل بروسياً » حيث سقطت فى يده بطريق المصادفة أداة جمع المعلومات التى كانت قوات الاحتلال الألمانى قد قامت بتنفيذها لدراسة خصائص الطابع القومى الألمانى(٢). رغم ذلك فقد ظل علماء التحليل السلوكى على حذر من تقبل الدلالة حتى خرج علينا العالم الأمريكى الذى عمل فترة طويلة مستشاراً لكيندى والذى يمثل قوة رئيسية فى معهد هوفر ذو الشهرة العالمية فى الأبحاث الاجتماعية بمؤلف بعنوان « اليابان الدوله الكبرى » ليخبرنا فى أحد فصوله كيف عكف هو وزملاؤه على دراسة الطابع القومى اليابانى(٣).

التحليل الذى نقدمه فى هذه الخلاصة يستند إلى نتائج تلك الدراسة

---

(١) انظر بروديرسين ، م . س . ذ . ، ص ٣٠٢

(٢) VON SALOMON, Der Fragebogen, trad. it., 1954.

من التعريفات الحديثة لمفهوم الطابع character التى صاغها أحد علماء السياسة ذوى الشهرة العالمية نسوق التعريف التالى للعالم الأمريكى شارليز ورث :

"The sum of qualities or features by which a thing is distinguished from others."

انظر :

CHARLESWORTH, National character in the perspective of political science, in the Annales of the American Academy of Political and Social Science, 1967, March, p. 23.

(٣) KAHN, The emerging Japanese superstate : challenge and response, trad, fran. 1971, p. 37.

نستطيع دون دخول فى التفاصيل أن نحدد خصائص الطابع القومى اليابانى بأنها تدور حول المتغيرات التالية : أولا : التعصب القومى ؛ ثانياً : الشعور بالانتماء الجماعى ؛ ثالثاً : احترام قانون الشرف ؛ رابعاً : التنظيم التصاعدى للعلاقات السلطوية ، خامساً: الرومانسية كفكر وسلوك ؛ سادساً : احترام الملكية الخاصة

فلنتابع هذه الملامح بشىء من التفصيل مع ملاحظة أننا فى هذا التحليل إنما نسجل خلاصة تعكس وجهة نظر القائمين بالعمل بالسياسة الخارجية الأمريكية (١) .

أول تلك الصفات هى فكرة التعصب القومى . فاليابانى بصفة عامة لديه وعى واضح بأنه إنسان متميز ووحيد . إنه يختلف عن أى إنسان آخر سواء كان ينتمى إلى المنطقة أو كان ينتمى إلى غير المنطقة . ويحدثنا كاهن بهذا الخصوص بأن اليابان هى أكثر البلاد عنصرية فى العالم ويقدم تأكيداً لهذه الدلالة نماذج سلوكية عديدة تفصح وتؤكد هذه الحقيقة . فالطفل المولود من زواج مختلط لا موضع له فى المجتمع اليابانى . والعامل اليابانى الذى يغادر اليابان لا يمكن أن يندمج اجتماعياً فى المجتمع الأجنبى الذى يعيش فيه ويندر أن يتزوج من أبناء تلك البلاد حتى لو كانت من المناطق القريبة من اليابان حيث تتشابه المفاهيم وتختلط القيم . وتبرز هذه الحقيقة أكثر وضوحاً بالنسبة للعامل غير اليابانى فى اليابان . لا موضع له فى الاقتصاد اليابانى حتى ولو فرضته قوانين العرض والطلب . أن الاقتصاد اليابانى يرفض استقبال العامل الأجنبى رغم قلة أجره ورغم حاجته إليه . على أن العنصرية اليابانية ليست استفزازية أو عدوانية بالمدلول الذى تعودناه فى تقاليد الحضارة الغربية . لا تعنيه حضارة الآخرين ولا يسعى إلى فرض حضارته على أى حضارة أخرى . بل إنه على استعداد لأن يستقبل الأفكار والمناهج والتكنولوجيا التى تقدمها له الجماعات الأخرى ولكن ذلك دائماً بشرط واحد : أن يتم ذلك من خلال اختيار دقيق . التعصب القولى يقود اليابانى فى كثير من الأحيان إلى نوع من المبالغة فى التعصب إلى حد الحالة المرضية . وقد تجلى ذلك بشكل واضح خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية : خلال تلك الفترة برزت فكرة لقيت الكثير من التأييد والتشجيع تدور حول رفض أى تقاليد حضارية غربية وبناء حضرة يابانية جديدة تقوم على أساس الاستمداد من التاريخ القومى والذات المحلية(٢). عبر عن هذا الاتجاه كتاب مشهور بعنوان « أسس ذاتنا القومية » نشرته وزارة الثقافة واستخدم خلال فترة طويلة كنص مدرسى(٣).

الشعور بالانتماء الجماعى يكون الصفة الثانية من صفات الطابع القومى اليابانى . فاليابانى فى أى مكان يوجد وبخصوص أى عمل يؤديه هو يشعر دائماً بأنه ينتمى إلى مجتمع صغير أكثر اتساعاً تنصهر فيه ذاته الفردية . اليابانى بهذا المعنى محافظ : ليس هناك أكثر خطورة من أن يتهم يابانى بأنه لا يحترم العادات والتقاليد ولا يحافظ على أهداف الجماعة . هذه الصفة التى هى امتداد للصفة الأولى تصير أكثر وضوحاً عندما نناقش على ضوئها الشعور بالمصير القومى : فالتاريخ هو تعبير عن الذات الجماعية والارتباط بالجماعة التى ينتمى إليها

---

(١) تكمل هذا بعض المصادر الجانبية وبصفة خاصة مؤلف الكاتب اليابانى المترجم باللغة الفرنسية بعنوان :

NITOBE, Le Bushido : l'âme du Japon, 1927.

(٢) كاهن ، م . س . ، ص ٤٣ ، ٨٢ ، ١٠٦ .

(٣) الكتاب بعنوان Fondements de notre essence nationale وهو يعبر عن النظرية الرسمية عما يسميه كاهن ، Kokutaï no hongi انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٨٣ .

المواطن اليابانى هو التزام أدبى لا يقبل استثناء . وقد ساعد على ذلك أن الأرض اليابانية لم تعرف خلال تاريخها الطويل الذى يزيد عن عشرين قرناً أى محاولات جادة للغزو إذا استثنينا ثلاثة : محاولتين من جانب المغول خلال القرن الثانى عشر ثم الغزو الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية . هذا الشعور يبرز أيضاً عندما نحاول أن نتعمق فى عملية استقبال الحضارات الأجنبية فى المجتمع اليابانى . فاليابانى الذى أضحى اليوم مشبعاً بالأسلوب الأمريكى للحياة لا يزال يحافظ على تقاليده القديمة . يخبرنا من عاش فى اليابان أن اليابانى العادى يملك منزلين : أحدهما يعكس الحضارة الاستهلاكية بكل ما تعنيه من تعقيد فى أساليب الحياة حيث يستقبل زواره ثم منزل آخر حيث يزاول حياته العادية لا يزال يعكس تقاليد الحياة القاسية للمجتمع اليابانى التقليدى(١). المجتمع اليابانى مجتمع متناسق متحد يفنى فيه الفرد شخصيته . يكاد يذكرنا بالمجتمع الرومانى خلال العصر الجمهورى .

ويبدو هذا من الناحية السلوكية واضحاً فى مظاهر عديدة : أولها الشعور العام بأن النجاح الجماعى هو أيضاً نجاح فردى وأن أى مأساة جماعية هى بمثابة مأساة فردية بالنسبة لكل عضو فى الجماعة . القدرة على التعاون حتى بين الخصوم والمتنافسين لا حد لها . أن نجاح الزميل يكاد يصير نجاحاً شخصياً . ولم يوجد مجتمع عرف الازدهار كما عرفه اليابان بالنسبة للجمعيات التعاونية . يقول مراسل مجلة النيوزويك كريتشير ، إن اليابان ليست فقط اليابان وإنما هى الشركة المساهمة اليابانية(٢). وكلمة الفردية فى اللغة اليابانية تكاد تكون مرادفاً لكلمة الوقاحة . هذه الحقيقة تسيطر على التقاليد السلوكية فى المجتمع اليابانى إلى حد يمكن أن يوصف بأنه مرضى . ويقص علينا أحد خبراء التحليل السلوكى إحدى ملاحظاته فى هذا الخصوص ذات الدلالة الواضحة . فعندما يذهب شاب إلى المعالج النفسى ويأخذ فى علاجه وعقب العديد من الجلسات يخبره الشاب المريض بالعبارة التالية : « فى خلال الأجازة أخبرتنى والدتى بأن والدى من جديد أضحى مسروراً منى » ، فان المعالج النفسى يشعر أن واجبه قد انتهى . وهو يعتقد أنه قد وصل إلى القمة عندما يستطيع أن يقول أن الشاب قد عاد لحالة من التماسك والانسجام بينه وبين أسرته تبعاً لما تفرضه العادات والتقاليد. وهكذا فالمحلل النفسى واجبه أن يساعد الشاب ليس فى أن يبحث عن ذاته كما تعرفه التقاليد الغربية وإنما أن يتخلى عن البحث عن الذات الفردية .

يعلق على ذلك هانتينجتون بقوله « فى الشخصية اليابانية الحدود بين الأنا والآخرين هشة غير قابلة للتميز وغير خاضعة للتحديد . اليابانى يملك شخصية تابعة تقف موقف النقيض من فكرة الاستقلال وعدم التبعية ، حيث يضع ثقله على الجماعة وليس على ذاته : شخصية أكثر استعداداً للامتثال منها للتجديد . وأكثر احتراماً لمن يملك القدرة الذاتية على مزاولة السلطة من ذلك الذى لا يستند فى تلك المزاولة إلا إلى الحق القانونى »(٣).

رغم ذلك فاليابانى يحترم الملكية الخاصة ويصل هذا الاحترام إلى حد التعصب والعنف . وقد يبدو هذا متعارضاً مع الشعور بالانتماء الجماعى ولكن اليابانى يقيد ذلك الشعور بالملكية الخاصة سواء كانت هذه الملكية فردية أو سواء كما يحدث فى أغلب الأحيان تنتمى إلى الأسرة . والأسرة هنا تفهم بالمعنى الواسع حيث تصير مرادفاً لتجمع ضخم نسبياً وليس مجرد الزوج والزوجة ولعل هذا يفسر كيف أن فكرة التبادل الحر لم يعرفها

(١) Bernard Krisher : Newsweek, 9.3.1970.

(٢) BETTELHEIM, The problem of generations : Youth, change and challenge, 1963, p. 73.

(٣) HUNTINGTON, Comparaison of Western and Japanese cultures, in Monumenta Nipponica, Vol. XXIII, p. 474.

المجتمع اليابانى خلال تاريخه الطويل . وكيف أن الملكية سواء تنتمى إلى الفرد أو إلى الأسرة يجب أن تستخدم من أجل الأهداف التقليدية مع مراعاة الالتزامات الاجتماعية بدقة وعناية(١).

على أن ما يميز اليابانى بحق كحقيقة سلوكية هو ما سبق ووصفناه بالرومانسية وما يرتبط بها من فكرة احترام قانون الشرف . فاليابانى ينظر إلى الحياة وإلى الموت ، إلى القتال وإلى الشرف نظرة تسيطر عليها الأفكار الرومانسية التقليدية . أنه يكاد اليوم يعيد أفكار الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . ورغم أن اليابانى يتقبل فكرة السلام إلا أنه يظل دائماً ينظر إلى الوجود على أنه حقيقة تسيطر عليها الأفكار المعنوية . إنه لا ينظر إلى الحياة على أنها متعة ولا إلى الموت على أنه نهاية للوجود . سلوكه بهذا الخصوص مثالى دائماً فى تناسق مطلق مع مبادئه وتقاليده ، يمتاز بالوفاء والاحترام . هو يبلغ فى هذا إلى حد الجنون : فظاهرة النوم لا يعرفها ، والانتحار أسلوب طبيعى وعادى لوضع حد لأى موقف من مواقف التأزم(٢). تحدثنا الكاتبة المشهورة روث بنديكت التى لا نزال ندين لها بأكثر المؤلفات تأصيلا فى تحليل الطابع القومى اليابانى والتى يعترف كاهن بأنه استمد منها الكثير من معلوماته، بأن اليابانى لا يتردد فى أن يضحى بالنوم ودون أى قيد. الطالب الذى يعد الامتحان يقضى لياليه إلى جوار نهاره فى الاستعداد ولا يمر بخاطره أن ينام عدة ساعات قبل أن يتقدم للاختبار. وتنقل إلينا على لسان أحد القادة الأمريكيون الواقعة التالية(٣). فى خلال إحدى المناورات السلمية كان الجند يقضون فى بعض الأحيان ثلاثة أيام دون أن يسمح لهم بالنوم إلا من آن لآخر عدة لحظات لمدة عشر دقائق . وكانوا ينامون فى بعض الأحيان أثناء سيرهم. وأخيراً لم يملك القائد الأمريكى إلا أن يتوجه لقائد الفرقة اليابانى: لماذا لم تترك الجند ليناموا ولو قليلا ؟ فأجابه القائد اليابانى الشاب : إن هذا ليس ضرورى ، أنهم يعرفون كيف ينامون وعلينا أن نعلمهم كيف يظلون مستيقظين(٤). كذلك ظاهرة الانتحار ترتبط بهذه الرومانسية التقليدية وتصير امتداداً طبيعياً لها . أن اليابانى يقبل على هذا الاجراء بشجاعة ودون تردد على أنه التزام أدبى يتعين عليه أن يؤديه فى كل لحظة يشعر فيها أن ضميره قد وصل إلى حده الأقصى من الندم على اخفاقه فى عمل معين . والوعى الجماعى لا ينظر إلى الانتحار على أنه تصرف جبان أو على أنه هروب من الحياة ، إنه تأكيد لحق الحياة ، أنه اعطاء لنموذج على ضرورة احترام الالتزام وعلى أن الالتزام يعنى حسن الأداء . الشجاعة لدى اليابانى تعنى التقبل المطلق لجميع مخاطر الحياة والموت . هذا الشعور يرتبط به شعور آخر سبق ورأيناه باسم الرومانسية وهو احترام المعنويات ، وهم بهذا يذكروننا بالتقاليد الإسلامية ، فالموت لدى الجندى اليابانى هو انتصار للروح على الجسد ، بالمعنويات على الماديات(٥) .

يرتبط بهذا ويعبر عنه ما يسميه اليابانى بقانون الشرف : مجموعة من القواعد والتقاليد لا يستطيع اليابانى أن يتهرب منها مهما كانت النتائج . هو يحترمها دون أن يفكر فى أن يتهرب منها مهما أتاحت له الظروف فرصة لذلك ، واليابانى بهذا الخصوص يشعر فى أى تصرف يفعله أو أى فعل يأتيه أو أى كلمة

---

(١) كاهن ، م . س . ذ . ، ص ٤٦.
(٢) م . س . ذ . ، ص ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ٨٨ .
(٣) BENEDICT Ruth, The Chrysanthemum and the sword, 1946.
(٤) يشير إليه كاهن ، م . س . ذ . ، ص ٨٩ .
(٥) نيتون ، م . س . ذ . ، ص ١٥ .

يقولها بأنه موضع ملاحظة وحكم وتقييم من المجتمع الذى يحيط به ، من الجماعة التى ينتمى إليها ، من الحضارة التى هو امتداد لها . أى حاكم عسكرى أو قائد سياسى فى خطابه يردد بمناسبة وبلا مناسبة : أن عيون العالم بأجمعه تتطلع إليكم . تخبرنا الوثائق العسكرية بأن أحد التعليمات الواضحة الصريحة لرجال البحرية اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية بأنه على البحارة عندما يتخذ القرار بهجر السفينة وقد أوشكت على الغرق وتحدد مصيرها ، إن عليهم أن ينزلوا قوارب النجاة بكل ما تعنيه الكرامة والهيبة(١).

إذا انتقلنا إلى دلالات هذا الطابع القومى من الناحية السياسية لوجدناها تتركز فى مبدأ واحد تنبع منه العديد من النتائج : التنظيم التصاعدى للسلطة . فاليابانى أولا لا يستطيع أن يتصور فكرة العدالة أو المساواة . بل ويصعب أن نجد كلمة تترجم كلمة العدالة ترجمة واضحة ودقيقة باللغة اليابانية . المبدأ يعنى فى التقاليد اليابانية المساواة فى داخل الطبقة الاجتماعية ، وهذا يذكرنا إلى حد معين بالتقاليد الرومانية . التقاليد اليابانية تقوم على أساس مبدأ التنظيم التصاعدى حيث كل فرد فى الجماعة يجد هناك شخص أعلى منه ينتمى إليه ، مع استثناء واحد هو الإمبراطور . يرتبط بهذا المبدأ ويتبعه أن السلطة لا يملكها إلا من يقف فى أعلى قمة الهرم السياسى . إن النظام السياسى فى تقاليده اليابانية ليس نظاماً ديمقراطياً ولا ديكتاتورياً ولا نظاماً شمولياً : أنه نظام سلطوى أو إن شئنا نظام يعكس التقاليد اليابانية حيث تتفاعل المشاركة مع الحق فى الأمر والالتزام باحترام الأمر وقد اندمجت كل هذه العناصر جميعها فى إطار واحد من التقاليد والمصلحة العامة . وليس أدل على تأكيد هذه الحقيقة من أن نحلل عملية صنع القرار السياسى فى المجتمع اليابانى(٢). القرار لا يأتى فى شكل أمر ثم هو لا يأخذ صورة الدعاية لوجهة نظر معينة أو التصويت الجماهيرى(٣). إن اتخاذ القرار السياسى سواء تم ذلك فى منظمة معينة أو فى وزارة معينة أو بعبارة أخرى على أى مستوى من المستويات يكاد يذكرنا ، كما يلاحظ المحلل الأمريكى أبيجلن ، بكيفية اختيار رئيس مجلس الوزراء فى الحزب المحافظ الانجليزى ، فى العادة شخص كبير السن ، يمثل الرجل السياسى التقليدى ، الذى ليست له مصالح مباشرة فى العملية ، يقوم بعملية استعراض للآراء المختلفة وتبادل وجهات النظر مع المسئولين المعبرين عن مختلف القوى المتعارضة ودون أن يضغط على أحد ودون أن يعبر عن رأى مخالف ودون الحاح ينتهى إلى رأى معين يتفق حوله الجميع(٤). وحتى إذا وجدت بعض قوى معارضة فإن الاحترام الأبوى لا بد وأن يؤدى إلى نوع من التوفيق يبرز فى شكل رأى واحد تتقبله القوى المختلفة . وهذا يقود البعض إلى أن يتساءل : ألا يعنى هذا نظام قريب من ديمقراطية المشاركة كما تعرفها التقاليد الأمريكية ؟ سؤال لا معنى له : إنه تعبير عن فكرة التجانس الاجتماعى والشعور بالانتماء الجماعى الذى يفسر جميع المظاهر السلوكية للمجتمع اليابانى على المستوى الفردى أو الجماعى .

---

(١) كاهن ، م . س . ذ . ، ص ٦٠ حيث يضيف نقلا عن تلك الوثائق :

"Sinon le monde rira de vous. En vérité les Américains vous filmeront et le film passera à New York."

(٢) م . س . ذ ، ص ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٨٩ .

(٤) Abbegglen : Boston Consulting Group

دراسة الطابع القومى ذات أبعاد عديدة : فهى مناسبة لتحديد طبيعة العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى ، ولكنها أيضاً نموذج واضح لتلك الصورة من صور الدراسات التى سبق أن أسميناها بالدراسات الحركية حيث يصير على الباحث أن يخرج من ميدان الفضول العلمى إلى ميدان المشاركة العلمية أو بعبارة أدق إلى محاولة استخدام علمه وثقافته أداة من أدوات التطوير الاجتماعى .

كذلك أهمية هذا الموضوع ترتفع بشكل خاص فى هذه اللحظة التى يجتازها المجتمع العربى . فالمجتمع المصرى كالمجتمع العربى يواجه حملة ضخمة من التشكيك والتشويه وذلك فى نفس اللحظة التى نجد فيها الطابع القومى اليهودى بصفة عامة والاسرائيلى بصفة خاصة يخضع لعملية عكسية . وهى جميعها نواحى وأبعاد تفرض علينا أن نتناولها ولو بقليل من الإيجاز ومن ثم فسوف نتابع الموضوع فى مباحث ثلاثة :

المبحث الأول : تأصل نظرية الطابع القومى .

المبحث الثانى : تحليل الطابع القومى المصرى .

المبحث الثالث : دراسة الطابع القومى اليهودى[1] .

---

(١) انظر أيضاً حامد ربيع ، حول التحليل العلمى لمفهوم الطابع القومى المصرى ، فى لويس مليكه قراءات فى علم النفس الاجتماعى ، جزء ثانى ، ١٩٧٠ ، ص ٥١٩ وما بعدها .

المبحث الأول

تأصيل نظرية الطابع القومى

§ ٢٣ – التمييز بين الطابع القومى ، مبدأ القومية ، الصورة القومية :

كلمة الطابع القومى بمعنى الصفات السلوكية التى ترتبط بالفرد لمجرد انتمائه إلى مجتمع معين ، تعبر عن فكرة قديمة ترتفع اليوم إلى مرتبة المفهوم الذى يمكن أن يوصف بأنه أحد مداخل التحليل السياسى المعاصر(١). الفكرة عرفت منذ التقاليد اليونانية . فأفلاطون كان يربط بين حقيقة الاعتدال السياسى والاتزان فى السلوك الفردى إزاء ظاهرة السلطة والانتماء إلى المجتمع الإغريقى . ويستنتج من تلك العلاقة مدلول ووظيفة الظاهرة الديموقراطية بما يرتبط بذلك من نظم الحرية السياسية . وعلى نفس الدرب وبأسلوب آخر بتحليل أكثر واقعية نجد المفكر الرومانى الخطيب شيشرون ومن قبله الزعيم السياسى المحافظ كاتون يفسر السيادة الرومانية على غيرها من مجتمعات البحر الأبيض وبصفة خاصة فى صراعها مع قرطاجنة الدولة الشرقية بتلك الخصائص المرتبطة بالأصل الرومانى وبالحضارة الرومانية . كذلك سبق آن رأينا ونحن بصدد المتابعة التاريخية لدراسة الظاهرة السلوكية كيف أن ابن خلدون تناول ظاهرة الطابع القومى بالكثير من التحليل والتفصيل(٢).

على أن مفهوم الطابع القومى ، وبصفة خاصة حتى مطلع القرن العشرين اختلط

---

(١) انظر بصفة خاصة ملاحظات :

GORER, The concept of national character, in KLUCKHOHN, MURRAY, Personality in nature, society and culture, 1953, p. 246.

(٢) الفقه القديم الذى تقدمه لنا الحضارات الكبرى لم يعرف الصراحة والوضوح فى التحليل بهذا الخصوص إلا لدى ابن خلدون . وقد سبق أن ذكرنا كيف أنه فى المقدمة الرابعة على وجه الخصوص يتحدث عن خصائص السودانى مع مقارنة بين طبائع المصرى ومن ينتمى إلى العرب . قارن كمال دسوقى ، دراسة استطلاعية فى الشخصية السودانية ، فى لويس مليكه ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية ، جزء أول ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦٠ .

بكلية أخرى من كليات الفكر السياسى ، وذلك رغم ضرورة الفصل الواضح بينهما ، نقصد مفهوم الدولة القومية[1].

(أ) فالدولة القومية أو مبدأ القومية ، يرتبط بمفهوم ذى وظيفة سياسية . نشأ وترعرع خلال القرن السادس عشر كأساس فلسفى لتفسير حركة الصراع المزدوج : ضد النظام الاقطاعى من جانب لتوحيد مصدر السلطة فى داخل المجتمع السياسى الواحد، وضد السيادة الكنسية لالغاء التبعية الدينية بخصوص السلطة المدنية من جانب آخر . فالمجتمع السياسى ذو الأصل والتقاليد المشتركة من حقه أن يملك إرادة قومية واحدة لا تتعدد ، تتبلور فى شكل نظام سياسى واحد ، وألا يخضع فى مظاهر التعبير والمزاولة لتلك الإرادة لأى نوع من أنواع التبعية إزاء أى جماعة أخرى لأن كل جماعة تملك إرادتها المستقلة صاحبة السيادة المطلقة .

الدولة القومية بهذا المعنى تتحدد من حيث خصائصها كمفهوم بأنها :

أولا : أحد كليات الفكر السياسى .

ثانياً : حقيقة مجردة .

ثالثاً : حقيقة رمزية .

رابعاً : حقيقة حديثة نسبياً .

فهى تبرز فى نطاق الصراع السياسى لتأكيد الوحدة النظامية ولتفسير عدم التبعية القانونية أكثر من أن تكون لتفسير حقائق اجتماعية وخصائص أو سمات نفسية ،

---

(١) قارن كوهن الذى يرفض أن يسلم بمبدأ القومية قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ويعرف هذا المفهوم بأنه حالة تعسفية تعود إلى الثورة الفرنسية وتصير نوعاً من التطور الذى ينتهى باندماج المجتمع السياسى فى صورة نظامية . كذلك هرتز يقدم تمييزاً أصيلا بين مبدأ القومية والضمير القوى أو ما يسميه national consciousness وهو مفهوم يكاد يكون انعكاساً أو تعبيراً عن مبدأ الطابع القوى . ولعله ما يؤيد هذا التفسير ذلك الفصل السادس الذى يعقده فى مقدمة كتابه بعنوان The idea of national personality وليس أدل على ذلك من قوله فى مقدمة ذلك الفصل :

"Personality in an individual, as in a nation, is a combination of unity, freedom, distinctiveness and distinction. Each of these traits is indispensable for the idea of personality . . ."

انظر المراجع التالية :

KOHN, The idea of nationalism, 1948, p. 5 ; HERTZ, Nationality in history and politics, 1957 ; BARTH, Philosophie der Geschichte als Soziologie, 1922, p. 105.

أو عنصرية . وهى بهذا المعنى تجريد قانونى لمفهوم الشعب أو الأمة . وهى تصير بذلك رمزاً لآمال تلك الأمة وأمانيها . وكل ذلك لم تعرفه البشرية إلا فى نهاية عصر الاقطاع وبداية العصور الحديثة(١) .

(ب) الطابع القومى يختلف مدلوله وتختلف طبيعته عن مدلول وطبيعة الدولة القومية . فى أوسع معانيه ، يقصد بالطابع القومى ، تلك السمات أو الصفات التى ترتبط بالفرد كنتيجة لانتمائه لمجتمع أو مظهر من مظاهر انتمائه العضوى لذلك المجتمع . وبهذا المعنى يصير الطابع القومى امتداداً لمفهوم الشخصية ولكن على المستوى الاجتماعى .

وظاهر من هذا أن مفهوم الطابع القومى يتحدد بخصائص تختلف عن خصائص مفهوم الدولة القومية .

أولا : هو مفهوم اجتماعى وان كانت له وظيفة سياسية .

ثانياً : هو حقيقة ميكروزكزمية أو جزئية على عكس مفهوم الدولة القومية الذى يتناول الظاهرة على المستوى الكلى .

ثالثاً : يرتبط بخصائص سلوكية ومن ثم يصعب وصفه بأنه حقيقة مجردة .

رابعاً : يرفض أن يكون مجرد حقيقة رمزية أو بعبارة أخرى شعار يفسر أوضاعاً أو مواقف ، بل على العكس هو تعبير عن تلك الأوضاع وجوهر لذلك الموقف(٢) .

(ج) وهكذا نستطيع أن نلاحظ كيف أن الطابع القومى يرتبط بالقومية ولكنه لا يتحدد بها . من الطبيعى أن الصورة العادية الواضحة للمجتمع الذى ينتمى إليه الفرد هو الوطن أو الأمة . ولكن من الممكن أن يكون هذا المجتمع لم يرتفع بعد إلى مرتبة الوطن أو الأمة ، كما أنه من الممكن أن يكون مجتمعاً فرعياً فى داخل الوطن مما يترتب عليه تعدد الصفات أو السمات . البعض فيها يرتبط بالمجتمع الكلى والبعض يرتبط بالمجتمع الجزئى أو الفرعى . والأمثلة على ذلك كثيرة : ففى إيطاليا مثلا هنالك صفات تميز أهالى صقلية عن غير أجزاء شبه الجزيرة وذلك إلى جانب صفات أخرى تجمع جميع أجزاء

---

(١) قارن تحليل الفكر السياسى وتطور قادته تحت تأثير هذه النزعة فى
LÖEWTH, Von Hegel zu Nietzsche: Der revolut, onäre Bruch im Denken des neunzehnten Jahrhunderts, 1941.

(٢) قارن فى أبعاد أخرى ولكنها تنبع من نفس الكليات الفكرية :
WITTFOGEL, Oriental despotism: a comparative study of total power, 1957.

الأمة الإيطالية[1]. ذلك رغم أن إيطاليا تكون شعباً لايصل إلى حدود الخمسين مليوناً . ولو انتقلنا إلى المجتمعات الضخمة أو المتشعبة[2] والتي يتجه إليها التطور المعاصر كالوحدة الأساسية في تكوين المجتمع الدولي ، لوجدنا الظاهرة أكثر وضوحاً :

والخلاصة :

أولا : الطابع القومي ليس هو القومية ؛

ثانياً : رغم ذلك فكل منهما يرتبط بالآخر أو بعبارة أدق يقود إلى الآخر : فالقومية مبدأ سياسي ولكنه يعكس حقيقة اجتماعية وهي التجانس السلوكي . أو بعبارة أخرى خصائص سلوكية مشتركة ومتشابهة . كذلك فان الطابع القومي بمعنى التشابه السلوكي يؤدي إلى شعور بالانتماء المشترك ومن ثم فهو خلفية اجتماعية وسلوكية لمبدأ القومية ، المبدأ السياسي .

ثالثاً : كذلك فان فكرة الطابع القومي تمثل مفهوماً يسمح بالتدرج في التحليل حيث أن الانتقال من الوحدات الاجتماعية الصغيرة — ولو نسبياً — إلى تلك الأكثر اتساعاً ولو نسبياً يفترض مستوى آخر وأبعاداً أخرى للتحليل لا تتعارض ولا ينفي الواحد منها الآخر . على عكس القومية فهو مفهوم مجرد لا يقبل إلا الاطلاق[3] .

(د) على أن التمييز بين القومية والطابع القومي يفرض أيضاً أن نحدد الفارق الجوهري بين الطابع القومي national character والصورة القومية national image . الأول أي الطابع القومي سبق وعرفناه : ظاهرة تنبع من التحليل الموضوعي للسمات والملامح الفردية على المستوى الجماعي والشمولي . هي خصائص فردية تعبر عن الانتماء إلى مجتمع سياسي معين بحيث ترتبط بذلك المجتمع وجوداً أو عدماً . أما المفهوم الثاني أي الصورة القومية فنقصد بذلك كيفية تصور مجتمع لمجتمع آخر سواء أكان هذا التصور يعبر عن الحقيقة ويعكس الصفات الواقعية للانتماء إلى ذلك المجتمع الآخر أم أن هذا التصور يخضع لعملية تشويه مقصودة أم غير مقصودة . فالطابع القومي يقصد به

---

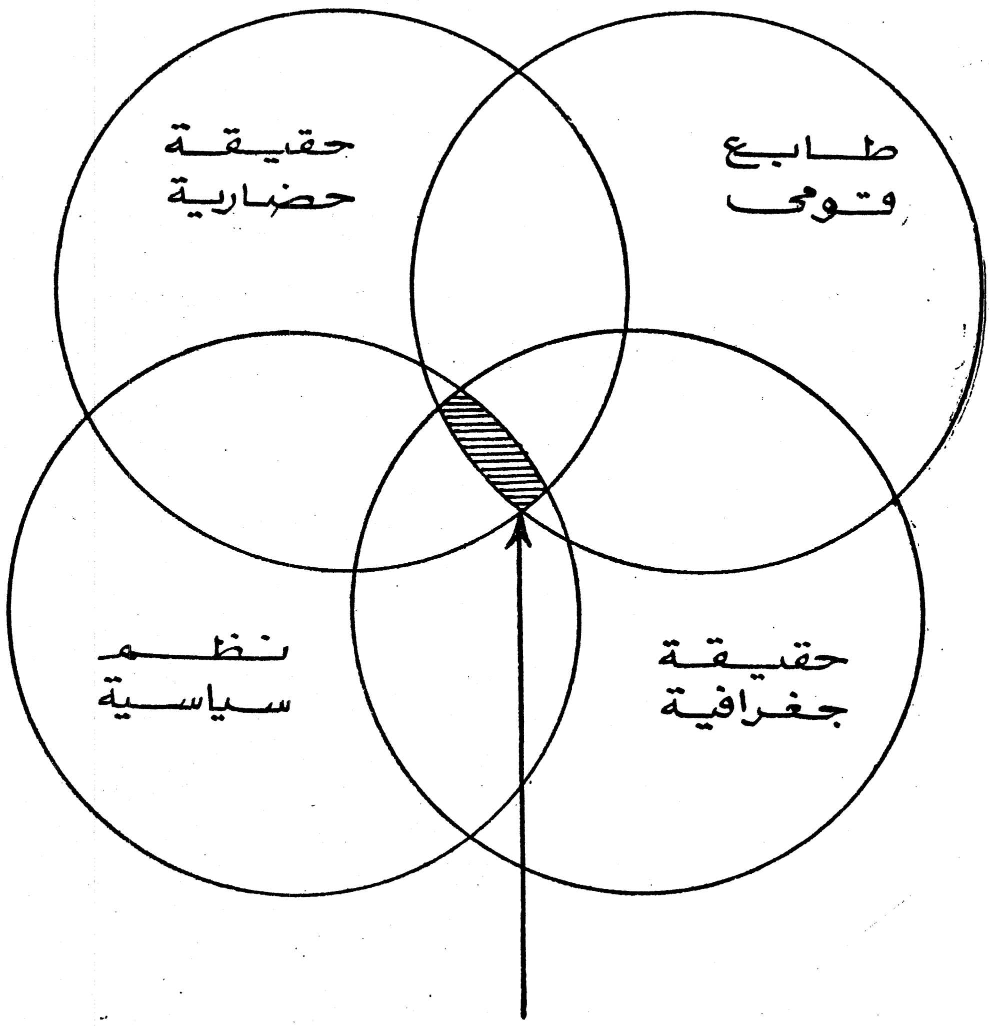
(١) BERTOLDI, I nuovi italiani, 1972, p. 189.

(٢) Super-nation أو Super-state

(٣) الخلط بين مفهوم الطابع القومي المصري ومفهوم القومية العربية لا يزال حتى هذه اللحظة يسيطر على أذهان الكثير من كتابنا . قارن عرضاً لهذه الناحية في أبو خلدون ساطع المصري ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ١٩٦٤ ، ص ٥١٤ وما بعدها .

شكل رقم «٧»

الطابع القومى كأحد مقومات الموقف السياسى



تلك الصفات أو السمات التى يتصف بها المصرى العادى : الشجاعة أم الجبن ، الصراحة أو الوضوح أم الالتواء والغموض على سبيل المثال . الصورة القومية نقصد بها كيف يتصور الأجنبى — الانجليزى مثلا — المصرى ، سواء كان هذا التصور مطابقاً للحقيقة أم غير مطابق لتلك الحقيقة[1].

وهكذا نستطيع أن نحدد خصائص هذه المفاهيم الثلاث رغم تشابكها :

الدولة القومية : مفهوم سياسى .

الطابع القومى : مفهوم سلوكى ذو وظيفة سياسية .

الصورة القومية : مفهوم دعائى .

§ ٢٤ — الطابع القومى ومقوماته :

الطابع القومى يدور إذن حول خصائص وصفات سلوكية يعبر عنها المواطن الذى ينتمى إلى ذلك المجتمع . وهو بذلك يصير مفهوماً ميكروكزمياً أى جزئياً وليس مفهوماً كلياً . بمعنى أنه يدور حول المواطن العادى ، ذلك المواطن الذى لا وجود له فى ذاته ولكنه له وجود فى كل مواطن بدرجة أو بأخرى .

وهذا يقودنا إلى أن نلاحظ :

(أ) أن هذا المفهوم يبرز بشكل أكثر وضوحاً فى نطاق المقارنة بمعنى التحليل الذى يسعى إلى إبراز أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين الخصائص السلوكية لمواطن معين وآخر ينتمى إلى مجتمع آخر أو إلى حقيقة حضارية أخرى[2].

(ب) أن هذا المفهوم لا يعنى أن كل من ينتمى إلى مجتمع معين يملك صفات معينة بنفس المقدار وبنفس النسبة وأن من لا ينتمى إلى ذلك المجتمع لا يملك تلك الصفات أو بتلك النسب . كل ما هنالك أن أغلب من ينتمى إلى ذلك المجتمع يتصف بصفات سلوكية معينة تختلف من حيث درجاتها تبعاً لظروف وخصائص كل شخصية فردية .

(ج) أن الطابع القومى لا يمنع استقلال الشخصية الفردية بالنسبة لكل مواطن .

الطابع القومى إذن هو حقيقة سلوكية . ولكن ما هى عناصر تلك الحقيقة ؟ ما هى

---

(١) قارن ما أوردناه فى حامد ربيع ، حول التحليل العلمى ، م . س . ذ . ، ص ٥٣٥ هامش رقم ١٥ .

(٢) برودير سين ، م . س . ذ . ، ص ٣٠٣ .

المقومات التي يتكون منها مفهوم الطابع القومى ؟ أو بعبارة أخرى ما هى الجزئيات التي لو جمعناها لاستطعنا أن نقول بأنها تعكس خصائص الطابع القومى لمجتمع معين ؟

النظريات فى هذا الخصوص كثيرة . ومن استقراء الدراسات المتعددة استطاع انكلز Inkeles أن يميز بين ستة نظريات بهذا الخصوص[1]. ولكننا نعتقد أن خير إطار علمى يصلح لتحديد مقومات الطابع القومى هو ذلك الذى قدمه العالم الانجليزى كاردينر Kardiner باسم نظرية « الشخصية القاعدية » .

مدلول هذه النظرية أن المواطن فى كل مجتمع متكامل بلغ درجة معينة من التناسق والاندماج فى عناصره ومقوماته يملك حداً أدنى من حيث عناصر الشخصية فى جانبها الاجتماعى يدور حول مقومات أربع :

أولا — أدوات التفكير : ويقصد بذلك الطريقة التى يفكر بها المواطن فى الحقيقة أى التى يتأمل بها المواطن ما يدور حوله من ظواهر والتى استناداً إليها يستطيع أن يتصرف فى مواجهة تلك الحقيقة . توفى شخص عن ابنة متزوجة وابن متزوج وترك عقاراً موضع خلاف بين الابن والابنة . كيف تفهم هذه الحقيقة ؟ أمر ذاتى خاص بالابن والابنة ومن ثم لا يجوز أن يتدخل فى انهاء هذا النزاع أو فى تفاصيله زوج الابنة ولا زوجة الابن ، هل يجب أن ينتهى هذا النزاع فى داخل مجلس الأسرة وفقط فى داخل الأسرة أم أنه من الممكن أن يطرح أمام القضاء ولا سبيل إلى فضه إلا عن طريق سلطة القضاء ؟

ثانياً — نظم الضمان : ويقصد بذلك أدوات الدفاع النظامية التقليدية التى يلجأ إليها المواطن ليستطيع أن يقاوم حالات التوتر والقلق التى تخلقها عقد الذنب الناتجة عن الأوضاع المادية والاجتماعية . فكرة الثأر مثلا فى البلاد المتخلفة تعكس هذا العنصر بوضوح[2] .

ثالثاً — وسائل الحصول على احترام الآخرين وكسب صداقتهم . ويقصد بذلك تلك الاستجابات والتصرفات التى تعودت الجماعة على أن ترى فيها مظهراً من مظاهر الكمال فى صفات المواطن من حيث الجاه وغيره مما ينطوى تحت مفهوم الوجود الذاتى . فالأسرة الكبيرة العدد ذات الانجاب المستمر فى المجتمع الريفى المصرى أحد هذه الأدوات الواضحة الدلالة . والكرم فى المجتمع العربى صورة أخرى من صور هذا العنصر الثالث .

---

(١) م . س . ذ . ، ص ٤٢٣ وما بعدها .

(٢) ستوتزل ، م . س . ذ . ، ص ٦٥ .

رابعاً – الاتجاهات الدينية بمعنى مختلف التصورات المرتبطة والمتعلقة على العلاقة بين الفرد والقوى العليا الغيبية .

من مجموعة هذه العناصر الأربعة نستطيع أن نبنى ذلك الاطار الذى يعبر عن الطابع القومى . وواضح من استقراء هذه العناصر أنها جميعها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحقيقة الحضارية من جانب وبالنظم القائمة فى المجتمع من جانب آخر بحيث يمكن القول بأن أياً منها يؤثر ويتأثر ، أى يخلق ولكنه بدوره يخضع لعملية خلق عن طريق الأخرى ؛ ولعل هذا يفسر لماذا يميز أصحاب هذه النظرية بين نوعين من النظم : نظم أولى ، أو أصلية وهى التى تحكم هذه العناصر الأربعة وتتحكم فى وجودها ونظم فرعية ، أو تابعة وهى التى تفرضها تلك العناصر .

ولعل هذا التحديد يسمح لنا بفهم العلاقة الوثيقة بين الطابع القومى والنظم الاجتماعية والسياسية حيث أن كلا منها يؤثر فى الآخر ويتأثر به . الأول أى الطابع القومى يؤثر فى الثانية أى النظم الاجتماعية والسياسية بحيث تصير بالنسبة له صورة من صور التعبير عن وجوده . على أن هذه بدورها فى المدى الطويل لا بد وأن تؤثر فى توجيه ان لم يكن فى تشكيل خصائص الطابع القومى ذاته . وهكذا فان العلاقة بين هذين المتغيرين من متغيرات الموقف السياسى ليست علاقة سلبية أو تأثير متبادل بل تأخذ صورة الدورة التى تجعل التأثير المتبادل مستمراً فى حركة دائمة لا تنقطع (١) .

وهذا يقودنا إلى أن نثير هذا السؤال : ما هى الوظيفة السياسية لمفهوم الطابع القومى بهذا المعنى الذى حددناه ؟

§ ٢٥ – الوظيفة السياسية لمفهوم الطابع القومى :

اهتمام علماء السياسة بظاهرة الطابع القومى ليس حديثاً . ورغم أنه فى نطاق التحليل السياسى ظلت هذه الظاهرة تختلط بمبدأ القومية تارة وبما يسمونه الشخصية القومية تارة أخـــرى ، إلا أن المفهوم فى هذا المعنى العلمى الذى سبق وحددناه أضحى اليوم أحد مداخل التحليل السياسى (٢) . ويكفى أن نبرز النواحى التى نستطيع استناداً إلى هذا المفهوم أن نصل فيها إلى نتائج واضحة ودقيقة .

وهنا يجب أن نلاحظ أمرين :

أولها : أن الوصول إلى هذه النتائج يفترض الدراسة العلمية لظاهرة الطابع القومى

---

(١) BARBU, Problems of historical psychology, 1960, p. 145

(٢) حامد ربيع ، نظرية التحليل السياسى ، م . س . ذ . ، ص ٩٣ .

استناداً إلى التحليل الميدانى المرتبط بأساليب البحث التعمقى وليس استناداً إلى مجرد جمع المعلومات السطحية التى تأخذ فى العادة صورة استفتاءات الرأى العام[١].

ثانيهما : أن هذه النتائج لن نستطيع أن نصل إليها إلا عن طريق المساهمة الفعلية من جانب أكثر من ميدان من ميادين التخصص : الاجتماع ، علم النفس، السياسة ، وكذلك التحليل التاريخى .

دراسة الطابع القومى أضحت اليوم أحد المداخل الحقيقية لفهم الظاهرة السياسية وبصفة خاصة فى أبعادها الديناميكية . ولذلك فان وظيفة الطابع القومى فى بناء الإطار الفكرى لتحليل ظاهرة السلطة متعددة الأبعاد . ودون الدخول فى تفاصيل لا تسمح بها طبيعة هذه الدراسة نستطيع أن نوجز هذه الوظيفة فى النواحى الآتية :

(ا) فهم الطابع القومى على أسس علمية يسمح بتحديد امكانيات التعاون الدولى . وقد أثبتت الدراسة التى قام بها العالمان بوخانان Buchanan وكانتريل Cantril بتكليف من اليونسكو عن « كيف ترى الشعوب الشعوب الأخرى ؟ » مدى الترابط الوثيق بين مدلول الصورة القومية كما سبق وحددناه واستعداد الشعوب للتعاون مع الشعوب الأخرى وبغض النظر أو استقلالا عن السياسة الرسمية التى تتبعها الدولة التى تتحدث باسم تلك الشعوب[٢].

(ب) التنبؤ برد الفعل reaction ونقصد بذلك أن فهم الطابع القومى وتحليله بعمق معين ، وليس فقط استناداً إلى استفتاءات الرأى العام فى صورتها التقليدية ، يسمح لنا ولو فى حدود معينة بالتنبؤ برد الفعل ، سواء على المستوى القومى أو على مستوى القيادة السياسية للقرار السياسى فى نطاق العلاقات الدولية . فلنتصور أن الدولة (أ) تريد أن تتخذ تصرفاً معيناً إزاء الدولة(ب)فعن طريق تحليل الطابع القومى للدولة (ب) تستطيع الدولة (أ) أن تتنبأ برد فعل الدولة (ب) وتبنى على هذا الأساس حدود انطلاقها فى استراتيجيتها السياسية[٣].

(ج) بناء وتخطيط الحركة الدعائية . كذلك فإن عملية الدعاية السياسية وبصفة خاصة عندما تأخذ صورة الحرب النفسية يجب أن تسبقها دراسة عميقة للطابع القومى أو بعبارة أخرى لنفسيات المجتمع موضع تلك الحملة الدعائية . وقد أثبتت الخبرات المعاصرة أن هذه الدراسة سمحت للحركة الدعائية بأن ترتفع لتصير أسلوباً من أساليب

---

(١) انظر مجلة الطليعة ، سبتمبر ١٩٧٢ ، ص ١٢٨ .

(٢) BUCHANAN, CANTRIL, How nations see each other, 1953.

(٣) برو ديرسين ، م . س . ذ . ، ص ٢٠٣ .

الاستعمار الحضارى . الأمثلة على ذلك واضحة وعديدة : من حيث النجاح فى علاقة الولايات المتحدة الأمريكية سواء بألمانيا أواليابان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

(د) تخطيط التغير السياسى . فالنواحى الثلاث السابقة تتعرض للنواحى السياسية فى محيط العلاقات الدولية . ولكن دراسة الطابع القومى لها أهميتها أيضاً فى النطاق الداخلى وبصفة خاصة فى المجتمعات النامية . ويتضح ذلك بشكل واضح فى محيط ظاهرة التغير السياسى political change . والتغير السياسى يقصد به الانتقال السريع الذى يكاد يكون مفتعلا من وضع نظامى معين إلى وضع آخر يختلف عن الأول جذرياً بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه استمرار له . ودراسة الطابع القومى تسمح بتحديد ذلك الذى لا يمكن تناوله بالتغيير وذلك الذى من الممكن أن يخضع لعملية التغير السياسى . وهى لذلك تصبر أساساً هاماً للتحليل السياسى فيما يتعلق باقامة أو بناء الخطة المتعلقة بالتغير السياسى (١) .

§ ٢٦ – الطابع القومى والبحث الحركى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية :

الاهتمام بدراسة ظاهرة الطابع القومى ليست وليدة الأمس القريب ولكنها تعود إلى القرن التاسع عشر . وقد سبق أن ذكرنا ذلك عندما تعرضنا إلى مدرسة فوندت وسوف نعود إلى ذلك تفصيلا مرة أخرى عندما نقف إزاء علم نفسية الشعوب . ولكن الاهتمام الحقيقى فيما يتعلق بالأبعاد الحركية أى بضرورة جعل العلوم السلوكية منطلقاً لوضع خطط تجيب على الصعوبات اليومية والمرتبطة بمزاولة السلطة لم تبدأ فى صورتها الحقيقية إلا خلال الحرب العالمية الثانية . فى خلال الصراع العالمى كانت القيادة الأمريكية هى المسيطرة على مصير غرب أوربا . الجيوش المتحالفة كانت تتكون من العديد من القوميات والجيش الأمريكى كان يضم مختلف الفئات المرتبطة بنماذج متعددة من القوميات وبالتالى من السلوك .

المشاكل التى واجهتها القيادة الأمريكية فى صراعها المسلح لم تكن فقط تتعلق بكيفية التخاطب مع تلك الشعوب المختلفة ، بل كذلك بكيفية خلق روح التآلف والتضامن ، وبدرجة معينة بحيث لا تقضى على الولاء العام للفرد بين أبناء الفرقة الواحدة أو الفصيلة الواحدة من القوات العسكرية . الإجابة على الأسئلة المختلفة المرتبطة بالاستفهامات المتعددة التى تثيرها هذه المشاكل ما كان يمكن أن يقدمها سوى علماء التحليل السلوكى .

---

(١) انكيلز ، م . س . ذ . ، ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) انظر فيما سبق ، وذكرناه فى صدر الحالة رقم ٩ ، ص ١٥٣ وما بعدها .

فانطلاقاً من دراسة الظاهرة السلوكية فقط نستطيع أن نقدم حلول للمشاكل الواقعية على خلاف تلك التقاليد التي كانت لا تزال تسيطر على التحليل الاجتماعي من النظرة إليه على أنه مجرد تجرد في مفاهيم مطلقة ترتبط بوصف القائم أو تفسير الماضي . كل هذا قدم تراثاً ضخماً من التجارب الميدانية . ولكن ما حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية كان أكثر أهمية فيما يتعلق بتطور دراسة الطابع القومي .

المنطلق في هذا التطور الجديد هو السؤال الذي أثاره أكثر من عالم واحد : لماذا هذا المجتمع الألماني بخصائصه ومميزاته استطاع خلال أقل من قرن من الزمان أن يرعب العالم وأن يهدد مصير أوربا وأن يصير معبراً عن انطلاقة وحشية في معاملة الأفراد وفي احتقار القيم التقليدية الإنسانية المرتبطة بتقاليد الحضارة الغربية ؟

وهكذا كان هذا التساؤل هو المنطلق الحقيقي لتطورات ضخمة في دراسة الطابع القومي حيث أضحت هذه الدراسة أحد عناصر ومقومات تخطيط السياسة الخارجية الأمريكية . ورغم أن الوقائع الحقيقية لا تزال مجهولة وغير معروفة في حقائقها إلا أن الذي نستطيع أن نقطع به اليوم هو أن السياسة الخارجية الأمريكية في علاقتها بألمانيا الغربية استمدت بعض عناصرها من دراسة مسبقة للطابع القومي الألماني[1] . هذه الحقيقة عرفناها بفضل مؤلف ظهر في الخمسينيات للفيلسوف الألماني سالومون باسم : « سوف أظل بروسياً » يناقش فيه أداة جمع المعلومات التي كانت تتداول سراً في المجتمع الألماني بواسطة الأجهزة الأمريكية بقصد تحليل وفهم طبيعة العقلية الألمانية . وإذا كنا لم نستطع أن نصل إلى معلومات دقيقة مماثلة بخصوص تحليل الطابع القومي الياباني من جانب السياسة الخارجية الأمريكية إلا أن مراجعة مؤلف كاهن عن المعجزة اليابانية يسمح لنا بتصور نفس الأسلوب إزاء العدو الآخر الذي يهدد الأمن القومي الأمريكي . فهذا المؤلف أفرد فصلا في ذلك الكتاب يزيد عن خمس ما كتبه عن ذلك الموضوع بعنوان « بعض ملاحظات عن العقلية اليابانية » . فاذا تذكرنا أن كاهن هذا هو أحد علماء مخططي السياسة الخارجية الأمريكية وهو الذي وضع الأصول العلمية والرياضية لذلك التخطيط من خلال معهد هوفر ومنذ الستينات لفهمنا الدلالة التي

---

(١) يخضع لنفس المنهاجية أيضاً :
SAMPSON, The new Europeans, trad. fran., 1970, p. 458.

تستتر خلف تلك الملاحظة[٢] ، السياسة الخارجية الأمريكية وهى تريد أن تقوم بعملية ترويض لكلا المجتمعين الألمانى واليابانى ما كانت تستطيع أن تحقق هذه الغاية إلا ابتداء من الدراسة العلمية المنظمة لظاهرة الطابع القومى[١] :

نماذج دراسة الطابع القومى عديدة ولكن الذى يعنينا بصفة خاصة فى هذا المجال هو أن نتعرض بايجاز ودون تفصيل لدراسة كلا طابعين القومى المصرى واليهودى .

---

(٢) مارتيندال ، م . س . ذ . ، ص ١٨٣ وما بعدها .

المبحث الثانى

تحليل الطابع القومى المصرى

§ ٢٧ – التعريف بالطابع القومى المصرى :

فى خطاب من نابليون بونابرت[١] إلى صديقه الجنرال جورجود أثناء وجوده فى المنفى « جزيرة سانت هيلانه » يقول القائد الفرنسى وهو يستعيد ذكريات حملته على مصر : « ما فتئت الدولة العثمانية منذ اضمحلت أحوالها توجه الحملات ضد المماليك التى كانت تنتهى دائماً بالفشل والهزيمة . والذى يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التى توالت على مصر فى المائة عام الأخيرة يوقن أنه لو عهدت إلى وال من البلاد . . . لاستقلت الأمة العربية التى تتألف من أمة تخالف غيرها من الأمم مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها ، وشملت مصر وبلاد العرب وشطراً من البلاد الأفريقية . . » رغم ذلك فان أى مؤلف أوربى معاصر يتعرض لتحليل الموقف السياسى فى منطقة الشرق الأوسط ، يبدأ عرضه بهذا السؤال : من هم العرب ؟ ما الذى تمثله الأمة العربية التى باسمها تتحدث القومية العربية ؟ ما هى خصائص الشخص الذى يزعم بانتمائه إلى ذلك المجتمع ؟ ما هى صفات الطابع القومى الذى يستتر خلف ذلك المفهوم ؟ وما هى علاقة ذلك الطابع القومى بتلك القوميات المحلية التى تندرج تحت كليات الأمة العربية ؟ تساؤل مشروع[٢]. فليس فقط ذلك الفقه الغربى أو الأجنبى هو الذى يثير علامات الشك حول طبيعة وخصائص هذا المفهوم أو بعبارة أدق حول عدم وضوح هذه المفاهيم بل نفس علماء الاجتماع والسياسة الذين ينتمون إلى هذه المنطقة يتجنبون أن يواجهوا تلك المشكلة . وليس أدل على ذلك أن نلقى بنظرنا على ذلك الفقه المتخم باسم المجتمع العربى حيث نستطيع أن نبحث عبثاً عن إجابة عن أى من هذه التساؤلات . كل هذا كان

---

(١) لويس عوض ، نشأة الفكرة القومية ، الأهرام ، ١٥ / ١٢ / ١٩٦٧ .

(٢) HOTTINGER, The Arabs, 1963, p. 11

يجب أن يفرض على الفقه المصرى أن يتناول الموضوع بشيء من التحليل العلمى الدقيق ولو بقصد تحديد الأبعاد الفكرية لإثارة هذه المشكلة. الأسئلة عديدة لا حصر لها.

أول ما يجب أن نبدأ به هو هذا السؤال: ما الذى نقصده بالطابع القومى المصرى؟ وهل يستطيع هذا المفهوم أن يؤدى وظيفة إيجابية فى فهم الأوضاع السياسية المعاصرة وفهم تطور الحياة والنشاط المرتبط بظاهرة السلطة؟ ثم كيف نتعامل مع هذا الطابع القومى؟ أليست عملية التغير الاجتماعى والسياسى تفترض فهماً للتقاليد الثقافية المرتبطة بذلك الطابع بقصد تحديد معناه وعناصره وبالتالى بقصد فهم وتحديد أبعاد معاملته ونقله من وضع إلى وضع؟ ثم يرتبط بكلا السؤالين سؤال آخر يدور حول فهم ذلك العدو الذى يقف منا موقف المواجهة: ما هى خصائص الطابع اليهودى وما ملامحه وما نقاط وعناصر الضعف فى طابعه؟

أسئلة كل منها يحتاج إلى إجابات مفصلة ولكننا سوف نكتفى بأن نتناولها فى أبعادها العامة[1].

§ ٢٨ ـ الطابع القومى المصرى وموقف الفقه من تحليل مقوماته:

السؤال الذى يجب أن نقدم له إجابة الآن يتلخص فى كلمات قلائل:

ما هى مقومات الطابع القومى المصرى؟

سؤال قد يبدو لأول وهلة سهل الإجابة. ولكنه رغم ذلك يكاد يكون من المستحيل أن نقدم عنه حالياً إجابة علمية فى أى صورة كانت.

ما هو السبب فى ذلك؟

وكيف نستطيع سد هذا النقص؟

أول ما يجب أن نلاحظه أن هذا المفهوم ليس حديثاً فى تقاليدنا السياسية أو التاريخية. وأن كان هذا لا يمنع أن هذا الاصطلاح لم يستخدم إلا فقط منذ عدة أعوام وفى أعقاب النكسة وهزيمة يونيو عام ١٩٦٧. كذلك يجب أن نلاحظ أنه وجدت حول الموضوع أكثر من دراسة واحدة واهتم بتحليله أكثر من مؤلف واحد ومع ذلك فالغموض والتشويه لا يزال يميز ويسيطر على هذا التحليل ويكاد يحجب شمس الحقيقة.

كل هذه استفهامات فى حاجة إلى توضيح.

---

(١) للتفاصيل انظر مؤلفنا فلسفة الدعاية الإسرائيلية، الطبعة الثانية، حاليا فى مرحلة الإعداد.

(أ) الطابع القومى المصرى كان فى الواقع موضع اهتمام المؤرخين والكتاب منذ أقدم العصور. أول من اهتم به هيرودوت[1] فى كتابه الذى أفرده لتحليل نتائج زيارته لمصر. وهو يفسر هذا الاهتمام فى الفقرة الخامسة والثلاثين بقوله: «والآن سأبدأ بالكلام عن مصر فى اسهاب لأنها دون غيرها من بلاد العالم أجمع تحوى عجائب أكثر وآثار تجل عن الوصف. ومن أجل ذلك سأطيل الحديث عنها نظراً لأن مناخ مصر منقطع النظير، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة عن باقى الأنهار، ولذلك اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم»، كذلك ففى أوراق البردى نجد خطاباً لأحد القادة الرومان عندما وصل يغزو مصر يخاطب أهل وادى النيل ويذكرهم بأنه إنما دخل أرض بلادهم ليعيد إليهم حرياتهم التى فقدت بفضل حكم البطالسة وأن هذا وحده هو الذى سوف يسمح لهم بأن يعيشوا حياتهم الحقيقية وتقاليدهم الذاتية وقوانينهم الموروثة. التاريخ الوسيط أيضاً عامر بهذه الآثار. فابن العاص يكتب إلى عمر بن الخطاب خطاباً مستفيضاً يصف فيه أهل مصر وابن المقفع والمتنبى كل منهما بأسلوبه يهاجم أهل مصر والشافعى عندما ينطلق إلى مصر يغير مذهبه الفقهى فيعرف عنه مذهب جديد مرتبط بتقاليد أهل مصر. رغم ذلك فان هذا الموضوع لم يبرز بشكل واضح ليسيطر على أذهان المفكرين فى بلادنا إلا منذ قرابة نصف قرن. ولم يبرز فى أبعاده الحقيقية فى شكل صراع فكرى يدوز حول تحديد أبعاد هذه الكلمة «الشخصية المصرية» إلا منذ خمس أعوام[2].

الواقع أن مصر منذ الفتح العربى ذابت فى بوتقة حضارية لا تمت بصلة إلى واديها أو إلى أوضاعها الذاتية. تنقلت من حضارة إلى أخرى ومن تبعية إلى أخرى حتى قدر لها نوع من الاستقلال فى عهد محمد على وفقط فى مشارف القرن التاسع عشر. ولكنه كان استقلالا هيكلياً ولم يكن تعبيراً عن تكامل ذاتى، لم يكن تعبيراً عن انبثاق قومى بقدر ما كان تعبيراً عن تحطم للتبعية الذاتية. وعندما استبدل الاستعمار التركى بالاحتلال الانجليزى وتهيأت ظروف التطور ومناخ التنقل الحضارى والاجتماعى للانتفاضة كان ولا بد أن تبرز تلك الحقيقة وتسيطر على أذهان المفكرين: ما هى الشخصية المصرية؟ هل لها وجود ذاتى؟ وان كان لها ذلك الوجود فأين هى من العالم العربى بصفة خاصة والعالم الإسلامى بصفة عامة؟

---

(١) محمد صقر خفاجة، هيرودوت يتحدث عن مصر، ١٩٦٦، ص ١١٨.

(٢) من بين المراجع الأساسية انظر:

جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، ١٩٧٠، لويس كامل مليكه، بين الايجابية والمبالاة، ١٩٦٦، عبد العزيز رفاعى، الطابع القومى للشخصية المصرية، ١٩٧١.

سؤال لا شك فى أهميته وبصفة خاصة بالنسبة لمجتمع يسعى لاثبات ذاتيته سياسياً وحضارياً لأول مرة فى تاريخه الطويل منذ انتهاء العصر الفرعونى . رغم ذلك فأغلب من تعرض للاجابة على هذا السؤال لم يكن ملماً بأسلحة العلم والتحليل . وهكذا انتهت جميع المحاولات وحتى حرب يونيو ١٩٦٧ بأن تصير نوعاً من علامات الاستفهام التى لا تعنى سوى فقاقيع تبرز من آن إلى آخر فى محاولة يائسة لكتابة تاريخ مصر الشامل مستقلا عن حركات الطوفان البشرى التى وردت إليها غازية فاتحة أو مستوطنة حاكمة(١) .

وهكذا انتهت هذه المشكلة لأن تصير سؤالا واحداً محدداً : هل هناك شخصياً مصرية واحدة منذ بداية التاريخ حتى الآن ؟ أم أن تلك الشخصية لا وجود لها ؟ بعبارة أخرى هل شخصية مصر متعددة بتعدد مراحل تاريخها بحيث أن كل مرحلة تعبر عن شخصية مستقلة عن الأخرى تمام الاستقلال ؟

إزاء هذا السؤال انقسم الفكر المصرى إلى اتجاهات متعددة(٢) :

أولا : الاتجاه الأول يؤمن بوحدة الشخصية المصرية . فمنذ بداية التاريخ القديم حتى يومنا هذا لم يعرف وادى النيل سوى شخصية واحدة . هذه الشخصية قد تتلون فى بعض مراحل وجودها . ولكن حقيقتها وطبيعتها ومقوماتها وسماتها واحدة . قد تصطبغ بالطابع العربى أو بالطابع التركى ، وقد تطعم بالثقافة الفرنسية أو التقاليد الأنجلوسكسونية ولكنها كانت دائماً وسوف تظل دائماً فرعونية .

مثل هذا الاتجاه فى كتاباته الأدبية طه حسن وعبر عنه الفقه المصرى بصفة عامة فى خلال أحداث ثورة ١٩١٩ وما أعقبها .

ثانياً : الاتجاه الثانى يرفض هذه الوحدة ولا يرى فيها سوى أسطورة من صنع الخيال. أن تاريخ مصر يعبر عن مراحل متعاقبة ولكنها منفصلة . هذا الانفصام لا يقتصر عن إن يكون حضارياً وثقافياً ، بل يتعداه إلى نفس التعبير اللغوى أى إلى رموز الاتصال . انفصام كان ولا بد أن ينعكس وأن يثبت وجوده فى ذات الشخصية المصرية . فمصر الفرعونية ليست هى مصر القبطية فى حقيقتها وفى مظاهرها السلوكية : فى قيمها ومعتقداتها(٣) . ومصر العربية لا صلة لها بمصر الفرعونية أو مصر القبطية إذ تقف من هذه الأخيرة بصفة خاصة موقف التناقض بل والرفض المطلق . هذا الاتجاه الثانى

---

(١) BERQUE, L'Orient second, 1970, p. 398

(٢) أمير اسكندر ، البحث عن الشخصية المصرية ، الجمهورية ، ٢٤ - ١٠ - ١٩٦٨ .

(٣) أنيس صايغ ، الفكرة العربية فى مصر ، ١٩٥٩ ، ص ٦٢ وما بعدها .

كان يمثل حركة تخشى على مصر من عزلتها الفكرية إزاء العالم العربى بصفة خاصة والإسلامى بصفة عامة ؛ ظهر بوضوح فى الكتابات العربية أكثر منه فى الكتابات المصرية .

ثالثاً : الاتجاه الثالث يتخذ موقفاً وسطاً بين المدرستين السابقتين . فهو يسلم بوحدة العناصر المادية التى تقوم عليها الشخصية المصرية وهذا ما يقول به أنصار الاتجاه الأول ولكنه أيضاً يسلم بانقطاع العناصر الحضارية التى تشكل تلك الشخصية وهو ما يرفضه الاتجاه الأول ، ويدافع عنه الاتجاه الثانى ، بمعنى أنه إذا كانت مصر قد ظلت تعبر عن استمرارية مادية فى كل مراحل تاريخها فأنه من الناحية الحضارية لا يجوز أن ننسى أن الإسلام والتعريب قد أحدثا انفصاماً وانقطاعاً فى تطور الشخصية المصرية . هذا الاتجاه الثالث حاول أن يرضى كلا الاتجاهين الأول والثانى فهو يسلم بوحدة الشخصية المصرية ولكنه أيضاً يسلم بأن هذه الوحدة قد اصطبغت اصطباغاً كلياً وكاملا نتيجة الاندماج فى تقاليد الحضارة الإسلامية[1] .

رابعاً : هذه الاتجاهات الثلاث السابقة فى الواقع لم تتناول فى حقيقتها مفهوم الطابع القومى كما سبق وحددناه وإنما تثير مفهوماً آخر يختلط مع مفهوم الطابع القومى وان كان يتميز عنها ألا وهو شخصية مصر : مفهوم فلسفى حضارى مطلق مجرد ، أقرب إلى مبدأ القومية منه إلى مفهوم الطابع القومى ، يلقى بنا فى متاهات فلسفة الوجود الحضارى ويبعدنا عن التحليل الواقعى والتجريبى للظاهرة السلوكية . الوحيد فى الفكر المصرى قبل الأحداث المعاصرة التى نعيشها والذى أثار هذا الموضوع على هذا المستوى من الدقة والتحديد هو شيخ النقاد الأستاذ العقاد ، وبهذا يمثل الاتجاه الرابع الذى يرفض مناقشة الموضوع على مستوى الشخصية المصرية وإنما يقتصر على تحليل ما يسميه « الطبيعة المصرية » . وهو لذلك يثير السؤال بهذه الصيغة : ما هى الخصائص السلوكية لمصر ؟ ما هى الشخصية العادية التى تبرز واضحة فى العلاقات الاجتماعية المرتبطة بتلك الجماعة ؟ هذا الاتجاه الرابع هو وحده الذى يعنينا فى مقام هذا التحليل[2] .

(ب) على أن مشكلة الطابع القومى المصرى برزت فى شكل أكثر خطورة فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ . وهذا ليس بجديد فى التراث الإنسانى فان الهزيمة تفرض السؤال

---

(١) انظر : نعمات فؤاد ، شخصية مصر ، ١٩٦٨ ؛ حسين فوزى ، سندباد مصرى ، ١٩٦١ ؛ حامد عمار ، فى بناء البشر ، ١٩٦٤ .

(٢) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، ١٩٣٦ .

لماذا والتساؤل يعنى البحث عن المقومات لابراز علامات القوة ونواحى الضعف . حدث هذا فى تاريخ ألمانيا عندما سقطت القوى البروسية أمام الجحافل الفرنسية رغم ما كانت تعتبره ألمانيا من عظمتها حضارياً وثقافياً وفكرياً وراح يتساءل أكثر من مفكر واحد : من هو الألمانى ؟ ما هى خصائص الحضارة الألمانية ؟ ما هى وظيفتها فى التراث العالمى ؟ أسئلة أثارها فيشته وأجاب عليها إجابات غير واضحة ميللر وكانت أساساً لصياغة متكاملة فى فلسفة هيجل[1]. السؤال أيضاً فرضه المجتمع الفرنسى على نفسه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ورغم أن ديجول رجل حركة وليس رجل فكر إلا أننا نستطيع أن نرى فى بعض كتاباته مظاهر للتعبير عن قلق المفكر فى الإجابة على هذا التساؤل . كذلك حدث فى مصر وخرجت بعض الكتابات معبرة عن إثارة المشكلة دون أن تقدم إجابة واضحة على هذا الغموض الذى يفرض نفسه على تحديد أبعاد الطابع القومى المصرى .

(ج) على أننا ونحن بصدد تقديم صورة سريعة لما كتب عن الطابع القومى المصرى يجب أن نضيف إلى ذلك مجموعة أخرى من الكتابات تمثل اتجاهاً آخر مستقل جدير بأن يكون موضع التنويه . ذلك أن الطابع القومى المصرى خضع لعملية تشويه حقيقية يندر أن يعرف التاريخ لها مثيلا . عملية تشويه قديمة تعود إلى اقدم العصور[2]. بدأها اليونان فى العصور القديمة . ونفس هيرودوت الذى سبق وذكرنا جهوده فى تحليل الطابع القومى المصرى لم يتردد فى أن يكون جوقاً يعكس عملية التشويه هذه . وأعقبه بنو إسرائيل وبصفة خاصة عندما استنجدوا بمصر على البابليين فأبت أن تستجيب إلى طلبهم ورفضت أن تخوض الحرب لأجلهم . ثم لحقهم عقب ذلك فى نفس الطريق الرومان وكان هناك حزب قائم بذاته لابراز مساوئ المصريين عندما جاءت كليوباترا إلى روما تطالب بحقها فى الحكم عقب مغامرتها مع قيصر . ولم يتردد العرب فى أن يحملوا أيضاً على مصر والمصريين نذكر منهم المتنبى . على أن الحملة الحقيقية التى خضع لها الطابع القومى المصرى جاءت فى أعقاب الغزو التركى ومن بعده فى فترة الاحتلال البريطانى .

مثل واضح يعبر عن ذلك ما كتبه المؤلف الانجليزى لان **Lane** عن الطابع القومى المصرى فى مؤلفه الذى أصدره فى أوائل القرن العشرين «عادات وتقاليد مصر الحديثة». الغريب أن هذا الكتاب وجد رواجاً عجيباً من جانب كل من تعرض لتحليل تاريخ

---

(١) فادن مارتينِدال ، م . س . ذ . ، ص ٢٣١ وما بعدها .

(٢) انظر تفاصيل وإحالات فى :
CHILDERS. The road to Suez, 1962, p. 25, p. 60-61

مصر رغم أن التشويه والكذب إن لم تكن المبالغة كانت خصائص واضحة فى كتابات ذلك المؤلف. ولا تزال هذه الكتابات حتى هذه اللحظة تجد من المؤرخين الثقاة من يحيل أو ينقل أفكار هذا الكاتب دون تحقيق ودون روية[١] . وليس آخرهم القائد البريطانى جلوب باشا الذى أصدر مؤلفه عام ١٩٥٩ بعنوان « بريطانيا والعرب » فلم يتردد فى نقل أفكار هذا المؤلف كاملة رغم أن حياته الطويلة فى منطقة الشرق الأوسط كان ولا بد أن تصحح أفكاره[٢]. وساعد على حملة التشويه هذه عوامل عديدة استغلتها أبواق الدعاية الصهيونية خلال العشرة أعوام الأخيرة استغلالا لم يسبق له مثيل .

تشويه الطابع القومى المصرى بما تضمنه من مبالغات وأكاذيب يفرض على الفقه السياسى المصرى أبعاد معينة للتحليل :

أولا : ما هى أسباب وعوامل تشويه الطابع القومى المصرى فى الأدب والكتابات الغربية من قصص وتاريخ وفلسفة ؟

ثانياً : كيف أن هذا التشويه لم يقتصر على القرن التاسع عشر وكيف أنه أقدم من ذلك وأكثر تغلغلا فى التاريخ الوسيط والقديم ؟

ثالثاً : ما هو أثر هذا التشويه فى تكوين الصورة القومية لمصر[٣] وللطابع القومى المصرى فى الرأى العام الغربى ؟

رابعاً : كيف نستطيع الرد على عملية التشويه هذه بابراز الحقائق واسقاط الأباطيل والأكاذيب التى أحاطت بتقاليدنا الحضارية وطابعنا القومى ؟

§ ٢٩ – ملامح وخصائص الطابع القومى المصرى :

تحليل الطابع القومى المصرى يجب أن ننظر إليه على أنه حقيقة متكاملة بها من العيوب الكثير ولكن بها أيضاً من المزايا الكثير . الطابع القومى بصفة عامة هو حقيقة ديناميكية وكل صفة من صفاته لو جردت عن الصفات الأخرى وعن الواقع التجريبى المرتبط بتلك الصفة فمن الممكن أن ينظر إليها على أنها مظهر من مظاهر القوة كما أنها يمكن أن ينظر إليها على أنها مظهر من مظاهر الضعف . فالمسالمة مثلا التى قد تبلغ حد

---

(١) LANE, The manners and customs of the modern Egyptians, 1908, p. 283.

(٢) GLUBB, Britain and the Arabs, 1959, p. 196

(٣) HAMADY, Temperament and character of the Arabs, 1960, p. 26.

السلبية قد توصف بأنها جبن ولكنها قد توصف فى موقف آخر بأنها صبر ومرونة : ومن ثم فتحليل الطابع القومى المصرى يجب أن يخضع لتلك الدراسة العلمية التى وحدها بأساليبها التجريبية تسمح باكتشاف حقيقة خصائصه ومدلول مقوماته . وإذا كانت كل مشكلة لها أسلوبها ومنهاجها فكذلك مشكلة الطابع القومى المصرى تفرض أسلوباً ومنهاجاً يسمح بتحقيق الغايات السابق ذكرها ولكن يعكس أيضاً طبيعة تلك المشكلة(١).

(أ) ما هى المبادئ التى يجب أن تتحكم فى تحليل ظاهرة الطابع القومى المصرى ؟ بطبيعة الحال يتعين علينا أن ننتفع بالتراث الضخم الذى يقدمه لنا الفقه الغربى بخصوص منهاجية التحليل وهذا يفرض علينا أن نتذكر أن تحليل ظاهرة الطابع القومى المصرى يجب أن تسير فى أبعاد ثلاث :

أولا : تعدد مسالك التحليل . ونقصد بذلك أن تحليل الطابع القومى المصرى يجب ألا يكتفى بأسلوب واحد من أساليب التحليل وهذا مبدأ تفرضه طبيعة التحليل السياسى. فنحن نعلم أن التحليل السياسى بحكم طبيعة الظاهرة السياسية لا يقبل أن يصل إلى معرفة الحقيقة من باب واحد أو من نافذة واحدة وإنما عليه أن يلقى بالأضواء من جميع المسالك(٢). علماء تحليل الطابع القومى يذكروننا بأن هناك خمسة مسالك للتحليل كل منها لها أهميتها وكل منها لها خصائصها :

١ ــ الملاحظة الحقلية أى ملاحظة الوجود الفردى فى حياته اليومية(٣).

٢ ــ التحليل المباشر الاكلينيكى أى دراسة الحالات المرضية بقصد اكتشاف العقد التاريخية وما يرتبط بها من شذوذ سلوكى(٤).

٣ ــ الملاحظة الجماعية أى الملاحظة سواء كانت مفتعلة أم غير مفتعلة للجماعات الفرعية أو الجزئية فى ديناميتها المتشعبة والمتتابعة(٥).

٤ ــ التحليل التاريخى أى المتابعة الزمنية للوقائع والنظم من حيث تكرارها وثباتها عندما تتعدد النماذج مع وحدة الدلالة المرتبطة بمفهوم الموقف(٦).

---

(١) انظر محاضراتنا فى نظرية الرأى العام ، كلية الاقتصاد ، السنة الرابعة ، ١٩٦٨ .

(٢) حامد ربيع ، نظرية التحليل السياسى ، م . س . ذ . ، ص ٩٣ .

(٣) Field observation

(٤) Direct clinical analysis

(٥) Mass observation

(٦) Historical analysis

٥ ـ تحليل المضمون بمعنى البحث عن الحقائق الفكرية الخفية من خلال التعبيرات الرمزية[1] :

ثانياً : أن التحليل يجب أن يتجه إلى الحاضر أو الفترة المعاصرة وكذلك إلى الماضى فى سعينا للاجابة عن ذلك السؤال الخطير الذى لم يجد بعد إجابة شافية : وحدة شخصية مصر من عدمها . وهنا يجب أن يكون واضحاً فى أذهاننا أن التحليل يجب أن يسير فى مسلكين : مسلك تجميع وتحليل الوثائق التاريخية من جانب ثم مسلك تفسير أحداث وخصائص التاريخ القومى من جانب آخر .

ثالثاً : هذا فضلا عن أن غايتنا وهى كشف الطابع القومى من حيث خصائصه يجب ألا تنسينا تحليل الصورة القومية للكشف عن مستويات وأبعاد التشويه أو عدمه الذى أشرنا إليه مقدماً . وفى هذا الصدد يجب ألا نقتصر على التحليل المكتبى بل يجب أن يتعدى ذلك إلى إجراء أبحاث ميدانية فى الداخل والخارج للكشف عن حقيقة أبعاد المشكلة .

(ب) رغم ذلك ففى محاولة يعيبها كل ما سبق وأوضحناه من نواحى النقص فى تحليل الطابع القومى المصرى وبصفة خاصة من حيث كونها لا تستند إلى التحليل الميدانى والبحث التجريبى المتكامل نستطيع أن نحدد الخصائص السلوكية للمصرى العادى أساساً فى السمات العشر الآتية :

١ ـ التعلق بالأسرة : المصرى منذ أقدم العصور يؤمن بالأسرة وبتكامل الأسرة مع ما يستتبعه ذلك من نتائج مختلفة فى علاقاته الاجتماعية وقيمه الحضارية . يعبر عن ذلك فى تماثيله وتحفه فى العصر الفرعونى ويظل حتى اليوم لا يرى خيراً من الأسرة العديدة الكثيرة الانجاب مظهراً من مظاهر التعبير عن هيبته الاجتماعية . لم يعرف فى تاريخه الطويل أى فترة من فترات الإباحية والتفكك فى علاقات الأسرة . ولا يزال حتى هذه اللحظة رغم تطرق القيم والتقاليد الغربية يحافظ على هذا التعلق ويتمسك به[2] .

٢ ـ المنطق الواقعى : المصرى عملى فى تفكيره . مباشر فى أهدافه حتى عندما تكون امكانياته محدودة . واقعيته ترتفع إلى حد السلبية . يحدثنا بعض من عاصر نابليون

---

(١) Content analysis.

(٢) أحمد بهجت ، الحب والزواج على الطريقة المصرية ، الأهرام ١٢ - ١ - ١٩٦٨ .

بونابرت عن المصريين الذين كانوا يلعبون النرد أثناء قصف أهرام الجيزة وأبو الهول بالمدافع .

٣ ــ الصبر والمسالمة : الفلاح المصرى خير من يعبر عن هذه الصفة . علاقته بالأرض فرضت عليه تلك السمة. تاريخه الطويل مع ما ارتبط به من حكم دخيل جعل من هذه السمة أحد ملامحه المميزة .

٤ ــ الدعابة وحب النكتة : عرف منذ أقدم العصور بخفة روحه واستعداده لأن ينقل الموقف المتأزم إلى فكاهة . لم يترك زعيما دون أن يسخر منه بأسلوب غير مباشر مؤكداً بهذا قدرته على أن يخلق الرأى العام الحقيقى ولكن فى نفس الوقت عدم استطاعته على أن ينقل هذا الرأى العام من صورته الباطنة إلى صورته الصريحة[١] .

٥ ــ احترام الموت : فالمصرى منذ العصر الفرعونى نظر إلى الموت فى مهابة وجلال تميزه عن أى مجتمع آخر وفى الوقت الذى كان ينظر فيه إلى تلك الواقعة على أنها بداية رحلة جديدة يعد لها كالزواج بعناية خاصة فان شعوباً أخرى كانت تنظر إلى الموت على أنه خاتمة للوجود تبرر حرق الجثة وبذر رمادها فى الهواء .

٦ ــ عظمة الاستجابة للوعى الدينى : المصرى عرف دائماً باحترامه للدين ولو احتراماً شكلياً وتقيده بتعاليمه حتى ولو لم ينبع ذلك من الوعى الباطن . وحتى هذه اللحظة لا يزال المصرى العادى يلجأ بشكواه إلى الأولياء[٢] .

٧ ــ محافظ بطبيعته : المصرى يرفض التجديد. فى أسلوب معيشته فى القرى يكرر نفسه منذ ٦ آلاف عام . لم يعرف الثورات بمعنى الحركات التخريبية . أى اتجاه سياسى متطرف لا بد وأن ينتهى بالتفتت .

٨ ــ قدرته على الاستيعاب الحضارى : فأى حقيقة حضارية دخلت أرضه استطاع أن يصهرها فى ذاته دون أن يذوب هو ذاتياً فى تلك الحضارة . وحتى الحضارة الإسلامية

---

(١) نعمات أحمد فؤاد ، شخصية مصر فى الأدب الشعبى ، فى لويس مليكه ، قراءات ، جزء ثانى ، م . س . ذ . ، ص ٥٤٥ .

(٢) سيد عويس ، ظاهرة الموت فى حياة المصريين ، فى الفكر المعاصر ، أبريل ١٩٦٩ ، عدد رقم ٥٠ ، ص ٦٩ .

تشكلت بواقعه وعبرت عن خصائصه فى بعض منحنياتها كما سبق ورأينا بخصوص مذهب الشافعى .

٩ ــ التكامل القومى: فمصر لم تعرف فى تاريخها الطويل أى تفتت نظامى. لم تتجزأ ولم تنقسم. حتى فى فترة حكم المماليك حيث كان الطبيعى أن تصل مصر إلى ذلك الوضع ظلت فى إطارها الهيكلى حقيقة واحدة .

١٠ ــ عبادة السلطة : فالمصرى لا يحترم فقط السلطة وإنما يعبد السلطة وكل ما يأتى من السلطة وسواء كان ذلك مرده نظامه الجغرافى وأوضاع طبيعة المكان أو كان ذلك مرده طبيعة تكوينه النفسى أو كانت تلك الحقيقة خلاصة عوامل متعددة فان الظاهرة لا موضع للمناقشة فى صحتها كأحد السمات العامة التى تميز المصرى فى جميع مراحل تاريخه[١] .

---

(١) قارن لويس كامل مليكه ، الشخصية البدوية ، فى قراءات ، م . س . ذ . ، جزء ثان ، ص ٥٥٢ وما بعدها .

المبحث الثالث

دراسة الطابع القومى اليهودى

§ ٣٠ ـ الطابع القومى اليهودى : بين التشويه والتأليه :

ليس هذا موضع الدراسة التفصيلية للطابع القومى اليهودى . رغم ذلك فان التعرض له بايجاز تفرضه طبيعة الصراع الذى يسيطر على المنطقة فضلا عن عملية المقارنة التى قادتنا إليها دراسة ظاهرة الطابع القومى المصرى . فالطابع القومى اليهودى كالطابع القومى المصرى خضع بدوره لعملية تشويه مستمرة سيطرت على تطور مفهوم اليهودى بصفة خاصة خلال العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر . ولكن رغم ذلك فان هذا الطابع القومى ومنذ وجود إسرائيل خضع من جانب آخر لعملية تنظيف مستمرة انتهت به اليوم إلى أن يصير معبراً عن نوع من المبالغة العكسية أخذ صورة التأليه المفتعل والذى خلف فى بعض الأحيان نوعاً من الشعور بالاستفزاز فى الرأى العام الأوربى(١) .

(أ) فشخصية اليهودى التائه التى تدور بين الانتقال من موقف المذنب إلى موقف المتذمر ، من موقف الخاطىء إلى موقف المعذب ، هى أحد عناصر الأسطورة التى تكونت خلال الأجيال المتعاقبة فى الوعاء اللاشعورى فى المنطق الجماعى الأوربى . وهكذا كان اليهودى يتميز بالصفات الآتية :

١ ـ هو شخصية لا تأتى إلا مع العواصف : هذه السمة تراكمت خلال العصور الوسطى حيث كان مجىء اليهودى فى الإمارات الاقطاعية يرتبط بلحظات وضع حد للاضطراب المالى فى الإمارة عندما يلجأ الحاكم لأحد اليهود لتنظيم الأوضاع المالية . وكان يعقب ذلك فى العادة فرض ضرائب جديدة(٢) .

٢ ـ هو شخصية تجلب النحس والدمار : عبر عن ذلك شكسبير فى أكثر من قصة

---

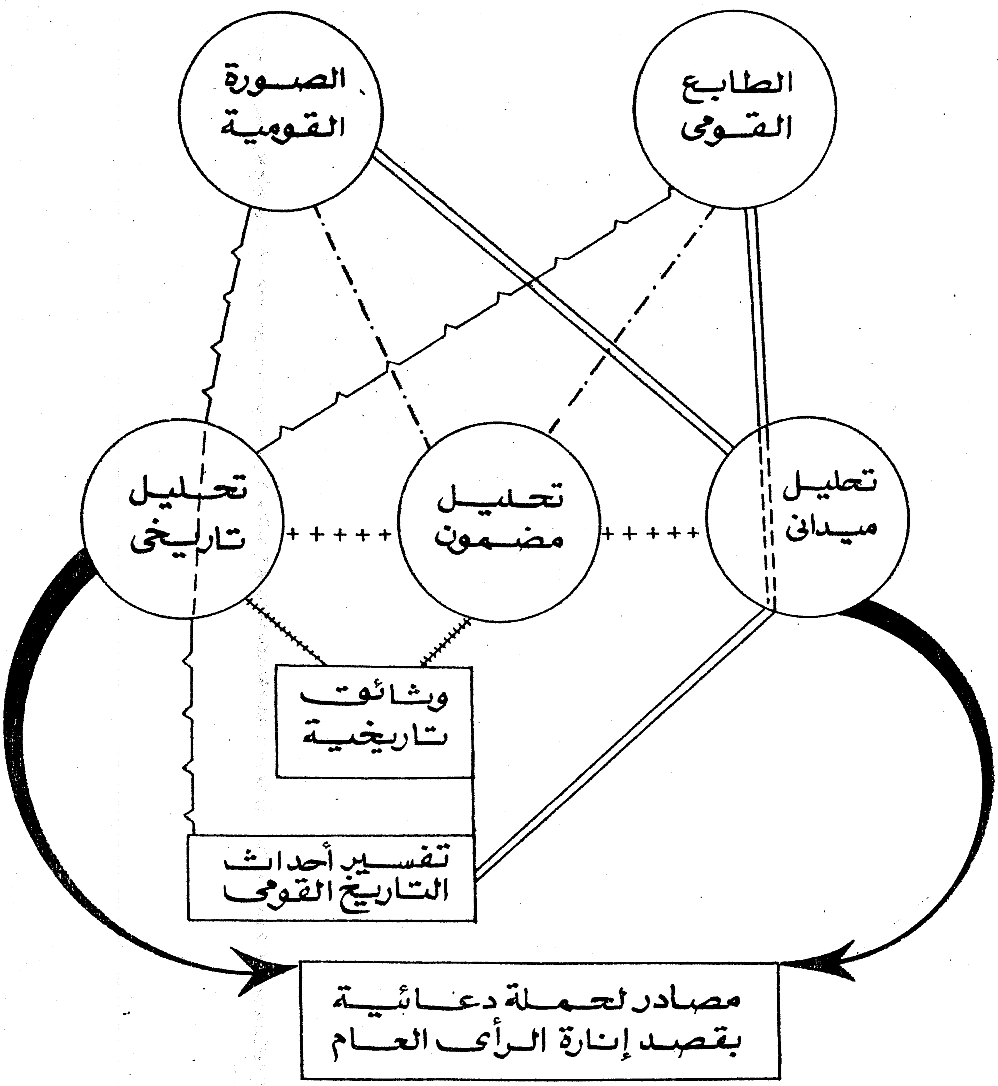
(١) حامد ربيع ، فلسفة الدعاية ، م . س . ذ . ، ص ١٩١ ، ٢١٩ .

(٢) قارن أيضاً حول التطورات المعاصرة :

ZWEIG, Israel : the sword and the harp, 1969, p. 36

شكل رقم « ٨ »

الطابع القومى وأبعاد التحليل العلمى



واحدة . هذه الصفة ترتبط بالصفة السابقة وتتفرع عنها ولكنها أكثر اتساعاً وأكثر شمولية . فدخول اليهودى فى الأسرة الكاثوليكية كان يعتبر أحد الكوارث التى يخشاها الأوربى ويعمل لها كل حساب .

٣ ــ يتصف بالازدواج فى شخصيته فهو مخيف من جانب وقنوع من جانب آخر : وهو فقير فى أحيان ولكنه يحب المال ويظهر غنياً فى أحيان أخرى . راض بالعقاب الذى نزل به منذ الخطيئة الأولى ولكنه شكاك ومتذمر ومتربص لتحقيق تمرده وثورته فى أحيان أخرى .

٤ ــ يمتاز بالإباحية المطلقة ويتجلى ذلك فى أكثر من نموذج واحد من النماذج السلوكية سواء المرتبطة بالعلاقة بين الجنسين أو تلك المتعلقة بأسباب التحريم بالنسبة للعلاقة الزوجية .

٥ ــ عبادة المال فهو يجرى وراء المنفعة المادية وحياته ونشاطه تتركز حولها . استطاع أن يسيطر على جميع مراكز القوى الاقتصادية فى العالم الغربى بصبر وثبات(١) .

٦ ــ عدم الولاء . فاليهودى لا يعرف الولاء إلا لعشيرته ولماله ولكنه لم يستطع بل يمكن القول أنه رفض أى علاقة للولاء مع المجتمعات السياسية التى عاش فيها وحتى عندما منحته جميع الحقوق وسوت بينه وبين غيره من الأقليات .

٧ ــ الانعزالية أو رفض الاندماج : فاليهودى ظل رغم الأجيال الطويلة التى عاشها فى المجتمعات الغربية يرفض أى صورة من صور الاندماج مع المجتمع المحلى . ورغم نمو الحريات المعطاه لليهود وتزايد فرص التداخل فى المجتمع الأوربى ابتداء من الثورة الفرنسية إلا أن اليهودى رفض أن يندمج اندماجاً حقيقياً وأن يحطم الحواجز التى تقف عقبة بينه وبين المجتمع القومى . وحتى هذه اللحظة لا يزال يرفض الزواج المختلط لأنه يرى فيه أحد ملامح التخلى عن تلك الانعزالية التى لا بد وأن تقوده فى النهاية إلى اختفاء الصفات القومية للمجتمع اليهودى(٢) .

(ب) فى أعقاب عام ١٩٦٧ أحد الأهداف التى قامت عليها السياسة الخارجية الإسرائيلية وابتداء من وجود الدولة الإسرائيلية بصفة عامة هى السعى نحو القيام بعملية تنظيف كاملة ومستمرة للطابع القومى اليهودى كما سبق وأبرزنا ملامحه . استندت الدعاية الإسرائيلية بهذا الخصوص إلى مداخل فكرية ثلاثة :

---

(١) MEMMI, Portrait of a Jew, 1962, p. 82

(٢) STEMBER, Jews in the mind of America, 1966, p. 197

أولا : الحقيقة الإنسانية التي تستتر خلف الوجود اليهودى .

ثانياً : فضل الوجود اليهودى على الحضارة الغربية .

ثالثاً : النبوغ اليهودى .

وإذا كان هذا ليس موضع تفصيل هذه النواحى المختلفة فالأمر الذى لا شك فيه أن نجاح الدولة الإسرائيلية دولياً وعسكرياً مكن من تأكيد هذه العملية ونجاح الدعاية الإسرائيلية فى تنظيف الصورة القومية اليهودية فىالعالم الغربى . لم يعد اليهودى شخصاً أنانياً لا يتردد فى أن يلجأ إلى أحط الوسائل فى سبيل تحقيق رغباته بل أضحى يقدم على أنه شخص مثالى يضحى بكل شىء فى سبيل قيمه ومعتقداته . وهكذا انتقلنا من مرحلة تشويه الطابع القومى اليهودى إلى مرحلة أخرى نستطيع أن نصفها بأنها مرحلة تأليه الصورة القومية الإسرائيلية وهى المرحلة التى نعيشها والتى لم يحن الوقت لأن يقول العلم كلمته بخصوصها(1) .

*** حالة رقم ١٠ : خصائص الطابع القومى والتعبيرات الفنية والأدبية :

أحد مسالك المعرفة بالطابع القومى هو دراسة التعبيرات الفنية بما فى ذلك الموسيقى والنحت ، فضلا عن الأدب . مما لا شك فيه أن ما خلفه لنا مثلا المجتمع اليونانى لو قورن بما خلفه المجتمع الفرعونى لأبرز كل منهما خصائص مختلفة تعكس طابعاً قومياً مختلفاً . فالانسجام فى الملامح والدقة فى التعبير والتجانس فى الأحجام فى الفن اليونانى تقابله ضخامة وصرامة مع بساطة فى الفن الفرعونى : رغم ذلك فثل هذه الدراسة لا يمكن أن تكون علمية بالمعنى التقليدى . فهى تخضع لمعايير مطلقة ولا تعكس التحاماً مباشراً بالظاهرة .

على أن هناك ناحية أخرى من الممكن أن تخضع لهذه المواصفات وهى تحليل الفن الأدبى ، بفضل ما يسمى بتحليل المضمون . ورغم أنه أسلوب لا يزال موضع المناقشة كما سوف نرى فيما بعد بخصوص المنهاجية السلوكية إذ لم يستطع أن يرقى لأن يقدم نتائج مطلقة للكشف عن الحقيقة إلا أنه جدير بأن يمكننا من تحليل مختلف التعبيرات الأدبية وما فى حكمها كالأمثال الشعبية أو القصص المتداولة . والدراسة فى تلك اللحظة تصير على قسط معين من الدقة التى لا موضع للمناقشة فى علميتها .

على أن دراسة الطابع القومى من حيث علاقته بالفكر الأدبى لها أبعاد أخرى جديرة بالاهتمام . فهى ليست فقط وسيلة لاكتشاف الطابع القومى بل هى أيضاً وسيلة للتأثير فى أبعاد الصورة القومية . ولنحدد مدلول هذه التفرقة وهذه الوظائف من خلال النماذج .

(ا) فالطابع القومى المصرى تمت دراسته ومتابعة تطوراته من جانب السلطات الإسرائيلية من خلال أكثر من تعبير أدبى واحد ، وبصفة خاصة كما نعلم من بعض البيانات المتداولة ، من خلال ثلاثية نجيب

---

(١) ELON, Les Israéliens, portrait d'un peuple, 1972, p. 263

محفوظ(١). ولعله ليس مما يسمح به هذا المكان الخوض فى هذه الناحية ، إلا أن الأثر الذى لا شك فيه أن هذه الثلاثية تعكس بصورة دقيقة أزمة الاعتقاد أو مرحلة الشك والقلق والضياع التى عاناها جيل المثقفين المصريين خلال فترة ما بين الحربين . فكمال عبد الجواد هو ممثل لجيل بعينه وصفه نجيب محفوظ بقوله « كمال يعكس أزمتى الفكرية ، وكانت أزمة جيل فيما أعتقد » وكمال يردد « نحن جيل الأزمة ، نحن جيل كللت أيامه بالسواد » ولو وسعنا هذا المفهوم فإننا نستطيع من خلال الآثار الأدبية المتداولة اكتشاف الخصائص التاريخية للطابع القومى . فألف ليلة وليلة وغيرها مما فى حكمها مادة خصبة جديرة بالتحليل والدراسة العلمية الجادة من هذه الناحية .

(ب) كذلك من الممكن دراسة واكتشاف أبعاد الصورة القومية فى مجتمع أجنبى من خلال دراسة الآثار الأدبية فى ذلك المجتمع المتداولة والذائعة الانتشار المرتبطة بالطابع القومى موضع التساؤل ، بعبارة أخرى للاجابة على السؤال : كيف يتصورون مجتمع معين ؟ نستطيع من بين الأدوات التى من الممكن أن نلجأ إليها لاكتشاف تلك الدلالة أن نقوم بتحليل القصص والآثار الفنية ذات الأهمية الخاصة والمرتبطة بتلك الناحية . أدب الرحلات مصدر خصب بهذا الخصوص . ونستطيع أن نذكر على سبيل المثال بخصوص الطابع القومى المصرى الرباعية المشهورة لدوريل(٢). فهذه القصة ذات الأجزاء الأربعة تقدم صورة واضحة لمجتمع الإسكندرية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بكل ما يتضمنه ذلك المجتمع من قوة وضعف . إنها دراسة تعكس كيف فهم وكيف شاهد إنجليزى يقيم فى تلك المدينة المجتمع المحلى بجميع طبقاته وفئاته ، بجميع مشاكله ، آلامه وأحلامه ، شخصية نسيم ، وخصائص ليلى ليست إلا صور متحركة للمجتمع السياسى الذى عاشه الكاتب والذى من خلاله تصور المجتمع الغربى مجتمع تلك المدينة ، صدقاً كان أم كذباً .

(ج) وإذا نقلنا هذه المفاهيم إلى حيز الحركة لاستطعنا أن نتصور كيف يمكن استخدام الصورة القومية كأداة للحركة الدعائية أو لحملة التشويه أو عكسها . هكذا فعلت إسرائيل بخصوص الطابع القومى العربى . وليس علينا لنتأكد من هذه الحقيقة سوى أن نعود إلى بعض الكتابات الأدبية الصادرة فى خلال الأعوام الأخيرة لنقارنها عقب أن نخضعها لعمليه تحليل المضمون السابق ذكرها . وإذا كان هذا المجال لا يتسع للافاضة فلنذكر على سبيل المثال الكاتب الصهيونى أوريس(٣). مؤلفاته الثلاث الأكثر شهرة تعكس بوضوح تطور التخطيط الدعائى الإسرائيلى فى خلق شحنة من الكراهية والاحتقار للطابع القومى العربى . أول هذه المؤلفات باسم اكزوديس أو الهجرة صدر فى أعقاب إنشاء إسرائيل . ثم عقب ذلك بحوالى عشرة أعوام أصدر نفس الكاتب كتابه الثانى بعنوان ميلا ١٨ . وفى أعقاب حرب الأيام الستة خرج علينا بكتاب ثالث يحمل عنواناً ليس فى حاجة إلى دلالة : إضربى يا صهيون . ورغم أن الدراسة العلمية الكاملة لقياس نتائج هذه المؤلفات لم يقدر لها بعد التكامل ، إلا أن جميع المتصلين بالرأى العام الأوربى يجمعون على أن هذه الآثار الثلاث أحدثت ما كان لا يمكن أن تحدثه حملة كاملة من الدعاية لصالح القضية الصهيونية(٤).

---

(١) The Jewish Journal of Sociology, 1969, p. 293

(٢) Durrell : Justine, Balthazar, Cléa, Mountolive.

(٣) Uris : Exodus, Mila 18, Strike Zion.

(٤) الفريد ليلنتال ، إسرائيل ذلك الدولار الزائف ، ١٩٦٥ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

وهى لم تقتصر على تشويه الطابع القومى العربى، بل تعدت ذلك إلى تنظيف الطابع القومى اليهودى، بل وصلت الكتابات الأخيرة إلى حد تأليه ذلك الطابع .

إن الأدب أضحى اليوم أداة حاسمة فى عملية تشويه أو تنظيف الطابع القومى . بدأها النظام النازى . فعندما أراد أن يعد الرأى العام الألمانى لحركاته المشهورة كان خير مقدمة لذلك القصة المعروفة للكاتب الجرمانى « فويخت فانجر »(١) ، بعنوان « سوس اليهودى » . طبعت مئات الطبعات ووزعت فى كل مكان حتى أنها أضحت فى لحظة معينة فى يد كل مواطن ألمانى . فى أعقاب الحرب العالمية الثانية جاء دور إسرائيل لتقوم بنفس العملية(٢). ويجدر بنا أن نذكر فى هذا الخصوص قصص أربع كان لكل منها دورها الفعال فى هذه الناحية . بدأت أولا بيوميات أنا فرانك : ذكريات فتاة قدر لها أن ترى أسرتها تسحق تحت وطأة الاعتداء النازى وأن تنتهى بدورها إلى نفس المصير . ثم أعقبتها بتمثيلية الرسول للكاتب اليهودى هوشن هوت حيث أمسك بتلابيب البابا يعيد التساؤل عن مسئوليته التاريخية أثناء عملية الإبادة الجماعية : وما كان يمكن أن يترك أوريس السابق ذكره دون أن يتدخل فى تلك العملية . فى عام ١٩٦٤ صدرت له قصة أرمجيدون حيث يصف لنا الصراع النفسى لضابط أمريكى فى سبيل حبه لفتاة عبرية . وتبلغ هذه العملية القمة فى القصة التى لا تزال تتداولها الأيدى فى جميع أنحاء أوربا للكاتب الآخر سان لوب بعنوان دم إسرائيل(٣).

(د) على أنه من الممكن تصور وظيفة رابعة أخرى للفن الأدبى فى دراسة الطابع القومى وذلك عندما يتجه الفكر المحلى لإعادة كتابه تاريخه وتحليل طابع الأمة التاريخى وابراز الأبطال أو من فى حكمهم كصورة معبرة عن التقاليد القومية المحلية وتأكيداً لعظمة الشعب التاريخية . النماذج هنا لا حصر لها . فتاريخ الأدب الأوربى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ليس إلا صورة لتلك الحقيقة . وما كان من الممكن أن تدع الدعاية الإسرائيلية بدورها هذه الناحية دون عناية . أحد الكتاب الذين يقومون بهذه العملية بصورة تكاد تكون علنية وصريحة الصحفى الإسرائيلى بار زوهار رئيس إدارة الصحافة بوزارة الدفاع الإسرائيلية . من بين مؤلفاته المشهورة بهذا الخصوص مؤلف « المنتقمون » ثم مؤلف « غامرت بحياتى » . كذلك نستطيع أن نضيف إلى ذلك المؤلف الأشهر الفرنسى الجنسية « ستاينبرج » . ومن أشهر ما كتب مؤلفه « ثورة رجال العدالة »(٥).

---

(١) FEUCHTWANGER

(٢) Het Achterhuis

(٣) وهذه أسماء المؤلفات الأربع بالترتيب الذى وردت به فى النص :

1. — Het Achterhuis
2. — Der Stellvertreter — Hochhuth.
3. — Armageddon — Uris.
4. — Le sang d'Israël — Saint-Loup

الأول والثانى نشرا باللغة الألمانية والثالث بالانجليزية والرابع بالفرنسية ولكن توجد للجميع تراجم عديدة بجميع اللغات الأخرى .

(٤) انظر أيضاً :

MEMMI, The liberation of the Jew, 1966, p. 107.

(٥) BAR ZOHAR, Les vengeurs, 1968 ; J'ai risqué ma vie, 1971 ; STEINBERG, La révolte des justes, Les Juifs contre Hitler, 1970.

ويتصل بهذا ويرتبط به موضوع آخر قد يبدو بعيداً عن النواحى السلوكية ولكنه فى الواقع تأكيد لذلك الطابع العام الذى يسيطر على هذه الثقافة فى هذه اللحظة وهو الأبعاد الحركية لتلك الدراسات . ونقصد بذلك موضوع إعادة تشكيل الطابع القومى .

قد يبدو أن هذا الموضوع يرتبط بوظيفة الدولة العقائدية ومن ثم يبعد عن دراسة الناحية السلوكية . ولكن أيضاً هذه النظرة تعكس قصوراً فى النظر ، ومع كل فلنقف أمام النواحى العملية المرتبطة بهذه المشكلة .

من المعروف أن المجتمع اليهودى اليوم يواجه مشكلة عنيفة أساسها تعدد الأقليات المحلية(١). ورغم أن هذا الموضوع تحيط به الكثير من العناصر السرية إلا أننا نعلم دون شك أن الدولة العبرية أقامت استناداً إلى خبرائها النفسيين والسلوكيين ما يسمى بمدرسة «أوليان» حيث تستقبل المهاجرين الجدد لتخضعهم لعملية تحويل وعملية ارتباط وانتماء ممهدة بذلك لما يوصف بأنه الطابع القومى الإسرائيلى(٢). هذه العملية لها أصول فكرية تمتد من حيث مصادرها العلمية إلى أفكار يونج عالم علم النفس الشهير الذى يعرف العملية بأنها علاج التحويل أو علاج العهد والوعد ويقصد بذلك الشخص الذى كان ينتمى إلى عقيدة معينة ثم يتحول إلى عقيدة أخرى جديدة . فى تلك المدرسة يتلقف الخبراء المهاجرين الجدد ويخضعونهم لنوع من التحويل العقيدى والاقلمة الحضارية ، أساسها معاملة هؤلاء بغض النظر عن عامل السن كما لو كانوا أطفالا فى حاجة إلى الثقافة والتوجيه والتدريب . وهكذا يتعلم اللغة العبرية ، الأغانى الجديدة وكل ما يتصل بالتنشئة الاجتماعية بحيث يخضع الفرد لعملية نفسية كاملة أساسها الاكتشاف الذاتى والمتابعة الخلاقة السريعة المفتعلة ابتداء من مرحلة الطفولة حتى مرحلة النضج . وهكذا يتعين عليه ، خاضعاً فى هذا لقيادة موجهة أن يكتشف نفسه وأن يكتشف وضعه الجديد وعالمه الجديد وبحيث يتخلص من جميع العقد القديمة . هذه العملية التى تتضمن أيضاً تحويلا ذاتياً واكتشافاً للذات الفردية بمعنى أنها تقابل بين سياسة معينة مخططة وهى سياسة الدولة العبرية وإرادة فردية للتخلص من وضع قديم واكتساب وضع جديد تقود إلى الكثير من النتائج ، البعض منها يؤدى فى بعض الحالات إلى نوع من انفصام الشخصية . ويحدثنا أحد العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة ، وعاشوا تجربتها لفترة غير قصيرة(٣)، بأن هذا الانفصام الذى مرده نوع من الشعور بالذنب يتوقف على عاملين: الأول عنصر السن والثانى عنصر الانتماء السابق قبل الهجرة إلى إسرائيل . فكلما تقدم عامل السن ازدادت احتمالات هذه الظاهرة . من جانب آخر فان اليهودى الانجليزى أو الأمريكى بصفة خاصة أى الذى يأتى من مجتمع يمتاز بالانفتاح وتقبل اندماج العنصر اليهودى لا يستطيع أن يواجه هذه العملية بنفس مستوى اليهودى الآخر . ولعله من قبيل الاستطراد والخروج عن الموضوع بأن السياسة الإسرائيلية على هذا النحو حتى مع التسليم بدقة ملاحظات العالم السابق الإشارة إليه ، زفايج ، لا بد وأن تنتهى بالنجاح الكامل . فهى لا تتجه بهذه العملية إلا أساساً إلى اليهود الشرقيين أى أولئك الذين لم يقدر لهم الاندماج الحقيقى والذين يرغبون فى التخلص ولو لاشعورياً من ذكريات الفترة السابقة على الهجرة . وهى من جانب آخر تريد أن تزرع بذور الطابع القومى الإسرائيلى كامتداد وتعبير عن تقاليد الحضارة الغربية(٤).

---

(١) SELZER, The Organization of the Jewish State, 1967, p. 51

(٢) Ulpan

(٣) المعلومات أوردها زفايج ، م. س. ذ. ، ص ٦٦ .

(٤) قارن نفس المرجع ، ص ٦٨ — ٦٩ .

ترى هل نستطيع نحن علماء التحليل السلوكى أن نحاول على ضوء هذه الخبرة أن نعيد تشكيل الطابع القومى العربى ؟ سؤال نترك للأعوام القادمة أن تجيب عليه .

على أن هذا لا يمنعنا من أن نختم هذه الدراسة ببعض الملاحظات :

أولا : أن أحد الأسس التى يجب أن نبنى عليها عملية إعداد السياسة الخارجية هى فهم ظاهرة الطابع القومى ويكفى لتأكيد ذلك أن نتذكر كيف نجحت السياسة الأمريكية حيث لجأت إلى هذا الأسلوب بينما أخفقت أسلحة المخابرات الأمريكية حيث لم تدخل هذا العنصر فى تقديراتها وتجعله أحد منطلقاتها فى تخطيط أبعاد حركتها السياسية[1].

ثانياً : كذلك يجب أن نتذكر أن دراسة الطابع القومى المحلى هو أحد الأسس التى يجب أن تقوم عليها عملية إعداد الدعاية الخارجية فى صياغة اللغة الدعائية . أحد أسباب نجاح الدعاية الإسرائيلية هى أنها تحدث كلا بمنطقه وكلا بلغته وكلا استناداً إلى نماذجه السلوكية .

ثالثاً : كذلك يجب أن نتذكر أن عملية تشويه الطابع القومى المصرى أبعد وأكثر خطورة من أن نتركها دون دراسة جدية . ويكفى أن نتذكر أن أحد أسباب نجاح الدعاية الإسرائيلية هى أنها جعلت تشويه الطابع القومى المصرى والعربى بصفة عامة أحد الأدوات التى تعد بها المنطق الأجنبى لاستقبال منطقها الدعائى وتقبل وجودها فى منطقة الشرق الأوسط .

وهنا نلحظ أن الطابع القومى العربى بصفة عامة يرتبط بخلفية تاريخية من التشويه استقرت وتراكمت فى الوعى الجماعى الغربى . فمفاهيم ألف ليلة وليلة والاعتقاد بأن العربى أصيل فى استرخائه وكسله وأنه مزيج من الترف والمكر والخداع الممزوج بالقسوة لا بد وأن تضيف عناصر جديدة لتقوية حملة التشويه التى تشنها الدعاية الإسرائيلية بلا رحمة وبلا توقف[2].

---

(١) حامد ربيع ، فلسفة الدعاية ، م . س . ذ . ، ص ١٨٧ .

(٢) م . س . ذ . ، ص ١٨٩ .

الفصل الثانى

ظاهرة الرأى العام

خلاصة : التعريف بظاهرة الرأى العام : مقومات الظاهرة وتطبيقاتها – التحليل السلوكى وظاهرة الرأى العام – اصطلاح الرأى العام وأخفاقه فى التعبير عن الظاهرة – تحليل المفهوم ومقوماته الفكرية – عناصر الظاهرة وموقف المدارس الفكرية المختلفة – مراحل تطور ظاهرة الرأى العام – تحليل ظاهرة الرأى العام – منهاج الحصة واختيار العينة – أسلوب العينة المساحية – استخدام الأسلوب التكرارى فى أبحاث الرأى العام – ظاهرة الرأى العام والمجتمعات المتخلفة – أبحاث الرأى العام فى المجتمعات النامية – عملية الدعاية وتغيير اتجاهات الرأى العام – ظاهرة الرأى العام بين الدعاية والإعلام والحرب النفسية .

• • •

١ - المراجع بالنسبة لظاهرة الرأى العام عديدة لا حصر لها - رغم ذلك فان الفقه فى هذه الناحية لا يزال قاصراً عن أن يقدم النظرية العامة المتكاملة التى تستطيع أن تقدم لنا إطاراً فكرياً لتحليل الظاهرة . ويبدو هذا واضحاً فى أمرين ، أولهما أن أغلب المراجع المتوافرة ان لم تكن جميعها لا تعدو أن تكون مجموعة مقالات وأبحاث جزئية . الدراسة الواحدة المتكاملة لا موضع لها . ويبدو هذا من ناحية أخرى بشكل أكثر وضوحاً عندما نتعرض لدراسة ظاهرة الرأى العام فى المجتمعات النامية والمجتمعات المتخلفة . فأى دراسة جادة بهذا الخصوص تكاد تكون ولا موضع لها .

٢ - بطبيعة الحال سوف نقتصر فى إحالتنا على تلك المؤلفات التى تتناول ظاهرة الرأى العام كظاهرة سلوكية :

KATZ, CARTWRIGHT, ELDERSVELD, Public Opinion and propaganda, a book of readings, 1954.
DOOB, Public opinion and propaganda, 1949.
ALBIG, Modern public opinion, 1956.
BERELSON, JANOWITZ, Public opinion and communication, 1966.
BOGARDUS, The making of public opinion, 1951.
FISCHER, MERRILL, International communication, 1970.
ULMER, Introductory readings in political behavior, 1965.
LIVOLSI, Communicazioni e cultura di masse, 1969.
CROTTY, Public opinion and politics, a reader, 1970.
POWELL, Anatomy of public opinion, 1951.
CHILDS, An introduction to public opinion, 1940.
BUSH, Modern arms and free men, 1949.
BAUER, Die Offentliche Meinung in der Weltgeschichte, 1930.
LANE, SEARS, Public opinion, 1964.
LANG, Collective dynamics, 1961.

٣ - يستطيع القارئ أن يجد إحالات أكثر تفصيلا ومراجع أكثر دقة من حيث الجزئيات فى محاضراتنا عن نظرية الرأى العام بكلية الاقتصاد وبصفة خاصة عن نظرية الدعاية الخارجية ، ١٩٧٢ .

• • •

§ ٣١ ـ التعريف بظاهرة الرأى العام : مقومات الظاهرة وتطبيقاتها المتعددة :

الشعب السعيد ليس له تاريخ كذلك المجتمع المستقر لا يعرف التوترات أو التقلصات الفكرية المرتبطة بالمشاكل اليومية والتى تثير ما نسميه بالرأى العام . الرأى العام فى أوسع معانيه هو كل تعبير عن وجهة نظر معينة بخصوص إحدى المشاكل التى تتعلق بمصير الجماعة تعبيراً أخذ صورة الإرادة العامة أو الميل العام نحو تفضيل نموذج معين من نماذج الحلول موضع المناقشة(١).

فلنحاول أن نحلل هذا المفهوم فى أبعاده العامة لنستطيع أن نحدد موضعه من الظاهرة السلوكية وأهميته ووظيفته كأحد مظاهر التعبير عن السلوك الجماعى .

كلمة الرأى العام تتكون من مقطعين : رأى من جانب وعام من جانب آخر . فما الذى يقصد بالرأى ؟ ومتى يصبر ذلك الرأى وكيف يصبر فى تلك الحالة التى تسمح بتسمية الثقافة المرتبطة بفهمه وقد أضحت علماً مستقلا قائماً بذاته ؟

ظاهرة الرأى العام(٢) بهذا المعنى ليست بالظاهرة الحديثة . فمنذ وجد الإنسان فى مجتمع سياسى منظم ، كان من الطبيعى أن يثار موضوع الالتزام . لماذا يتعين على

---

(١) تعريف ظاهرة الرأى العام لا بد وأن يخضع لمتغيرين : أولها طبيعة الظاهرة ومدخل التحليل الذى يتبعه المؤلف فى فهم الظاهرة من جانب ثم من جانب آخر وتبعاً لذلك التحديد بوظيفة الظاهرة .

رغم هذا التعدد والتباين فإن التعريف الذى يقدمه مكيافيللى ورغم قدمه لا يزال يملك مذاقه الخاص . يقول الفيلسوف الإيطالى وهو بصدد التحديد بمدلول الاصطلاح :

"We may infer, I think, too, that a wise man will not ignore public opinion in regard to particular matters, such as the distribution of offices and preferment ; for here the populace, when left to itself, does not make mistakes, or, if sometimes it does, its mistakes are rare in comparaison with those that would occur if the few had to make such a distribution".

انظر كاتز ، م . س . ذ . ، ص ٥٠ .

(٢) يجب أن نميز بوضوح بين ظاهرة الرأى العام وعملية التصويت السياسى . الأولى هى رد فعل لعلاقة المواطن بالسلطة من حيث تقبل أو رفض سلوك السلطة أو موقفها من مشاكل معينة تحددت زماناً ومكاناً وموضوعاً . التصويت هو عملية الممارسة الفعلية من جانب المواطن للتعبير عن وجهة نظره بخصوص موضوع معين . وهكذا رغم أن كلاهما يرتبط بالآخر بحيث أن التصويت يصير الأداة النظامية التى من خلالها يعبر المواطن عن ممارسته للوظيفة السياسية التى تفرضها الوظيفة الديموقراطية لظاهرة الرأى العام ، إلا أن

المواطن أن يقف من السلطة موقف الاحترام والخضوع ؟ وإذا رفض الخضوع فكيف يبرر ذلك الخروج عن الطاعة الذى قد يقتصر على مجرد المناقشة وقد يرتفع إلى حد رفض الولاء ؟ هذه الأسئلة التى فرضت نفسها على الإنسان والتى كان لا بد وأن تعبر عن نفسها فى مرحلة لاحقة فى شكل سلوك فعلى هى الخلفية الحقيقية لظاهرة الرأى العام حيث تتوافق الأحاسيس والمشاعر ثم ولو فى قسط معين منها المظاهر السلوكية إزاء موقف معين أو مشكلة معينة . الفتن المختلفة والثورات العديدة التى حفل بها تاريخ البشرية ليست إلا صورة من صور ظاهرة الرأى العام .

ولكن دراسة الظاهرة أو النظر إليها على أنها حقيقة مستقلة ذات كيان ذاتى مما يجعلها قابلة لأن تخضع للتحليل العلمى بحيث نستطيع أن نستخلص القواعد التى تفسرها وأن نبنى الأسس التى تسمح بالتحكم فيها لم يتم ويتكامل إلا فى خلال النصف الثانى من القرن العشرين . هذه القفزة الواضحة فى التحليل الاجتماعى ندين بها للنظرية السلوكية للتحليل .

ولعله ساعد على ذلك كيف أن ظاهرة الرأى العام هى إحدى تلك الظواهر العديدة الأبعاد . لقد سبق ورأينا كيف أن النظرية السلوكية تسعى إلى خلق وحدة للتحليل الاجتماعى تسمح بالربط بين مختلف أجزائه فى حقيقة وفى جسد واحد من المفاهيم . فكيف لا تقف بالكثير من الاهتمام إزاء تلك الظواهر التى بطبيعتها تأبى إلا أن تكون متعددة الأبعاد ؟

هكذا نفهم أسباب اهتمام علماء التحليل السلوكى بظاهرة الرأى العام[1].

فظاهرة الرأى العام بمعنى التوافق بالتفاعل أو التناقض بالرفض بين الفرد أو المواطن وبين ما يصدر من السلطة أو عن السلطة ليست مجرد ظاهرة نفسية أو سياسية أو اجتماعية فقط . أنها كل ذلك وأكثر من ذلك .

=أياً منهما يستقل من حيث وجوده ومظاهر تعبيره عن الآخر . فالرأى العام قد يوجد دون أن يعبر عن نفسه من خلال عملية التصويت . وقد توجد عملية التصويت دون أن يرتبط بها رأى عام .

انظر فيما بعد الكتاب الثانى حيث نفرد فصلا مستقلا لظاهرة التصويت . وقارن أيضاً :

KITT, GLEICHER, Determinants of voting behavior, in Public Opinion Quarterly, 1950, vol. XIV, P. 393.

(١) دوب ، م . س . ذ . ، ص ٦١ وما بعدها . يجد القارئ فى ذلك الموضع خلاصة موجزة لذلك الذى يسمى « قوانين الرأى العام » كما صاغها العالم الأمريكى كانتريل من خلال متابعة تطورات الرأى العام الأمريكى خلال الفترة التى تمتد منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤١ ، انظر أيضاً :

CANTRIL, Public opinion in flux, in Annals of American Academy of Political and Social Science, 1942, P. 136.

فهى أولا حقيقة تاريخية . ظاهرة الرأى العام هى تعبير عن تطور بمعنى أنها تفاعل مكانى وزمانى لجماعة ارتبطت باقليم معين وخضعت لخبرات معينة منها المآسى ومنها مظاهر النجاح . كل هذه التجارب لا بد وأن تتفاعل فى بوتقة الوجود القومى لتخلق أو تساهم فى ذلك الذى يسمى بروح الجماعة . وهذه بدورها هى صورة من صور التعبير عن الرأى العام . الرأى العام بهذا المعنى يصير مرتبطاً ومعبراً عن الحقيقة التاريخية أى عن التتابع الزمنى للحقائق والوقائع . الرأى العام كحقيقة تاريخية يصير إذن أحد عناصرها ومحور التطور[1] ولكن الرأى العام أيضاً هو حقيقة اجتماعية . فلو تركنا جانباً الماضى وأحداثه ، ووقفنا إزاء الحاضر وقد ألغينا كل ما سبقه لوجدنا أن ذلك الحاضر ليس سوى تفاعل وتقابل بين مقومات الوجود . الوجود الاجتماعى فى أبسط معانيه لا يعدو أن يكون العديد من الوحدات التى لا تعيش منعزلة الواحدة منها عن الأخرى وإنما التى تتفاعل الواحدة مع الأخرى . هذا التفاعل بالتأثير والتأثر ، سواء كان مرد العلاقة صدام وتناقض أو توافق وعناق ، هو وحده الذى يخلق الحركة ويدفع بالتطور. ظاهرة التفاعل مسالكها عديدة وتعبيراتها لا حصر لها . والرأى العام هو أحد عناصر ومقومات ونتائج عملية التفاعل[2] .

كذلك ظاهرة الرأى العام هى ظاهرة نفسية.فالحقيقة البشرية ، سواء فهمت على أنها جماعة أو فرد ، وحدة ميكروكزمية أو وحدة مكروكزمية ، تتكون من مقومات ثلاث : مقومات مادية ، هيكل أو رداء يضم المقومات المادية ويشكل تلك المقومات ليصبغ عليها صورة معينة ، ثم عنصر نفسى أو وجود معنوى وهو الذى يخلق الحركة ويدفع إلى الانطلاق بحيث يحدد أبعاد الوجود ودلالته وأهدافه. الرأى العام هو أحد العناصر الأساسية التى يتكون منها الوجود المعنوى للحقيقة الاجتماعية . على مستوى الفرد يصير أحد عناصر السلوك السياسى ، وعلى مستوى الجماعة يصير أحد مصادر القوة المحركة للوجود السياسى وذلك من خلال حالة التوتر التى تصادف الفرد أو الجماعة فى حركتها اليومية .

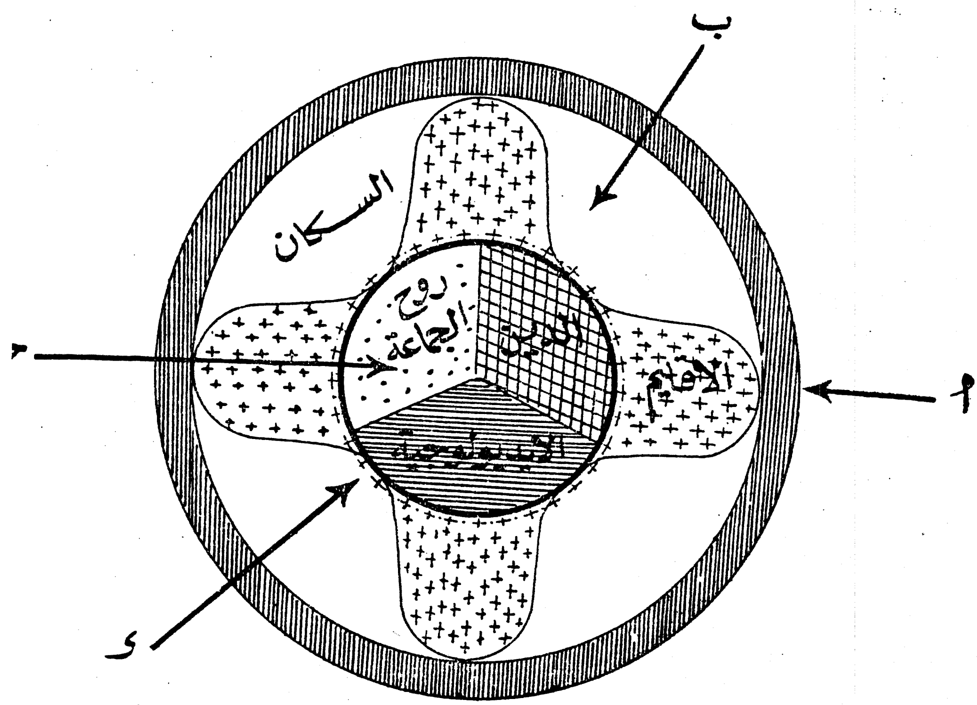
إلى جانب هذه الأبعاد التاريخية الاجتماعية والنفسية ، فإن هناك أبعاد أخرى فرعية تفرضها ظاهرة الرأى العام . أول هذه الأبعاد الفرعية الناحية الاقتصادية . ذلك أن

---

(١) التطور يعبر عنه باصطلاحين: أولها كلمة evolution وهى التى أشرنا إليها فى هذا المقام. ويقصد بذلك التنقل من مرحلة إلى مرحلة فهو تتابع مرحلى . ولكن لو أردنا التتابع الموقفى بمعنى التنقل من موقف إلى موقف Situation فإن الفقه الأوروبى يجد كلمة process للتعبير عن المفهوم وللأسف فإن اللغة العربية لا تجد الاصطلاح الذى يعكس المفهوم . انظر حامد ربيع ، نظرية التطور السياسى ، محاضرات كلية الاقتصاد ، ١٩٧٢ ، ص ١١ وما بعدها .

(٢) interaction

شكل رقم « ٩ »



مقومات الظاهرة الاجتماعية

أ - الهيكل والإطار النظامى
ب - المقومات المادية (السكان - الإقليم)
حـ - العامل المعنوى (الدين - الأيديولوجية - روح الجماعة)
ى - الرأى العام

الظاهرة الاقتصادية لا تعدو أن تكون سلوكاً فردياً : اتجاه نحو الاشباع مع عملية تفضيل واختيار معينة تنبع من مقومات الموقف الذاتى[1]. مما لا شك فيه أن العلاقة بين الاستهلاك والخصائص السلوكية ، بحيث يصبر من الممكن الحديث عن نماذج استهلاكية ، لا موضع للحديث عنه إلا فى المجتمع الذى بلغ مستوى معين من التقدم الاجتماعى . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أيضاً أن العالم المعاصر فى مجموعه ان لم يكن قد وصل إلى هذا المستوى فانه فى طريقه إليه فى خلال الحقبة القادمة من القرن العشرين.

ويزيد من تأكيد هذه الحقيقة التطور العام للأوضاع الإنتاجية التى تفرض الانفصال المطلق بين المنتج والمستهلك . ومن ثم يتعين على المنتج أن يسعى لأن يتحكم فى سلوك المستهلك أو على الأقل أن يتنبأ بنماذج وخصائص ذلك السلوك . ولعله فى أغلب الأحيان لا بد وأن يجمع بين الناحيتين . وهكذا يصبر الرأى العام الذى هو من حيث حقيقته ليس سوى السلوك الفردى وقد عمم أو اتجه إلى التعميم فى صورة قولية ، أحد عناصر خلفية التحليل التجريبى للظاهرة الاقتصادية .

الرأى العام ليس مجرد حقيقة جزئية . إن صورته التقليدية هى أنه رد فعل لموقف متأزم لأى حالة من حالات عدم الارتياح الفردى الذى يتقابل ويتفاعل فى صورة قلق جماعى . ومن ثم فان الرأى العام يصبر بمثابة نوع من رد الفعل او الجزاء غير المنظم للتعبير عن اخفاق معين لسلوك الطبقة الحاكمة فى مواجهة مشاكل المجتمع المرتبطة بكيانه وتحركاته الكلية . هذا هو البعد السياسى لظاهرة الرأى العام .

هذا التعدد فى أبعاد ومسالك فهم ظاهرة الرأى العام جعل منها إحدى بؤر التلاقى بين مختلف الثقافات الاجتماعية . وهو الأمر الذى يفسر الاهتمام الخاص الذى يوليه علماء الظاهرة السلوكية للرأى العام .

ولكن أين مقومات الرأى العام كظاهرة سلوكية ؟

(١) DAVAL, BOURRICAUD, DELAMOTTE, DORON, Traité de psychologie sociale, vol. II, 1964, P. 337.

المبحث الأول

الرأى العام والظاهرة السلوكية

§ ٣٢ – التحليل السلوكى لظاهرة الرأى العام والتمييز بين المنبه والاستجابة :

لو تركنا جانباً تلك الأبعاد المختلفة لظاهرة الرأى العام وحاولنا تحليلها كظاهرة سلوكية لوجدنا أنها تطبيق لتلك التجزئة فى عناصر السلوك بين المنبه – الجسد – الاستجابة .

فلنتصور تطبيقاً معيناً من تطبيقات الظاهرة .

العالم فى حالة قلق كلية وشاملة خلال صيف عام ١٩٣٩ . وذلك مرده التهديدات المتعاقبة والتوترات المتلاحقة وعملية شد الأعصاب بسبب السلوك الاستفزازى الذى ميز السياسة الخارجية لهتلر قائد ألمانيا النازية . فرنسا بالذات تنظر إلى الموقف بعين الخوف والرهبة فهى لا تزال تذكر الحرب العالمية الأولى ثم من قبلها حرب السبعين والهزيمة الساحقة التى ارتبطت بنابليون الثالث . ومختلف طبقات الشعب تخشى حرباً حقيقية وتعتقد أنها تستطيع أن تتحصن وراء خط ماجينو . ولكن إلى متى ؟ وهذا الشعب الألمانى يزداد توسعاً وبالتالى قوة ، ويزداد تصمما وبالتالى استعداداً للقتال ؟ هذا الموقف كان لا بد وأن يفرض المواجهة : الآراء تختلف فمن مطالب بالتشدد إلى مطالب بالتساهل إلى من ينادى بالتعاون . دجول فى أقصى التطرف يقابله لافال متطرف آخر وبمعنى مضاد . وفى النهاية إذاً بالشعب بأغلبية ساحقة يخرج مطالباً بالوقوف إلى جانب بولندة وهى تدافع باستماتة وشجاعة ضد عملية الغزو الألمانية[1].

لو حللنا هذا التطبيق لوجدنا العناصر السلوكية واضحة :

أولا – هناك المنبه : وهو الموقف العام من التعدى والاستفزاز الذى بلغ أقصاه عندما حدث الغزو النازى لبولنده الصديق التقليدى لفرنسا . هذا الغزو أثبت تصميم

---

(١) انظر عرضاً موجزاً وتاريخياً لتطور الآراء التى فرقت المجتمع الفرنسى فى
SAUVY, L'opinion publique, 1956, P. 81.

هتلر وأثار حالة القلق الدفينة التى تستتر خلفها الشحنة الوعائية العامة اللاشعورية والتى تدور حول الدفاع عن حق البقاء .

ثانياً – المجتمع الفرنسى هو الجسد الذى خضع لهذا المنبه .

ثالثاً – الرأى العام المطالب بالقتال هو الاستجابة أو رد الفعل لذلك المنبه الذى خضع له الجسد السياسى .

ولكن هل معنى ذلك أن الرأى العام هو مجرد حقيقة سلوكية كأى تطبيق آخر من تطبيقات الظاهرة السلوكية ؟

الواقع أن هناك أبعاد معينة تفرض على الرأى العام مذاقه الخاص حتى لو نظرنا إليه من وجهة التحليل السلوكى :

١ – فهو أولا سلوك يجمع بين الصفة الفردية والصفة الجماعية . بل وسوف نرى فيما بعد أنه أيضاً فى بعض الأحيان يصير سلوكاً جماهيريا .

٢ – كذلك فان المنبه ليس مجرد واقعة وإنما هو الموقف العام المرتبط برد الفعل[1] .

٣ – كذلك فان التحليل السلوكى لا يكفى لفهم ظاهرة الرأى العام[2] . ذلك أن السلوك هو التعبير الخارجى والرأى العام ليس مجرد تعبير خارجى . وليس أدل على ذلك من أن نقدم نموذج تجريبى . فلنتصور الرأى العام المرتبط بموضوع تنظيم النسل : فهذا شخص يرفض تنظيم النسل لأنه متدين ومؤمن إلى حد التعصب ويرى فى الدعوة إلى التنظيم مخالفة صريحة للتعاليم الدينية . أليست الآية القرآنية صريحة : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ؟ ثم هناك شخص آخر ملحد لا يؤمن بالدين ولا يعنيه كل ما له صلة بالتعاليم الدينية . ولكنه لم يقدر له خلال حياته الزوجية سوى انجاب الإناث وهو يريد ويتمنى ابناً ذكر . ولذلك هو يرفض مثل هذه الدعوة لأن احترامها وقبولها سوف يحرمه من فرصة تحقيق أمله . ثم هناك شخص ثالث لا تعنيه أيضاً التعاليم الدينية ولكنه يرفض كل ما له صلة بالنظم الاشتراكية وهذه الدعوة جاءت من نظام يدعو إلى الاشتراكية . إذن فهو يرفض مثل هذه الدعوة لأنه يرفض مصدرها ولا يقبل كل ما يأتى من ذلك المصدر . ثم هناك شخص رابع مصالحه تفرض عليه أن يرفض مثل تلك الدعوة : فلنتصور القابلة أو الطبيب المولد صاحب مستشفى الولادة وكيف لا بد وأن يقف رافضاً مفنداً أى دعوة لتنظيم النسل .

---

(١) ولذلك يسمى بأنه Stimulating Situation انظر البيج ، م. س. ذ. ، ص١٧ وما بعدها

(٢) قارن كروتى ، م . س . ذ . ، ص ٤٠٩ وما بعدها .

تحليل الرأى العام كمجرد ظاهرة سلوكية يمنع من الغوص فى أعماق المبررات وعناصر الموقف الفردى الذى يرتبط بالتعبيرات القولية .

٤ ـ كذلك وأخيراً فالرأى العام سلوك قولى[١]. ولنستطيع أن نفهم هذه الذاتية يجب أن نتذكر مختلف مظاهر ردود الفعل إزاء أى موقف . فلنتصور أسرة تجلس حول التلفزيون وفجأة قطع الارسال ليعلن المذيع بخبر إصابة رئيس الدولة فى حادث قاتل . فهذا رب الأسرة يعلن عن رأيه فى الحادث بتأن وثقة ثم يواصل قراءة جريدته . أما الزوجة فهى تكتفى بأن تهز كتفيها . على عكس الابن والابنة ، الأول يلبس ويسرع بالخروج ليقابل زملاءه . والثانية تبكى حزينة فى صمت .

نستطيع فى هذا النموذج المبسط أن نجد أنفسنا أمام أكثر من نموذج واحد من نماذج رد الفعل : سلبية مطلقة فى الزوجة ، سلوك قولى أو رأى فى موقف الزوج ، سلوك فعلى من جانب كلا الابن والفتاة[٢].

*** حالة رقم ١١ : العلاقة بين التصويت الانتخابى والرأى السياسى :

ظاهرتين كل منهما تبدو مستقلة عن الأخرى وكل منهما تعبر عن مشكلة تكوين الرأى ومع ذلك فكل منهما ترتبط بالأخرى بل وتتدخل تدخلا مباشراً فى تشكيلها . والسؤال الذى نطرحه ونريد الإجابة عليه من خلال بعض الأبحاث الميدانية هو كيف يؤثر أحدهما فى الآخر بحيث يشكل هذا الآخر .

هذا هو الافتراض :

فى حملة انتخابية حيث يدور صراع حول ترشيح شخصين أو أكثر كل منهما ينتمى إلى حزب مخالف أو على الأقل كل منهما قد عبر عن برنامجه السياسى تعبيراً مختلفاً عن الآخر فإن عملية التفضيل فى ادلاء الصوت الانتخابى لا بد وأن تتأثر بمتغيرات عديدة من بينها :

أولا : علاقة الولاء التى تربط المواطن بالحزب الذى ينتمى إليه .

ثانياً : اعتبارات التقبل أو الرفض الشخصية أى المرتبطة بشخص المرشح وبمدى شعور المواطن الذى يقوم بعملية التصويت بأن هذا المرشح يصلح لأن يمثله أمام السلطات الحاكمة ومدى تأثير هذه الصلاحية من عدمها فى عملية صنع القرار المرتبط بتفضيله على غيره .

ثالثاً : ثم خلف كل ذلك مدى تقبله أى تقبل المواطن الذى يقوم بعملية التصويت بالآراء المرتبطة بالبرنامج الانتخابى وما يتضمنه من مشاكل أعلن عن تصور حلها بشكل معين من جانب الحزب الذى يحمى العضو المرشح أو من جانب نفس المرشح .

---

(١) انظر ملاحظاتنا سابقاً ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) بطبيعة الحال من الممكن تصور السلوك القولى وقد ارتبط بسلوك فعلى أو تحول إلى سلوك فعلى . وسوف نرى نموذجاً واضحاً لذلك فيما بعد عندما نتناول السلوك الجماهيرى بالتحليل . انظر القسم الرابع من هذا الكتاب .

فى مارس ١٩٥٢ قررت مؤسسة كارنيجى(١) أن تخصص منحة ضخمة لدراسة العوامل والمتغيرات الأساسية التى تحكمت فى عملية التصويت لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٥٢ . وكان الهدف الأساسى من البحث هو الكشف عن هذا الاستفهام : إلى أى حد تدخلت المشاكل السياسية وحلولها المقترحة political issues فى حملة الانتخاب الرئاسية ، وبعبارة أخرى محاولة التعمق فى العلاقات الذهنية التى تربط الرأى أو الاتجاه الخاص بالمشاكل الجزئية partisan issues بالتصويت الفعلى، وهى دراسة لم يكن قد قدر لها من قبل أن تتم على هذا النطاق من الدقة والعمق .

وإزاء ضخامة البحث وتعدد مستوياته وأبعاده فكان على القائمين بالبحث أن يقوموا ببعض تحديدات تحكمية . وقد هيأت للباحثين هذه العملية طبيعة الانتخابات وتلك الخصائص الواضحة التى عبرت عنها . فأول ما يلاحظ على انتخابات عام ١٩٥٢ هو الشريحة غير المعتادة من حيث تضخمها لأولئك المضربين عن الانتخاب أى أولئك الذين لم يزاولوا حقهم الانتخابى . ثم الملاحظة الثانية وهى الانزلاق الواضح نحو الحزب الجمهورى عقب جيل كامل من التأييد للنظام الديموقراطى . ومن ثم فقد حدد الباحثون باشراف العالم الأمريكى كيى Key هدفهم الأساسى فى هذا الاستفهام: إلى أى حد ارتبطت هاتين الظاهرتين السابق ذكرهما بطبيعة موقف الأفراد من المشاكل السياسية الجانبية التى طرحتها العملية الانتخابية ذاتها ؟

ولذلك فإن محور البحث حدده الباحثون فى السؤالين التاليين :

أولا : كيف ارتبطت حركة المواطنين بالانتقال من الايجابية بالتصويت أو من السلبية بعدم التصويت إلى عكس ذلك فى انتخابات ١٩٥٢ بالتساؤلات التى أثارتها الحملة الانتخابية ؟

ثانياً : كيف ارتبطت عملية فقد كتل كاملة من الناخبين فى سلوكها الانتخابى من أحد الأحزاب وانتقالها إلى حزب آخر بالتساؤلات السابقة الذكر ؟

(أ) الذى يعنينا على وجه الخصوص بهذا الشأن هو السؤال التالى .

كيف استطاع الباحثون تغطية موضوع تحديد الأسئلة والتساؤلات المختلفة التى ارتبطت بها آراء حددت أو أثرت فى السلوك الانتخابى ؟ يقرر الباحثون أنهم استطاعوا أن يكتشفوا بصفة أساسية ستة موضوعات جعلوا منها محور التحليل وهى جميعها تتصف بصفات أساسية :

أولا : أن هذه التساؤلات تتضمن خلافات واضحة بين مواقف الحزبين المتصارعين .

ثانياً : أن الخلاف بين الحزبين بخصوص هذه المشاكل هو خلاف غير مؤقت وإنما هو خلاف ممتد من حيث الزمان .

ثالثاً : أن هذا الخلاف له أبعاد إيديولوجية .

---

(١) انظر موجز لهذه الدراسة مع تفصيلات كافية فى :
CAMPBELL, GURIN, MILLER, In American political science review, 1953, P. 359.

(٢) قارن كاتز ، م . س . ذ . ، ص ٦٢٣ .

(٣) قارن أسلوب آخر فى التحليل ولكنه مشابه من حيث جوهره فى دراسة تالية وجعلت موضوعها أيضاً انتخابات ١٩٥٢ وكذلك انتخابات ١٩٥٦ :
KEY, Public opinion and american democracy, 1961.

رابعاً : أن الخلاف كان موضع نقاش مستمر ودائم أثناء الحملة الانتخابية بحيث أوضح ارتباطه ببرنامج كل من الحزبين المتنافسين .

جمع المعلومات أخذ الصورة التالية : عينة ممثلة مجموع وحداتها ٢٠٢١ حالة تم سؤالها فى أكتوبر وقبل إجراء عملية الانتخابات . ثم من بينها وفى شهر نوفمبر تم سؤال للمرة الثانية ١٦١٤ حالة جميعهم من بين من سئلوا فى أكتوبر وكان ذلك عقب فترة وجيزة من اجراء الانتخابات(١). المعلومات التى نقدمها فى هذا التحليل جميعها مصدرها تلك الحالات التى سئلت مرتين : قبل وبعد الانتخابات الرئاسية . الدلالة التى نستطيع أن نصل إليها من خلال تحليل الجدول المرفق رقم ١ هو أنه حول التساؤلات الست المرتبطة بآراء الناخبين نجد فارقاً واضحاً بين الناخب الديموقراطى والناخب الجمهورى .

جدول رقم (١)

العلاقة بين التصويت الانتخابى والمشاكل المناقشة(٢)

السؤال موضع المناقشة والتعبير عن الرأى	التصويت الحزبى ١٩٥٢	نسبة التأييد للموقف الديموقراطى	الموقف المحايد	نسبة المعارضة للموقف الديموقراطى	المجموع
السياسة والنشاط الاجتماعى الحكومى	د	٣٣ ٪	٦٢	٥	١٠٠٪
	ج	١٩ ٪	٥٠	٣١	١٠٠٪
قانون تافت هارتلى	د	٣٢ ٪	٥٦	١٢	١٠٠٪
	ج	٩ ٪	٥٥	٣٦	١٠٠٪
سياسة الانغماس الخارجية للولايات المتحدة	د	٤٣ ٪	١٣	٤٤	١٠٠٪
	ج	٢٨ ٪	٧	٦٥	١٠٠٪
سياسة الولايات المتحدة مع الصين	د	٦٠ ٪	٢٣	١٧	١٠٠٪
	ج	٣٨ ٪	٢٤	٣٨	١٠٠٪
دخول الولايات المتحدة الحرب فى كوريا	د	٥٢ ٪	١٦	٣٢	١٠٠٪
	ج	٣٤ ٪	٢٠	٤٦	١٠٠٪
سياسة الولايات المتحدة بخصوص كوريا	د	٥٢ ٪	٧	٤١	١٠٠٪
	ج	٣٦ ٪	٨	٥٦	١٠٠٪

(١) كاتز ، م. س. ذ. ، ص ٦٢٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٢٦ .

من هذه الاحصاءات نستطيع أن نلحظ بعض الظواهر الجديرة بالتسجيل :

أولا : فالتأييد للموقف الديموقراطى من بين الناخبين الذين أداوا بصوتهم للحزب الديموقراطى لم ينزل عن ٣٢٪ وارتفع ليصل فى بعض الأحيان إلى ٦٠٪ . وذلك فى نفس اللحظة التى نجد فيها التأييد للموقف الديموقراطى من بين الناخب الذى قدم صوته للحزب الجمهورى وصل فى بعض الأحيان إلى ٩٪ ولم يصل فى أى موضوع من موضوعات المناقشة إلى أكثر من ٣٨٪ .

ثانياً : كذلك نلاحظ أن المسافة فى الخلاف بين الموقفين تقرب فى السياسة الخارجية وذلك سببه واضح حيث أن حدود الصراع الفكرى بين الحزبين وسياسة الحزبين أقل وضوحاً منها بالنسبة للسياسة الداخلية(١). ولذلك لو نظرنا إلى موقف الناخبين من الموضوعين الأول والثانى نجد أنه إزاء ٣٣ + ٣٢ فى الموقف الديمقراطى لن يتجاوز التعبير عن نفس الموقف من بين الناخبين المؤيدين للحزب الجمهورى سوى ١٩ + ٩ وتأتى الدلالة أكثر وضوحاً فى الموقف المعارض للسياسة التى يتبناها الحزب الديموقراطى . فن بين أبناء هذا الحزب ليس هناك أكثر من ٥ + ١٢ بينما نجد المعارضين من بين أبناء الحزب الجمهورى يرتفعون إلى ٣١ + ٣٦ أى بنسبة ١ إلى ٤ .

(ب) هذه الدلالة تزداد تأكيداً لو انتقلنا إلى خطوة أخرى فى تحليل نتائج هذه الدراسة الميدانية . ذلك ن الباحثين لم يكتفوا بسؤال الناخب عن عملية التصويت الخاصة بعام ١٩٥٢ بل أضافوا إلى ذلك جمع معلومات عن انتخابات ١٩٤٨ وبهذا استطاعوا أن يعزلوا الناخبين إلى خمسة مجموعات مستقلة كل منها لها خصائص سلوكية مختلفة :

أولا : بالنسبة للناخب المعتاد فقد استطاع الباحثون أن يفصلوا بين مجموعتين :

١ – الناخب المعتاد الديموقراطى أى ذلك الذى قدم صوته للمرشح الديموقراطى سواء فى الانتخابات الأولى أم فى الحملة الثانية . هذه المجموعة سوف نطلق عليهم : د د (المجموع : ٣٦٢ حالة) .

٢ – الناخب المعتاد الجمهورى ويقابل نفس المجموعة السابقة مع الثبات فى اتجاه الحزب الآخر : ج ج (المجموع : ٣٨٥ حالة) .

ثانياً : بالنسبة للناخب الجديد أى تلك الفئة التى لم تتقدم إلى الانتخابات إلا فقط عام ١٩٥٢ سواء لأنها لم تكن قد بلغت السن اللازم لمزاولة الحق الانتخابى أو لأنها لم ترغب لسبب أو لآخر فى تلك المزاولة .

أيضاً هنا نستطيع أن نميز بين مجموعتين :

٣ – ديموقراطى جديد لم يستخدم هذا الحق إلا فقط عام ١٩٥٢ ونرمز لهم : ن د (العدد ١٠٤ حالة) .

٤ – ويقابلهم فى الطرف الآخر عدد آخر يحمل نفس الخصائص ولكنه قدم صوته للحزب الجمهورى ، ن ج (العدد ١٢٥ حالة) .

---

(١) قارن الخلاصة والتحليل الوارد فى :

WOLFINGER, Readings in american political behavior, 1970, P. 330.

(٢) انظر دراسة أكثر تفصيلا لانتخابات ١٩٤٨ رغم أنها جعلت ميدانها قاصراً على جزء محدد إقليمياً من المجتمع الأمريكى :

BERELSON, LAZARSFELD, Mc PHEE, Voting : a study of opinion formation in a presidential campaign, 1955.

ثالثاً : ثم تأتى عقب ذلك كتلة المتحولين(١). النتائج المعلنه عن هذا البحث تقدم لنا بهذا الشكل معلومات دقيقة عن مجموعة خامسة :

٥ – الديموقراطيون الذين تحولوا إلى الحزب الجمهورى ، أى أولئك الذين صوتوا فى عام ١٩٤٨ دفاعاً عن المرشح الديموقراطى ولكنهم فى انتخابات ١٩٥٢ انتقلوا إلى الموقف المعارض . ونستطيع أن نعبر عن هذه الفئة بالرمز د ج (عدد الحالات ١٦٥ حالة) .

قبل أن ننتقل إلى تحليل البيانات الخاصة بهذه الفئات الخمس(٢) والتى سوف نجد فيها تأكيداً للدلالة التى وصلنا إليها من وجود علاقة ارتباط بين الرأى السياسى والتصويت الانتخابى، فإن الأبحاث السابق ذكرها أثبتت أن الناخبين الجدد يتفقون فى خصائصهم من حيث الموقف العام ، أى السلوك الانتخابى ، مع باقى أجزاء المجتمع الناخب . وبعبارة أخرى أننا لو تصورنا الناخبين ينقسمون إلى طبقتين : إحداهما طبقة من أدلى بصوته فى كلا التصويتين ، والأخرى تلك التى لم تدل بصوتها سوى فى التصويت الثانى ، فإننا نلحظ أنه لا يوجد فارق ملموس بين الطبقتين وبالتالى بين أى من الطبقات والمجتمع القومى(٣). ويستنتج من هذا المحللون بأن هذا يعنى أن الناخبين لم يخضعوا لأى عملية تنشيط بخصوص إحدى مشاكل الساعة المعبر عنها فى رأى سياسى خلال حملة الانتخاب الثانية وذلك بقصد إحداث عملية تمزق وحمل ذلك الرأى السياسى المخالف على دفع الناخب إلى تغيير سلوكه الانتخابى(٤) .

لنستطيع أن نكتشف العلاقة الحقيقية فى داخل هذه المجموعات بين ما أسميناه بالرأى السياسى (أى موقف الناخب من المشاكل الست التى طرحناها) والسلوك الانتخابى (أى ادلاء الصوت تأييداً للحزب الديموقراطى أو الحزب الجمهورى) فعلينا أن نقارن بين الفئات الأربع الأخرى .

---

(١) The switching voters.

(٢) قارن نموذج آخر للتحليل فى التقاليد الفرنسية حول دراسة عملية التصويت الانتخابى وكذلك عملية التصويت المرتبط بالاستفتاء بخصوص العمليات المختلفة التى سبقت مباشرة وصاحبت وصول ديجول إلى الحكم وعلى وجه التحديد : انتخابات ٢ يناير ١٩٥٦ أولا ثم استفتاء سبتمبر ١٩٥٨ وانتخابات نوفمبر من نفس العام ، انظر فى التفصيل :

DUVERGER, GOGUEL, TOUCHAR, Les élections du 2 janvier 1956, 1957 ; TOUCHAR, L'établissement de la cinquième République : le référendum de Septembre et les élections de Novembre 1958, 1960.

(٣) انظر كاتز ، م . س . ذ . ، ص ٦٢٨ وما بعدها .

(٤) لاحظ أن الرموز تعبر عن المفاهيم التالية ،

د = ديموقراطى Democratic

ج = جمهورى Republican

ن = جديد New (voter)

جدول رقم (٢)

العلاقة بين نماذج التصويت الانتخابى والرأى السياسى

الرأى السياسى	التصويت الانتخابى ١٩٤٨ – ١٩٥٢	تأييد الموقف الديموقراطى	الحياد أو عدم تكوين رأى	معارضة الموقف الديموقراطى	المجموع	دلالة المشايعة
السياسة والنشاط الاجتماعى الحكومى	د د	٣٣٪	٦٤	٣	١٠٠٪	+ ٣٠
	ن د	٣٧٪	٥٢	١١	١٠٠٪	+ ٢٦
	ن ج	٢٩٪	٤٩	٢٢	١٠٠٪	+ ٧
	ج ج	١٥٪	٤٦	٣٩	١٠٠٪	− ٢٤
قانون تافت هارتلى	د د	٣٦٪	٥٢	١٢	١٠٠٪	+ ٢٤
	ن د	٢٧٪	٦٣	١٠	١٠٠٪	+ ١٧
	ن ج	١٣٪	٦٣	٢٤	١٠٠٪	− ١١
	ج ج	٧٪	٤٩	٤٤	١٠٠٪	− ٣٧
سياسة الانغماس الخارجى للولايات المتحدة	د د	٤٤٪	١١	٤٥	١٠٠٪	− ١
	ن د	٤٦٪	١٣	٤١	١٠٠٪	+ ٥
	ن ج	٣١٪	٧	٦٢	١٠٠٪	− ٣١
	ج ج	٢٤٪	٦	٧٠	١٠٠٪	− ٤٦
سياسة الولايات المتحدة مع الصين	د د	٦٦٪	١٩	١٥	١٠٠٪	+ ٥١
	ن د	٥١٪	٢٤	٢٥	١٠٠٪	+ ٢٦
	ن ج	٤٣٪	٢٤	٣٣	١٠٠٪	+ ١٠
	ج ج	٣٣٪	٢٢	٤٥	١٠٠٪	− ١٢
دخول الولايات المتحدة الحرب فى كوريا	د د	٥٣٪	١٤	٣٣	١٠٠٪	+ ٢٠
	ن د	٥٨٪	١٤	٢٨	١٠٠٪	+ ٣٠
	ن ج	٣٦٪	٢١	٤٣	١٠٠٪	− ٧
	ج ج	٣١٪	١٩	٥٠	١٠٠٪	− ١٩
سياسة الولايات المتحدة بخصوص كوريا	د د	٥٥٪	٥	٤٠	١٠٠٪	+ ١٥
	ن د	٤٦٪	٣	٤١	١٠٠٪	− ٥
	ن ج	٤٦٪	٤	٥٠	١٠٠٪	− ٤
	ج ج	٣٣٪	٦	٦١	١٠٠٪	− ٢٨

رغم ذلك لو نظرنا إلى هذه الفئة أى تلك التى كانت تؤيد الحزب الديموقراطى من حيث المرشح فى الانتخابات الأولى ثم أضحت فى الانتخابات الثانية مؤيدة لمرشح الحزب الجمهورى ، فى مجموعها ومن حيث حقائقها العامة المرتبطة برأيها السياسى لوجدنا أنها فى مجموعها أقرب إلى تأييد الموقف الجمهورى منها إلى معارضة الموقف الجمهورى(١) أو بعبارة أخرى أنها أقرب إلى معارضة الموقف الديموقراطى منها إلى تأييد الموقف الديموقراطى ، فلو تصورنا أن كل رأى من حيث العلاقة بالموقف نقدر له درجة واحدة وحصلنا على المتوسط لوجدنا أنه بالنسبة لمعارضة الموقف الديموقراطى الذى يعنى تأييد الموقف الجمهورى يقدم لنا $\frac{٢٣٦}{٤}$ = ٤٠٪ فى مقابل $\frac{١٩٥}{٦}$ = ٣٢٪ . وهذا تأكيد للدلالة السابقة حيث أن الانتقال إلى التصويت المخالف ارتبط بتأييد للرأى السياسى العكسى . وهى دلالة تزداد تأكيداً لو استبعدنا الرأى المتعلق بسياسة الولايات المتحدة مع الصين الذى سبق ورأينا شذوذه وخروجه عن القاعدة العامة إذ أن النتائج تكون أكثر صراحة حيث أن تأييد الموقف الجمهورى أى معارضة الموقف الديموقراطى تصير $\frac{٢٠٨}{٥}$ = ٤٢٪ بينما معارضة الموقف الجمهورى إلى تأييد الموقف الديموقراطى تقدم لنا $\frac{١٤٨}{٥}$ = ٣٠٪ .

والخلاصة أنه كما سبق ورأينا أن هناك علاقة واضحة بين الرأى والسلوك ، فكذلك فان الرأى العام هو بدوره ظاهرة سلوكية(٢). وإذا كان تحليل هذه الحقيقة لا يسمح به التقدم العام للعلوم السلوكية ، فان هذا لا يمنع من أننا نستطيع أن نؤكد على حقيقة مزدوجة :

(أ) أن العلاقة بين الرأى والسلوك ذات أبعاد متعددة تعيد إلى الذهن ما سبق وذكرناه من أن أحد خصائص الظاهرة السلوكية هو التدرج التصاعدى . كذلك فان الرأى يعكس نفس الخصائص سواء فى العلاقة بين مختلف التعبيرات القولية أو فى العلاقة بين التعبيرات القولية والتعبيرات الفعلية . وهذا يثير بدوره مشكلة العلاقة بين الواقعة والرأى .

(ب) أن تحليل الرأى العام على أنه ظاهرة سلوكية يسمح بفهم أكثر دقة وأكثر شمولا لظاهرة الرأى العام لا فقط من حيث تكوينها بل وكذلك من حيث تقلباتها كظاهرة جماعية . العلاقة بين الرأى السياسى والتصويت الانتخابى فى حالة المنافسة الحزبية المرتبطة ببرنامج مذهبى نموذج واضح لهذه الحقيقة .

من بين النماذج الأخرى التى تبرز كيف استطاعت النظرية السلوكية أن تغنى

---

(١) قارن نموذج آخر للتحليل مرتبط بمتغير مستقل عن الموقف ولكنه غير مرتبط بعملية تكوين الرأى فى :
JACOB, Value out-comes of a College Education, in CROTTY, op. cit., P. 86.

(٢) انظر على وجه الخصوص من علماء علم النفس الذين يجعلون من هذه الناحية المنطلق الأساسى فى تحليل علم النفس الاجتماعى :
YOUNG, Handbook of social psychology, 1969, P. 330.

المشايعة لو تصورنا التعبيرات الثلاث على خط واحد تكاد تكون متساوية فيما عدا استثناء واحد وهو ذلك المرتبط بسياسة الولايات المتحدة مع الصين حيث نجد أن د ج أقرب إلى ج ج منه إلى د د .

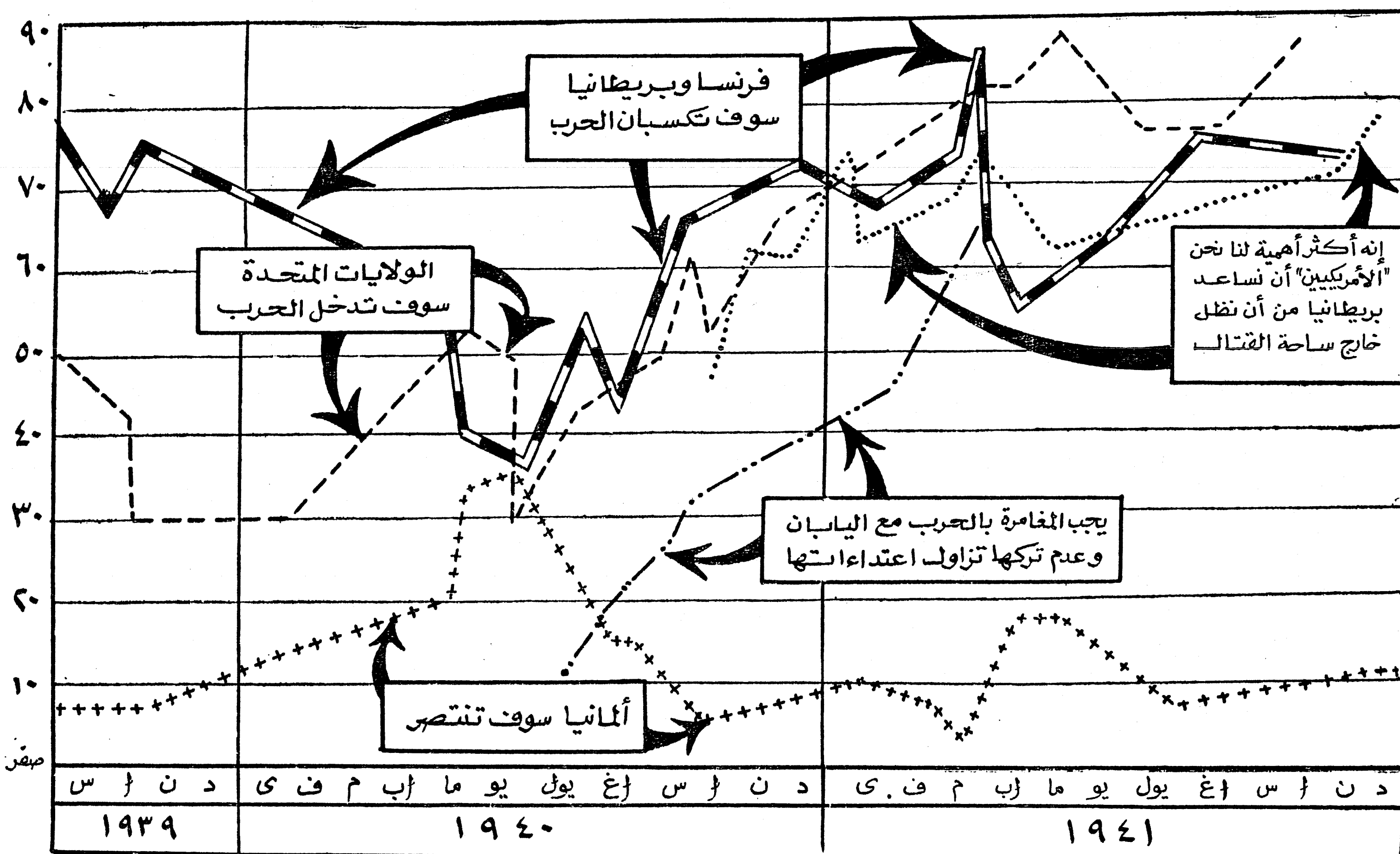
ثانياً : كذلك نستطيع أن نلاحظ أنه لا يوجد رأى سياسى معين يمكن القول بأنه أحدث قطيعة حقيقية أدت إلى هذا التحول بمعنى الانتقال من الموقف الديموقراطى إلى الموقف الجمهورى بالنسبة لعملية التصويت الانتخابى .

جدول رقم (٣)

العلاقة بين التصويت الانتخابى المتقلب والرأى السياسى

الرأى السياسى	التصويت الانتخابى ١٩٤٨ – ١٩٥٢	تأييد الموقف الديموقراطى	الحياد أو عدم تكوين رأى	معارضة الموقف الديموقراطى	المجموع	دلالة المشايعة
السياسة والنشاط الاجتماعى الحكومى	د د	٪٣٣	٦٤	٣	٪١٠٠	+ ٣٠
	د ج	٪٢٢	٥٤	٢٤	٪١٠٠	– ٢
	ج ج	٪١٥	٤٦	٣٩	٪١٠٠	– ٢٤
قانون تافت هارتلى	د د	٪٣٦	٥٢	١٢	٪١٠٠	+ ٢٤
	د ج	٪١٢	٦١	٢٧	٪١٠٠	– ١٥
	ج ج	٪ ٧	٤٩	٤٤	٪١٠٠	– ٣٧
سياسة الانغماس الخارجى للولايات المتحدة	د د	٪٤٤	١١	٤٥	٪١٠٠	– ١
	د ج	٪٣٥	٧	٥٨	٪١٠٠	– ٢٣
	ج ج	٪٢٤	٦	٧٠	٪١٠٠	– ٤٦
سياسة الولايات المتحدة مع الصين	د د	٪٦٦	١٩	١٥	٪١٠٠	+ ٥١
	د ج	٪٤٧	٢٥	٢٨	٪١٠٠	+ ١٩
	ج ج	٪٣٣	٢٢	٤٥	٪١٠٠	– ١٢
دخول الولايات المتحدة الحرب فى كوريا	د د	٪٥٣	١٤	٣٣	٪١٠٠	+ ٢٠
	د ج	٪٤١	١٦	٤٣	٪١٠٠	– ٢
	ج ج	٪٣١	١٩	٥٠	٪١٠٠	– ١٩
سياسة الولايات المتحدة بخصوص كوريا	د د	٪٥٥	٥	٤٠	٪١٠٠	+ ١٥
	د ج	٪٣٨	٦	٥٦	٪١٠٠	– ١٨
	ج ج	٪٣٣	٦	٦١	٪١٠٠	– ٢٨

اتجاهات الرأي العام الأمريكي خلال العامين الأول والثاني من الحرب العالمية الثانية



شكل رقم « ١٠ »

الدراسات العلمية لظاهرة الرأى العام يجب أن نسوق اثنين آخرين : أولهما العلاقة بين الواقعة وتطور الظاهرة ، وثانيهما مدى تأثير ظاهرة القيادة على اتجاهات وتغيرات مسالك الرأى العام .

فلنتابع فى تحليل موجز النموذج الأول تاركين الآخر إلى موضعه من دراسة ظاهرة القيادة(1).

§ ٣٣ ـ المدرسة السلوكية وتحليل العلاقة بين الواقعة السياسية وظاهرة الرأى العام :

السؤال الذى نطرحه ونريد أن نقدم إجابة عليه هو التالى : كيف تؤثر الوقائع على تكوين وتطور ظاهرة الرأى العام ؟

هذا السؤال ما كان يمكن أن تثيره سوى المدرسة السلوكية ، ذلك أننا وقد جعلنا محور التحليل لظاهرة الرأى العام هو تلك العلاقة الثلاثية أى م ـ ج ـ ا وبعبارة أخرى واقعة تحدث تحريكاً داخلياً للجسد فاذا بهذه الحركة تنطلق فى شكل طاقة لتخلق رد الفعل الذى يصبر فى هذه الحالة رأى عام(2). على العكس لو نظرنا إلى الرأى العام على أنه فقط حقيقة نفسية لكان معنى ذلك أن الواقعة تصبر مجرد عنصر من عناصر الخبرة التى تنصب فى داخلها المقومات الذاتية والتى منها تنبع القدرة الفردية على التعبير عن وجهة نظر محددة بخصوص المشكلة .

لنستطيع أن نفهم وظيفة الواقعة إزاء ظاهرة الرأى العام فلنبدأ بمتابعة تطور الرأى العام الأمريكى خلال العامين الأولين من الحرب العالمية الثانية حيث تبرز واضحة مدى علاقة تكوين وتطور ظاهرة الرأى بالوقائع الخارجية التى فرضتها أحداث الصراع العالمى ، وهى أحداث ليست فقط خارجة عن المجتمع الأمريكى بل إن أغلبها لم يرتبط حتى مكانياً بالمواطن الأمريكى العادى(3).

فلنلقى أولا نظرة على تطور الرأى العام الأمريكى كما هو واضح من الرسم البيانى المرفق : شكل رقم ١٠ .

---

(١) نعود إلى ذلك فيما بعد فى الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) يونج ، م . س . ذ . ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

(٣) انظر تحليلا وافياً للظاهرة من مختلف أبعادها فى :
LIPSET, LAZARSFELD, ALLEN, LINZ, The psychology of voting : an analysis of political behavior, in LINDZEY, Handbook, cit., vol. II, p. 1124.

القتال فهو بدوره يرتفع من ٣٥٪ فى يونيه ١٩٤٠ إلى ٨٥٪ فى أبريل ١٩٤١ أى بزيادة ٥٠٪ .

السؤال الذى نثيره هو : كيف تؤثر الواقعة فى توجيه الرأى العام ؟

يميز العالم الأمريكى المشهور يونج بين نواح سبع لهذه العلاقة :

أولا : الواقعة أولا تؤثر فى الموقف الاجتماعى والاقتصادى للفرد . فالأزمة الاقتصادية الأمريكية عام ١٩٣٠ لا بد وأن أحدثت تغييراً فى أبعاد عديدة من حيث الدخل والقدرة المادية . كذلك فان أى ثورة لا بد وأن تحدث بدورها آثارها كما لو حدث وغيرت فى نظام الملكية . مثل هذه التغيرات لا بد وأن تحدث تفاعلاتها ولو بطريق غير مباشر .

ثانياً : كذلك فان الواقعة قد تحدث آثارها فى نظام القيم الفردى[1]. فقانون تافت هارتلى الذى سبق ورأيناه يتردد ويثور بخصوص الرأى السياسى خلال انتخابات ١٩٥٢ يعنى تنقلا واضحاً من سياسة اللبرالية التقليدية إلى سياسة أخرى أقرب إلى التدخل الحكومى . كذلك فان الانغماس فى السياسة الخارجية يعنى بدوره خروج عن العزلة وبالتالى تغيير واضح فى نظام القيم السياسية .

ثالثاً : بعض الوقائع قد تدعو إلى إعادة التقييم للظروف المحيطة بالموقف . فالمحاكمات المشهورة والمرتبطة بعمليات التطهير العنيفة والدورية التى عرفت عن روسيا منذ عام ١٩٣٠ كان لا بد وأن تحدث آثارها من حيث تصور أو تقبل وبالتالى تقييم النظام الشيوعى .

رابعاً : كذلك فان الواقعة قد تساعد فى تغيير المفاهيم الفردية حول وسائل تحقيق أهداف معينة . ولو عدنا إلى التحليل السابق للاحظنا كيف أن سقوط فرنسا أدى إلى زيادة الإيمان بضرورة الدخول فى القتال بمعنى أن مجرد المساعدة المادية والمعنوية ليس فيها الكفاية لتحقيق أهداف الأمن القومى الأمريكى[2]. ويكفى إلقاء نظرة سريعة على الفترة ما بين مايو وأكتوبر ١٩٤٠ وكيف تطور الرأى العام الأمريكى نحو الدخول فى الحرب . فى شهر يونيه لم يكن يؤمن بانتصار فرنسا وبريطانيا سوى ٣٥٪ . فى نفس

---

(١) Individual's value system.

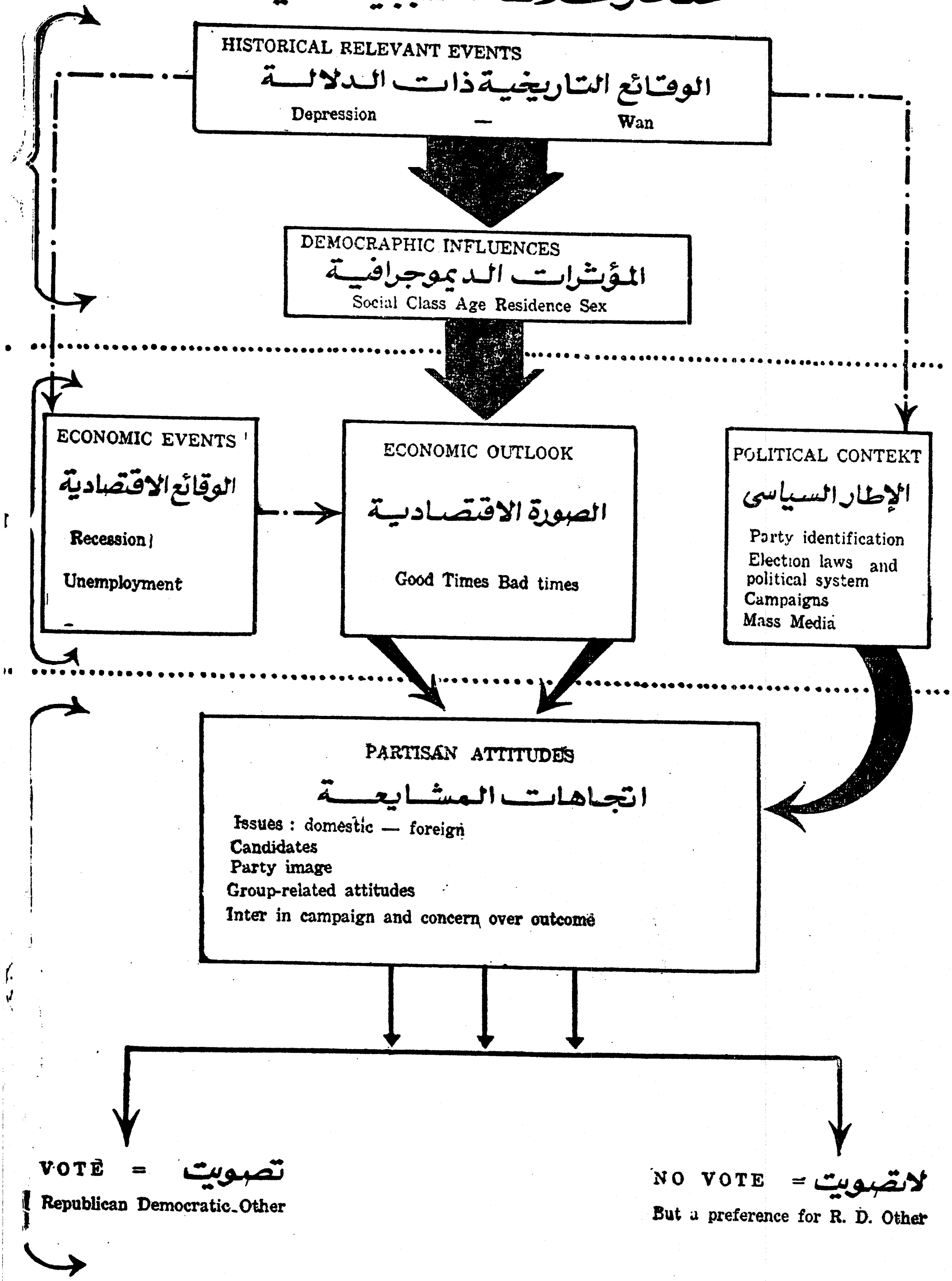
(٢) انظر نموذج آخر ، نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٣٥٣ .

بعض وقائع معينة تفصح بوضوح عن مدى تأثيرها فى حركة الرأى العام . فخلال الأشهر الأولى للحرب فان الرأى العام الأمريكى كان مقتنعاً بالنصر النهائى لكل من فرنسا وبريطانيا . اقترب من ٨٠٪ فى الأشهر الأولى من الصراع . ولكنه راح يتدهور تدريجياً حتى وصل إلى حوالى ٣٠٪ فى شهر يوليه من عام ١٩٤٠ وكان هذا فى أعقاب النجاح المخيف الذى أحرزته القوات الألمانية فى غرب أوروبا . فى نفس تلك الفترة ارتفع إيمان الرأى العام الأمريكى من حيث امكانية انتصار ألمانيا إلى أكبر نسبة عرفها وهى حوالى ٣٥٪ . ولكن هذا الموقف عاد يتغير مع رباطة جأش بريطانيا وثباتها وعدم استسلامها إزاء محاولات التدمير النازية ، حتى أنه فى أوائل عام ١٩٤١ وصل إلى حوالى ٨٥٪ . فاذا انتقلنا إلى مشكلة دخول الولايات المتحدة الحرب فاننا نلحظ أكثر من ظاهرة واحدة تثبت مدى الارتباط بين الواقعة والرأى من جانب ثم من جانب آخر مدى الارتباط الداخلى بين مختلف الآراء السياسية . فنجد أولا أن الرأى العام الأمريكى سار فى حركة هبوط مستمرة تعبيراً عن تأكيد العزلة بحيث أن أولئك الذين كانوا يؤيدون الدخول فى الحرب عند بداية الصراع والذين كانوا يمثلون أكثر من ٥٠٪ بدأوا يتقلصون تدريجياً حتى يونيو ١٩٤٠ حيث اقتربوا من ٣٠٪ . ومنذ ذلك التاريخ بدأت نسبة التأييد ترتفع فى ثبات حتى وصلت بدورها إلى حوالى ٨٥٪ فى أواخر مايو عام ١٩٤١ وكان ذلك فى فترة أضحى واضحاً فيها أن الصراع بين ألمانيا وروسيا أصبح أمر لا مفر منه وأن الحرب أضحت مسألة أسابيع أو أشهر وليس أكثر . على أن الظاهرة الأخرى الملفتة للنظر وهى الترابط بين هذا الموقف ورأيين آخرين: أحدهما عن ضرورة مساعدة بريطانيا مساعدة جدية وأن هذا أكثر أهمية من عدم الانغماس فى القتال . ثم الرأى الآخر المرتبط بضرورة المواجهة العسكرية مع اليابان . إذ نلاحظ أن الآراء الثلاث تسير باضطراد وفى نفس الاتجاه مع فوارق ضيقة لا تغير من حقيقة الاتجاه وان غيرت من قوته الكمية[1] يبدو هذا واضحاً بصفة خاصة فى العلاقة بين الرأى الخاص بدخول الولايات المتحدة والرأى الذى يفرض ضرورة المغامرة مع اليابان . فهذا الآخر فى يوله ١٩٤٠ لا يمثل سوى ١٠٪ . ترتفع هذه النسبة فى أبريل ١٩٤١ إلى ٧٠٪ أى بزيادة ٦٠٪ . كذلك الرأى الأول الخاص بدخول الولايات المتحدة

---

(١) انظر مع بعض الفوارق فى دلالة التحليل ، يونج ، م . س . ذ . ، ص ٣٥١ .

عناصر علاقة السَببية العميقة



شكل رقم « ١١ »

الشهر لم يكن يؤيد الدخول فى الحرب سوى ٢٥٪ . ومع ذلك فلم يمضى على ذلك سوى شهرين حتى ارتفعت نسبة المؤيدين للاشتراك فى القتال رغم الهزيمة إلى ٦٠٪ .

خامساً : كذلك فان الواقعة قد تكون مصدراً لتغيير فى المعلومات أى الجعبة الاخبارية التى تكون الوعاء الذاتى لتكوين الرأى . بعبارة أخرى فان تقديم معلومات جديدة بمناسبة واقعة معينة تكشف عن أحد أبعاد الوجود المرتبط بالرأى قد يترتب عليه تغيير جوهرى فى النماذج المكتسبة والمرتبطة بذلك الوجود بل قد يترتب عليه هدم كلى لتلك النماذج . ومن هذا القبيل نستطيع أن نسوق العمل الفدائى وكيف أثر فى تغيير بل وتحطيم النموذج المكتسب فى الرأى العام الغربى عن أن الأرض الفلسطينية لم تضم شعباً ولا قوماً يستطيع أن ينتسب إلى تلك الأرض[1].

سادساً : كذلك فان الواقعة فى بعض الأحيان تؤدى إلى عملية تكتيل وتحريك بحيث تسمح للرأى العام الباطن بأن يندفع فيعبر عن نفسه فى صورة واضحة وصريحة . ولعل خير مثل يعبر عن هذه الحقيقة حوادث يونيه ١٩٦٧ . فهى دفعت فريقاً واضحاً

---

(١) على القارئ أن يلاحظ أن السلوك السياسى يضم ويحتوى الكثير من الميادين والحقول المرتبطة بعلاقة المواطن بالسلطة ، ويكفى أن نتذكر أن العالم الأمريكى لانى Lane يميز بين ستة ميادين :

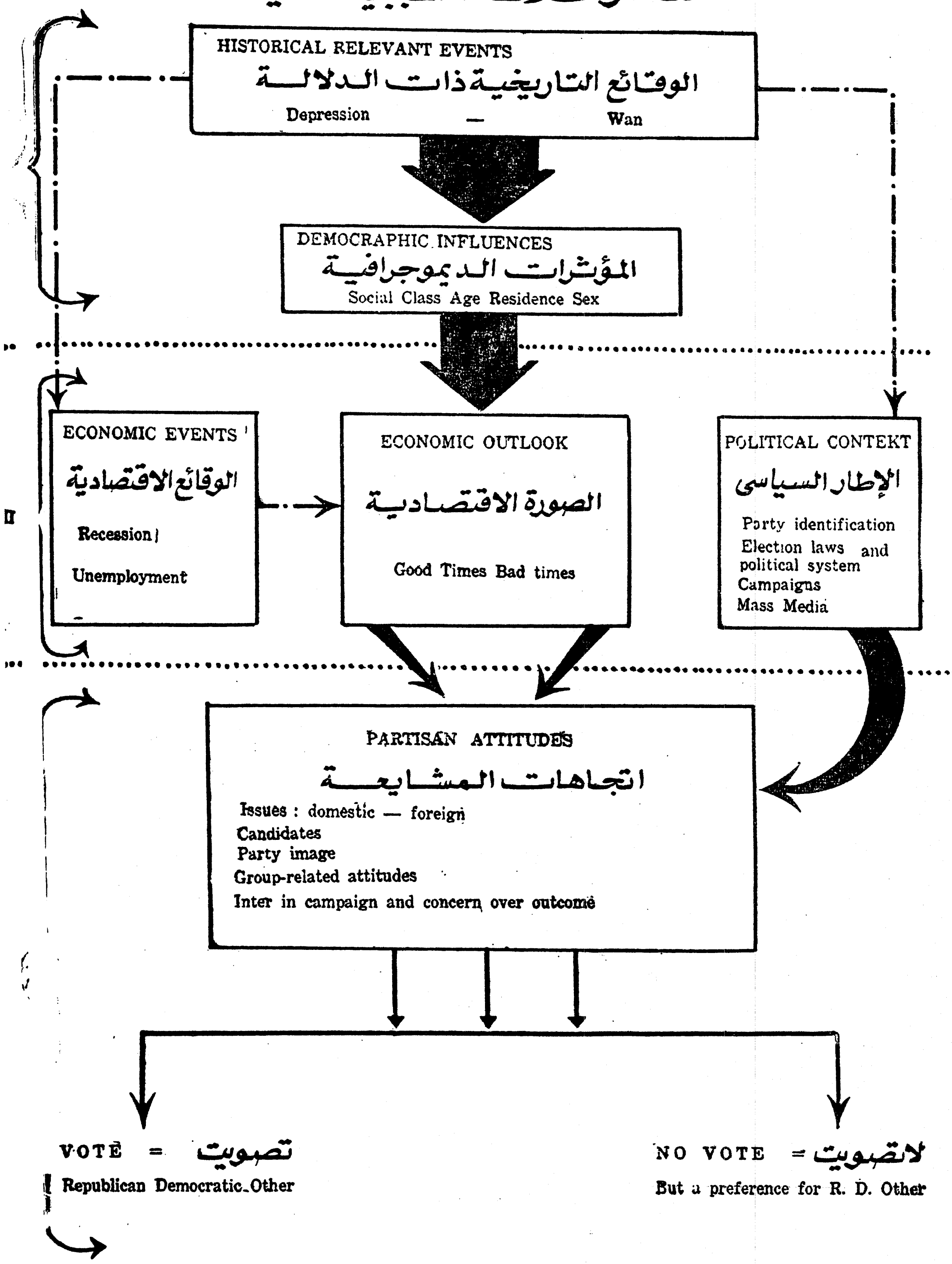
أولا	: السلوك الانتخابى .	electoral
ثانياً	: السلوك التشريعى .	legislative
ثالثاً	: السلوك الإدارى .	administrative
رابعاً	: السلوك القضائى والقانونى .	judicial and legal
خامساً	: السلوك الدولى .	international
سادساً	: السلوك الاندماجى .	integrative

وإذا كان الفقه قد درج على الاهتمام فقط بالنموذج الأول فرد ذلك إلى أن ما كتب عن ذلك النموذج هو أكثر ضخامة من كل ما كتب عن النماذج الأخرى . وقد بدأت الأعوام الأخيرة تسجل اهتماماً واضحاً بالنماذج الخمس التالية . رغم ذلك فنحن لا يعنينا هنا سوى النموذج الأول لأنه هو وحده المرتبط بظاهرة الرأى العام فى مدلولها الحقيقى .

انظر ملاحظات سيرز فى :

SEARS, Political behavior, in LINDZEY, ARONSON, The handbook of social psychology, vol. V, 1969, P. 41 ; LANE, Political science and psychology, in KOCH, Psychology : a study of a science, vol. VI, 1963, P. 583.

عناصر علاقة السببية العميقة



شكل رقم « ١١ »

من الرأى العام الغربي لتأييد الوجود الإسرائيلي فى المنطقة . كذلك فانها هيأت للرأى العام العربي التعبير الصريح عن الخطر الإسرائيلي على مستقبل المنطقة . نموذج آخر من الواقع المصرى يرتبط بالمحاكمات الشهيرة عام ١٩٦٨ والتى آدت إلى الاضرابات وما أعقبها من إعلان بيان مارس .

سابعاً : فان الواقعة قد توثر فى الرأى العام من حيث أنها تعطى الفرد أساساً كافياً للتبرير المنطقى للرأى . نموذج لذلك نجده فى الأحزاب بالنسبة لأولئك الذين يهاجمون الحركات العمالية وخصوصاً عندما يرتبط الاضراب باضطراب واضح فى المرافق العامة ؛ كذلك نموذج آخر فى نشر الفضائح المنسوبة إلى الممثلين والممثلات حيث تصير مبرراً للحملات الأخلاقية ضد تلك الأوساط ؛

الواقعة تؤثر فى تكوين وتوجيه الرأى العام . على أن هذا لا يعنى أن هذا التأثير يعنى التفسير المنطقى للواقعة : إن الواقعة يجب أن تستوعب فى العالم الذى ينتمى إليه المواطن ومن ثم فيجب فى تحديد تأثيرها ومداه معرفة لا فقط اللحظة التى تثور فيها الواقعة بل وكيف تصور وتقدم للمواطن . ومن هنا تبرز بشكل واضح حقيقة مزدوجة : من جانب أهمية الإعلام الجماهيرى حيث أنه هو وسيلة نقل الخبر وتصوره للمواطن العادى بالنسبة للواقعة ، ومن جانب آخر امكانية اختلاق الواقعة أو التلاعب بها كأداة من أدوات العمل الدعائى ؛

ولعل هذا يفسر ما بدأ يتحدث عنه العلماء باسم « الحرب الإعلامية » التى لا تعدو أن تكون عملية تخزين للمعلومات الصحيحة ثم إطلاقها فى اللحظة المناسبة بحيث تصلح لخلق رأى عام معين صديق أو عدو[1] ؛

** حالة رقم ١٢ : العلاقة بين الرأى والسلوك ومستويات التحليل

فى عام ١٩٥٩ طلب من جميع المستجدين فى جامعة كاليفورنيا فى السبعة أقسام الذين تتكون منهم تلك الجامعة تأدية امتحان فى اللغة الانجليزية سمى امتحان « ا » الغاية منه تحديد ما إذا كان الطالب يصلح لأن يقيد الدراسة العادية مباشرة أو أن عليه أن يقضى عاماً لتقوية معلوماته فى اللغة الانجليزية . فى مايو ١٩٥٩

(١) MINOR, The information war, 1970, P. 12.

وجه إلى الطلبة السؤال التالى : ما هى المخاطر على الحياة الديموقراطية من وجود تنظيم قومى للأمن كسلاح المخابرات "فدرالى(١) الذى يعمل بسرية ودون إمكانية اخضاعه للنقد العام ؟

ورغم أن أياً من الطلبة الذين تعين عليهم اجتياز هذا الامتحان لم يعترض على السؤال ، فسرعان ما بدأت تظهر أوجه النقد . فى فبراير ١٩٦٠ أرسل رئيس لجنة الدفاع عن المصالح المحلية ببركلى تلغرافاً إلى حاكم المقاطعة يصف فيه هذا السؤال بأنه دعاية صريحة وواضحة مقصودة تخضع لأهداف شيوعية وتسعى للتأثير العقيدى على الشباب المبتدئ فى الجامعة . ثم عمل تحقيق سئل فيه واضع الامتحان فأجاب الأستاذ المسئول بأن هذا السؤال كان قد تم اختياره ليؤدى وظيفة « صدمة القيم » shock value بمعنى أن يدفع الطالب لأن يكتب مدافعاً عن قيمه الديموقراطية بحماس أكبر من المعتاد .

وسرعان ما تدخل آخرون فى المناقشة . فى آخر فبراير مديرى جامعة كاليفورنيا وعقب دراسة دقيقة للموضوع اتخذوا قراراً بالاعتذار سواء للجنة الدفاع وسواء لسلاح المخابرات الفدرالى وكذلك اتخذ القرار باستبعاد السؤال المذكور من الاختبار . فى ٢٩ فبراير أرسل « ادجار هوفر » مدير السلاح الفدرالى للمخابرات خطاباً إلى جريدة « ديلى كاليفورنيان » معلناً عن دهشته من هذا السؤال الخاطىء والذى ما كان يمكن إلا أن يقود إلى سوء فهم للحقيقة . فى ٤ مارس خرجت نفس الجريدة بافتتاحية لطالب يتهم فيها مديرى الجامعة بارتكابهم خطأ واضحاً بالاعتذار ومتهماً السلاح المذكور بأنه « بقرة مقدسة » والآخرون بأنهم رجعيون . بعد عدة أيام عادت نفس الجريدة لتنشر مقالا لأحد الطلبة تتهم فيها ذلك السلاح بأنه صورة جديدة لنظام الجستابو النازى(٢).

هذا الحادث يسوقه علماء الرأى العام كدلالة على أكثر من ظاهرة واحدة . فهناك الصراع أولا بين اتجاهين من اتجاهات الرأى العام حول موضوعين كل منهما مستقل عن الآخر رغم ارتباط كل منهما بالآخر : أولها يتعلق بقيمة ووظيفة سلاح المخابرات المركزى . وثانيهما حول صلاحية هذا الموضوع للمناقشة العامة . ثم هناك ثانياً العلاقة بين الرأى والسلوك : فالفريقين لم يقتصر أياً منهما على التعبير عن رأيه بل سرعان ماحوله إلى حركة عبرت عن نفسها بمظاهر سلوكية واضحة . لجنة الدفاع ترسل تلغرافاً إلى الحاكم ، الحاكم يطلب اجراء تحقيق ، مديرى الجامعة يقدمون اعتذاراً . من جانب آخر الطلبة يكتبون مقالات ويهاجمون فيها نفس السلاح المذكور موضع المناقشة(٣).

كل هذا يثير أكثر من مشكلة من الناحية الفقهية :

ما هى العلاقة بين الرأى والسلوك ؟

سبق أن رأينا أن هناك علاقة وأن هذه العلاقة علاقة ارتباطية بمعنى أنه لا شك فى وجود تأثير وتأثر بين الرأى السياسى والسلوك الانتخابى . ولكن هل هذه العلاقة قاصرة فقط على السلوك الانتخابى أم أنها تتعدى

---

(١) F.B.I. = Federal Bureau of Investigation.

انظر فى دراسة موجزة تفصيل وظائف هذه الهيئة فى :

LONDON, The making of foreign policy, 1965, P. 112.

(٢) التفاصيل منقولة عن :

DREYER, ROSENBAUM, Political opinion and electoral behavior : essays and studies, 1967, P. 2 - 4.

(٣) انظر المراجع الواردة فى الهامش رقم ٥ ص ٧ من المرجع السابق ذكره .

ذلك إلى أى سلوك مرتبط بموضوع الرأى ؟ لا تعنينا هنا الإجابة على موضوع الاستفهام بقدر أهمية وضع الأصول المنهاجية لتحليل هذه العلاقة .

أهمية ذلك أن عملية جمع المعلومات فى أى حالة مرتبطة بهذه الدراسة تفرض إطاراً فكرياً واضحاً ومحدداً لبناء أداة جمع المعلومات . الإطار الفكرى بعبارة أخرى يسمح بتحديد تنوع وطبيعة الأسئلة التى يجب أن تدور حولها عملية جمع المعلومات . وخير إطار استطاعت الدراسات الميدانية أن تقدمه الآن هو ذلك الذى قام بتأصيله مركز أبحاث الرأى العام فى جامعة ميتشجان عقب دراسة الحملة الانتخابية عام ١٩٥٢ ثم الحملة الانتخابية لعام ١٩٥٦ والذى أطلق عليه « علاقة السببية القمعية »(١).

الإطار الفكرى العام لتحليل علاقة السببية القمعية يدور حول مفهومين : أولهما أن فهم الرأى والسلوك لا يمكن أن يتم إلا من خلال تحليل متتالى للمتغيرات الأساسية . بمعنى أن الرأى والسلوك ينبعان كلا منهما من مجموعة من المتغيرات التى من الممكن أن نميزها إلى مجموعات أربع : تاريخية ، نظامية ، اجتماعية ونفسية . هذه المتغيرات تختلف درجاتها من حيث التأثير . وكما يلحظ القارئ فى شكل رقم ١١ فإن تلك المتغيرات المرتبطة بالاطار السياسى أو بالآراء المتعلقة بالنواحى السياسية تؤثر تأثيراً مباشراً فى السلوك الانتخابى سواء بمعنى التصويت من عدمه أو تفضيل مرشح من عدمه . ولكن هناك متغيرات أخرى أكثر بعداً فى الحقيقة الاجتماعية وتمتد إلى خلفية أكثر عمقاً فى المقومات السلوكية تؤثر بدورها من خلال تلك السابقة وهى الوقائع التاريخية ، النواحى الديموجرافية كالخصائص الاجتماعية ، ثم المتغيرات النظامية بما فى ذلك النظم الانتخابية(٢).

وبعبارة أخرى هناك مستويات متعددة لعلاقات الارتباط بالتأثير والتأثر فى كل من الرأى والسلوك .

ولكن إذا كان من السهل التمييز بين مجموعات المتغيرات واعتبار كل مجموعة مقدمة لمجموعة أخرى تمثل خلفية أكثر عمقاً وأكثر اتساعاً ، فإن تفسير كيف يتم ربط كل من هذه المتغيرات بالأخرى خلال فترة زمنية معينة فى حاجة إلى نموذج أكثر من ذلك الذى قدمناه فى شكل رقم ١١ دقة وتحليلا . الباحثون السابق ذكرهم جعلوا أساس تحليلهم للرأى يدور حول الافتراض الآتى : إن الرأى السياسى يتحدد بعملية تفاعل مزدوجة من جانب التفاعل بين مختلف المتغيرات التى تنصب فى لحظة معينة من مراحل الخبرة الفردية والذاتية . ثم من جانب آخر كيف يستطيع الفرد أن يحدد الموقف الذى يسمح له بأن يحدد بدوره ولو لاشعورياً تلك المتغيرات التى يمكن أن توصف بأنها ذات دلالة بالنسبة له فى تلك اللحظة .

وهكذا نعود مرة ثانية إلى الواقعة وتأثيرها فى عملية صنع الرأى على المستوى الفردى . يقول علماء جامعة ميتشجان بهذا الخصوص : « نحن نفترض بأن أكثر الوقائع أو الشروط التى تؤثر مباشرة فى السلوك يحدث إدراك لها بطريقة أو بأخرى من جانب الفرد فى مرحلة سابقة على السلوك المحدد وأن السلوك ما هو إلا رد فعل لهذا الادراك » . فواقعة أن شخصاً مثلا فقد عمله فى أعقاب أزمة اقتصادية لا يمكن أن تصير هامة فى تفسير سلوكه إلا إذا كان هو ذاته قد شعر بها كأحد متغيرات الحركة(٣).

Funnel of causality (١)

(٢) يجب أن نفهم هذه الملاحظات على أنها بقصد مجرد بناء افتراضى للدراسة وليست محاولة لتفسير الظاهرة . أو كما يقول أصحاب هذه المدرسة : **a working model**. انظر المرجع السابق ذكره، ص ٩ هامش ٧ .

(٣) أورده نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٨ .

ولكن كيف تتم عملية الادراك وبصفة خاصة بالنسبة للرأى السياسى ؟

بطبيعة الحال القواعد العامة التى تثيرها ظاهرة الادراك قابلة للتطبيق . على أن علماء جامعة ميتشجان يقفون أمام أداتين بالنسبة للرأى السياسى ويصبغون عليهما أهمية خاصة . الأولى وهى ظاهرة الاتصال السياسى ، والثانية ويمكن ترجمتها بكلمة عملية الامتصاص السياسى(١). الأول يتم من خلال أدوات الاتصال التقليدية أى الجماهيرية والشخصية . أما الثانية فيقصد بها اعطاء واقعة معينة أو حدث معين طابع سياسى واعتباره ذا دلالة واضحة كنتيجة للنظرة الذاتية لذلك الحدث أو لتلك الواقعة . هذه القواعد قابلة للتطبيق أيضاً على أى رأى آخر حتى ولو كان غير سياسى . وهى جميعها تنبع من هذه الحقيقة وهى أن ظاهرة الرأى هى من حيث تكوينها فإنها تخضع لعملية تطور معينة متتابعة الحلقات .

الشكل رقم ١٢ يبرز هذه الحقيقة بطريقة مبسطة(٢).

ففى ذلك الشكل نجد كيف أن مجموعة معينة من الوقائع تستطيع أن تؤثر فى نطاق الادراك الفردى . هذه الوقائع هى : أ ، ب ، حـ ، د . أما القمع فهو حدود تقبل هذه الوقائع تبعاً لعامل الزمن وهو المتغير الآخر الجانبى الذى عبرنا عنه بأرقام متتالية تبعاً لاختلاف كل لحظة من لحظات الادراك . وهكذا فإنه فى اللحظة الأولى ولتكن ت١ فإن الوقائع ا ، ب ، حـ تصير ذات دلالة فى عملية الادراك . ولكن فى اللحظة ت ٢ تصير فقط ب ، حـ ذات دلالة فإذا وصلنا إلى اللحظة ت ٣ نجد أنه رغم أن ب،حـ قد استطاعت أن تتفاعل لتعبر عن نفسها فى رأى أو سلوك فى ت ٥ ، ولكن فى خلال فترة سابقة على التعبير عن الرأى والسلوك ولاحقة لعملية التفاعل بين ب ، حـ نجد واقعة رابعة د قد أضحت بدورها ذاتية وانطلقت فى دائرة الإدراك لتصير متغيراً جديداً يتحكم فى الحركة .

كل هذا يوضح ويبرز نتائج معينة :

أولا : ما سبق وذكرناه من أن ظاهرة الرأى هى عملية تطور يجب أن تخضع لتحليل زمنى معين من حيث التتابع فى المراحل وهو ما سوف نراه فيما بعد .

ثانياً : كيف يجب أن نربط بين المتغيرات المختلفة التى تتحكم فى عملية صنع الرأى على المستوى الفردى . وموضع هذا هو نظرية الرأى العام .

ثالثاً : أن تحليل الرأى والسلوك يجب أن يفرض حساسية معينة فى معالجة مختلف القوى الاجتماعية والذاتية المركبة والتى تستتر خلف كل فرد وكل مواطن فى حركته المعبرة عن الطاقة الداخلية .

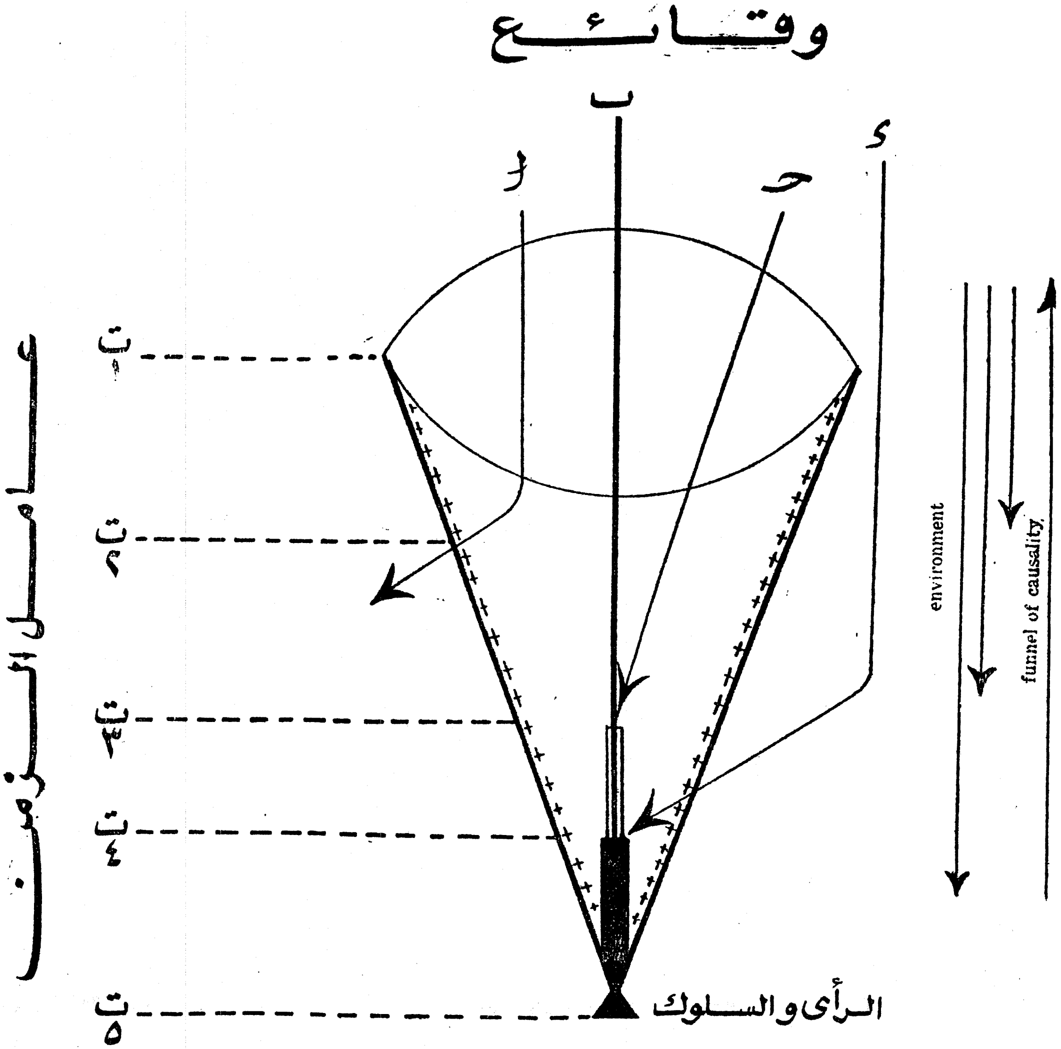
كل هذا ما كان يمكن أن نصل إليه لولا النظرة السلوكية للحركة البشرية(٣).

---

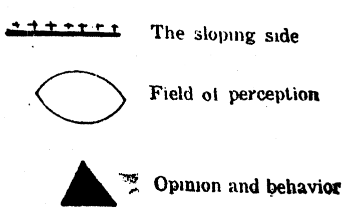
(١) political translation . المقطع الأول يعنى حرفياً الترجمة ، ولكن كلمة الامتصاص هنا تصير أكثر تعبيراً حيث أن العملية المتعلقة باعطاء الطابع السياسى لما هو ليس بسياسى قد تكون لاشعورية وغير منطقية . انظر نفس المرجع السابق ذكره ، ص ١٠ .

(٢) يجب أن يلاحظ القارئ أن أسلوب التحليل يمكن أن يأخذ الصورة العكسية وفى تلك اللحظة نستطيع أن نطلق عليه أسلوب التحليل بطريق الضواحى par les environs . وهو لايعدو نفس المنهاجية على أن نبدأ من الخلفية العامة لنصل إلى الجزئية المتقدمة فى عملية التطور . وهذا واضح فى الشكل رقم ١٢ . ونفس المفهوم أكثر وضوحاً من حيث التطبيق بالنسبة لاطار التحليل الموضح فى الشكل رقم ١١ .

(٣) عرض كامل للمصادر يجده القارئ فى دريير ، م . س . ذ . ص ١٢ — ١٣ ، سيرز ، م . س . ذ . ، ص ٤٤٣ — ٤٥٨ .



عامل التأثير فى علاقة السـببية القمعية



المبحث الثانى

تأصيل ظاهرة الرأى العام

§ ٣٤ – اصطلاح « الرأى العام » واخفاقه فى التعبير عن حقيقة الظاهرة :

قبل أن نحلل مقومات الظاهرة وما يفترضه المفهوم من خلفيات فكرية معينة يجب علينا أن نسرع فنزيل اللبس الذى من الممكن أن نقع فيه من عموميات الاصطلاح المتداول . فكلمة الرأى العام هى ترجمة لاصطلاح Public opinion وكلمة عام أى Public قد تفهم بواحد من معان ثلاثة : الأول بمعنى ما هو ليس بخاص ، وبعبارة أخرى ذلك الذى لا يتعلق بالوحدة الذاتية ، وإنما بالوحدة الكلية . ومن هذا المنطلق نتحدث عن المصلحة العامة أو الطريق العام أى المصلحة غير الخاصة والطريق غير الخاص . فهل يقصد بالرأى العام ذلك الذى ليس خاصاً ؟ الثانى ويصير مرادفاً لكلمة مشترك . فيقال بأن الشجاعة لدى الرومانى هى صفة عامة وذلك بمعنى أنها تتواجد فى كل رومانى أو فى أغلب من ينتمى إلى المجتمع الرومانى بدرجة أو بأخرى . المعنى الثالث يقصد به العلانية . وهكذا يقال بأن فعلا معيناً أضحى « فضيحة عامة » بمعنى أنها أضحت تتصف بصفة العلانية فهى معروفة أو فى حكم المعروفة من الجميع .

كلمة عام فى الاصطلاح الذى نحن بصدد تحليله تجمع بين العناصر الثلاثة مع تأكيد على المعنى الثالث(1) . فالرأى العام هو ليس برأى خاص لأنه لا يقتصر على فرد واحد ،

(١) نظرية الرأى العام تكون اليوم أحد الميادين الهامة التى تتناولها النظرية السياسية بالكثير من العناية عقب أن تطلق عليها كلمة « ديناميات الحياة السياسية » أو Political dynamics بحيث تصير أحد الأبواب الأساسية التى يدور حولها تحليل الوجود السياسى بصفة عامة والحركة السلطوية بصفة خاصة .

على أن فهم هذه الحقيقة فى حاجة إلى بعض التفسيرات .

فتاريخ الكثير من الثقافات يبرز نموذجاً من التطور عرفته كذلك المعرفة السياسية : ففى خلال مرحلة

وهو يميل إلى أن يصير تعبيراً عن موقف مشترك فى أغلب عناصر المجتمع السياسى ، ثم هو يتصف أساساً بصفة العلانية .

= معينة يسيطر على التحليل نوع من التجريد الفلسفى سرعان ما تعقبه مرحلة أخرى يسير فيها البحث عن النماذج والتطبيقات وبالتالى الدراسة الجزئية يمثل الاهتمام الوحيد لتلك الثقافة . وإذا كانت المرحلة الأولى تنتهى بالتأكيد على بعض المفاهيم العامة حيث ترتفع عن مستوى المناقشة وتصير مكونة فى مجموعها لجسد من المسلمات والبديهيات فإن المرحلة الثانية تنتهى بتأكيد الشعور بالحاجة للعودة إلى التجريد والإطلاق ومحاولة ربط تلك الجزئيات الواحدة منها بالأخرى فى شكل إطار عام أو نظرية عامة تحكم موضوع المعرفة .

ولو عدنا لتاريخ الفكر السياسى منذ أقدم مراحله لوجدناه يعكس تلك الحقيقة . فعقب أفلاطون وتجريداته المطلقة يصادفنا أرسطو بتطبيقاته الجزئية وواقعه التجريدى . وعقب مرحلة العصور الوسطى حيث يدور الفكر السياسى فى حلقة مفرغة حول تحليل العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية نصادف القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد اصطبغ الفكر السياسى بصبغة الاقليمية والمحلية فى تحليله لأبعاد الوجود السياسى والمشكلة السياسية .

كذلك علم السياسة صادف ولا يزال يصادف هذا النموذج من تطور المعرفة الذى استطاعت أن تبرزه الفلسفة العلمية . فعلم السياسة الذى كان يدور فى خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى فى فلك التجريدات والحقائق المطلقة والمفاهيم العامة سرعان ما اصطبغ بالصبغة العملية الميدانية التجريبية والجزئية فى خلال فترة ما بين الحربين . وكما أصاب الثقافة الاجتماعية نوع من الانفجار فى ميادينها المتعددة باسم التخصص ، أصاب علم السياسة نوع من التحلل فى دراساته باسم المنهاجية العلمية . وجاءت الحرب العالمية الثانية لتفرض من جديد محاولة التجريد المطلقة فى سعى الثقافة السياسية لخلق تلك النظرية العامة التى تحكم وتفسر الوجود السياسى بمختلف أبعاده وتطبيقاته .

نظرية الرأى العام فى وضعها المعاصر فى السبعينات تعكس هذه الحقيقة .

إن المعرفة بصفة عامة يمكن أن توصف بأنها عملية تتقابل فيها الذاتية بالموضوعية فى صراع مستمر ودورة متلاحقة من التأثير والتأثر بحيث أن كل معرفة لا تعكس فقط الحقيقة مجردة عن أى اعتبار آخر ، بل هى تعكس أيضاً ذاتية الباحث وحقيقة العصر الذى ينتمى إليه . فالمعرفة تتحدد بعناصر أربعة : اختيار اهتمامات الباحث أولا ، ثم ثانياً الخصائص المعاصرة للموقف الذى نسعى إلى اكتشاف حقيقته . أضف إلى ذلك من جانب ثالث مجموعة العمليات التى نستطيع بها أن نختبر ونقيس تلك الخصائص المرتبطة بالموقف ، ثم رابعاً وأخيراً النظام العام للرموز وللغة الذى يسمح بتنظيم جمع تلك المعلومات واستخدامها فى عمليات التطبيق والتحليل المرتبطة بخصائص ذلك الموقف . هذه المقومات الأربع تتذبذب بين الذاتية والموضوعية . فإذا كانت خصائص الموقف موضوعية أو تغلب عليها تلك الصفة ، فإن اهتمامات الباحث ذاتية وفقط لا تعكس سوى الصفة الذاتية .

المجتمع المعاصر نموذج واضح يعكس هذه الحقيقة . فلم يحدث فى تاريخ الإنسانية حتى اليوم أن قدمت البشرية نموذجاً للمجتمعات حيث يصير فيها الرأى العام أحد مقومات الوجود سواء السياسى أم غير السياسى كذلك الذى فرضته علينا حضارة النصف الثانى من القرن العشرين .

رغم ذلك فإن الفقه المعاصر يعترف بعجزه عن تقديم تلك النظرية العامة التى تفسر ظاهرة الرأى العام . ورغم جميع الجهود التى بذلت ولا تزال تبذل فى هذا المقام، فإن نظرية حقيقية فى معناها المتكامل بخصوص =

رغم ذلك فان هذه النواحى فى حاجة إلى شىء من التحديد .

١ ــ الرأى العاميتصل بالمجتمع كحقيقة كلية وينبع منه . والواقع أننا لو نظرنا إلى أنواع الرأى المختلفة لوجدنا أنفسنا أمام أربعة نماذج أو تطبيقات :

= تفسير ظاهرة الرأى العام لم يقدر لها بعد الوجود . فى الصفحات الأولى من مؤلفه المشهور الذى على يديه تتلمذ أكثر من نصف علماء الرأى العام فى خلال العشرين عاماً الماضية كتب العالم الأمريكى « بيريلسون » معلناً لهذه الحقيقة : « فى الطبعة الأولى من هذا المؤلف أعلنا أنه لا توجد نظرية مسلم بها للرأى العام ، وأننا لا نعرف حالياً أى محاولة لبناء مثل هذه النظرية . . وعقب خمسة عشر عاماً فإن ذلك الذى أكدناه لا يزال صحيحاً . فلا تزال تنقصنا نظرية عامة لتفسير الظاهرة ، ولا نزال نشك فى امكانية الوصول إلى بناء مثل تلك النظرية فى القريب العاجل » .

فلماذا هذا التشاؤم ، وما هى أسباب عجز الثقافة العلمية عن أن تجيب على هذه الحاجة الماسة والملحة رغم التقدم الرهيب الذى حققه التحليل الاجتماعى بصفة عامة والسياسى بصفة خاصة فى خلال الأعوام الأخيرة ؟

سؤال لا نستطيع الإجابة عليه فى هذه العجالة التى نعرض من خلالها للظاهرة كأحد مظاهر السلوك الجماعى . ولكن يجب أن ننتهز الفرصة لنقف قليلا أمام حقيقة الصعوبات التى تكتنف دراسة الظاهرة لأن إيضاح هذه الصعوبات يسمح بفهم حقيقة وإصالة ما قدمته المدرسة السلوكية فى هذا المجال .

ما هى العقبات التى تعترض المحاولات الفعلية فى سبيل خلق تلك النظرية العامة التى تحكم الظاهرة وتفسر مختلف أبعادها لتضفى على المعرفة بتلك الظاهرة الصبغة العلمية التى يسلم الجميع بأننا فى أشد الحاجة إليها ؟

نستطيع أن نحدد منذ الآن صعوبات خمس يجب أن نكون على علم بطبيعتها وبأبعادها عندما نحاول أن نقوم بأى صياغة لتلك النظرية العامة فى محاولة الاستجابة لاحتياجات المعرفة الإنسانية بأبعاد الوجود السلوكى بصفة عامة والسياسى بصفة خاصة كحقيقة نفسية :

أولا : حداثة المادة ، فدراسة الرأى العام لا تبعد إلى أكثر من ربع قرن .

ثانياً : غموض ظاهرة الرأى العام . فهذه الظاهرة توصف بأنها كظاهرة الكهرباء نلم بها عندما تعلن عن وجودها دون أن نستطيع لا التعرف على طبيعتها ولا متابعة التطورات الباطنة التى تسبق بروزها فجأة وبلا مقدمات . فإذا كانت الظاهرة موضوع الدراسة غامضة وغير قابلة للتحديد ، فكيف نستطيع الزعم بامكانية بناء النظرية التى تفسر تلك الظاهرة ؟ أليست إحدى بديهيات التحليل العلمى عملية عزل الظاهرة موضع الدراسة عن غيرها من الظواهر لإمكانية تحديد خصائصها ومقوماتها ؟

ثالثاً : أضف إلى هذا عدم استقلال هذه المعرفة وهذه الدراسة كنظام فكرى من حيث التجريد وكحقيقة مهنية من حيث الواقع . فالرأى العام ينتمى إلى علم السلطة ، وأحد فروع العلوم السياسية ولكنه فى نفس الوقت ينتمى أيضاً إلى علم النفس سواء أخذ صورة جزئية من جزئيات علم النفس الاجتماعى أو سمى باسم علم النفس السياسى . وهو كذلك يكون جزءاً لا يتجزأ من علم الاجتماع ، بل هو يحتل المركز الأول من مقومات نظرية الضبط الاجتماعى . هذا الصراع وهذا التنازع لا بد وأن يعكس وجوده فى ذبذبة الثقافة المرتبطة بتلك الظاهرة وعدم استقرارها على تقاليد واضحة ومحددة .

رابعاً : فإذا أضفنا إلى ذلك كيف أن دراسة الرأى العام فى نطاق العلوم السياسية كانت سيئة الحظ وبصفة خاصة فى البلاد المتخلفة ، لفهمنا إلى حد ما مدى الصعوبات التى سوف نواجهها فى بناء إطار التحليل. =

اولا : الرأى الخاص ، وهو رأى الفرد فى أمر يختص به ولا يتعداه . كأن يرى شخص أن يتناول طعامه لأن ميعاد تناوله قد حان وآخر يرى أنه رغم ذلك فهو لا يزال يشعر بالشبع ولا يريد أن يتناول غذاءه .

ثانياً : النموذج الأول رأى خاص أى رأى فردى ولكنه مرتبط أيضاً بمصالح شخصية وذاتية . فلنتصور أن شخصاً منعزلا فى حجرته يقرأ خطاباً لرئيس الدولة وليكن متعلق بمصير المجتمع بأجمعه . وعبر عن رأيه فى ذلك الخطاب بجميع وسائل التعبير : قولا وكتابة . فان هذا لا يعدو أن يكون رأياً خاصاً ولكنه يرتبط بالمشاكل العامة .

=فعلماء السياسة فى المجتمعات النامية ، بل وفى كثير من البلاد المتقدمة ان لم يكن أغلبها لو استثنينا التقاليد الأمريكية ، هم دخلاء على علم السياسة ، بل وتسلقوا إليه من الباب الخلفى . يأتون إما من ميدان الثقافة التاريخية أو من علم الاجتماع أو من علم القانون . وهم نتيجة لذلك يطبقون أساليبهم دون فهم لطبيعة المادة أو على الأقل دون اقتناع بأن هذه الطبيعة تفرض أسلوباً جديداً . وكما لو كان كل هذا لا يكفى ، فإننا فى المجتمعات النامية فى أغلب الأحيان نجد علماء السياسة يمثلون أشخاصاً أخفقوا فى تخصصهم الأصيل . وهكذا نجد عالم التاريخ الذى لم يوفق فى أن يكون مؤرخاً ، يتسلق علم السياسة ليزعم تخصصه فى هذا النطاق . فكيف يستطيع أن يستجيب لمقتضيات هذه الثقافة الجديدة فى موضوعها وبالتالى التى تفرض أسلوباً جديداً فى الامساك بها ؟ وإذا كانت نتائج هذا الوضع غير واضحة من حيث مخاطرها فى مختلف الفروع المرتبطة بعلم السياسة ، فإن الأمر يصير خطيراً بالنسبة لنظرية الرأى العام . ذلك أن هذه النظرية تفترض أساليب منطقية وتحليلية تقوم على المنهج الاحصائى والكليات الرياضية ، فضلا عن استخدام المقاييس النفسية . الأمر الذى يفسر هروب أغلب علماء السياسة فى تلك المجتمعات من الاهتمام بدراسة ظاهرة الرأى العام .

خامساً : كذلك فإن عالم الرأى العام أو خبير الرأى العام يجد نفسه فى أغلب الأحيان مضطراً إلى أن يصطدم بالنظام السياسى القائم . وهو فى تلك اللحظة يتعين عليه واحد من أمرين : إما أن يجارى السلطة السياسية فيفقد الحياد اللازم فى المنطق العلمى ، وإما أن يلجأ إلى المنفى الاختيارى كما حدث بالنسبة لأكثر من عالم واحد من علماء الرأى العام المعاصرين .

انظر من بين المراجع الأساسية فى الموضوع المصادر التالية التى تتناول بصفة خاصة هذه النواحى وعلى وجه التحديد من حيث علاقتها بالعلوم السلوكية من جانب وبعلم السياسة كأحد تطبيقات النظرية السلوكية من جانب آخر :

DOWNS, An economic theory of democracy, 1957 ; KELLEY, Political campaigning, 1960 ; LAZARFELD, The people's choice : how the voter makes up his mind, 1948 ; CAMPBELL, KAHN, The people elect a president, 1952 ; ANDERSON, The 1964 election in California, in West. Pol. Quart., vol. XVIII, P. 451 ; ANDREWS, American voting participation, ibidem, vol. XIX, P. 639.

ثالثاً : كذلك نستطيع أن نتصور الرأى فى كلا التطبيقين الأول والثانى ولكنه منتشر فى أغلب أفراد المجتمع أو على الأقل فى جزء كبير منهم . مثل هذا الرأى يصير رأياً عاماً لأنه منتشر فى المجتمع حتى ولو لم يقدر له التعبير الجماعى .

رابعاً : وأخيراً نستطيع أن نتصور رأى الجماعة أو فئة من الجماعة وذلك عندما يعبر الأفراد عن آرائهم ويكتشفون ذلك التطابق بين آراء الفئة أو المجموعة أو الشريحة . وهنا نجد أن العلانية تصير مرتبطة بالرأى العام[1] .

فالرأى كحقيقة سلوكية ترتبط بكل جماعة مع خلاف فى مستوى التجمع . والتجمع الذى ينسب إليه الرأى يجب أن ينقسم فى مواجهة موضوع الرأى ويختلف حول أبعاده نتيجة للمناقشة والصراع الفكرى[2] . ومن ثم فان الرأى لا يمكن أن يكون وليد الارهاب ولا الضغط : يجب أن ينبع وينبعث من الذات البشرية وبتلقائية تامة .

٢ ــ ولكن ما هو الرأى ؟ ما الذى يقصد بكلمة رأى ؟

الواقع أن الفقه السلوكى درج على أن يميز بين مظاهر متعددة من التعبيرات الفردية أو الجماعية لعملية التنبيه . وبصفة خاصة نستطيع أن نميز بين الرأى ، الحكم ، الاتجاه ، السلوك .

أولا : الرأى ويقصد به وجهة نظر قد عبر عنها تعبيراً خارجياً . ومن ثم فان الرأى يتضمن الإعلان عن وجوده بألفاظ أو رموز تسمح بفهم تلك الحقيقة المعلن عنها . بعبارة أخرى فان الرأى لا بد وأن يخرج من حيز الباطن إلى العالم الخارجى أى إلى الوجود الظاهرى بحيث يمكن القول بأنه استقل عن شخص صاحبه . هذا العنصر ، عنصر التعبير[3] هو الذى يجعل المدرسة السلوكية ترى فيه حقيقة سلوكية .

---

(١) انظر البيج ، م . س . ذ . ، ص ٩ وما بعدها .

"The opinion process is operative to a greater or less extent in all groups, from a primary group engaged in gossip and discussion to an international organization. In a public involved in the opinion process, we have a group of people who are confronted by an issue, who are divided in their ideas as to how to meet the issue, and who engage in discussion over the issue".

(٢) لاحظ المؤلف السابق ذكره ، ص ٤ حيث يتخذ موقفاً مخالفاً لنظرتنا لظاهرة الرأى العام . فهو يعلن بأن التحليل السلوكى لا يسمح بفهم الظاهرة . قارن أيضاً المرجع الوارد فى نفس المصدر ص ٤ هامش ٣

Manifestation.

(٣)

ثانياً : الحكم على عكس الرأى لا يفترض فيه أن يعبر عنه فمن الممكن تصور الشخص الذى يحكم على شخص معين أو موقف معين ومع ذلك فهو لا يعبر عن نفسه ولا يفصح عن ذلك الحكم ، بل وهو قد يعلن عن رأى مخالف لذلك الحكم ان لم يكن متعارض معه . فالشخص الذى يوصف بالرياء ما هو إلا شخص يتعارض حكمه مع رأيه إذ يتظاهر هو مثلا بالمحبة حيث حكمه قد قاده إلى العداوة .

على أنه إلى جانب ذلك هناك فارق آخر يفترض تحليلا أكثر عمقاً فى عملية التفرقة بين الرأى والحكم . ذلك أن الرأى فى العادة يرتبط بوجهة نظر لا تفترض عمقاً ولا تحليلا دفيناً مع مناقشة جادة لمختلف وجهات النظر ، على عكس الحكم[1] الذى يفترض مناقشة لمختلف وجهات النظر المؤيدة والمعارضة والانتهاء عقب وزن وتقييم لكلا الجانبين إلى الفصل والقطع فى الإعلان عن وجهة النظر . وهكذا نستطيع القول بأن الحكم يفترض أكثر من رأى واحد ، وأنه ينتهى لو أعلن عنه بأن يصير بدوره رأياً[2] .

ثالثاً : الاتجاه ويقصد بذلك الاستعداد الذاتى لاستجابة معينة سلوكية إزاء موقف معين لم يتحدد بعد[3] . وهكذا نلحظ أن الاتجاه هو حقيقة ذاتية تنبع وتتحدد بطبيعة الفرد بحيث أنه من الممكن أن يوجد ويتوفر لدى الشخص دون علم الفرد ذاته به . هو حقيقة إذن قد تكون لاشعورية . كذلك فهو احتمال استعداد لم يتبلور بعد ، ولذلك فالقول بأن شخصاً معيناً لديه اتجاه معين يعنى التنبؤ بأن هذا الشخص لو وجد فى موقف معين فأنه لا بد وأن يستجيب بشكل معين أو على الأقل يغلب على الظن أن تكون استجابته بذلك المعنى . بعبارة أخرى الاتجاه يعنى درجة معينة من احتمال أن المواطن أو الفرد لو ووجه بظروف معينة بخصوص مشكلة معينة لأن يتصرف بشكل معين . والخلاصة أن الاتجاه يفترض أن الموقف لم يتحدد بعد .

---

(١) Judgement.

(٢) الحكم هو خاتمة ونتيجة لعملية توازن معينة بين عدة آراء وهو مقدمة لاعلان عن رأى معين ، انظر وقارن :

FISHBEIN, A behavior theory approach to the relations between beliefs about an object and the attitude toward the object, in Attitude theory and measurement, 1967, P. 389.

(٣) Attitude.

فلو قيل مثلا أن هناك اتجاه لدى (د) نحو تنظيم النسل فهذا يعنى :

(أ) أن هذا المواطن لم ينظم نسله .

(ب) وأن هذا الشخص لم يواجه مشكلة تنظيم النسل ، لأنه لم يتزوج مثلا أو لأن زوجته عاقر وغير صالحة للانجاب .

(حـ) انه ابتداء من خصائصه الحالية نستطيع أن نتنبأ بأنه لوووجه بمثل ذلك الموقف فيغلب على الظن أنه سوف يعمل على تنظيم نسله .

الاتجاه ليس بسلوك لأن صاحبه بعبارة أخرى لم يخضع بعد للمنبه الذى يفرض الاستجابة (١) .

رابعاً : السلوك، أى التصرف كرد فعل للمنبه أى الاستجابة للموقف وقد تحددت عناصره . السلوك فى صورته العادية هو واقعة تعكس الحركة ، أى طاقة قد تبلورت فى شكل تدفق ايجابى أو سلبى سعياً نحو تحقيق اشباع معين بطريق مباشر أو غير مباشر . وهكذا فان السلوك يعنى أن الموقف قد تحدد أى أن المنبه قد ارتطم بالجسد فاذا بالجسد يتحرك فيتقدم بالاستجابة أو بصفة عامة رد الفعل .

الأمر الذى يجب أن نلاحظه هو أن العلاقة بين هذه الحقائق الأربعة رغم التمييز بينها دفينة وقائمة . سبق أن رأينا العلاقة بين الرأى والحكم . كذلك فان العلاقة بين الاتجاه والسلوك واضحة : السلوك هو اتجاه تحقق والاتجاه هو سلوك لا زال فى حيز التكوين . كذلك فان الرأى لو نظرنا إليه من وجهة نظر معينة لاعتبرناه سلوكاً وهكذا سبق وعرفناه بأنه سلوك قولى . ذلك أن الرآى بمجرد الاعلان عنه يصير واقعة وهكذا فمن الممكن أن يوصف بأنه بدوره سلوك .

بقيت العلاقة بين الرأى والاتجاه :

كذلك هنا العلاقة واضحة بمعنى أن الرأى يعكس بصفة عامة « استعداد معين للسلوك» ومن ثم يعكس أو من الممكن أن نرى فيه علاقة على وجود الاتجاه . وهكذا نستطيع فى الواقع اكتشاف الاتجاه . ذلك أن سؤال شخص عن رأيه فى موضوع تنظيم النسل وإجابة بتأييده لذلك الموضوع يعنى أن لديه استعداد معين لتقبل ذلك السلوك

---

(١) NEWCOMB, TURNER, CONVERSE, Social psychology, 1965, P. 47.

وهو يحمل دلالة معينة على الاتجاه نحو تنظيم النسل. بطبيعة الحال لا يعنى ذلك أن هناك تطابق دائم بين الرأى والاتجاه فقد أثبتت الأبحاث الميدانية ، أن نسبة الانتقال من السلوك القولى إلى السلوك الفعلى يمثل أقل من ١ : ٢ ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن الرأى ذاته من الممكن أن يكون — وذلك بشرط الاستناد إلى تحليل معين نحيل فى تفاصيله إلى ما سوف نقوله بخصوص قياس الاتجاه — علامة على وجود الاتجاه[١].

§ ٣٥ — تحليل المفهوم ومقوماته الفكرية :

ظاهرة الرأى العام ظاهرة غامضة . وفهم الظاهرة يفترض أن نصل إليها من خلال تحليل ثلاثى : المفهوم ، مقومات الظاهرة ، ثم مراحل تكوين الظاهرة . يجب أولا أن نبدأ فنتساءل : ما هى الأصول الفكرية التى تنبعث منها وتتحدد بها الظاهرة ؟ ثم ننتقل إلى الظاهرة ونحاول أن نبرزمقوماتها أى العناصر التى تتكون منها . وإذ ننتهى إلى فهم الظاهرة من حيث مقوماتها عقب أن حددنا موضعها فى الإطار الفكرى نتابع مراحل تطوراتها المختلفة وتنقلاتها المتعاقبة .

ما هى أولا المقومات الفكرية لظاهرة الرأى العام ؟

(ا) أول هذه المقومات أن ظاهرة الرأى العام تفترض وجود مشكلة وخلاف حول تلك المشكلة . هناك أولا صعوبة بخصوص موضوع معين تواجهه الجماعة فى كلياتها أو جزئياتها وفى حاجة إلى إثارة وإلى حسم أى قرار . ومن ثم إزاء هذه الصعوبة أى المشكلة تتعدد وجهات النظر فيبرز الخلاف والتعارض لا فقط فى المصالح بل وكذلك فى تصور تقديم حل وفض لتلك المشكلة[٢].

ومعنى ذلك :

أولا : أن الموضوعات التى يدور حولها اجماع لا توصف بأنها تكون رأى عام : فالتسليم بوجود الاله لا يوصف بأنه رأى عام .

---

(١) behavior . انظر نفس المرجع السابق ذكره ص ٤٥ حيث يقدم الكاتب تصوراً للسلوك يختلف عن ذلك الذى قدمناه فى النموذج الذى عرضناه فى شكل رقم ١٢ .

انظر تفصيلات ودراسات ميدانية فى نجيب إسكندر ، م . س . ذ . ، ص ٢٩٢ وما بعدها .

(٢) وهذا ما يعبر عنه الفقه المتخصص باصطلاح Controversial topic . انظر البيج ، م . س . ذ . ، ص ٥ .

ثانياً : أن دليل اثبات صحة وجهة نظر ليس هو الرأى العام وإنما هو عنصر من عناصر الاقناع بالرأى .

ثالثاً : أن الخطأ فى نقل الحقيقة أو الوصول إليها لا يمكن أن يوصف بأنه رأى ؛ فلو طلب من شخص أن يجمع اثنين وخمسة فأجاب بأنها ثمانية لا يمكن أن يدافع عن ذلك بأنه رأى .

(ب) إلى جانب المشكلة موضع الخلاف، فان فكرة الرأى العام ، تفترض امكانية المناقشة وبحرية مع الحق فى الاعلان عن الرأى[1]. بعبارة أخرى أن ظاهرة الرأى العام لتؤدى وظيفتها الحقيقية يجب أن نفترض :

أولا : حق المواطن فى تكوين رأيه بمختلف الوسائل دون أن يفرض عليه رأى معين أو مصدر معين من مصادر المعلومات .

ثانياً : حق المواطن فى الاعلان عن رأيه دون أن يخشى من ذلك عقاباً أو جزاء معيناً يمنع من امكانية ذلك الاعلان . بطبيعة الحال من حق الدولة أن تنظم هذا الحق ولكن ليس من حقها أن تمنع من مزاولة ذلك الحق . وعلى كل فحيث تمنع المزاولة أو تنظمها بحيث يكون من المستحيل أو فى حكم المستحيل مزاولة الحق فمن العبث الحديث عن ظاهرة الرأى العام .

ثالثاً : كذلك فالحق فى الاعلان عن الرأى يستلزم ويرتبط به الحق فى المناقشة . ذلك أن الرأى العام لا يتكون إلا من خلال الصراع الفكرى والحوار بين مختلف وجهات النظر ولا يمكن أن يكون وليد حديث من جانب واحد .

مشكلة ومناقشة . ولكن هل يكفى ذلك ؟

الفقه غامض . والإجابة تفرض علينا أن نلقى بأنفسنا فى نطاق خارج على النظرية السلوكية ويندرج تحت إطار فلسفة السياسة . رغم ذلك فنستطيع أن نجيب على هذا السؤال بتلك العبارات التى وردت على لسان لويل Lowell فى أوائل القرن الذى نعيشه والتى لا تزال رغم ذلك تحمل مذاقها المعبر : « الأغلبية ليست كافية ، والاتفاق ليس مطلوباً ، ولكن على كل حال فان الرأى يجب أن يكون بحيث أنه بينما الأقلية لا تشارك

---

(١) وهذا ما يسميه البعض .Climate of opinion . انظر أيضاً رغم قدمه نسبياً : DEWEY, The public and its problems, 1927, P. 213.

فيه ، فأنها تشعر بأنها مقيدة ، بالاقتناع وليس بالخوف بأن تقبله . . . »[1].

§ ٣٦ ـ عناصر ومقومات ظاهرة الرأى العام :

السؤال الذى نريد الإجابة عليه هو : مم تتكون ظاهرة الرأى العام ؟ أى ما هى المقومات التى عندما تتضافر الواحد منها مع الآخر فأننا نستطيع أن نتحدث عن ظاهرة الرأى العام ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال يتعين علينا أن نسوق بعض الملاحظات :

أول هذه الملاحظات أن مقومات الرأى العام[2] ليست هى بالذات مقومات مختلف المظاهر الأخرى للتعبير عن العالم المعنوى للمواطن. فالسلوك أو الاتجاه أو الحكم لا يمكن أن يخضع لنفس الإطار الفكرى أو المادى الذى تخضع له ظاهرة الرأى العام . رغم ذلك فان هناك تقارباً واضحاً بحيث يمكن القول أن الإطار العام واحد وان اختلفت بعض الجزئيات التى تنبع من طبيعة كل من هذه الظواهر المختلفة . ولنقدم مثلا بسيطاً يوضح هذه الحقيقة . شخص يؤمن بالتفرقة العنصرية ويرى أنه لا يجوز له أن يجلس إلى جوار شخص أسود . يصعد إلى سيارة لنقل الركاب ، فلا يجد أى مكان للجلوس سوى مقعد واحد خال إلى جوار شخص أسود . ليس كل فرد سوف يقبل أن يتخلى عن مبادئه العنصرية : بينما نجد (أ) يجلس مضطراً أو كارهاً . قد نجد (ب) يظل واقفاً رافضاً أن يتخلى عن مبادئه بالجلوس إلى جوار ذلك الأسود . هكذا نجد أن عناصر الرأى ليست بالتبعية دائماً هى مقومات السلوك ، وكذلك العكس صحيح[3].

الملحوظة الثانية أنه فى النظريات التقليدية ، نفسية كانت أم سياسية جرت العادة

---

(١) انظر تعريفات أخرى فى كاتز ، م . س . ذ . ، ص ٥٠ – ٥١ .

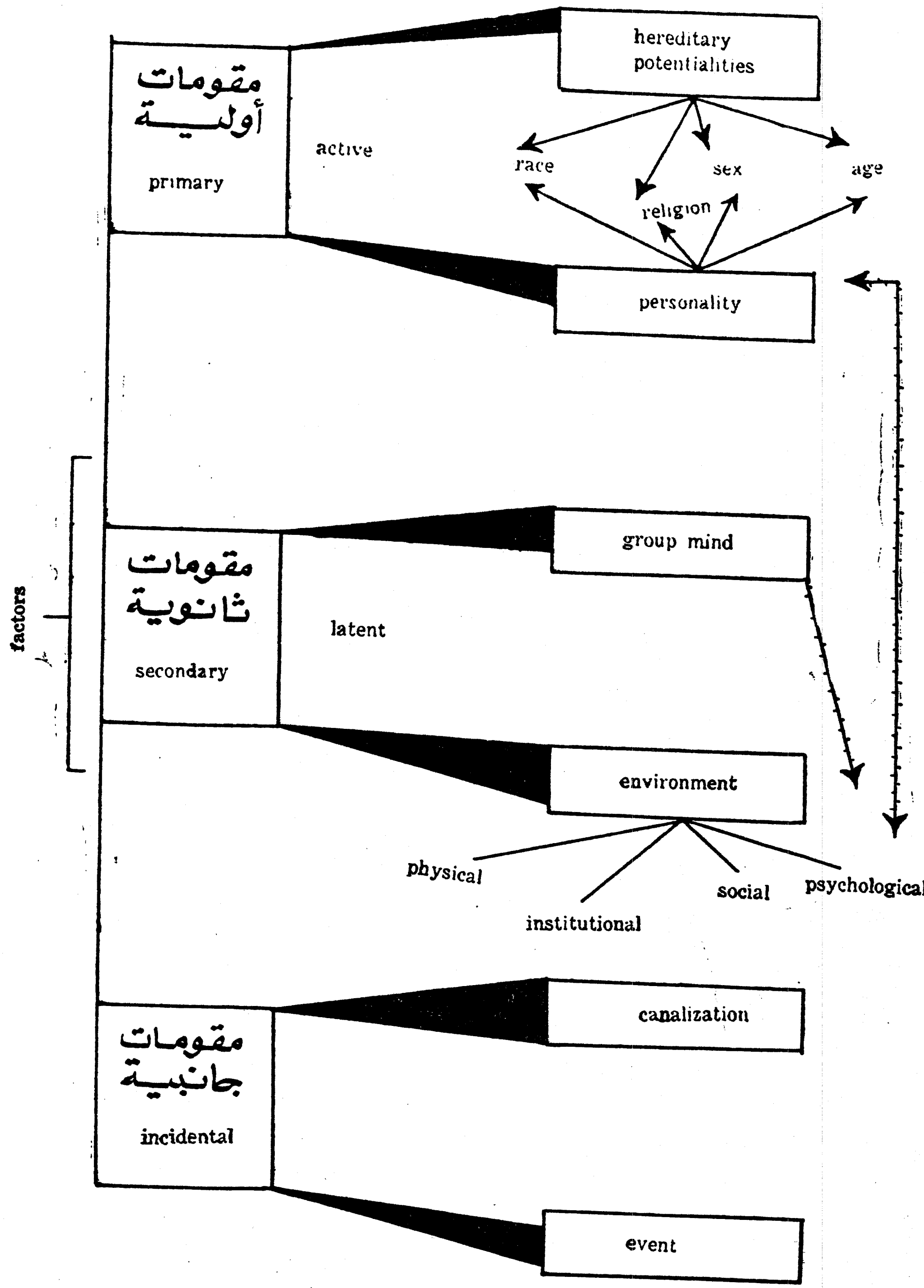
(٢) Components . انظر من بين المراجع بصفة خاصة :
DOOB, Public opinion, cit., P. 33 ; POWELL, Anatomy, cit., P. 404.

(٣) لاحظ الفارق الواضح بين دوب والبيج فى تحليل مقومات الظاهرة . فالأول يعلن بأن المنهاجية السلوكية لا تسمح بهذه النظرة على عكس الثانى الذى يجعل منطلقه أساساً هو هذة المنهاجية ، انظر البيج ، م . س . ذ . ، ص ٤ :

"Opinion expression is behavior. But this does not mean that opinion can be adequately described in behavioristic terms".

قارن دوب ، م . س . ذ . ، ص ٦٤ وما بعدها .

شكل رقم « ١٣ »



مقومات الرأى العام

على تفسير ظاهرة السلوك أو الرأى استناداً إلى عنصر واحد أو مجموعة واحدة من المقومات. ولكن مثل هذه التقاليد اختفت ولم يعد يقبل الفقه المعاصر أن يرى فى الظاهرة حقيقة بسيطة تتحدد بعنصر واحد . أن ظاهرة الرأى مركبة تنبع من العديد من المقومات والكثير من العوامل التى تتفاعل الواحد منها مع الآخر ليؤدى إلى بلورة الرأى أو إلى تشكيل الاتجاه أو إلى الافراز السلوكى.

وهكذا كما أن نظرية فرويد لم تعد موضع الاهتمام والتأييد من جانب علماء المدرسة السلوكية فان الأفكار الماركسية مرفوضة رفضاً كاملا فى اطلاقها . الأول كما سبق ورأينا يجعل من الدافع الجنسى [1] هو المتغير الوحيد فى تحديد السلوك ، والاتجاه الثانى يحدد بالعامل الاقتصادى جميع مظاهر التعبير الفردية والجماعية . على أننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك نظريات أخرى عديده جميعها تنبع من فكرة تفسير الظواهر استناداً إلى متغير واحد [2]. من هذا القبيل اتجاه يجعل الرأى يتحدد بالمناخ أو الأوضاع الجغرافية .

على أنه إذا كان الفقه يجمع على تعدد مقومات ظاهرة الرأى العام فأنه يقف عاجزاً عن أن يحدد : ما هى تلك المقومات المتعددة ؟

(أ) فالعالم الأمريكى هاولى Hawley ابتداءً من بحث ميدانى حول المشكلة الهندية فى مكسيك الجديدة « استطاع أن يبرز ويميز بين خمس مقومات» حددها بالشكل الآتى :

١ ــ الشخصية الفردية، بمعنى خصائص شخصية الفرد أوالمواطن وبصفة خاصة كيف ينظم قيمه ومعتقداته وبالتالى موضع كل مشكلة من النظام المتدرج المتصاعد من المبادئ والمثل التى تسيطر على الفرد وتكون خلفيته العقيدية .

٢ ــ الخبرات الذاتية بمعنى مجموعة الوقائع التى تكون التراث الفردى والجماعى والتى كان الفرد أو الجماعة عنصراً من عناصرها عاشها بطريق مباشر أو غير مباشر وعانى منها أو انتفع بها .

٣ ــ المتغيرات الفسيولوجية بأوسع معانيها بما فى ذلك الخصائص المرتبطة بالغدد والمقومات العضوية .

٤ ــ النظم الثقافية والحضارية بما فى ذلك الأوضاع المرتبطةبالأسرة والدين .

---

(١) Sex drive

(٢) Single - determinant . انظر التفصيل فى بويل ، م . س . ذ . ، ص ٤٠٦ .

٥ ــ كذلك ما أسماه المبادئ الفلسفية أو المبادئ التى تستتر خلف النماذج الثقافية[١]

(ب) على العكس من ذلك فان العالم الأشهر لاسويل[٢] يميز بين مجموعتين من المقومات :

١ ــ المجموعة الأولى ويسميها « مجهر الاهتمام » Focus of attention .

٢ ــ المجموعة الثانية ويعرفها بأنها « الاستعداد » Predisposition .

ويقصد بالمجموعة الأولى تلك المجموعة من العوامل التى تخلق حالة الاهتمام بموضوع النقاش والتعدد بالتالى فى وجهات النظر . وهو فى هذا يميز بين مجموعتين من عناصر الاهتمام: الاهتمام المرتبط بأدوات الاتصال الجماهيرى ، ثم الاهتمام المرتبط بالمظاهر الأخرى للموقف الاجتماعى . وهكذا يعبر عن تكوين ظاهرة الرأى العام بالصياغة الآتية : حيث أن أ هو الاستجابة القولية ، فان هذه تتحدد وتتنوع تبعاً للمتغيرين و ، س حيث أن و يقصد به ذلك القسط من الوسط الاجتماعى الذى وضع تحت مجهر الاهتمام الفردى و حيث س هو درجة الاستعداد[٣] .

(ج) على أننا نعتقد أنه يجب التمييز بين ثلاثة مجموعات من المقومات ، كل منها تحدد خصائص معينة أو درجة معينة من درجات التكامل والتعبير عن الظاهرة : مقومات أولية ، ثم مقومات ثانوية وأخيراً مقومات جانبية .

١ ــ المقومات الأولية وهى تلك المرتبطة بالفرد والتى لا بد من توفرها حتى يمكن تصور صلاحية الفرد لأن يكون رأياً . هى مقومات ترتبط بالوحدة الميكروكزمية أى النهائية فى تحليل ظاهرة الرأى العام . هذه بدورها تتنوع بين عناصر موروثة وأخرى متعلقة بالشخصية . وهكذا ينطوى تحت هذه المجموعة من المقومات كل ما له صلة بالجنس والدين والسن والأصل . الذى يجب أن نلاحظه أن هذه المقومات الأولية تكاد تكون مقومات السلوك السياسى .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٠٧ .

(٢) LASSWELL, Public opinion in war and peace, 1943, P. 20.

(٣) "R varies according to E and P where R is the public opinion response, E is the part of the environment at the focus of attention and P is the predisposition."

انظر بويل ، م . س . ذ . ، ص ٤٠٧ وما بعدها . ولاحظ كيف أن هذه الصياغة هى فى الواقع تعبير عن نتيجة عملية تكوين الرأى العام Process of formation أكثر من أن تكون تحليلا للمقومات . انظر أيضاً شيلدز ، م . س . ذ . ، ص ٦١ وما بعدها .

٢ ــ المقومات الثانوية ونقصد بذلك مقومات جماعية تنبع من الظاهرة الكلية أى الحقيقة الاجتماعية التى فى نطاقها تحدث عملية التفاعل فتنقل الظاهرة من المستوى الفردى إلى المستوى الجماعى . وهنا نستطيع أن نميز بين ما نستطيع أن نسميه بالعقل الجماعى أو الطابع القومى من جانب ، ومن جانب آخر خصائص الوسط أو البيئة من جغرافية وديموجرافية وعضوية ونفسيه واجتماعية[1] .

٣ ــ المقومات الأولية فى تفاعلها مع المقومات الثانوية تحدد ظاهرة الرأى العام . ولكن الاعلان عن الرأى وقوة ذلك الاعلان وصورته وسرعته تتحدد بعناصر أخرى : من جانب أدوات تكتيل ظاهرة الرأى ابتداء من القيادة إلى التنظيم الجماعى سياسى كان أم غير سياسى ، ومن جانب آخر خصائص الواقعة التى فرضت التعبير عن الرأى : واقعة عنيفة ، متوقعة أم غير ذلك ؟ يدخل فى خصائص الواقعة أيضاً مدى الاهتمام الفردى أو الجماعى بتلك الواقعة[2] .

§ ٣٧ ــ مراحل تطور ظاهرة الرأى العام :

ظاهرة الرأى العام حقيقة عضوية وهى بهذا المعنى لا تتكون فجأة ولا تبرز دون سابق انذار ولا تختفى دون تفاعلات معينة . التحليل الديناميكى للظاهرة يفرض علينا ألا نقتصر على تناول أبعاد المقومات واعتبار مثل ذلك التحليل الجامد الهيكلى كاف للاجابة عن الاستفهامات العديدة التى تثيرها الظاهرة . إلى جانب السؤال ماذا يجب علينا أن نجيب على السؤال كيف . والكيف يفترض المتابعة المرحلية ابتداء من تقابل مختلف المقومات الواحد منها مع الأخرى حتى تتبلور ظاهرة الرأى العام فى حقيقة واضحة تعبر عن نفسها وتؤدى وظيفتها .

على أننا قبل أن نتناول هذه المراحل بالتفصيل يجب أن نلاحظ أن محاولة التمييز بين هذه المراحل هى مجرد محاولة مدرسية لتفسير ظاهرة بطبيعتها معقدة وخفية . ولذلك

---

(١) مقومات الرأى ليست هى مقومات السلوك . كذلك ليس كل رأى خاص هو رأى عام ، الذى نقدمه فى النموذج المرفق شكل رقم ١٣ هو تحليلنا لمقومات ظاهرة الرأى العام . يستطيع أن يجد القارئ نموذجاً ميدانياً للرأى حيث لا يتفق مع السلوك من حيث مقوماته فى بويل ، م . س. ذ . ، ص ٤١٢ .

(٢) Self - interest .

من الممكن تصور اختفاء بعض هذه المراحل فى بعض التطبيقات أو تكتل بعض هذه المراحل فى مرحلة واحدة تبعاً لطبيعة كل نموذج من نماذج التطبيق . تحليل هذه المراحل هو متابعة للظاهرة فى انتقالها من حقيقة هيلولية غير واضحة تتبلور فى نهايتها فى شكل مواقف محددة بل وفى بعض الأحيان متحجرة لا تقبل المناقشة . بعبارة أخرى هو متابعة للحقيقة السلوكية التى تستتر خلف ظاهرة الرأى العام والتى تعنى الانتقال من السلوك الفردى إلى السلوك الجماعى (١) .

نستطيع أن نميز بصفة عامة سبعة مراحل يعنينا منها بصفة خاصة المراحل الأربعة الأولى . فلنتابع هذه المراحل بشىء من التفصيل :

١ — مرحلة الادراك (٢)

الادراك يقصد به فهم الشىء أو تصوره بعبارة أخرى يقصد به أثر رسالة معينة من حيث تصور حقيقة معينة بطريقة ذاتية أو فردية . سبق أن رأينا أن الرأى العام ما هو إلا وجهات نظر مختلفة بخصوص مشكلة معينة . يبدأ تكوين الرأى العام فى صورة تصور فردى لتلك المشاكل . فالمواطن منذ أن ينشأ فى المجتمع السياسى ، منذ أن تتكامل شخصيته ، فان له خلفية من المفاهيم والتقاليد والتراث تفرض عليه أن يهتم أو لا يهتم بمشاكل معينة ، أن يتصور تلك التى تعنيه وتصير موضع اهتمامه بأسلوب معين وأن يقدر أبعاد تلك المشاكل تبعاً لأهداف محددة وهو فى هذا قد يخضع لشحنات انفعالية وقد يتأثر بتراث وتقاليد ولكنه دائماً يتقبل تلك المشاكل ويطحنها فى وعائه ويفهمها بأسلوبه . الادراك السياسى بهذا المعنى ليس إلا مظهر من مظاهر التعبير عن كيفية فهم المواطن للمشاكل التى تدور حولها ظاهرة الرأى العام . وهو بهذا المعنى لا يفهم إلا ما يريد ولا يفهم ما يريد إلا بالطريقة أو الأسلوب أو الوضع الذى يتقبله

(١) هذا التأصيل استطعنا أن نصل إلى بنائه من خلال أبحاثنا الميدانية حول تطور الرأى العام فى المجتمع المصرى بخصوص مشكلة تنظيم النسل . نتائج هذا البحث للأسف لم يقدر لنا لظروف خارجة عن إرادتنا أن ننشرها بعد . ولكن النواحى المنهاجية سوف نعرض لها فى مناسبات ثلاث . إلى جانب هذا المؤلف فسوف نعود إليها من جانب فى مؤلفنا عن « نظرية التحليل السياسى » ثم من جانب آخر فى دراستنا المتخصصة عن « نظرية الرأى العام » . انظر أيضاً حامد ربيع ، بحوث الرأى العام فى المجتمعات النامية : الصعوبات المنهجية ، فى لويس مليكه ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى ، جزء ثانى ، ١٩٧٠ ، ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) Perception انظر كاتز ، م . س . ذ . ، ص ٥٩٤ وما بعدها .

وعاؤه الشعورى واللاشعورى . هذه الحقيقة تؤكد الوظيفة الخطيرة التى تستطيع أن تؤديها أجهزة الإعلام والقيادة السياسية . فالإعلام الجماهيرى بما يملك من امكانيات وبما يستطيع من تشويه للحقيقة أو تقديم جزء منها على أنها كل الحقيقة أن يشكل ذلك الوعاء اللاشعورى للمواطن وبصفة خاصة فى المجتمعات المتخلفة أو فى الفئات غير المثقفة . كذلك فان القيادة السياسية تلعب وظيفة خطيرة[1]. فاذا كان من الطبيعى أن يفهم المواطن كل مشكلة بأسلوبه وعلى ضوء تراثه وخبراته فان القائد السياسى يجب أن يتحرر من إدراكه الذاتى أو ميوله الشخصية وأن يملك ذلك الانطلاق الذى يجعل منه قدرة قابلة على أن تلقى بنظرها فى أبعاد المستقبل مقدرة الخفايا الحقيقية التى تستتر خلف كل تأزم . يقال عادة أن الزعيم السياسى فى ادراكه للمشاكل يجب أن يتجرد عن جميع الظروف الذاتية ويجب أن يصل فى هذا التجرد إلى درجة من الاطلاق حتى يمكن القول أنه قد تجرد من ظله .

٢ ـ مرحلة الصراع[2] :

مرحلة الإدراك مرحلة ذاتية فردية ونسبية . مرحلة الصراع تعنى الانتقال المتتالى من الادراك بالمشكلة كتصور ذاتى إلى التعبير عن المشكلة فى شكل موقف فردى ولكنه يرتبط بالقوى الجماعية . الصراع بهذا المعنى يأخذ صور متعددة ومتتالية : فهو أولا صراع ذاتى ثم هو ثانياً صراع مصلحى ثم هو ثالثاً وأخيراً قد يأخذ صورة الصراع النظامى :

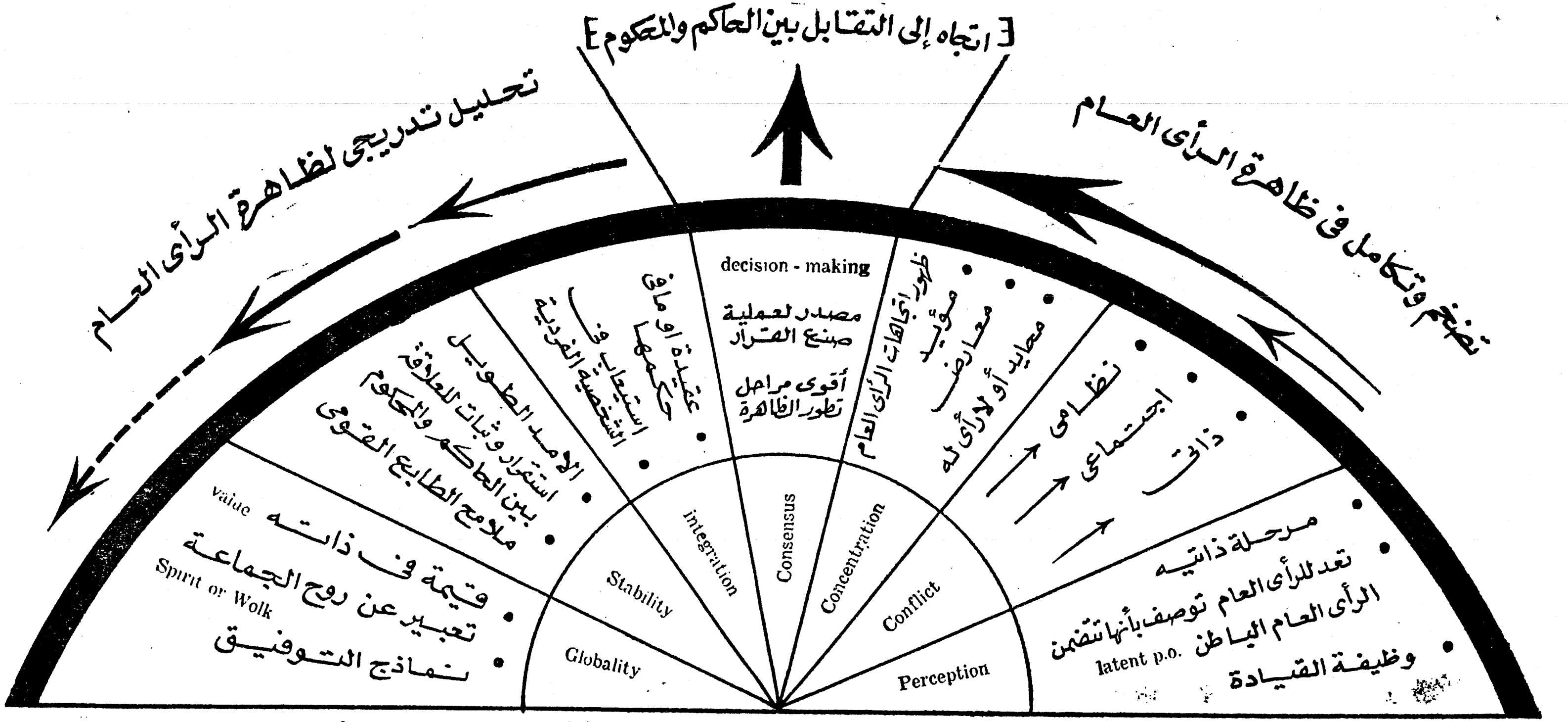
يبدأ الصراع الذاتى بمعنى التناقض بين الإدراك فى المشكلة فى أبعادها المختلفة والمصالح المتعددة التى يرتبط بها الفرد من حيث وجوده ونشاطه وبغض النظر عن كون تلك المصالح اقتصادية أو غير اقتصادية . بعبارة أخرى كل مواطن وكل فرد له موقف وهذا الموقف قد تحددت عناصره مقدماً : فهو مجموعة من المصالح والمبادئ والمعتقدات . الادراك لا بد وأن يصطدم ويتصارع مع عناصر الموقف الفردى فيتشكل أحدهما بالآخر أو على الأقل يتفاعل كلاهما فى تعبير واضح ان لم يحدث تمزق نتيجة للتناقض الذى لم يستطع الفرد بامكانياته الذاتية أن يتخطاه .

---

(١) يونج ، م . س . ذ . ، ص ٣٨٤ وما بعدها .

(٢) Conflict. قارن كيبى ، م . س . ذ . ، ص ٥٤ وما بعدها .

شكل رقم « ١٤ »



مراحل تكوين الرأى العام

هذا الصراع داخلى فى جنبات النفس البشرية لا بد وأن ينتهى إما بموقف واضح أو بموقف متردد . فلنقدم نموذجاً : الطبيب الذى يملك مستشفى للولادة إزاء مشكلة تنظيم النسل : أن ثقافته وتكوينه يحمله على تأييد المبدأ ولكن مصالحه واهتماماته الاقتصادية تحمله على رفض المبدأ . أو الشخص الذى يرفض كل ما له صلة بالاشتراكية ولكنه يعادى ويخشى الصهيونية . فهو إزاء دعوة للقتال ضد الصهيونية تتنازعه قوى متضاربة . رفضه للاشتراكية وبالتالى رغبته فى أن يعاصر هزيمة للنظام السياسى الذى يدافع عن الاشتراكية وكراهيته للصهيونية التى تجعله يؤمن بضرورة المواجهة والصراع الحاسم مع تلك القوى المعادية . الصراع الذاتى ينتقل فى مرحلة لاحقة ليرتبط بالقوى الاجتماعية . ذلك أن المجتمع البشرى ينقسم ويتجزأ إلى العديد من القوى التى تتركز حول مواقف معينة من المصالح والاهتمامات . والمواطن أو الفرد العادى يسعى بطريقة لاشعورية لأن يأقلم بين موقفه وموقف تلك الفئات التى ينتمى إليها . وهكذا عندما تثار مشكلة فان القوى الاجتماعية وبعبارة أخرى البؤر[1] المصلحية تتجه لأن تغير من أوضاعها بحيث تتحرك لتتقابل أو لتتعارض تبعاً لمصالحها وارتباطاتها من المشكلة لتعبر بهذا تعبيراً مباشراً أو غير مباشر عن العلاقات المرتبطة بتلك البؤر اقتصادياً وعقائدياً : وهذا ما يعبر عنه فى بعض الأحيان بتعبير ظاهرة الرأى العام الطبقى الذى يشير إلى وجود علاقة وثيقة فى مرحلة الانتقال من الصراع الذاتى إلى الصراع الاجتماعى بين تكوين الرأى العام والحقيقة الطبقية . على أن الواقع أن هذا ليس سوى أحد التطبيقات فالمصالح قد تكون طبقية وقد تكون مصالح فئوية ، قد تكون مصالح دائمة وقد تكون مصالح مؤقتة . على كل هذا الصراع الجماعى لا بد وأن ينتهى عاجلا أو آجلا إلى تغليب وجهة نظر معينة فى داخل القوى الاجتماعية بحيث تصير هذه الوجهة معبرة عن تلك القوة أو الطبقة أو الفئة . يساعد على بلورة الصراع الجماعى وجود تنظيمات هيكلية أو مؤسسات دائمة تقوم بعملية تجميع تلك القوى والتعبير عنها سياسياً أم غير سياسى . بعبارة أخرى كل تنظيم شرعى يفترض درجة معينة من درجات الانسجام يسمح بعملية التكتل والتقابل بين الأفراد والقوى الاجتماعية يساعد على ما يسميه علماء الرأى

---

(١) خير تعبير عن المفهوم الكلمة الفرنسية **îlot** .
انظر : **DUVERGER, Sociologie politique, 1966, P. 176.**

العام شق قنوات التعبير عن الرأى[1]. بطبيعة الحال هذه التنظيمات التى تكون ذات صبغة سياسية واضحة أى الأحزاب تصير أقدر وأكثر فعالية فى تكتيل اتجاهات الرأى العام ولكن أى تنظيم يسمح بهذه العملية يؤدى نفس الوظيفة : فالنقابات المهنية ، والجمعيات حتى غير السياسية كالجمعيات الثقافية بل والأندية الخاصة تؤدى هذه الوظيفة بدرجة قد تكون أقل من الأحزاب السياسية ولكنها ان قلت عنها من حيث المظهر فهى لا تقل من حيث الفعالية . وليس أدل على ذلك من أن مراكز بلورة الرأى العام فى العالم الغربى خلال النصف الأول من القرن ١٩ وبصفة خاصة فى فرنسا نبتت وترعرعت فى أحضان الجماعات الأدبية والمقاهى التى كانت تمثل فى تلك الفترة مراكز التجمع الفكرى . كذلك الدلالة واضحة بالنسبة لاتجاهات الرأى العام التى ميزت العالم المعاصر فى أعقاب الستينات والتى تكونت وتبلورت فى أحضان الجامعات . ودون الحديث عن نماذج متعددة لذلك سواء فى المجتمع الأمريكى أو المجتمع الفرنسى أو المجتمع الألمانى أو اليابانى فان عملية تكتيل اتجاهات الرأى العام تكونت فى أحضان النظم الجامعية ورغم أن الجامعات لا صلة لها بالتنظيم السياسى وذلك بسبب طبيعة تلك المؤسسات التى تسمح بالتواجد العضوى والصراع الفكرى مع الانسجام المصلحى لبعض القوى الاجتماعية .

هذه الأدوات تتضمن وتعد لمرحلة ثالثة حيث يصير الصراع صراعاً نظامياً. هنا فقط تبرز بشكل واضح أهمية الأحزاب السياسية . الحزب السياسى هو وحده الذى من حقه أن يعبر عن هذه الصورة من صور الصراع وأن ينقل الصراع من حيز التناقض الاجتماعى ليصير صراعاً نظامياً حيث تتكتل مختلف القوى المرتبطة بالحزب خلف وجهة نظر واحدة يعبر عنها ذلك الحزب ويحمل لواءها التنظيم الإدارى للحزب وبغض النظر عن التعبيرات المختلفة لتلك القوى الاجتماعية أو لتلك المواقف الفردية المساندة والمؤيدة للحزب . هنا تظهر أهمية ما يسمى بصحافة الرأى أى الإعلام المكتوب الذى يدين بالولاء للحزب ليعكس أفكاره وليدافع فقط عن وجهات النظر المختلفة المرتبطة

---

(١) CANALISATION سبق أن رأينا أن القيادة بدورها تؤدى هذه الوظيفة . كذلك يجب أن نضيف الظاهرة الايديولوجية . انظر وقارن :

FRIEDRICH, BRZEZINSKI, Totalitarian dictatorship and autocracy, 1956, P. 107 ; PARETO, The rise and fall of the elites, 1968, P. 8.

بذلك الحزب [1].

٣ ــ مرحلة التركيز [2] :

خلال المرحلة الثانية أى الصراع ينتهى الرأى بأن يعبر عن نفسه . أن الرأى لم يعد خاصاً وليس فئوياً وإنما هو رأى عام إذ خرج من حيز الباطن إلى العلانية ولم يعد باطناً وإنما أضحى وقد عبر عن نفسه تعبيراً صريحاً . ولكن مفهوم الرأى العام يفترض الاختلاف فى وجهات النظر والتعدد فى الحلول موضع المناقشة . هذا الخلاف وهذا التعدد لا بد من خلال المناقشة والصراع الفكرى أن ينتهى بشىء من التوفيق والتقريب بين مختلف وجهات النظر . بعبارة أخرى الصراع تعقبه عملية تطور مزدوجة . من ناحية إيضاح وابراز المفاهيم الأساسية التى تدور حولها المشكلة : أبعادها ، مقوماتها ، نتائجها . هذا الإيضاح الفكرى يؤدى إلى التقريب بين المواقف أو على الأقل إلى ابراز نقط التلاقى ونقط التعارض ومن ثم فانه يؤدى إلى القضاء على التباين الجزئى أو المحدود والتقريب بين المواقف المتشابهة . كذلك فان الاعلان عن الرأى بما يعنيه من ابراز القوى الحقيقية التى تستتر خلف وجهة النظر لا بد وأن يؤدى من جانب آخر إلى القضاء على نوعين من أنواع المواقف : المواقف المتعصبة المبالغة فى التعصب لأن المواطن العادى يرفض التطرف ومن جانب آخر المواقف الضعيفة كمياً بغض النظر عن مدلولها وقوتها الكيفية . رأى تعبر عنه أقلية محدودة ، مهما كان قوياً لا يمكن أن يكون مصيره إلا بالاختفاء [3].

كل هذا يؤدى إلى عملية تركيز فى اتجاهات الرأى العام أو بعبارة أدق إلى تهذيب وبلورة فاذا بالروافد الفرعية والطرق الجانبية تتجمع فى ممرات ضخمة وطرق رئيسية. مرحلة التركيز تنتهى فى أغلب الأحيان إلى واحد من مواقف ثلاث مع خلاف فى درجة كل من هذه المواقف : أما مؤيد مع تنوع فى درجة التأييد أو معارضة مع تعدد فى مدى تماسك المعارضة أو غير مهتم مع تباين فى سبب اللامبالاة وعدم الاهتمام . عندما نصل إلى تكوين الرأى العام حول هذه الشرائح الثلاث يكون الرأى العام قد أدى

---

(١) انظر المجلة الأمريكية للعلوم السياسية ، ١٩٤٦ ، ص ٩٢٤ وما بعدها .

(٢) Concentration . قارن بصفة خاصة كيى ، م . س . ذ . ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٣) انظر النتائج من الوجهة العملية وخصوصاً بالنسبة لعملية تخطيط الحملة الانتخابية فى :
NIMMO, The political persuaders, 1970, P. 163.

وظيفته الايجابية بأن أعلن عن الموقف الحقيقى لمختلف القوى التى يتكون منها الجسد الاجتماعى .

٤ ــ مرحلة الرضا[1] :

بانقضاء المرحلة الثالثة فان الرأى العام فى معناه الحقيقى يكون قد أدى وظيفته واختتم عملية الربط بين السلوك الفردى والمواقف الجماعية . ولكنه فى بعض الأحيان وتبعاً لطبيعة المشكلة وخصائصها المرتبطة بالظاهرة ومدى أهميتها وعمقها فى الوعى الجماعى أو التطور السياسى العام قد يبدأ تطوراً آخر لاحق يعكس انتقالا من ظاهرة الرأى

---

(١) Consensus . لاحظ أن العالم الأمريكى كيى الذى أحلنا إليه أكثر من مرة بخصوص تحليل عملية مراحل تكوين الرأى العام يعطى لهذا الاصطلاح مدلولا آخر . هو ليس نتيجة تطور معين للرأى العام عندما يصل إلى أقصى مراحل قوتهولو نسبياً ، وإنما هو صورة من صور الرأى العام يصير فيها بمثابة اتجاه مساند للسلطة الحاكمة أو للحزب الذى يمارس السلطة . ورغم أنه يميز بهذا الخصوص بين نماذج متعددة إلا أن المفهوم يظل دائماً واحداً . وعلى كل فهو كما يقول الكاتب نفسه يدور حول

"Dealing with a pattern of opinion whose importance is that it may condition the behavior of those in positions of public authority."

نموذج للرأى العام حيث قد يستطيع الرأى أن يحدد سلوك السلطة الحاكمة . تعريف غامض . ومع ذلك فهو يقدم لنا المفهوم بصورة أكثر وضوحاً عندما يتعرض للتطبيقات :

أولا : ما يسميه Supportive consensus وهو حيث تكون وظيفة الرأى العام هى أن تساند سياسة قائمة أو حركة متفقة مع تلك السياسة .

ثانياً: ثم ما يصفه بأنه Permissive consensus وذلك يعنى فى مفاهيمه الرضاء الذى يصير مبرراً للحركة أو بعبارة أخرى رضاء يخلق قنطرة بين الرأى العام والنشاط الحكومى .

ثالثاً : هذا النموذج الأخير يرتفع إلى القمة عندما يصفه بأنه Consensus of decision حيث يصير الرضا بمثابة اعلان صريح وواضح عن قبول حركة معينة ولعل فكرة الاستفتاء المؤيد خير نموذج لهذا المفهوم والذى يقدم لنا المؤلف بخصوصه كتطبيق واضح مواقف الرأى العام الأمريكى خلال الأشهر السابقة مباشرة على دخول الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية .

رابعاً : وأخيراً نموذج رابع يحدده بأنه Multiple consensus ويعرفه بقوله :

"The rise of popular consensus on a particular issue may involve the development of simultaneous concurrence by several groups within the public. In the language of political theory, this is called a concurrent majority".

هذا المعنى الأخير هو الذى نقصده من الاصطلاح ومع شىء من التعديل الجزئى والجانبى كما هو واضح من التحليل فى المتن . انظر كيى ، م . س . ذ . ، ص ٢٧ ــ ٣٩ .

العام السابق تحديده إلى صورة جديدة من صور السلوك الجماعى ، يعقب مرحلة التركيز فى بعض الأحيان ما يسمى بمرحلة الرضا . ما معنى ذلك ؟

الصراع والتركيز مع ما تعنيه من تطاحن فكرى تفرضه المناقشة يؤدى تدريجياً وبصفة خاصة إذا أدخل عامل الزمن إلى إيضاح لا فقط نقط الخلاف ولكن أيضاً نقط التلاقى . الاتفاق أو التقابل حول نقط معينة ولو محددة وضئيلة بخصوص مشكلة معينة يخلق ما يسمى بالرضا أو الاتفاق والتوافق بين جميع فئات وطبقات الرأى العام .

ولنقدم لذلك مثلا : عملية التصويت السياسى الذى أثير بخصوص اصلاحات ديجول النظامية . فرغم أن هذا التصويت انتهى باخفاق ديجول وخروجه من الحكم بأغلبية محدودة أبرزت خلافات واضحة بين مختلف القوى والشرائح المرتبطة باتجاهات الرأى العام الفرنسى إلا أنها أثبتت أيضاً نقط معينه للتقابل والرضا بين جميع عناصر وفئات الجسد الاجتماعى . السؤال المباشر الذى دار حوله النقاش : هل يعود ديجول إلى الحكم أم يجب ألا يعود ؟ الآراء ووجهات النظر تعددت : فمن اتجاه يرفض عودته بسبب عامل السن حيث أنه سناً قد وصل إلى مرحلة لا يمكن أن يتحمل معها أعباء تلك المرحلة الخطيرة فى تاريخ فرنسا ، ومن رأى يؤكد على عامل التخلف الفكرى الذى يميز ديجول حيث أنه يعبر عن فكرة قديمة لرسالة فرنسا لم تعد مقبولة فى المجتمع المعاصر ، ومن رأى يرى فى ديجول عقبة ضد وحدة غرب أوربا وبصفة خاصة ضد دخول بريطانيا السوق المشتركة ، هذا إذا اقتصرنا على الآراء المعارضة . رغم ذلك فان هذا االصراع والتناقض فى الرأى أبرز كيف أن جميع فئات الرأى العام الفرنسى منظمة أم غير منظمة ، حزبية أم غير حزبية ، تتفق على حقيقة واحدة ومطلقة تتقابل فيها مع نفس أفكار ديجول : ألا وهى فساد النظم الحزبية الفرنسية النابعة من التقاليد البرلمانية [1]. أن فرنسا فى النصف الثانى من القرن العشرين لا تستطيع أن تستعيد صور التنظيم السياسى التى عرفتها فرنسا فى النصف الثانى من القرن ١٩ .

---

(١) هذه المعركة جديرة بالدراسة والتحليل لأنها تقدم نموذج خطير لمدى تأثير العوامل الجانبية وغير المتوقعة على تطور ظاهرة الرأى العام . انظر التفاصيل بصفة عامة ورغم أن دراسة كاملة لم يقدر لها بعد الوجود :

SCHWARTZENBERG, La guerre de succession, 1969 ; DUVERGER, Le Monde, 27 . 4 . 1969 ; 20, 21, 27.5. 1969 ; 6, 11. 6. 1969.

هذا فيما يتعلق بالوضع الداخلى ولكن إلى جانب ذلك فان هذا النقاش وذلك الصراع الفكرى أوضح اتفاق الرأى العام بخصوص حقيقة أخرى متعلقة بالوضع الخارجى وهى المرتبطة بالعلاقة بين فرنسا وباقى أجزاء غرب أوربا . أن فرنسا يجب أن تبنى سياستها على الوحدة والاندماج وليس على النعرة الوطنية أو الاستقلال الاقتصادى ويجب أن تتجه للتعانق مع مختلف القوى القارية حول أوروبا التقليدية وليس خارج القارة الأوربية .

وهكذا نرى كيف أن هذا الصراع وهذا التركيز أدى إلى تحقيق وحدة معينة فى اتجاهات الرأى العام .

٥ — مراحل الاندماج والاستقرار والشمول[١] :

عقب مرحلة الرضا فان تطور الرأى العام لا يعنى التحليل السلوكى إلا بقسط محدود . ذلك أن المراحل اللاحقة تعنى تحللا للظاهرة لتقدم صوراً جديدة لظواهر أخرى . الرضا يعنى أقصى قوة لتكتل الرأى العام وللتوافق الجماعى فى تعبيرات ساوكية قولية أو فعلية . تعقب مرحلة الرضا مراحل متتابعة تختلف من مشكلة لأخرى ومن مجتمع لآخر[٢].

(أ) الاندماج[٣] ويقصد بذلك أن ذلك القسط الذى اتفق عليه المجتمع وعبر عنه فى شكل رضا وتوافق عام جماعى يرتد نحو المواطن أو الفرد لينساب فى وعائه اللاشعورى . السلوك الفردى سبق أن رأيناه يصير سلوكاً جماعياً فى مرحلة الصراع . هنا فى مرحلة الاندماج ينتقل السلوك الجماعى ليشكل أحد عناصر ومقومات السلوك الفردى ، حيث تحدث حركة لاشعورية من جانب المواطن لأن يتجه إلى استيعاب ذلك القسط الذى اتفقت عليه الجماعة فيصير لا مجرد تعبير عن وجهة نظر وإنما يرتفع ليكون عنصراً من عناصر وجوده العقيدى . هذه العملية تبلغ أقصاها فى موقف الشخص

---

(١) لتفصيل المراحل التالية انظر محاضراتنا فى نظرية الرأى العام ، كلية الاقتصاد ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢) سوف نرى فيما بعد كيف أن المجتمعات المتخلفة تثير هذه المشكلة بشكل صارخ بحيث يمكن القول أن الرأى العام أن قدر له التعبير عن ذاته ينتهى عند مرحلة الرضا بل ويغلب عليه ألا يصل إلى تلك المرحلة وأن يتحلل خلال مرحلة الصراع ، انظر أيضاً :
SCHRAMM, Mass media and national development, 1964, P. 127.

(٣) Integration

المتردد أو المعارض ولو نسبياً لذلك الذى دارت حوله عملية الرضا ولكنه أيضاً ذو فعالية بالنسبة للنموذج الآخر من مواقف الرأى العام حيث أن هذه العملية تتجه إلى إحداث نوع معين من أنواع التوفيق بين الشخصية الفردية وذلك الذى استقرت عليه الجماعة أو بعبارة أخرى السلوك الجماعى .

(ب) مرحلة الاستقرار[1] :

فى الأمد الطويل الرضا والاندماج لا بد وأن يخلق نوعاً من الترابط بين قوى المجتمع وأجزاء الجسد السياسى . الرأى العام بطبيعته موقت . ويتحدد بخصوص كل مشكلة ، يختفى باختفائها أو على الأقل بظهور مشكلة أخرى أكثر أهمية . على أن الاختفاء لا يمكن أن يكون كلياً . ذلك أن الرأى هو نوع من الخبرة والخبرة جزء من التاريخ ، والتاريخ هو الخلفية الحقيقية التى تنطلق منها القوى الشعورية واللاشعورية . وصول الصراع الفكرى حول مشكلة من المشاكل إلى مرتبة الرضا ثم تعميق وانسياب ذلك الرضا فى الشخصية الفردية باسم الاندماج لا بد وأن يخلق نوعاً من الترابط بين القوى المشكلة للجسد السياسى : ترابط بين القوى الشعورية واللاشعورية ، ترابط بين القوى الاجتماعية والقوى النظامية ، ترابط بين القوى الحاكمة والقوى المحكومة ، بحيث تكون كل منها ان لم تكن تعبيراً أو مرادفاً للأخرى فهى متجانسة ومتناسقة معها . وهذا ما يسمى بالاستقرار السياسى : القوى النظامية تعبر عن الآمال العقيدية والقوى الشعورية لابدوأن تعكس أنواع الكبت اللاشعورى، القوى الاقتصادية تعبر عن حقيقة الأهداف الاجتماعية . بطبيعة الحال هذه الصورة الكاملة تمثل النموذج المثالى ولكن من الممكن الاقتراب منها بدرجة أو بأخرى :

(ج) مرحلة الشمول[2] :

تحلل الرأى العام أو بعبارة أدق ظاهرة الرأى العام بمعنى وجهة النظر بخصوص مشكلة معينة هو النتيجة النهائية التى لا بد وأن تصادفها الظاهرة . فككل ظاهرة أيضاً ظاهرة الرأى العام لا بد وأن تفنى فى لحظة معينة. على أن هذا الفناء لا يمنع أنها تستطيع

---

(١) Stability . لاحظ أن كيى يفضل اصطلاح Viscosity وهو ينبع من نظريته لتحليل ظاهرة الرأى العام . انظر م . س . ذ . ، ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) Globality

أن تكون مصدراً لظواهر أخرى . رأينا الرأى العام فى مرحلة الرضا مصدراً لما يمكن أن نسميه بالاجماع أو بالإرادة العامة . كذلك رأيناه فى مرحلة الاندماج مصدراً للسلوك الفردى . هنا فى مرحلة الشمول يصير مصدراً للطابع القومى . ويقصد بالشمول عندما ترتفع تلك الجزئية من جزئيات الرأى العام لتصير وقد ارتبطت بالمجتمع السياسى كحقيقة كلية وقد أضحت معبرة عن أحـــد سماته . فكراهية الشعب الألمانى مثلا فى داخل المجتمع السياسى الفرنسى التى تراكمت خلال خبرات متعددة من التعدى والاستفزاز ابتداء من الحروب السبعينية حتّى الحرب العالمية الثانية لا تعدو أن تكون رأياً عاماً تحول ليصير أحد ملامح الطابع القومى الفرنسى . وهكذا قد يقدر للرأى العام أن يكون أحد المصادر المكونة للطابع القومى أو على الأقل لذلك الذى يسمى بنماذج التوفيق[1].

---

(١) Stereotype . انظر تفصيل المفهوم فى :
CHRISTENSON, Mc WILLIAMS, Voice of the people, 1962, P. 99.

المبحث الثالث

ظاهرة الرأى العام ومشاكل المجتمع المعاصر

§ ٣٨ – خصائص المجتمع المعاصر وعملية التفاعل السلوكى بين الوحدات السياسية :

رغم أن اهتمامنا بظاهرة الرأى العام يدور فقط فى الأبعاد السلوكية التى تعكس تلك الظاهرة ، إلا أن فهم حقيقة وأهمية هذه الظاهرة كأحد مظاهر التعبير عن السلوك الجماعى لا يمكن أن يكون كاملا إلا إذا أدرجت فى حقيقة وخصائص المجتمع المعاصر. إن ظاهرة الرأى العام ظاهرة حضارية وهى تعكس لا فقط ، كما سبق ورأينا خصائص المجتمع السياسى بل وكذلك المناخ العام الحضارى الذى ينتمى إليه ذلك المجتمع[1].

هذه الحقيقة تثير أكثر من مشكلة واحدة : البعض منها يعكس طابعا علميا واضحا والبعض له أهميته العملية بحكم واقع المجتمع العربى .

(١) أول هذه المشاكل تدور حول السؤال التالى : هل يمكن أن يوصف مجتمع سياسى بأنه مجتمع مريض ؟ بعبارة أخرى هل يمكن أن تطبق المفاهيم التقليدية فى تحليل الظاهرة السلوكية الفردية على السلوك الجماعى ؟ سوف نرى فيما بعد أن الحالة المرضية[2] هى الحالة الاستثنائية . ومن ثم فبالنسبة للسلوك الفردى فان الفرد

---

(١) من بين الدراسات الهامة التى يجب أن نحيل إليها بسبب أيضاً عدم تعقيد المشاكل التى تثيرها نشير بصفة خاصة إلى المراجع التالية :

FROMM, The sane society, 1955 ; MASSERMAN, The practice of dynamic psychiatry, 1955 ; BELLAK, Community psychiatry : the third psychiatric revolution, in Handbook of community psychiatry and community mental health, 1964, p. 7 ; ROBERTS, HALLECK, LOEB, Community psychiatry, 1969.

(٢) Abnormal انظر بصفة خاصة :

LONDON, ROSENHAN, The meaning of abnormality, in Foundations of abnormal psychology, 1968, p. 7.

الذى يعكس سلوكا شاذاً بالنسبة للأفراد الآخرين يوصف بأنه حالة مرضية وبعبارة أخرى أن الحالة المرضية أو الاضطراب العصبى والوظيفى يمكن اكتشافه من خلال عملية الإحالة لماهو متعارف عليه فى داخل المجتمع الذى ينتمى إليه الفرد موضع التحليل. فاذا انتقلنا إلى الجماعة كحقيقة كلية فكيف نستطيع أن نصل إلى خلق معيار الإحالة ؟ فرويد منذ مؤلفه المشهور عن الحضارة ومشاكلها قدم لنا صياغة وتأصيلا لما أسماه الاضطراب العصبى الاجتماعى . وهو يؤمن بأن التطور الحضارى يسير فى بعدين : أولهما التعارض والتناقض بين التطور الحضارى والاحتياجات الطبيعية الفردية . بمعنى أن كل تطور حضارى إنما يؤدى إلى تطوير لعمليات الكبت والتعذيب الفردى . وثانيهما أن التطور الحضارى لايعنى فقط التأثير على الفرد بل هو تأثير متبادل بمعنى أنه كما أن الفرد يغير العالم الذى يحيط به فان الفرد يغير أيضاً من نفسه(١) .

إذا تركنا هذه المقدمات جانبا فانه مما لاشك فيه أن انتشار الرذيلة أو السلوك الشاذ فى مجتمع معين لايعنى تحويل هذا الشذوذ إلى فضيلة. بعبارة أخرى لو تصورنا أن مجتمعاً من المجتمعات يشترك أغلب أفراده فى صورة معينة من صور الأمراض العقلية(٢) فان هذا لايعنى أن آولئك الذين ينتمون إلى ذلك المجتمع يقدمون نموذجا لوضع صحى. على أننا دائما فى نطاق السلوك الفردى . فاذا انتقلنا إلى السلوك الجماعى فان المشكلة تظل قائمة : كيف نستطيع آن نحدد سلوكا معينة بأنه يعكس حالة مرضية من عدمه ؟ ملاحظات فرويد لاتزال تنتمى إلى إطار التجريد والخيال أكثر من الواقع والتجريب. يقول فرويد ملخصاً تحليله لهذه الظاهرة : « إذا كان تطور الحضارة يقدم تشابها عميقا مع تطور الفرد ، وإذا كانت نفس المناهج يمكن استخدامها فى كلا الحالين ، فأليس من الممكن والمقبول تشخيص كيف أن نظماً كاملة للحضارة أو مراحل كاملة لتلك الحضارات أو حتى كل الإنسانية فى إحدى مراحلها قد تقدم نموذجاً لحالة مرضية ؟ تحت تأثير تلك الاتجاهات العامة للحضارة المرتبطة بفترة معينة الدراسة التحليلية لهذه الحالات المرضية من الممكن أن تقود إلى تقديم نصائح علاجية فى غاية الأهمية من الناحية العملية . ولا يمكن أن نصل إلى القول بأن مشكلة تطبيق أسلوب التحليل النفسى للجماعة المدنية يصير أمراً غريبا وشاذاً مصيره إلى الفشل . مما لاشك فيه أنه يجب علينا أن نكون حذرين وألا ننسى أنه عقب كل شيء فنحن فى مواجهة بعض التشابهات وأنه من الخطورة بمكان ليس فقط ونحن فى سبيل تحليل الحقيقة البشرية بل وكذلك

---

(١) فروم ، م. س . ذ. ، ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) أوسلوك جنسى شاذ مثلا . نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٢٥ – ٢٦

ونحن بصدد توظيف المفاهيم العامة أن ننتزع تلك الكليات من الميادين التى نشأت بها وتطورت فى نطاقها إلى حالة النضج ونطبقها فى ميادين أخرى غريبة عنها دون قيود وضوابط . تشخيص حالة التأزم العصبى الجماعى لابد وأن تواجه صعوبات غير عادية. ففى نطاق حالة التأزم العصبى للفرد نستطيع أن نحيل كنقطة بداية لذلك التناقض والتعارض الذى يقدمه المريض فى علاقته بالوسط الذى ينتمى إليه حيث نفترض أن هذا يمثل الحالة الطبيعية . مثل هذه العلاقة بأى صورة من الصور لا يمكن خلقها فى نطاق التحليل الجماعى . فاذا انتقلنا إلى نواحى التطبيقات العلاجية فلابد من أن نتساءل ماذا يمكن أن تقدمه أكثر التحليلات عمقا لحالة التأزم العصبى الجماعى[1] حيث أنه لايوجد من فى سلطته أن يفرض على الجماعة تقبل النواحى العلاجية ؟ رغم ذلك ورغم جميع هذه الصعوبات فاننا لانزال نأمل بأنه سوف يأتى يوم يغامر فيه البعض فى أبحاث بأن يلقى بنفسه فى دلو علم أمراض الجماعات المتمدينة »[2] حدثت رغم ذلك بعض المحاولات نستطيع أن نذكر على رأسها العالم الأريكى فروم الذى قدم أكثر من محاولة واحدة فى هذا المجال . ولكنها لاتزال جميعها تحمل طابع التحليل الفكرى والإيحاء الذاتى حيث تختلط التقاليد النفسية بالأوضاع السياسية دون أن ترتفع إلى مرتبة الدراسة العلمية الكمية والكيفية بمختلف أساليبها[3] .

(ب) لو تركنا جانبا هذه التأصيلات النظرية واقتصرنا على الأبعاد العملية لكان علينا أن نلاحظ طبيعة التغيرات التى أصابت المجتمع المعاصر من حيث علاقة ظاهرة الرأى العام بالحقيقة الحضارية . الرأى العام أضحى اليوم يمثل أحد المداخل الحقيقية لفهم أى جماعة سياسية سواء كان ذلك مرتبطا بالدلالة الحضارية أو بالأوضاع السلوكية، وسواء كانت تلك الأوضاع السلوكية تدور فى إطار البعد الجماعى أو النواحى الفردية، تقف عند حد السلوك الصحى أو تتعداه إلى دراسة السلوك المرضى.

فلنتذكر إجمالا أسباب ذلك :

أولا : الثورة الإعلامية التى بدأت تبرز ملامحها الواضحة من حيث التقريب بين الشعوب منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد أن قاربت بين الطبقات خلال القرن

---

(١) Collective neurosis انظر بصفة خاصة مقال :
HALLECK, Community psychiatric, some troubling questions, in ROBERTS, cit., p. 58.

(٢) FREUD, Civilization and its discontents, 1953, p. 141.

(٣) قارن هاليك ، م. س. ذ. ، ص ٦٦

الماضى (١). عملية التقريب بين الشعوب لابد وأن تؤدى إلى ذلك التقارب الحضارى الذى هو الخلفية الحقيقية لعملية التفاعل اللازمة لانسياب اتجاهات الرأى العام عبر الحدود.

ثانيا : ارتفاع أهمية المواطن العادى فى عملية صنع القرار السياسى (٢) فالمجتمع المعاصر يسلم ويغض النظر عن صورة النظام السياسى بأن أحد أهدافه حتى ولوكان مجتمعاً ديكتاتوريا أن يرضى بل وأن يتملق ذلك الرجل العادى : مواطن يفهم كل شيء ولا يفهم شيئا . أضحى المواطن العادى بهذا المعنى عنصر من عناصر عملية صنع السياسة ولو فى الأمد القصير ، وهذا يعنى لغة معينة فى التخاطب وعلاقة معينة فى التأثير والتأثر (٣). النتيجة الطبيعية هى اختلاط السلوك الفردى بالسلوك الجماعى.

ثالثا : زاد من تأكيد هذه النواحى انتشار الدعاية والحرب النفسية. عقب أن كانت الحرب النفسية تمثل حالة استثنائية وترتبط بالصراع الجسدى مكانا وزمانا ، أضحت اليوم وبسبب الانقسام الايديولوجى الذى يعانيه مجتمع القرن العشرين تمثل القاعدة العامة ولاتقتصر على حد النموذج الاستثنائى . الدعاية والحرب النفسية رغم أنها ظاهرة جماعية إلا أنها بدورها تسعى إلى عملية تغيير للسلوك البشرى على المستوى الفردى : فى الحالة الأولى بتغيير غير المهتم إلى مهتم أوغير الصديق إلى صديق وفى الحالة الثانية بتحطيم التكامل فى الشخصية الفردية واحلال الحالة المرضية موضع الحالة الصحية.

رابعاً : ثم تأتى عملية التطور العام للمجتمع المعاصر إلى مجتمع استهلاكى يقوم على أساس العمليات الاقتصادية المرتبطة بالإنتاج والتسويق فتقدم دفعة أخرى لأهمية الظاهرة . إن نجاح التسويق يفترض عملية خلق أذواق جديدة وخلق أذواق جديدة لايعنى سوى تغيير فى الأنماط السلوكية الاستهلاكية.

خامسا : ثم تأتى ظاهرة التخلف الاقتصادى بابعادها المختلفة فتثير مشاكل أخرى عديدة لاحصر لها ترتبط بدورها بظاهرة الرأى العام . إن ظاهرة التخلف من الناحية العملية ماكان يمكن أن تفرض وجودها بهذه الضخامة لولا التقدم الرهيب فى علاقات

---

(١) ليفولسى ، م. س . ذ. ص ١٩ وما بعدها.

(٢) LINDBLOM, The policy - making process, 1968, p. 43.

(٣) BAILEY, The man in the street, the impect of American public opinion on foreign policy, 1964.

الاتصال الدولى [1] . كان من الممكن ، كما حدث فى أكثر من مرحلة واحدة من مراحل الوجود الإنسانى أن تظل المجتمعات المتخلفة مقفلة على نفسها غير مدركة لما يحيط بها من تقدم لو لم يكن قد عرف العالم الثورة الإعلامية التى نعيشها . كذلك ظاهرة التخلف من حيث حقيقتها الحركية لاتعنى سوى نقل المجتمع المتخلف من حيث خصائصه الحضارية إلى تلك الصورة التى تقدمها المجتمعات المتقدمة من هذه النواحى . من بين أبعاد ذلك التطوير لابد وأن تحتل ظاهرة الرأى العام مكانة أساسية فى عملية التغير الاجتماعى والسياسى [2] .

لانستطيع فى هذه الدراسة الموجزة سوى أن نتناول من بين هذه النواحى أكثرها أهمية وارتباطا بالظاهرة السلوكية وبواقعنا الحضارى.

§ ٣٩ ـ ظاهرة الرأى العام والمجتمعات المتخلفة :

سوف نرى فيما بعد كيف أن ظاهرة الرأى العام فى المجتمعات المتخلفة تتصف بالسطحية وعدم العمق على.أننا يجب أن نبدأ فنتساءل : ماهو المقصود بالتخلف وماهى آثار ذلك حول فهم وتحليل ظاهرة الرأى العام فى تلك المجتمعات ؟

(ا) المجتمع المتخلف يمكن أن يوصف بأنه ذلك الذى لايزال يعيش فى مراحله الأولى من حيث التطور بحيث يصعب أن تتوافر له مقومات الرأى العام بمفهومه العلمى.ليس من مقومات المجتمع المتخلف أنه يملك رأيا عاما مستنيراً . ويترتب على ذلك نتائج خطيرة فيما يتعلق بتحليل الظاهرة :

أولا: أول هذه النتائج أننا لانستطيع أن نطبق مناهج تحليل الرأى العام المتبعة فى المجتمعات المتقدمة بحذافيرها ودون تطوير . فقياس ظاهرة موجودة فعلا شىء والبحث عن مقومات ظاهرة لم تتكامل بعد أو فى طريقها إلى التكامل شىء آخر. فسؤال

---

(١) إنظر التفاصيل فى :
FISCHER, MERRILL, International communication, 1970 ; LAZARSFELD, The prognosis for international communication research, in Public Opinion Querterly, Vol. XVI, 1953, p. 482.

(٢) قارن بصفة خاصة النتائج الميدانية للعلاقة بين التغير والسلوك فى :
FESTINGER, Behavioral support for opinion change, in RICHARDSON, Dimensions of communication, 1969, p. 105.

مواطن يعلم بامكانية التحكم فى عملية الإنجاب عن رأيه فى موضوع تنظيم النسل لايمكن أن يؤدى نفس الوظيفة لووجه هذا السؤال إلى مواطن يجهل كلية ولايتصور مثل تلك الإمكانية بالتحكم الإرادى فى عملية الانجاب عدداً وتوقيتا .

ثانيا : يضيف إلى هذه الخطورة عامل الخوف التقليدى فى المجتمع النامى من كل ماله صلة بالسلطة بحيث أنه ليس من السهل التميز بين ذلك الذى يمكن أن يوصف بأنه صاحب موقف محايد أوغير مهتم وذلك الذى يتخذ هذا الموقف ستارا لإخفاء موقفه الحقيقى [1] .

ثالثا : كذلك عدم المعرفة بالقراءة والكتابة يحول دون إمكانية تنفيذ عملية جمع المعلومات إلا بطريق الاستبار [2] وهو الأمر الذى يفرض نفقات فضلا عن فترة زمنية معينة تطيل من مدة تنفيذ البحث .

رابعا : كذلك فان تلك السطحية وذلك الخوف فضلا عن الاضطرار إلى تنفيذ الأداة من خلال الاستبار لابد وأن يؤدى إلى مخاطر عديدة حيث يكون من السهل التأثير فى الحالة موضع التحليل مما لابد وأن يشوه من معالم الظاهرة .

(ب) ولكن ما الذى يقصد أولا بالمجتمع المتخلف وهل هذه الكلمة مرادف لكلمة « الدول النامية » أم أن هناك خلاف بين كلا المفهومين ؟

أول ما يجب أن نلاحظه هوأن ظاهرة التخلف هى ظاهرة أساسا اقتصادية ، وأن الحديث عن تخلف اجتماعى أوسياسى يعكس عدم دقة علمية . إن التخلف كظاهرة اقتصادية لها نواح وأبعاد اجتماعية وسياسية ، ولكن لايوجد ما يسمى بالتخلف الاجتماعى أو التخلف السياسى. بطبيعة الحال فى اللغة المتداولة من الممكن تقبل هذا الاستعمال غير الدقيق ولكن من الناحية العلمية يجب أن تكون واضحة هذه التفرقة وأن يؤسس هذا التمييز .

كذلك لو حاولنا التحديد بمدلول التخلف الاقتصادى لها لنا مدى الغموض الذى يتعين على الباحث أن يواجهه .

---

(١) انظر حامد ربيع ، بحث اعداد الرأى العام لتقبل مسألة تنظيم النسل والمشاركة الإيجابية فى العمل على نجاحها ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، جزء أول ، الفصل الثانى ، (غير منشور) ١٩٦٩

(٢) انظر فيما بعد التفرقة بين الاستبار والاستبيان . وقارن مصطفى سويف ، م. س. ذ. ، ص ٣٦١ وما بعدها .

نستطيع بصفة عامة أن نلاحظ أن التخلف الاقتصادى يرتبط[1] عادة بالمظاهر الآتية كلها أو بعضها .

(أولا) انخفاض مستوى الدخل القومى بالنسبة لمتوسطه بالنسبة للفرد للعام .

(ثانيا) نقص أوضعف مستوى التغذية بالمعنى الحديث ، ويقصد بذلك أن متوسط ما يحصل عليه الفرد عادة من الطاقات الحرارية يوميا يمتاز بالفقر لوقورن بما هو عليه فى المجتمعات الأخرى .

(ثالثا) ارتفاع نسبة الوفيات وبصفة خاصة نلاحظ هذا الارتفاع فى الأطفال مع نقص فى متوسط العمر .

(رابعا) انتشار الأمية ونقص فترة التعليم الإلزامى .

(خامسا) الفقر الشديد فى العلاقات المعبرة عن الحركة والنشاط الاقتصادى الحديث ، مثل الإنتاج الكهربائى ، الاستهلاك البترولى وبصفة عامة المتعلق بالطاقة. ضعف شبكة المواصلات ، نقص انتشار وسائل الاتصال الجماعى وبصفة خاصة التليفون والسيارة .

رغم ذلك فان هذه المظاهر العديدة لاتجيب عن حقيقة الظاهرة ومقوماتها الباطنة : انها تكشف عن بعض الخصائص التى تنبع من حقيقة أخرى لم نعرفها بعد ، فما هو التخلف الاقتصادى ؟

الملاحظة الثالثة التى يجب أن تسوقها قبل أن نقدم تعريفنا للتخلف تدور حول التحديد بالوعاء المكانى للظاهرة . فالواقع أن ظاهرة التخلف الاقتصادى ليست فقط مرتبطة بمجتمعات متخلفة بل هى أكثر من ذلك تدور حول مناطق متخلفة . فبريطانيا وكذلك الولايات المتحدة تعرف ما يسمى بالمناطة المتخلفة أوما يسميه الفقه الأنجلوسكسونى : depressed areas وهذا يسمح لنا بأن نضع النقط أسفل الحروف : فظاهرة التخلف ظاهرة نسبية تبرز من خلال المقارنة أكثر من أن تعبر عن وجودها كحقيقة مستقلة[2] .

---

(١) المراجع والإحالات بهذا الخصوص لا حصر لها ، وهى جميعها رغم ذلك لا تجيب على علامات الاستفهام التى أثرناها فى إجابة صريحة وواضحة . انظر خلاصة موجزة لموقف الفقه فى هذا الشأن فى :
ALBERTINI, Les mécanismes du sous-développement, 1967, p. 17 ;
JACOBS, The sociology of development, 1966, p. 13.

ثبت كامل بالمراجع يجده القارىء فى المرجع الأول ص ٣٢٣ — ٣٣١

(٢) قارن أيضاً فى أبعاد أخرى للظاهرة :
LACOSTE, Géographie du sous-développement, 1965, p. 167.

عقب هذه الملاحظات العامة نستطيع أن نعرف ظاهرة التخلف الاقتصادى بأنها « نوع من الاختلال فى التوازن بين أنواع الوظائف الاقتصادية فى داخل الجسد الاجتماعى » . ذلك أن المجتمع يعرف دائما نوعا من ثلاثة من الوظائف الآتية :

١ — الوظائف الأولية أو تلك التى تأخذ صورة تعامل مع مصادر الثروة الطبيعية ولكنها لاتفترض أى كفاءة معينة أوخبرة خاصة كالزراعة والرعى وصيد الأسماك والعمل فى المناجم .

٢ — الوظائف المتعلقة بالخدمات . وهى وظائف وسيطة تقتصر على القيام بالخدمات دون أن تضيف أى جديد على الثروة القومية ودون أن تفترض تعاملا مباشرا مع الثروات الطبيعية . جميع الأعمال الإدارية والتجارية من هذا القبيل .

٣ — ثم الوظائف التصنيعية وهى تلك التى تتعامل مع الثروات الطبيعية فتحيلها إلى مواد استهلاكية أوما فى حكمها وهى بهذا المعنى تفترض درجة معينة من المهارة كما أنها تؤدى إلى إضافة قيمة جديدة على المادة الطبيعية موضع التعامل[١] .

المجتمعات المتخلفة فى تعريفنا ومفهومنا لها تتحدد باختلال فى التوازن بين هذه الوظائف الثلاث فى الجسد الاقتصادى بمعنى أن المجتمع المتوازن يجب أن يجعل الوظيفة الثالثة تزيد عن ٤٠٪ من المجموع الكلى للقوى العاملة وكلما اتجهت النسبة إلى ٥٠٪ كلما كان هذا أدعى إلى تأكيد حالة التقدم فى المجتمع الاقتصادى .

الوظيفتين الأولى والثانية لايجوز لأى منهما أن تزيد على ٣٠٪ وكلما تضاءلت وتقلصت لتدور حول ٢٠٪ كان هذا أدعى إلى الارتياح فى تكوين الجسد الاقتصادى.

وهكذا لو طبقنا هذا المفهوم على مجتمع كالمجتمع الكويتى فانه مهما ارتفع مستوى الدخل الفردى ومهما تعددت الخدمات واتسعت الطرقات فانه سوف يظل أسوأ صورة من صور التخلف حيث نجد ما لايقل من ٨٠٪ من القوى العاملة تتكدس فى المكاتب والمقاهى بين خدمات غير حقيقية أوصورية أو مافى حكمها[٢] .

(حـ) التخلف له نتائجه الاجتماعية والسياسية ومن ثم فلابد أن يعكس نتائجه أيضاً

---

(١) انظر ملاحظات لاكوست ، م. س. ذ ، ص ١٨٤ .

(٢) قارن بالنسبة لاسرائيل نفس الظاهرة فى أبعاد أخرى فى حاجة إلى الكثير من التساؤلات والتحليل الجدى من جانب علماء الاقتصاد عقب أن يستوعبوا المنهاجية السلوكية .
MARCHAL, Systèmes et structures économiques, 1959, p. 487-492.

على ظاهرة الرأى العام بصفة خاصة والسلوك بصفة عامة . فما هى أهم نتائج التخلف من هذه النواحى وما هى آثاره على خصائص ظاهرة الرأى العام ؟

(أولا) أول ما نلاحظه بالنسبة للناحية الاجتماعية هو اختفاء القوى الاجتماعية الوسيطة ، وإذا أردنا أن نعبر عن هذه الظاهرة بلغة مبسطة نستطيع أن نقول باختفاء الطبقات الوسطى. المجتمع المتخلف ينقسم إلى حاكم ومحكوم ، غنى وفقير ،قوى وضعيف . أما القوى التى تتوسط والتى تكون حلقة الوصل بين القوى العليا والقوى السفلى ، والتى نستطيع أن نسميها بأنها قوى مساندة Supporters لاوجود لها فى المجتمع المتخلف.

(ثانيا) وهذا يعكس آثاره على ظاهرة الرأى العام . فالرأى العام فى المجتمع المتخلف يتميز بخصائص معينة تجعله واضح فى ملامحه وسماته .

١ ـ فهو سطحى وغير عميق وهذا يرتبط بأكثر من عامل واحد . فالجهل أوعدم الثقافة يكون الخلفية العامة لاختفاء العمق والاندماج الكلى أو الجزئى بين الشخصية الفردية والمواقف السياسية أو الاجتماعية المرتبطة بمختلف المشاكل اليومية أى بمختلف مظاهر التعبير عن الرأى . كذلك الخوف لابد وأن يزيد من هذه السطحية وعدم العمق (١) .

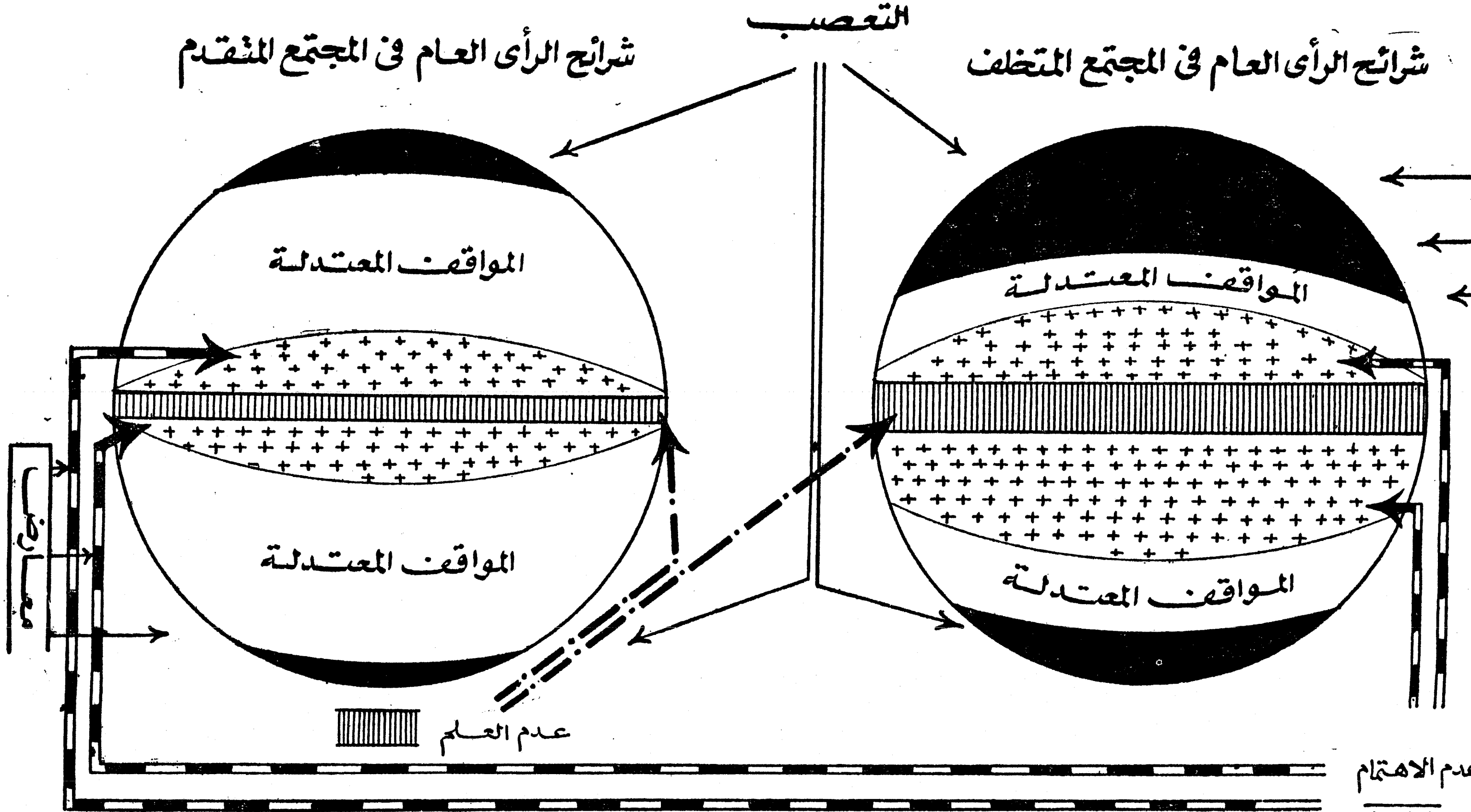
٢ ـ أضف إلى هذا اختفاء الطبقات الوسطى الذى كان لابد وأن يؤدى إلى اختفاء ما يسمى بشرائح الرأى العام المعتدلة . ولنفهم هذه الظاهرة يجب أن نقارن بين توزيع شرائح الرأى العام فى المجتمع المتقدم وتوزيعها فى المجتمع المتخلف ففى الأول نجد أن شرائح الرأى العام يمكن تقسيمها اجمالا إلى خمسة شرائح تتدرج من حيث الأهمية بالترتيب التالى :

---

(١) الأبعاد السياسية لظاهرة التخلف لا تزال فى حاجة إلى دراسة جادة تستند فى أبعادها التجريدية إلى معلومات ميدانية وتجعل نقطة البداية خلق عملية البناء الفكرى لإطار التحليل أى الحقيقةالسلوكية . من بين التساؤلا ت التى لم يحاول الفقه الإجابة عليها إجابة علمية مقنعة : هل تستطيع الأحزاب السياسية أو بصفة عامة التنظيمات السياسية أن تكون متغير أساسى فى عملية التطور السياسى بحيث تقودأوتتحكم فى عملية التغير الاجتماعى مع اختلاف أبعادها ؟

انظر رغم ما يعيبه من نقص فى جميع هذه النواحى التى أثرناها :

LA PALOMBRA, WEINER, Political parties and political development, 1966 ; p. 399.



شرائح الرأى العام
فى المجتمعات المتخلفة وضعف الطبقات المعتدلة

كتلة ضخمة تمثل الاهتمام المعتدل سواء كانت بالتأييد أم المعارضة بحيث لاتقل عن ٧٠٪ من المجتمع الكلى تتوزع إلى شريحتين إحداهما تقف خلف النظام الحاكم وتسانده والأخرى تقف منه موقف المعارضة . أما الباقى أى مالايتجاوز ٣٠٪ فانه يتوزع تقريبا بالتساوى بين شرائح ثلاث : شريحة لاتهتم وتقف من المشكلة موقف اللامبالاة، ثم شريحة تؤيد مع تعصب وعنف وشريحة تعارض مع تعصب وعنف . وهكذا فان الذى يلاحظ فى المجتمعات المتقدمة هوأن المواقف السلبية أو الضعيفة والمتعصبة لاتمثل سوى نسب محدودة وضئيلة . فعدم الاهتمام واللامبالاة قد لايتعدى ٥٪ من المجموع الكلى للمجتمع السياسى . كذلك العنف والتعصب سواء بالتأييد أو المعارضة أى المواقف الجامدة الصلبة مهما بلغت من القوة لايمكن أن تتعدى ٢٠٪ من المجموع الكلى[١] .

إذا انتقلنا إلى المجتمع المتخلف لها لنا الفارق :

فعدم الاهتمام أو اللامبالاة أو عدم العلم أو عدم المشاركة فهى جميعها تعنى موقف واحد وهو السلبية المطلقة يعبر عن نفسه بما لايقل عن ٥٠٪ من المجتمع الكلى . وفى مقابل هذا تتسع المواقف العنيفة بالتأييد أو المعارضة فاذا بها لاتقل بدورها عن ٣٠٪ وهكذا تكون النتيجة أن الشريحة التى تمثل الاعتدال أى الاهتمام ولكن بتوازن ، والمشاركة ولكن دون عنف وتعصب لاتتجاوز ٢٠٪ وقد تقل عن ذلك .

ماهى النتيجة ؟ اختلال وظيفة الرأى العام . ان الرأى العام فى المجتمع المتخلف لايستطيع فى مثل هذا الهيكل أن يؤدى وظيفته الحقيقية وهى الرقابة والضبط ولكن دون ضجيج والحساب ولكن دون مهاترة والتأييد ولكن دون اسفاف واطلاق للشعارات .

(ثالثا) كذلك فان المجتمع المتخلف يرفض إمكانية قياس الاتجاهات أو على الأقل يجعل هذه العملية من حيث دلالتها الحقيقة موضع الكثير من التساؤلات[٢] .

---

(١) قارن حول فكرة التغير والتمييز فيها بين الموقف الفردى والموقف الجماعى :
HIRSCHMAN, Stratégie du développement économique, 1964, p. 23.

(٢) حامد ربيع ، بحوث الرأى العام ، م. س .ذ. ، ص ٥٥ .

§ ٤٠ ــ أبحاث الرأى العام فى المجتمعات النامية :

سبق أن عرفنا المجتمعات المتخلفة . فهل المجتمع النامى هو المجتمع المتخلف؟ الواقع أن الاصطلاحين يكاد كل منهما يعكس نفس الحقيقة ــ ولكن رغم ذلك فان كلمة المجتمع النامى تحدد نوعية معينة للتخلف[1]: ذلك إن هذا المجتمع هو مجتمع متخلف يسعى للتخلص من حالة التخلف هذه ومن ثم فهو يتصف بالديناميكية والتطور . ولذلك فمن الممكن الحديث عن أبحاث للرأى العام فى المجتمع النامى حيث تصير أحد أهداف التطور هو التخلص من التخلف وبالتالى السعى نحو خلق نوع من المشاركة الحقيقية والفعالية بين مختلف أجزاء الجسد الاجتماعى ومن ثم فيصير هناك موضع للحديث عن الأبعاد العملية لعملية تحليل وقياس الرأى العام .

بطبيعة الحال يتفرع على ذلك أن الرأى العام فى المجتمع النامى يعكس نفس الخصائص السابق ذكرها فى المجتمع المتخلف بدرجة أو بأخرى . ومن ثم فان هذه الخصائص تفرض صعوبات معينة تجعل من الضرورى إعادة النظر فى كل ماله صلة بتقاليد البحث الميدانى فى تحليل وقياس الرأى العام كما تعرفه الدول المتقدمة .

أهم هذه الصعوبات :

(أولا) ندرة الأبحاث الاجتماعية السابقة .

(ثانيا) نقص الاحصاءات وعدم كفايتها .

(ثالثا) صعوبة الاستناد إلى القيم الثقافية فى عملية بناء مقاييس الاتجاهات .

(رابعا) اختلاط نظرية التوعية بنظرية التوجيه السياسى .

(خامسا) عدم وجود أو على الأقل ندرة الخبراء المتخصصين .

فلنتناول هذه الصعوبات بشىء من التفصيل[2] .

---

(١) MILBRATH, Political participation, 1965, p. 39.

(٢) هذه الملاحظات مصدرها الخبرة التجريبية التى عشناها خلال إشرافنا على البحث الميدانى الذى سوف نعرض لبعض تفاصيله فيما بعد تحت حالة رقم ١٣ . ورغم أن التقرير النهائى للبحث الذى يجب أن يتكون من خمسة أجزاء لم يصدر منه حتى الآن سوى جزء واحد وهو بدوره لا يزال مخطوطا فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، إلا أن النتائج المنهاجية وتلك المتعلقة بالنواحى التجريبية الخاصة بظاهرة الرأى العام فى المجتمع المصرى من جانب والظاهرة السلوكية بصفة عامة من جانب آخر سوف نقدمها فى مواضع ثلاث : إلى جانب هذا المؤلف فاننا سوف نتعرض بتحليل للأبعاد المنهاجية بشىء من التفصيل فى مؤلفنا عن نظرية التحليل السياسى . كذلك ففى مؤلفنا عن نظرية الرأى العام سوف نتناول بعناية خاصة =

١ ــ أول هذه الصعوبات وأوضحها يتعلق بندرة الأبحاث الاجتماعية السابقة التى نستطيع أن نثق فى جديتها وفى صلاحيتها للاستدلال . فالجسد الاجتماعى حقيقة متكاملة ، وكل بحث ميدانى فى ناحية معينة من نواحى هذا الجسد من حيث أى من خصائصه ، طالما سمح بالوصول إلى فهم ولو جزئى لأى ناحية من نواحيه أوجزء من أجزائه ، فانه يستطيع أن يلقى الضوء ولو بطريق غير مباشر على النواحى الأخرى التى لم يتعرض لها ذلك البحث بطريق أصيل . وقد لاتتضح هذه الأهمية إلا بعد نشر نتائج البحث بفترة طويلة . وتزداد هذه الأهمية عدما نتذكر طبيعة الأبحاث الميدانية فى المجتمعات النامية : فهى أساساً أبحاث خاصة لأوضاع مرضية تسعى إلى وضع خطة علاجية. ومن ثم فكل اكتشاف مهما صغر ودق حجمه ، هو كفيل ، طالما كان من الممكن الوثوق فى نتائجه من حيث صحة الوصول اليها أو صحة الاستدلال المستمد من تحليل مقوماته ، بأن يلقى ضوءاً ولو باهتا على ناحية من نواحى كيان الجسد الاجتماعى فى وضعه المتعفن (١) .

=تحليل النتائج الميدانية المتعلقة بمقومات ظاهرة الرأى فى المجتمع المصرى . هذا وقد قدمنا فعلا بعض هذه النتائج فى بحثين لنا : أحدهما قدم إلى المؤتمر الدولى للعلوم السياسية الذى عقد ببيروت عام ١٩٦٩ عن خصائص السلوك الشاب فى المجتمعات النامية ، وثانيهما قدم إلى الدائرة المستديرة التى عقدتها الجمعية الفرنسية للعلوم السياسية فى صيف عام ١٩٦٤ بباريس .

انظر فيما بعد بخصوص هذا البحث الأخير هامش رقم ٢ ص ٢٩٢ .

(١) التعفن ظاهرة ليست قاصرة على المجتمع المتخلف بل إنها تتعدى ذلك إلى المسئولين عن البحث الاجتماعى الميدانى وبشكل مخيف .

(أولا) فنقص المعلومات وعدم التخصص يصير لا رغبة فى سد النقص واستكمال المعلومات بل ادعاء وغرورا وحديثا أجوف لا نهاية له .

(ثانيا) وتدخل قيم غير علمية فى البحث والتحليل لا يعنى فقط اضطراب مسارة التحليل وإنما سيطرة القيم غير العلمية على القيم العلمية . ومن ثم فاذا بالعلم ليس وسيلة لاكتشاف الحقيقة وإنما طريقة لتبرير تشويه الحقيقة .

(ثالثا) وهكذا بدلا من أن يكون البحث وسيلة لاكتشاف العلاج بعد تشيخص الحالة المرضية فإذا به سعى نحو اكتشاف مبرر لوجود المرض .

فكيف يستطيع الباحث المحايد فى المجتمعات النامية أن يؤدى وظيفته فى ربط العلم بالمجتمع وتسخير الأول للخدمة الحقيقية للثانى ؟

إننا فى حاجة أولا لتطوير عقول أولئك الذين قدر لهم أن يتحملوا مسئولية البحث العلمى فى المجتمعات المتخلفة قبل أن نطالب بأن نجعل العلم وسيلة لتطوير تلك المجتمعات . ولعله مما يخفف من المسئولية ويفتح باب الأمل أن أولئك الذين يسيطرون على مراكز البحوث أومافى حكمها لا ينتمون إلى طبقة العلماء. وهم فى أغلب الأحيان بدورهم تسلقوا من خلال الباب الخلفى . ولذلك فيجب أن نواجه هذه الحقيقة بشجاعة : إلى أن يظل=

هذه الصعوبة تفرض على خبير الرأى العام وبصفة خاصة عندما يتعرض لنواحى الإعلام والدعاية مجهوداً مزدوجا : ذلك أن طبيعة وظيفة الباحث الإعلامى تفرض عليه ، كما استقر الأمر عليه فى الخارج ، وبطريق تلقائى دون الحاجة إلى تأصيل لذلك بفضل رسوخ التقاليد العلمية التى أساسها التخصص ، أن يترك ما يسمى بالأبحاث الوصفية إلى خبراء علم الاجتماع . على العكس فان الموقف فى البلاد النامية لايحتمل ذلك : وعلى باحث الرأى العام أن يضيف هذه المهمة إلى عاتقه .

ولنفهم مدلول هذه الصعوبة يجب أن نميز فى أبحاث الرأى العام بين أنواع ثلاث من الأبحاث الميدانية :

أولا : دراسات وصفية ، يسميها علماء الرأى العام فى بعض الأحيان بسوسيولوجية الرأى العام ، ويقصد بذلك دراسة الأوضاع القائمة من حيث العلاقات التقاطعية ، والارتباطية وتحديد المتغيرات المرتبطة أو التابعة وغير المستقلة أوغير التابعة والمستقلة ومدى الارتباط وأثر عدم التبعية . هذه الأبحاث هى أبحاث اجتماعية بالمعنى التقليدى لايميزها سوى أمر واحد وهوأن موضوع الدراسة مرتبط بظاهرة الرأى العام[1] .

ثانيا : دراسات التنبؤ أى تلك التى تقوم على أساس السعى لتحديد احتمالات معينة لو تحقق شرط معين . هذه الدراسات لاتقتصر على وصف القائم وإنما ابتداء من هذا الوصف تستطيع أن تتنبأ باتجاهات الرأى العام فى المستقبل أى أن تقوم بما يسمى prediction ازاء مشكلة معينة أوقرار سياسى معين . أهم صور هذا النوع من الأبحاث هو مسألة التنبؤ الانتخابى .

ثالثا : دراسات توجيهية وهذه هى الصورة الثالثة والأكثر تعقيداً وهى تفرض كلا النوعين السابقين ، وصف ثم تنبؤ . فاذا كان التنبؤ يؤدى إلى احتمال نتيجة غير تلك التى يرجوها صاحب المصلحة كاتجاه الرأى العام لرفض قرار سياسى معين مثلاً ،

= هؤلاء يسيطرون على تلك المراكز بطريق مباشر أوغير مباشر فخير لنا ألا نتحدث عن بحوث ميدانية أو علاجية تقدم تشخيصا ومحاولة للتخلص من حالة مرضية بأسلوب علمى يخضع لمعايير الحياد والدقة الوضعية وهنا يجب أن نلاحظ أن هذه الظاهرة ليست قاصرة على بلادنا بل انها نتيجة وصل إليها العلماء فى أكثر من موضع واحد . انظر على سبيل المثال :

WARD, The research environment, in Field research in developing areas, 1964, p. 26.

(١) بريلسون ، م. س. ذ. ، ص ٥٩٥

فان الدولة أو السلطة صاحبة الشأن تلجأ إلى تغيير ذلك الاتجاه عن طريق حملة دعائية معينة . هذه الدراسات تقوم على أساس مزدوج : بحث اجتماعى بمعنى بحث وصفى للقوى القائمة من حيث علاقتها بالاتجاه السياسى ثم بحث تنبوء بمعنى تحديد أبعاد السلوك المحتمل أى رد الفعل المتوقع لمختلف مظاهر الاستجابة . وهو أمر لا يمكن أن يتم إلا استناداً إلى تحليل الموقف القائم من حيث علاقته بموضوع التنبوء .

هذه الصورة الثالثة هي الغالبة أو اللازمة فى أبحاث المجتمعات النامية وبصفة خاصة لأن هذه الأبحاث كما سبق أن ذكرنا يجب أن تتجه لأن تؤدى وظيفة كفاحية أى لأن تصبر أداة من أدوات التنمية الاقتصادية والتغير الاجتماعى والسياسى [1] . وهذه الصورة من صور الأبحاث ليست إلا نوعية من أبحاث التنبوء والتوجيه بالمعنى السابق ذكره .

٢ ـ الصعوبة الثانية ترتبط بالأحصاءات . فمن المعلوم أن أى بحث ميدانى يجب أن يستند إلى احصاءات دقيقة وتفصيلية وحديثة . احصاءات موثوق فى صحتها مبوبة ومجمعة بطريقة تسمح بسهولة الوصول إلى أدق جزئياتها بدلالة معبرة عن المجتمع موضع الدراسة . وهذا أمر غير متوفر فى المجتمعات النامية .

أولا : فالجهاز الاحصائى ذاته غير متكامل وغير قادر على أن يقدم البيانات المطلوبة بالدقة الكافية والسرعةاللازمة .

ثانيا : وحتى لوتوفرت هذه البيانات فى بعض الأحيان فان السرية الكاملة والتامة تحيط بتلك المعلومات حيث تعتبر أحد الأسرار التى لايجوز نشرها أو التعرض لها .

ثالثا : هذا فضلا عن جو عام من عدم الثقة يسود العلاقة بين هذه الأجهزة وأى باحث أومتخصص ومتعرض لمشاكل التحليل السياسى والرأى العام بل وبصفة عامة يتعرض لمشاكل التحليل الاجتماعى [2] .

٣ ـ صعوبة ثالثة يجب أن يواجهها الباحث فى البلاد النامية وهى المرتبطة ببناء

---

(١) انظر ملاحظات :
DE SOLA POOL, The mass media and politics in the modernization process, in PYE, Communication and political development, 1963, p. 247.

(٢) سوف نرى فيما بعد أحد أساليب مواجهة هذه الصعوبة وهو أسلوب العينة المساحية الذى يفترض عملية المسح الشامل . ولكن أيضاً هذا الأسلوب له عيوبه الواضحة التى لا تسمح بالمواجهة الحقيقية لمشكلة عملية جمع المعلومات إنظر بيرلسون ، م. س. ذ. ، ص ٥٤٦ (الطبعة الأولى ١٩٥٣) .

مقاييس الاتجاهات . من المعلوم أن عملية بناء مقياس الاتجاهات تعتبر أدق أجزاء التحليل السلوكي فى نطاق نظرية الرأى العام. سوف نرى فيما بعد بتفصيل كاف عملية قياس الاتجاه وكيف أنها تقوم على أساس البحث عن بعض الوقائع أو المظاهر السلوكية أو الآراء التى يفترض فيها أنها تعبر عن وجود اتجاه معين وعن درجة ذلك الاتجاه ، ثم اعطاء وزن رقمى لكل من هذه المفردات وافتراض أن مجموع هذه الأرقام يقدم قياسا كميا للاتجاه . وإذا كان الفقه الغربى لايزال حتى الآن يسلم بخصوص قياس الاتجاهات السياسية بأنه لم يستطع بعد أن يخلق تلك المقاييس الملائمة والمعبرة عن طبيعة الموقف السياسى ، مكتفيا فى أغلب الأحيان بتطبيق المقاييس المعروفة فى ميدان علم النفس الاجتماعى ، فان المشكلة تصير أكثر خطورة بخصوص المجتمعات النامية . ذلك أن المجتمع فى البلاد النامية ينقسم فى الواقع إلى عديد من المجتمعات الفرعية كل منها يملك قيمه وتقاليده الحضارية. فهناك أولا المجتمع الحضرى والمجتمع الريفى والمجتمع نصف الحضرى . ثم هناك د جات متفاوتة فى الطبيعة الحضرية كما أن المجتمع الريفى يعكس درجات متفاوتة من حيث الاحتكاك بالمجتمع الحضرى وبالتالى من حيث تأثره واستقباله للقيم الحضرية . وكل من هـــذه المجتمعات يملك نظاما للقيم System of value مختلفاً ان لم يكن متعارضا وغير متناسق[1] . ومن ثم فان المجتمع النامى لايصلح لأن يخضع لعملية القياس المستندة إلى قواعد واحدة ومطلقة . فلو تصورنا أننا نريد أن نقيس ظاهرة الاحترام فى العلاقة بين الآباء والأبناء فاذا كنا نستطيع أن نعتبر أن ظاهرة احتساء القهوة أو تدخين السيجارة وقائع تدل على عدم الاحترام فى مجتمع ريفى فى أقاصى الصعيد فانه من العبث تصور ذلك فى مجتمع حضرى فى أحد المناطق المرفهة فى العاصمة . وسائل القياس فى المفهوم التقليدى يجب أن تستند إلى قواعد أو على الأقل إلى مقاييس واحدة والا كيف نقارن بين شخصين أحدهما قد قسنا طوله بالبوصة والآخر بالذراع مع افتراض أننا لانعلم العلاقة بين البوصة والذراع ؟

٤ ــ الصعوبة الرابعة ترتبط بنظرية التوعية. ولعل هذه الناحية تثير صعوبة منهاجية خطيرة تفرض ألا يطبق الفن الإعلامى من حيث علاقته بالدعاية والتوجيه ، كما يفهم وينفذ فى المجتمعات المتقدمة بحذافيره . ولفهم ذلك بايجاز يكفى أن نتذكر أن أى

---

(١) HOVLAND. Results from studies of attitude change, in The American Psychologist, 1959, p. 8.

عملية استكشافية للرأى العام بخصوص أى مشكلة من المشاكل تعطى عادة التكوين الهيكلى التالى :

موافق أى متقبل للقرار السياسى المحتمل .

غير موافق أى يرفض القرار السياسى المطلوب .

لايعلم أى تلك الطائفة التى تشمل من لايستطيع أن يتخذ قرارا بالموافقة أوعدم الموافقة أو من لايهتم باتخاذ القرار وبعبارة أخرى تشمل طائفة من لم يكون رأيا محدداً بعد[1] .

ومن ثم فهذه الطائفة الثالثة رغم أنها توصف بأنها لاتعلم إلا أنها لاتعبر عن جهل بالموضوع وإنما فقط عن عدم رغبة فى اتخاذ موقف صريح أوعدم اهتمام باتخاذ موقف واضح وبهذا المعنى تعبر عن اتجاه حقيقى وان لم يكن اتجاها إيجابيا بالتأييد أوسلبيا بالرفض . وقد سبق أن رأينا آن هذه الطائفة تمثل مالايتجاوز ١٠٪ من المجتمع الكلى . إذا انتقلنا إلى المجتمعات النامية نجد فئة أخرى تندرج تحت هذه الطائفة بحيث توصف بأنها لاتعلم لأنها فى الواقع لاتملك التوعية اللازمة لاتخاذ قرار فى الموضوع ولو بعدم الاهتمام . هى لاتستطيع أن تتخذ قرارا أوبعبارة أخرى هى طائفة تجهل وليست فقط لاتعلم بمعنى عدم الرغبة فى التعبير عن الرأى . هذه الفئة التى تمثل نسبة ضخمة فى المجتمع قد تصل إلى ٤٠٪ ، لاتمكن أن تعالج بالطريق العادى الذى تعالج به الفئات الأخرى[2] وازاء ذلك من الممكن تصور أحد الحلين الآتيين :

---

(١) كروتى ، م. س. ذ. ، ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٢) هذه بعض نتائج بحثنا السابق الإشارة إليه عن تنظيم النسل بخصوص العلم بالموضوع مع ملاحظة أن هذا السؤال وجه فى أثناء حملة ضخمة من الإذاعة والتلفزيون عن الموضوع وفى مجتمعات يغلب عليها الطابع الحضرى :

جدول رقم (٤)

	طبيعة الإجابة	حضر	ريف	عمال	جملة
الزوج	العلم	٪٩٠٫٦	٧٧٫١	٩٢٫٣	٪٨٦٫٨
	عدم العلم	٩٫٤	٢٢٫٩	٧٫٧	٪١٣٫٢
الزوجة	العلم	٪٩٥٫٨	٧٥	٨٧٫٥	٪٨٦٫١
	عدم العلم	٤٫٢	٢٥	١٢٫٥	٪١٣٫٩

العلم بموضوع تنظيم النسل فى نماذج اجتماعية مختلفة

أولا إضافة مرحلة فى البحث الميدانى نصفها بمرحلة التوعية الغاية منها جعل المواطن فى حالة صلاحية لفهم الموضوع ولوفى أبسط معانيه بحيث يستطيع أن يتخذ موقفاً واضحاً ولو بعدم الاهتمام وهذه نستطيع أن نسمبها بمرحلة التوعية .

ثانيا : أو أن نلجأ إلى أسلوب آخر يعكس نفس الوظيفة مع خلاف فى الأداة بأن يتولى الباحث الميدانى الذى يقوم بعملية جمع المعلومات وتطبيق الأداة القيام بعملية تفسير وايضاح للموضوع قبل تطبيق الأداة على أن يتم تطبيق الأداة على مرحلتين إحداهما خاصة بجمع المعلومات تنفصل زمنيا عن الآخرى ولو بفترة محدودة عدة أيام مثلا . وهذا الأسلوب الأخير هو الذى اتبعناه فى بعض الأبحاث الاستطلاعية بخصوص أبحاث تنظيم النسل وهو يفرض نفقات فضلا عن إطالة فى الوقت اللازم لإجراء البحث إلى جانب تدريب معين للباحث .

رغم ذلك فكلا الحلين من الوجهة العلمية موضع مناقشة وايا منهما لايخلو من عيوب ومن صعوبات فنية ومادية ولكنها مجرد اقترحات قابلة للتجريب [1] .

§ ٤١ ـ عملية الدعاية وتغيير اتجاهات الرأى العام :

سبق أن أينا ونحن فى معرض تحليل المدرسة السلوكية وأصولها التاريخية آن الدراسة العلمية لنفسية الشعوب كانت أحد المصادر الواضحة لخلق التقاليد التجريبية لتحليل الجماعات فى الفقه الألمانى وخير من عبر عن ذلك مدرسة نفسية الشعوب التى بدأت على يد العالم هردر ولكنها ارتفعت إلى القمة بفضل جهود العالم الألمانى فونديت وقد تعرضنا لهذا الأخير بشىء من التفصيل وذكرنا كيف أنه أفرد عشرين عاما من حياته للقيام بأبحاث ميدانية أسفرت عن عشرة مجلدات باسم علم نفسية الشعوب واستطاع من خلال هذه الدراسات أن يضع الأصول الواضحة للعلاقة بين النفسية الفردية والظاهرة السياسية من وجهة ديناميات الجماعات . هذه الدراسات تمثل المقدمة الحقيقية لعلم النفس

= ونلاحظ من هذه البيانات كيف أن الريف يمثل أكثر من ٢٠٪ وذلك رغم أنه كما سوف نرى فيما بعد أن ثلث العينة الريفية كان ينتمى إلى قرية بها مركز تنظيم النسل . كذلك نلاحظ أن المرأة فى الحضر أكثر علما من الرجل ، وأن العامل أكثر علما من الرجل الذى يقيم بالمجتمع الحضرى والذى بالتالى يغلب عليه عنصر الانفتاح الحضارى .

انظر فيما بعد ص ٢٨٩ وما بعدها .

(١) انظر أيضاً حامد ربيع ، بحوث الرأى العام ، م. س. ذ. ، ص ٦٠ هامش رقم ١١ .

السياسي والذى يدور حول دراسة وتحليل السلوك السياسى [1] .

أحد أبواب تحليل السلوك السياسى عملية تغيير السلوك Change of behavior ، ورغم أننا سوف نعود فيما بعد عندما نتناول ظاهرة السلوك السياسى إلى التعرض لهذه الناحية إلا أننا يجب أن نتذكر أن عملية تغيير السلوك ليست فقط قاصرة على السلوك السياسى بل هى تتعداه إلى جميع أنواع السلوك من اقتصادى واجتماعى . تغيير السلوك بصفة عامة ممكن أن يأخذ صورة من اثنين إما من خلال الاتصال الشخصى وإما من خلال الدعاية الإعلامية . هذه الأخيرة ترتبط بظاهرة الرأى العام ارتباطا وثيقاً مما يبرر أن نتعرض لها بشىء من الإيجاز :

(ا) ما الذى يقصد بكافة الدعاية؟ الدعاية اصطلاح قديم يعود إلى القرن ١٧ وعلى وجه الدقة يعود إلى عام ١٦٣٣ عندما أنشأ أحد البابوات إدارة باسم Congregation of Propaganda والتى كانت تعنى إدارة من كبار الأساقفة تتناول عملية تنظيم وتخطيط المهام للكنيسة الكاثوليكية . منذ تلك اللحظة ارتبط مفهوم الدعاية بظاهرة الرأى العام .

نستطيع أن نعرف الدعاية بأنها « فن تكتيل القوى للعاطفية والمصالح الفردية بقصد خلق حالة من التشتت الذهنى والغموض الفكرى الذى يسمح بتسهيل عملية الاقتناع بفكرة أو مبدأ ماكان يمكن أن يصل اليه الفرد لو ترك لمنطقه الذاتى يتطور بتلقائية دون أى ضغط معنوى أو توجيه فكرى » .

الدعاية بهذا المعنى [2] تفترض مجموعة من العناصر :

أولا : من حيث جوهرها هى عملية تشتيت ذهنى تؤدى إلى تشويه فى المنطق وبالتالى إلى نوع من التشتت بغض النظر عن أسلوب وجوهر العملية الذاتية .

ثانيا : ان الغاية من الدعاية هى تغيير مظاهر الاستجابة بخصوص موقف المواطن من مشكلة معينة وبعبارة أخرى إذا كان المنبه أحدث الاستجابة ج لو اصطدم بالجسد ب فان الدعاية لاتعدو من حيث طبيعتها سوى أن تخلق تغييراً فى هذه العملية أو اصطناعا فى أحد جزئياتها فاذا بالمنبه ا عندما يصطدم بالجسد ب يخلق الاستجابة د . وهكذا

---

(١) حامد ربيع ، الرأى العام الدولى والسلوك السياسى ، فى السياسة الدولية ، ٦ ، ١٩٦٦ ، ص ٨٤ ما بعدها .

(٢) حامد ربيع ، فلسفة الدعاية الإسرائيلية ، م. س. ذ. ، ص ٣٨ وما بعدها .

نرى أن حقيقة العملية الدعائية ليست إلا تكرار لتجارب بافلوف التى سبق وتعرضنا لها تفصيلا .

هذه الناحية أى الناحية السلوكية هى التى تعنينا أساسا فى العمل الدعائى .

(ب) الدعاية بهذا المعنى أنواعها عديدة وتطبيقاتها لاحصر لها ونستطيع بصفة عامة أن نميز فى أنواع الدعاية أساساً بين تطبيقات عديدة[1] تبعا لواحد أوأكثر من المتغيرات الآتية :

أولا : من حيث موضوعها بمعنى طبيعة السلوك الذى تسعى إلى تغييره فمن الممكن بهذا أن تكون الدعاية سياسية حيث تدور حول التغيير فى السلوك السياسى أوإقتصادية حيث تتناول الظاهرة الاستهلاكية أواجتماعية حيث تسعى إلى تغيير الأنماط والقيم الاجتماعية .

ثانيا : من حيث أهدافها بمعنى آنها قد تكون دعاية كلية وشاملة فتريد التغيير الكلى للسلوك وبالتالى للمواقف المرتبطة بالسلوك وقد تكون جزئية فلا تهتم بأكثر من تقوية أو إضعاف المواقف . نقل المواطن من مواقف التأييد المطلقة إلى مواقف المعارضة المطلقة هى دعاية كلية وتختلف من حيث هدفها وبالتالى من حيث صياغتها وتطبيقها من تلك الدعاية التى لاتسعى إلى أكثر من أن تقوى موقف الصديق بالأقناع أو تضعف موقف العدو بالتشكيك .

ثالثا : كذلك الدعاية تتنوع من حيث القائم بها أى الجهاز الذى يتولاها ويشرف عليها وينظمها وهنا نجد أنفسنا ازاء تطبيقات ثلاث بهذا الخصوص فإما أن تكون حكومية أوخاصة وقد تكون ثورية[2] . الأولى تتولاها الدولة وأجهزتها ونموذجها واضح فى المجتمعات الشموليةحيث تصبر الدعاية أحد أبعاد الوظيفة العقيدية للدولة ولكنها قد تكون أيضاً خاصة وهذا يبرز بشكل واضح فى المجتمعات ذات التقاليد الديمقراطية حيث تتولى الدعاية السياسية المنظمات الحزبية وتتولى الدعاية الاقتصادية الهيئات التجارية . ولكننا نستطيع أيضاً أن نتصور الدعاية الثورية التى بدأت تبرز فى حركات الانتفاض المحلية ابتداء من الحرب العالمية الثانية والتى لانستطيع أن نصفها

---

(١) حامد ربيع ، نظرية الدعاية الخارجية ، محاضرات كلية الاقتصاد ، ١٩٧٢ ، ص ١٣ ومابعدها .

(٢) QUALTER, Propaganda and psychological warfare, 1962, p. 48.

بأنها حكومية كما أن وصفها بأنها خاصة يمنع من إبراز عناصرها وخصائصها الحقيقية.

رابعا : ومن جهة أخرى نستطيع أن نميز بين أنواع الدعاية تبعا لشخص من هى موجهة إليه . لهذا يجب أن نميز بين الدعاية الداخلية والدعاية الخارجية ودعاية العدو : الأولى تتجه إلى المجتمع الداخلى ، مجتمع تربطه بمصدر الدعاية عادات وتقاليد مشتركة ومفهوم قومى واحد . ثم دعاية خارجية بمعنى لغة وخطاب يعبر الحدود ويتجه إلى مجتمعات أخرى وبالتالى إلى فئات أخرى لاتنتمى إلى المجتمع القومى . أما الدعاية المعادية فهى ليست فقط دعاية خارجية وإنما هى دعاية تدور بين مجتمعين فى حالة صراع عسكرى أومافى حكمه . انها تتجه إلى عدو قد أعلن عن عداوته بحيث يمكن القول بأنها تختلط بالحرب النفسية(١) .

خامسا : كذلك نستطيع أن نميز بين أنواع عديدة من الدعاية من حيث أساليبها فهناك الدعاية الصريحة الواضحة وهناك الدعاية الخفية المستترة التى قد تتسلل من خلال العمل الإعلامى .

لنستطيع أن نفهم هذه الأبعاد المتعددة بايجاز علينا أن نبدأ فنحلل طبيعة العمل الدعائى .

(ح) العمل الدعائى سواء وصف بأنه فن لايزال فى أول مراحل تطوره أو وصف بأنه علم قد استطاع أن يخلق تقاليده وقواعده ، فهو عملية تدور من حيث طبيعتها حول نقل رسالة من شخص إلى آخر بقصد تغيير مظاهر الاستجابة ، فى ذلك الشخص الذى تنصب فيه الشحنة الانفعالية .

وهذا يعنى أن العمل الدعائى(٢) يفترض العناصر الخمس الآتية :

أولا : الشخص الذى يقوم بعملية الاتصال حيث تحددت لديه النية فى العمل على تغيير مظاهر الاستجابة المرتبطة والمعبرة عن موقف معين . الدعاية تفترض لذلك منطقين منطق يملكه الشخص الذى توجه اليه الدعاية ، ومنطق آخر يملكه المرسل أو من يقوم بعملية الاتصال . جوهر الدعاية يعنى صراعا بين المنطقين ونجاحها لايعنى سوى تغليب منطق المرسل على منطق المستقبل .

ثانيا : رموز Symbols مكتوبة أومسموعة يستعملها المرسل للتعبير عن مفاهيمه .

---

(١) BARGHOORM, Soviet foreign propaganda, 1969, p. 9.

(٢) ELLUL, Propagandes, 1962, p. 215.

هذه الرموز هى التى تقوم بعملية التأثير والإيحاء أو الاضطراب والتشويش . بعبارة أخرى هى بمثابة عناصر تخلق نوعا من الصدمات الفكرية التى لابد وأن تؤدى بالمنطق إلى السير فى غير طريقه الطبيعى .

ثالثا : أداة للاتصال Channel of Communication أى قناة تربط المرسل بالمستقبل بحيث من خلالها تتحرك اللغة الدعائية من المصدر إلى المصب. هذه الأداة يجب أن تتحقق فيها صفات معينة وبصفة خاصة يجب أن يكون أساسها الصلة المباشرة بحيث لاتسمح بتدخل أى عنصر آخر من خلال عملية نقل الرسالة بالصيغة التى أعدت من المرسل حتى تنصب فى الوعاء الفكرى للمستقبل . الصورة الطبيعية للاتصال هى ما يسمى بالإعلام الجماهيرى أى الأدوات الأربع المعروفة: الصحافة والراديو والتليفزيون والسينما . ولكن من الممكن تصور أدوات أخرى عديدة للإعلام تقوم بالعمل الدعائى . االمسرح ،الاسطوانات ، النشرات بل المعارض الفنية لاتقل أهمية كأداة من أدوات الاتصال والصالحة بالتالى للقيام بالعمل الدعائى . كذلك يجب أن تكون أداة الاتصال بحيث تسمح لرجل الدعاية أن يكتشف وبسرعة نواحى النقص فى إعداده للهجوم الدعائى من خلال معرفته برد الفعل لرسالته الدعائية فى وقته المناسب لأن هذا يسمح له بالقيام بعملية تغيير لاحقة فى عناصر منطقه ولغته الدعائية مما يجعل دعايته أكثر تقبلا وأكثر احتمالا للنجاح . ولعل هذا يفسر لماذا الدعاية من خلال الاتصال المباشر أكثر صلاحية من الدعاية الإعلامية(١) .

رابعاً : جمهور أو مستقبل لعملية الاتصال وهو المصب الذى تسعى اليه العملية الدعائية . أهميته بالنسبة للدعاية هو فى فعاليته المحلية ولذلك فان رجل الدعاية يجب أن يتجه أساساً إلى قادة الرأى أوإلى مراكز القوة لأن اقناع هذه مع مايرتبط بذلك من استجابات معبرة عن تغيير فى السلوك لابد أن يؤدى إلى اتخاذ مواقف مؤثرة وقابلة للانتشار والمحاكاة . فلنتصور مثلا فى قرية صغيرة وقدتم اقناع العمدة وشيخ البلد وشيخ الغفر وأمام المسجد بمبدأ تنظيم النسل . ان هذا وحده كاف لأن يقوم بعملية تغيير غير مباشرة فى جمهور تلك القرية ودون حاجة إلى عمل دعائى متصل بهم لأن هؤلاء الأشخاص الأربعة يمثلون قادة الرأى فى ذلك المجتمع الصغير .

خامسا : ثم هناك أخيراً منطق دعائى وهذا هو الذى يسمح بالتجانس فى عناصر

---

(١) NIERENBERG, L'art de persuader, 1970.

الاستراتيجية الدعائية . الدعاية هى عملية اقناع وجوهر الدعاية لا يمكن أن يكون صحيحا فى جميع عناصره وإلا لما كانت هناك حاجة إلى الدعاية كذلك لا يجوز أن يكون المنطق كاذبا فى جميع عناصره وإلا فالدعاية مقضى عليها بالفشل وعدم النجاح . المنطق الدعائى هو الحصول على أكبر قسط ممكن من الاقتناع ولو كان ذلك على حساب الحقيقة[1] .

(د) على أن الذى يعنينا فى العملية الدعائية هى الناحية السلوكية وأول ما يجب أن نثيره بهذا الخصوص هو طبيعة العملية النفسية التى تستتر خلف العمل الدعائى فتغير من مظاهر الاستجابة أو بعبارة أخرى تؤدى إلى خلق تلك الشحنة الانفعالية التى لابد وأن يصحبها رد فعل هو فى حقيقته مفتعل . من هنا نشأت العلاقة الوثيقة بين العمل الدعائى والنظريات النفسية والسلوكية .

والواقع أنه من هذه الناحية وفيما يتعلق بالتحليل السلوكى لجوهر العمل الدعائى نستطيع أن نجد أنفسنا ازاء نظريات ثلاث كل منها تنبع من فلسفة معينة فيما يتعلق بتحديد طبيعة السلوك .

أولا : فهناك نظرية رد الفعل المفتعل الذى سبق ورأيناه تفصيلا والتى ندين بها إلى بافلوف . تدور هذه النظرية حول فكرة أن السلوك ماهو إلا استجابة لمنبه واننا إذا استطعنا أن نتحكم فى تلك الاستجابة عن طريق التكرار المستمر مع تغيير فى إطار العلاقات المختلفة بين المنبه والاستجابة المصطنعة لأستطعنا أن نخلق السلوك المصطنع[2] . نقل هذا المفهوم إلى نطاق الدعاية بعنى حقيقة مزدوجة :

١ - أن تغيير الاستجابة إنما يتم عن طريق التلاعب فى المحيط أو الوسط أو بصفة عامة فى القوى الاجتماعية وما يرتبط بها من انطباعات بحيث تدفع الفرد لينساق لاشعوريا نحو الموقف أو السلوك الذى نريد منه أن يتخذه .

٢ - الدعاية بهذا المعنى توصف بأنها جماهيرية فهى تتجه إلى المجتمع الكلى ، إلى غالبية ذلك المجتمع أو بعبارة أدق إلى الرجل العادى الذى يوجد فى كل مواطن بدرجة أو بأخرى .

ثانيا : يقابل هذه النظرة أسلوب آخر يستمد وجوده من مدرسة التحليل النفسى

---

(١) حامد ربيع ، فلسفة ، م. س. ذ. ، ص ١٦١ .
(٢) قارن اليل ، م. س. ذ. ، ص ٧٥ ومابعدها .

لفرويد[1] . فقد سبق أن رأينا أن فرويد يرى ان السلوك امتداد لمجموعة من العقد والنقائص التى ترتبط بالنشأة الأولى وبالطفولة . وكلما نضجت هذه العقد والنقائص كلما كان هذا أدعى إلى تعدد أبعاد عقدة التعذيب Frustration التى تسيطر على النفسية الفردية فاذا بها أكثر صلاحية لأن تخضع لعملية التلاعب بالتأثير والتأثر. ومن ثم فهذه الفلسفة عندما تنتقل إلى نطاق الدعاية النازية تسير فى بعدين :

١ — هى لاتسعى إلا إلى المواطن الممتلىء بالنقائص والعقد وبالتالى الذى يعانى حالة تعذيب نفسية حقيقية وهكذا يصير هدفها هو الأقليات أى تلك الفئات التى تشعر إن خطأ أوصوابا أنها مهضومة الحقوق ، أنها لاتعامل على قدر من المساواة مع أفراد المجتمع الكلى . إنشاء الطابور الخامس كان أحد الأهداف الأساسية والثابتة للاستراتيجية الهتلرية .

٢ — كذلك فان جوهر العمل الدعائى النازى هو عملية تضخيم وتشويه للعقد الكامنة فى الفرد أو الجماعة بحيث يتحدد رد الفعل وتتحدد تلك الاستجابة التى نسعى للوصول إليها من العمل الدعائى .

ثانيا : إلى جانب هذين الأسلوبين نستطيع أن نسوق فلسفة ثالثة تتوسط الأسلوب الروسى والأسلوب النازى وهى تستمد فلسفتها من أفكار الفيلسوف الأمريكى ديوى[2] هى ترى فى الدعاية عملية تثقيف وتقوية فى المواقف ومن ثم ترفض التسليم بامكانية التحكم فى المواطن عن طريق التحكم فى الوسط الاجتماعى أوعن طريق التلاعب فى مقومات الشخصية . هذه الفلسفة التى أثرت بشكل واضح فى تقاليد الدعاية الأمريكية تتحدد بدورها ببعدين واضحين فيما يتعلق بهيكلها الوظيفى :

١ — تجعل من الدعاية عملية مختلطة بعملية التوعية والتثقيف. ولذلك فهى تختلط بالإعلام وتدور فى فلك السياسة الثقافية وتجعل من المؤسسات الثقافية كالجامعات والمكتبات العامة بؤرا يتبلور حولها النشاط الدعائى .

٢ — وهى أيضاً تتجه إلى الأصدقاء وتقف عند ذلك الحد . هى توسع من رقعة التأييد التى لها صدى واستجابة سابقة ولايعنيها العدو أو غير الصديق .

وهكذا نستطيع أن نلاحظ أن كلا من هذه الأساليب الثلاث يعكس موقفاً فكريا

---

(١) BROWN, Techniques of persuasion, 1963, p. 93.

(٢) حامد ربيع ، فلسفة ، م. س. ذ. ، ص ٤٥ .

خاصاً : الدعاية الروسية جماهيرية ، الدعاية النازية دعاية للأقليات ، الدعاية الأمريكية تتجه إلى الطبقات المثقفة . على أن كل من هذه الأساليب له عيوبه ونقائصه . فالأول يفترض إمكانية التحكم فى الوسط والإطار الفكرى الذى يعيش فيه المواطن وهكذا يصلح للدعاية الداخلية ولكنه يصير محدود الفعالية فى الدعاية الخارجية . الثانى أكثر اقترابا من الحرب النفسية منه للعمل الدعائى ولذلك فهو يصلح فى حالات الحرب والصراع ولكنه يصير أسلوبا محدود الفعالية فى لحظات السلام والطمأنينة . الأسلوب الثالث يتجه إلى طائفة بحكم خصائصها لا يمكن أن توصف بأنها تمثل المجتمع الكلى فضلا عن أنها تتجه إلى العزلة السلوكية ومن ثم لاتصلح لنشر الدعاية الأجنبية إلا فى نطاق محدود . ولعل هذا يفسر لماذا يرفض العمل الاقتصار على واحد فقط من هذه الأساليب والاتجاه إلى الجمع بينها بمقادير مختلفة تبعا لكل موقف(١) .

(هـ) الهدف من العمل الدعائى هو تغيير السلوك . وتغيير السلوك يعنى تغيير فى مظاهر الاستجابة لأن هذا التغيير هو دلالة النجاح فى العمل الدعائى . وقد سبق أن رأينا أن مظاهر الاستجابة الفكرية عديدة : الرأى ثم الحكم ثم الاتجاه ثم السلوك الفعلى . كذلك التغيير فى الاستجابة يتعدد عمقا واتساعا . فالتغيير فى الرأى أقلها فى الدلالة أما التغيير فى الحكم فهو قد ينتهى بتقرير وتقييم قد يرتفع إلى مرتبة العقيدة ولكن تغيير الاستجابة إلى تغيير فى الاتجاه يعنى تغييراً أكثر عمقاً وأكثر اتساعا . أما أقوى مظاهر التغيير فهو خلق السلوك الفعلى أى الوقائع السلوكية المعبرة عن الاستجابة وهذا هو أقوى مظاهر التعبير عن العمل الدعائى(٢) .

---

(١) انظر أيضاً حامد ربيع ، الدعاية الإسرائيلية وعملية المواجهة العربية ، تحت الطبع ، الجزء الأول ، القسم الثانى .

(٢) فلنقدم مثلا : الدعاية حول موضوع تنظيم النسل . فالشخص الذى يقتنع بذلك المبدأ لكنه يرفض استخدام الوسائل والأدوات يعكس أقل أنواع الاستجابة أما الشخص الذى يقتنع بذلك المبدأ ويقوم فعلا بتنظيم نسله بانتظام واضطراد فانه يعبر عن أقوى أنواع الاستجابة .

ويؤكد هذا مجرد إلقاء نظرة على الجدول المرفق رقم ٥ وهو يقدم بعض نتائج بحثنا عن تنظيم النسل بخصوص مظاهر الاستجابة المختلفة . فالعلم ليس هو الرأى والرأى ليس هو السلوك . وليس أدل على ذلك من ملاحظة البيانات التالية :

(ا) أنه فى الوقت الذى نجد فيه العلم وصل إلى مرتبة عالية حتى أنه فى المتوسط يدور حول ٨٦,٥٪ تقريبا فإن السلوك لم يصل إلى ٣٥٪ .

(ب) وهذا أمر أكثر وضوحا فى المجتمع الريفى . فالعلم بالنسبة للزوج يصل إلى ٧٧٪ ولكن الاستعمال أى السلوك لم يزد عن ١٢,٥٪ (لاحظ أن نسبة الزوجة أكبر وهى ١٤,٦٪ وذلك مرده إلى أن السيدات فى الريف يلجئن إلى الإجهاض دون علم الزوج فى بعض الأحيان) .

(حـ) الرأى على العكس من ذلك يتوسط العلم والسلوك .

جدول رقم ٥

الشخص		الــــزوج				الزوجــــة			
الانتماء الاجتماعى		حضر	ريف	عمال	جملة	حضر	ريف	عمال	جملة
العلــم «يا ترى سمعت عن حاجات تنظيم النسل ؟»	نعم	٩٠,٦	٧٧,١	٩٢,٣	٨٦,٨	٩٥,٨	٧٥	٨٧,٥	٨٦,١
	لا	٩,٤	٢٢,٩	٧,٧	١٣,٢	٤,٢	٢٥	١٢,٥	١٣,٩
الــرأى «طيب ورأيك إيه فى اللى سمعته ؟» (فقط من أجاب بنعم على السؤال السابق)	مؤيد	٨٠,٢	٦٥,٦	٨٨,٤	٧٨,٤	٨٢,٣	٥٥,٢	٨٢,٧	٧٣,٦
	معارض	٥,٢	١,٠	١,٩	٢,٧	٥,٢	٧,٣	٤,٨	٥,٨
	لا رأى له	٥,٢	١٠,٤	١,٩	٥,٨	٨,٣	١٢,٥	—	٦,٧
الســلوك «ويا ترى استعلمتوا فعــلا أى طريقة من الطرق اللى بتحوش الخلفــة ؟»	نعم	٥٨,٣	١٢,٥	٣١,٧	٣٤,١	٥٩,٤	١٤,٦	٢٩,٨	٣٤,٥
	لا	٤١,٧	٨٧,٥	٦٨,٣	٦٥,٩	٤٠,٦	٨٥,٤	٧٠,٢	٦٥,٥

نموذج لمظاهر الاستجابة : (العلم والرأى والسلوك) (الأرقام تعبر عن نسب مئوية)

§ ٤٢ ـ التعامل النفسى فى العلاقة بين المواطن والدولة وأبعاده السلوكية :

من خلال تحليلنا لظاهرة الرأى العام ورغم أننا لانتناولها إلا كظاهرة سلوكية أى كأحد تطبيقات إن لم يكن أهم تطبيقات السلوك الجماعى ، صادفتنا بعض المفاهيم التى ارتبطت بعضها بالبعض الآخر رغم أن كل منها يجب أن يحدد من حيث مدلوله ووظيفته . ويزيد من أهمية التعريف بهذه المفاهيم مادرج عليه التداول العلمى فى بلادنا من الخلط الواضح الأمر الذى يعكس عدم فهم حقيقى لما يرتبط بهذه الظاهرة من أبعاد نظرية .

(ا) فأول ما يجب أن نؤكد عليه هو ضرورة التمييز بين مختلف أبعاد التعامل النفسى للمواطن[١] . إحدى وظائف الدولة المعاصرة ما يوصف بأنه الوظيفة الاتصالية ويعنى ذلك واجب الدولة أو السلطات الحاكمة بأن تنقل إلى الأفراد قسطا معينا من المعلومات أى خلفية من الوقائع اللازم المعرفة بها قبل اتخاذ القرار السياسى[٢] . هذه العملية تفرض التحديد بمختلف أبعاد علاقة الاتصال ، ونستطيع بهذا الخصوص أن نميز بين مستويات خمس فى هذه العملية ، كل منها له خصائص متميزة :

أولا : الإعلام ويقصد بذلك مجرد عملية الأخبار . الإعلام فى معناه العام لايعدو نقل الخبر أوصورة الواقعة من مرسل إلى مستقبل[٣] .

ثانيا : الدعاية ويقصد بذلك عملية نفسية تقوم على أساس السعى إلى تغيير الرأى أو السلوك أو التعديل استناداً إلى الكذب أوإلى خلق نوع من الإثارة النفسية بحيث ماكان يمكن أن يصل الفرد إلى ذلك الرأى لولم يخضع لعملية تشويه من حيث الوقائع أو من حيث منطق الحقيقة . الدعاية بهذا المعنى لاتقتصرعلى مجرد الخبر وإنما تسعى إلى الإقناع بوجهة نظر معينة ومن خلال آساليب غير نظيفة . هى تفترض تضليلا أو تشويها فى الحقيقة أوتلاعب بمنطق الحقيقة . غايتها النهائية هى تغيير السلوك وليس مجرد الإخبار بواقعة أومافى حكمها

---

(١) انظر التفاصيل فى حامد ربيع ، الدعاية الاسرائيلية وعملية المواجهة العربية ، القسم الأول ، الفصل الأول ، تحت الطبع .

(٢) VOYENNE, Le droit à l'information, 1970, p. 65.

(٣) CHAPUIS, L'information, 1959, p. 20.

ثالثا : الدعوة وهى نوع من الإقناع المستند إلى الصدق والإيمان . هى لغة من المنطق إلى المنطق ترفض الكذب والتشويه . هى حديث من عقيدة إلى من يمكن أن يؤمن بها أومن هو مؤمن فعلا بها . هى أكبر من الأخبار لأنها تفترض علاقة الولاء القائمة أوالمحتملة . ولكنها ليست دعاية لأنها ترفض التشويه والتمويه[1] .

رابعا : الحرب النفسية ، صورة أخرى من صور التعامل النفسى تتجه فقط إلى العدو . هى لاتسعى إلى الإقناع ولاتريد أن تحصل على الاقتناع أو الإيمان ولايكفيها الأخبار . غايتها الوحيدة تحطيم القوى المعنوية للخصم والقضاء على ثقته فى نفسه[2] .

(ب) على أننا لوتركنا جانبا هذه المستويات المختلفة لوظيفة الدولة الاتصالية وتناولنا هذه الظاهرة ، أى ظاهرة الرأى العام بمختلف مستوياته فقط كحقيقة سلوكية ومن جانب المستقبل أى المواطن العادى فى خلال خضوعه لعملية الإشعاع الفكرية

---

(١) كلمة الدعوة من الصعب ترجمتها باللغات الأوروبية بهذا المعنى الذى حددناه فى النص . والواقع أن التمييز بين الدعاية والدعوة هوأحد الأسس التى استطعنا تأصيلها فى تحليلنا لعملية التعامل النفسى من خلال المتابعة التاريخية لكلا الدعوة الإسلامية من جانب والكاثوليكية من جانب آخر . وقد ساعدنا ذلك على فهم أيضاً الأصول التاريخية للحركة الدعائية الصهيونية . ولعل هذا المفهوم كان واضحا فى المصادر الأول لمخططى حركات التبشير المسيحية . فالهيئة التى أنشأها البابا جريجورى الخامس فى عام ١٦٢٢ لتتولى نشر الدعوة الدينية نص على أن وظيفتها هى نشر العقيدة propagation of faith أوكما يعبر من ذلك باللغة اللاتينية propagare fide وكلمة propagare اللاتينية والتى منها استمدت كلمة propaganda أصلها لا تعنى سوى عملية النشر والانتشار . ولذلك الحركة التبشيرية كانت تعرف بأنها « عملية نشر العقيدة » . الكلمة فى مرحلة لاحقة وابتداء من الثورة الفرنسية على وجه الخصوص أخذت هذا المعنى الآخر المحدد .

هذا هو السبب الذى من أجله بعض العلماء يرفض أن يصف عملية نشر الدعوة الكاثوليكية بأنها عمل دعائى ونحن نتفق معهم فى ذلك . ولكن اللغة لا تسعفه فيقتصر على أن يصفها بأنها « نشر العقيدة » أى الترجمة الحرفية للأصل اللاتينى دون أن يستطيع الوصول إلى تأصيل فقهى للتفرقة بين الأسلوبين من أساليب التعامل النفسى مع المواطن . انظر قريبا . حامد ربيع ، الصهيونية السياسية والدعوة العقيدية ، الفصل الأول ، المبحث الثالث ، وقارن كذلك ELLUL, Histoire de la propagande, 1967, p. 34.

(٢) الأصول الفكرية لنظرية الحرب النفسية يجب أن نبحث عنها بصفة خاصة فى مؤلف العالم الألمانى بلاو رئيس المعمل النفسى فى وزارة الحرب الألمانية خلال فترة الحكم النازى . هذا المؤلف كتب خصيصاً لخدمة القيادة العليا ،وهذا عنوانه « BLAU, Propaganda als Waffe » رغم ذلك فيجب أن نلاحظ أن الحرب النفسية لدى ذلك العالم تختلط بالدعاية . انظر عرضا موجزاً فى MEGRET, La guerre psychologique, 1965, p. 56.

التى ترتبط بنقل المفاهيم من جهة إلى أخرى لكان علينا أن نميز بشكل واضح بين مستويات أخرى لعملية الاتصال :

أولا : الإقناع ويقصد بذلك حمل شخص معين على التسليم بوجهة نظر يرفضها كليا أو جزئيا . الإقناع عملية منطقية تدور حول تقديم حجج متتابعة كل منها تنبع من الأخرى وكل منها تساند عملية الصراع الفكرى التى من حيث حقيقتها لاتعدو أن تكون قدرة على المناقشة والمتابعة الفكرية بقصد التسليم بوجهة نظر معينة(١) .

ثانيا : التثقيف ، هو اصطلاح يقتصر على مجرد نقل المعلومات أى نقل الحقيقة من شخص إلى آخر بأى أسلوب ، سواء كان ذلك من خلال الإعلام الجماهيرى أو الاتصال الشخصى . بل أن المعرفة الذاتية ومن خلال الخبرة الشخصية يمكن أن تنطوى وتندرج تحت هذا المفهوم(٢) .

ثالثا : التعليم ، وهو صورة معينة للتثقيف حيث تتم عملية نقل المعلومات من خلال شخص متخصص فى وسائل الاتصال التربوى وفى مكان معد لذلك بحيث نجد أنفسنا أمام طالب ومعلم والعلاقة بينهما تصير تعليما وتعلما(٣) .

رابعا : الدعاية . سبق أن رأينا أن الدعاية تمثل أحد مستويات التعامل النفسى بين الدولة والمواطن . الاصطلاح يمكن أن يطلق أيضاً على موقف الفرد الذى يستقبل الشحنة الدعائية ، وبهذا المعنى تمثل هذه الظاهرة أيضاً أحد مستويات عملية الاتصال من جانب المستقبل . الدعاية بهذا المعنى تفترض تشويه منطقى أونفسى يؤدى إلى التعبير عن ذاته فى حركة إيجابية أى يؤدى إلى خلق طاقة تصير بمثابة محرك لإستجابة تأخذ صورة تغيير فى السلوك .

خامسا : ثم أخيراً ما يسمى بعملية غسيل المخ أو التحويل العقيدى(٤) . اصطلاحان كل منهما له دلالته رغم أن كل منهما ينطوى ويندمج تحت نفس الظاهرة . كلاهما

---

(١) Persuasion.
(٢) Education.
(٣) Enseignement — Teaching.

(٤) واضح أننا نميز بين عملية غسيل المخ أو brainwashing وما أسميناه بعملية التحويل العقيدى indoctrination . هذا التمييز غير واضح فى الفقه المتخصص حتى الأجنبى . أنظر أيضاً براون ، م. س. ذ. ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

يعكس مرحلة متقدمة للعمل الدعائى . فهو لايقتصر على حد تشويه المنطق وإنما يرتفع إلى مرتبة التلاعب فى مقومات الشخصية الفردية . جوهر العملية هو الإمساك بالعناصر النفسية للفرد وعن طريق التلاعب بتلك العناصر للوصول بتلك الشخصية إلى حالة من الاختلال فاذا بها تصير أداة طيعة فى يد المهيج أومثير الفتن والقلاقل . عملية غسيل المخ تتجه إلى العدو لتجعل منه أداة تنقل البذور الهدامة . التحويل العقيدى يتجه إلى المجتمع الداخلى بقصد تحقيق نفس الهدف ولكن فى صورة ايديولوجية بقصد خلق الأصدقاء المتعصبين . غسيل المخ بهذا المعنى يتجه إلى العدو والتحويل العقيدى يتجه إلى الصديق ولكن فى كلا الحالين فالعملية فردية لايمكن أن تتم إلا من خلال الإمساك بالمواطن فرداً فرداً وتحطيم مقومات شخصيته ليصير أداة طيعة أوبعبارة أخرى ليتم ترويضه على أن يقوم بما أمره به مروضه . عملية غسيل المخ القصد منها بذر بذور الفتنة فى مجتمع العدو الذى نسعى إلى القضاء عليه أما عمليات التحويل العقيدى فتتجه إلى الاحتواء والسيطرة بقصد تحطيم أوشل المعارضة أوإمكانيات الرفض (١)

(حـ) كذلك يتعين علينا أن نميز فى مدلول كلمة الإعلام بين أكثر من معنى واحد . فالأعلام يقصد به كما سبق ورأينا فى معناه العام الأخبار . بهذا المعنى عندما نتحدث عن النظم الإعلامية فان الذى نقصده بذلك الاصطلاح هوتلك الأدوات التى تقوم بعملية الأخبار ، أى الصحافة أو الرا ديو أو التليفزيون (٢) . ولكن هذا لايكفى فى التحديد بالمدلول الحقيقى للاصطلاح .

اولا : فيجب آن نميز أولا بين الإعلام الجماهيرى والاتصال الشخصى . الاصطلاح الأول يقصد به تلك الأدوات التى تفترض الاتصال غير المباشر بمعنى أن عملية نقل الخبر من مرسل إلى مستقبل تفترض عدم وجود علاقة مباشرة بينهما . بهذا المعنى نميز فى الإعلام الجماهيرى بين الإعلام المكتوب كالصحافة والكتب والإعلام المسموع أى الإذاعة والإعلام المرئى أى التليفزيون والسينما . أما الإعلام الشخصى أوغير الجماهيرى فهو حيث توجد علاقة اتصال مباشر بين المرسل والمستقبل سواء كانت تلك العلاقة المباشرة تتم فى نفس لحظة الإرسال أو على عدة مراحل . فالخطابة والمسرح إعلام مباشر وكذلك الاتصال التليفونى أو من خلال رسالة شخصية رغم الانقطاع

---

(١) حامد ربيع ، نظرية الدعاية الخارجية ، م. س . ذ. ، ص ١٠١ وما بعدها

(٢) ARANGUREN, Sociologie de l'information, 1967, p. 104.

المكانى أو الزمانى فى هذين النموذجين. محور التفرقة بين هذين النوعين من أنواع الإعلام هو إمكانية اكتشاف رد الفعل لعملية الاتصال من جانب المرسل.

ثانيا : كذلك يجب أن نميز بين كلمة النظم الإعلامية بمعنى أدوات نقل العملية الاتصالية والنظم الإعلامية بمعنى القواعد المنظمة للوظيفة الاتصالية للدولة. بالمعنى الأول تصير الكلمة مرادف لأدوات الاتصال. بالمعنى الثانى فان الاصطلاح يلقى بنا فى متاهات ما يسمى بالفلسفة الإعلامية(١).

والواقع أن العالم اليوم تتقاسمه اتجاهات متباينة فى تصوره لجوهر وحقيقة وظيفة الدولة الاتصالية. وكل منها تتميز تمام التميز عن الأخرى من حيث جوهرها النابع من تصور موقف السلطة السياسية من ظاهرة الاتصال. فالنظام الأمريكى يقوم على فلسفة ترى فى وسائل الإعلام صورة معينة من صور الاستغلال الخاص لرأس المال. ومن ثم فالوسيلة الإعلامية يجب أن تسعى لأن تصل إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور لتحقق أكبر قسط من الربح. على العكس من ذلك فالإعلام السوفيتى يقوم على فلسفة تمثل النقيض المطلق. وظيفة الإعلام النابعة من تحديد وظيفة الدولة الاتصالية هى الإعداد الكامل لمواطن الغد ومن ثم فلا تعنيه الحقيقة الإخبارية بقدر ماتعنيه تلك الحقيقة فى موضعها من السياسة الكفاحية للدولة. مجتمعات غرب أوربا تقدم نموذجا ثالثا يتخذ موقفاً وسطا بين هذين التطرفين فاذا كانت الدولة لاتستطيع أن تدع جانبا مسئولياتها إزاء النظم الإعلامية فان الأجهزة الإعلامية بدورها لها حرية معينة ونطاق معين يجب فى داخلها أن تتحمل مسئولياتها. فلسفة النظم الإعلامية يجب أن تقوم على أساس تحقيق توازن بين قوى ثلاث كل منها لها وجودها ولها وظيفتها : الدولة ، أداة الاتصال الجماهيرى ، الفرد. كذلك المواطن له حق فى الإعلام وله حرية فى الإعلام بمعنى حرية فى البحث عن تلك المصادر التى يعتقد أنها خير ما يستطيع أن يقدم له الحقيقة التى يود أو يجب أن يعلم بها(٢).

---

(١) هذا المعنى ليس واضحا لدى أغلب علماء الفن الاتصالى. انظر حامد ربيع ، م. س. ذ. ، ص ٧٧ ما بعدها.

(٢) علينا أن نميز بين الإعلام الجماهيرى أو mass media وما يسمى بمسالك الاتصال أو النظم الإعلامية بالمعنى الأول channel of communication . انظر النواحى السياسية لظاهرة الاتصال :

WINDLESHAM, Communication and political power, 1961, p. 15.

(د) على أن هذا التميز بين النواحى المختلفة المرتبطة بمفهوم الاتصال على مستوى الدولة ، ثم على مستوى الفرد ، ثم على مستوى الأداة ، لايعنى أنه تميز مطلق وجامد . إن الواقع يفرض انسياب هذه الكليات وتداخلها . رأينا كلمة الدعاية يمكن أن تطلق على وظيفة الدولة كما يمكن أن يفهم منها نوع معين من أنواع الاستقبال للإعلام . كذلك النظم الإعلامية قد تأخذ أكثر من معنى واحد . على أن الأمر لايقف عند ذلك الحد بل إن أيا من هذه الكليات من الممكن أن تؤدى وظيفة أخرى .

أولا : فالإعلام بمعنى الأخبار قد يصير أداة دعائية وهذا مايقصد بكلمة الدعاية المقنعة . نشر خبر فى غير موضعه أو تقديمه بصورة معينة هو نوع من أنواع الدعاية غير المباشرة .

ثانيا : كذلك يتحدث الفقه اليوم عما يسميه بالحرب الإعلامية : ويقصد بذلك تخزين الخبر ونشره فى لحظة معينة تؤدى إلى رد فعل ماكان يمكن أن يحدث لو نشر ذلك الخبر فى لحظة أخرى . فالمعرفة بفضيحة معينة عن قائد سياسى معين وتخزين تفاصيلها إلى لحظة معينة يخرج فيها ذلك الزعيم أو القائد بخطبة خطيرة تدعو إلى التضحيات أو ما فى حكمها ثم إطلاق المعلومات المتعلقة بتلك الفضيحة فى تلك اللحظة هو نوع من الإعلام ولكنه يؤدى وظيفة دعائية قد ترتفع إلى حد الحرب النفسية[1] . الحرب الإعلامية لاتقتصر على العلاقة بين الأحزاب أو الفئات بل هى اليوم تتجه لأن تسيطر على العلاقة أيضاً بين الدول والقوى الدولية .

ثالثا : على أن هذا التشابك بين الكليات المرتبطة بعملية التعامل النفسى مع المواطن ترتفع إلى أقصاها فى نطاق الحرب النفسية . فالحرب النفسية تستخدم الإعلام وسيلتها . وهى من حيث جوهرها ورغم أنها تتجه إلى الخصم إلا أنها تجعل من الدعاية وعملية غسيل المخ مرتكزات لها فى انطلاقاتها المتتابعة . هى تختلف عن الدعاية فى أنها لاتسعى إلى الإقناع وأن غايتها الوحيدة تحطيم القوى المعنوية للخصم . وتختلف عن عملية غسيل المخ فى أنها لاتتجه إلى الفرد الواحد وإنما إلى مجتمع بأسره ولكنها بحكم كونها عملية شمولية ومتدرجة ، تلجأ إلى جميع وسائل وأدوات التعامل النفسى سواء كحقائق مرحلية ، سواء كأدوات مكملة .

---

(١) انظر إلى جوار المراجع السابق الإشارة إليها :
ELDER, The information machine, 1968, p. 276.

الحرب النفسية بهذا المعنى لاتبرز واضحة إلا من حيث تحديد غايتها . ونستطيع أن نوضح من بين تلك الغايات ونؤكد على نواحى أربع :

(١) تحطيم إيمان الخصم بعقيدته السياسية .
(٢) تحطيم الوحدة النفسية للخصم العقائدى .
(٣) استغلال بعض الانتصارات التى توصل إليها الطرف المهاجم واتخاذ هذا النجاح الذى لم يستطع الخصم الوصول اليه وسيلة لإضعاف الثقة فى عقيدة هذا الأخير التى لم تسمح له بمثل هذا النجاح .
(٤) رفض دعاية أو حملة عكسية[1] .

---

١ حامد ربيع ، الرأى العام الدولى والسلوك السياسى ، م. س .ذ. ، ص ٩٥

المبحث الرابع

عملية قياس الرأى العام

§ ٤٣ – أهمية قياس الرأى العام والأبعاد العملية لموضوع تحليل ظاهرة الرأى العام :

المعرفة بالظاهرة لايكفى بخصوصها التأصيل الفكرى وإنما يجب أن تستند إلى الإمساك بقوماتها كحقيقة تجريبية . هذا ما علمتنا إياه المدرسة السلوكية . النظرة السلوكية للتحليل أساسها أن الحركة علاقة بين منبه وجسد عبرت عن ذاتها فى رد فعل استقل عن شخص صاحبه . تطبيق هذا المفهوم على ظاهرة الرأى العام فتح آفاق جديدة ، كما سبق ورأينا فى العلاقة بين المواطن والدولة لافقط بالنسبة للحاضربل وأيضاً بالنسبة للمستقبل بمعنى عملية التغيير المستمر اللازمة لإمكانية التحكم فى التطور وبالتالى تحقيق أهداف ماكان يمكن أن نصل إليها لوترك التطور فى مساره الطبيعى . ومن ثم أضحت مشكلة الإجابة على السؤال لماذا وكيف يعتقد الأفراد فى أشياء معينة ويتصرفون بشكل معين تمثل المفتاح الذى منه ننطلق إلى جميع مشاكل العلوم الاجتماعية . ولنقدم نموذجا لذلك : تخطيط أى دعاية أو أى حملة دعائية سواء فهمت هذه الدعاية بالمعنى السياسى أو بالمعنى الاقتصادى لايمكن أن تنجح إلا إذا استطعنا أن نعلم بحقيقة موقف المجتمع من تلك المشكلة موضع الدعاية ثم عقب ذلك نصل إلى خلق المنطق الذى نستطيع من خلاله أن نقنع ثم نتأكد فى النهاية من نجاح العملية[1] ، وهكذا أى حملة للاقناع لابد وأن تفترض فى أبسط معانيها خطوات ثلاث :

أولا: تحليل الآراء السائدة فى المجتمع موضع الحملة .

ثانيا : نشر الأفكار والمفاهيم الجديدة .

ثالثا : التحقق من أن نشر تلك الأفكار حقق الغاية المقصودة .

هذه العملية تفترض المعرفة بالظاهرة .

---

(١) بويل ، م. س . ذ. ، ص ٤٠٥

على أن المعرفة بالظاهرة كأى ظاهرة اجتماعية ليست ذات بعد واحد : فمن الممكن أن نلم بها من خلال مظاهر التعبير عن وجودها كما أنه من الممكن أن ننتقل إلى الخلفيات العامة التى تعنى عمقا واتساعا فى آن واحد بالنسبة لتحليل مقومات الظاهرة. وقد سبق ورأينا كيف أن تحليل الظاهرة السلوكية يفترض علاقة سببية متتابعة. هذا الافتراض صحيح على المستوى الفردى كما هو صحيح على المستوى الجماعى. كذلك رأينا أن ظاهرة الرأى العام ليست فقط ظاهرة جامدة وإنما هى من حيث حقيقتها عملية تطور وبالتالى يجب أن تخضع لعملية متابعة زمنية تسير بدورها فى أكثر من بعد واحد.

وهكذا فان طبيعة الظاهرة تفرض العمق والاتساع والديناميكية فى آن واحد.

كل هذه الأسباب تفسر كيف أن تحليل ظاهرة الرأى العام يمثل مشكلة من أعقد المشاكل التى كثيراً ما تقود إلى نتائج خاطئة ورغم تقدم وسائل التحليل والإمكانيات المتاحية للباحثين فى هذا المجال. ودون الدخول فى تفاصيل تخرج عن نطاق هذه الدراسة فعلينا أن نؤكد على بعض الملاحظات :

أولا : أن قياس الاتجاه ليس هو قياس الرأى العام. ورغم أن كلمة قياس اتجاهات الرأى العام قد تداولتها الأقلام فى التقاليد العربية إلا أنها يجب أن تفهم بمعنى محدد يميز بينها وبين كلمة قياس الاتجاه[1]. فقياس الاتجاه يعنى التساؤل عن الاستدلال للسلوك. قياس الرأى العام أو اتجاه الرأى العام يعنى البحث عن معرفة حقيقة الرأى الموجود فعلا. ولذلك فقياس الاتجاه يفترض القيام بما يسمى بعملية بناء للمقياس وهى عملية معقدة توصف بأنها أصعب أنواع التحليل السلوكى. قياس الرأى العام يعنى فقط معرفة حقيقة الرأى الموجود فى المجتمع بخصوص مشكلة معينة. ومن ثم فقياس الرأى ليس تنبؤ وإنما تعميم لنتائج أما قياس الاتجاه فهو تنبؤ باحتمالات السلوك. قد يستخدم قياس الرأى أداة للتنبؤ وبصفة خاصة بالنسبة للسلوك الانتخابى. ولكن هذا لايمنع أن كل منهما له موضعه وله إطاره من حيث التحليل.

ثانيا : أن كل تحليل له مستوياته من حيث أهدافه. وان هذا يفرض دقة معينة لإمكانيات التنبؤ. فالقيام ببحث بقصد وضع خطة لإحداث عملية تغير اجتماعى لايمكن أن تخضع لنفس القواعد التى تخضع لها دراسة نتائج تصويت انتخابى معين. هذا يفرض مسئولية معينة على الجهات التى تتولى أبحاث الرأى العام.

---

(١) نيوكب، م. س. ذ.، ص ٤٩٦ ومابعدها.

ثالثا : على أن هناك ناحية ثالثة أكثر من هذا أهمية تثيرها مشكلة نشر أبحاث الرأى العام ونتائجها فى الصحافة اليومية[1] . ففى خلال الأعوام الأخيرة بدأت تبرز إحدى التقاليد التى قد تبدو لأول وهلة ولاخطورة لها وهى نشر ما يسمى باستفتاءات الرأى العام فى الصحافة اليومية بل وتقديم بعض نتائجها فى الإذاعة والتليفزيون . وتبرز هذه المشكلة بشكل واضح وأكثر خطورة فى المجتمعات المتخلفة . ذلك أن الرأى العام بطبيعته سطحى متقلب وقد سبق ورأينا فى المجتمعات المتخلفة شريحة خطيرة فى الرأى العام تمثل عدم العلم أو عدم الاستقرار . مجرد نشر نتائج أحد أبحاث الرأى العام على أنها تمثل النسبة الغالبة أو الاتجاه العام فى المجتمع موضع المناقشة لابد وأن يؤدى إلى دفع قسم هام من تلك الشريحة إلى تأييد مصطنع وغير حقيقى وتزداد هذه الخطورة عندما يكون البحث الذى نشرت نتائجه قد تم دون دراية كافية ودون منهاجية علمية بالمعنى المتكامل . وهو مايحدث فى جميع الأحيان فى المجتمعات المتخلفة حيث لاتوجد مراكز متخصصة وحيث لاتوجد إمكانيات حقيقية وحيث يغلب الاستعداد للاختلاق أو تشويه الأرقام .

يتساءل بعض العلماء فى البلاد المتقدمة عما إذا كان لم يحن الوقت لمنع نشر نتائج أبحاث الرأى العام المتعلقة بالتنبوء قبل عمليات التصويت الفعلى . فما بالنا فى المجتمعات المتخلفة حيث المشكلة أكثر خطورة وحيث نفس النتائج التى يزعمها الإعلام اليومى موضع المناقشة لا فقط من حيث الدقة بل وايضا من حيث الصحة ؟

مشاكل متعددة سوف نقف فقط على بعض أبعادها المتعلقة بالنواحى المنهاجية والتى تبدو دلالتها واضحة بالنسبة للمجتمعات النامية[2] .

§ ٤٤ ـ تحليل ظاهرة الرأى العام :

تحليل ظاهرة الرأى العام يخضع كأى ظاهرة سلوكية أخرى لجميع القواعد المعروفة فى نطاق التحليل الاجتماعى . رغم ذلك فان هذه الظاهرة تثير مشاكل معينة يجب على الباحث أن يكون على علم بها وهو بصدد محاولة المعرفة بأبعاد تطور الظاهرة .

---

(١) قارن فى موضوع تحليل وقياس الرأى العام .
ANTOINE, L'opinion, techniques d'enquêtes par sondage, 1969 ; MUCHIELLI, Opinions et changement d'opinion, 1969.

(٢) حامد ربيع ، بحوث الرأى العام ، م . س . ذ . ص ٦٠

(ا) فأبحاث الرأى العام أضحت اليوم تحتل أهمية خاصة فى المجتمع المعاصر وذلك لأسباب متعددة[1] . فمن جانب اخفاق النظم الديمقراطية بسبب عدم امكانية مزاولة الرقابة الفعلية على الطبقة الحاكمة أثناء مزاولة السلطة جعل النظم السياسية التى لاتزال تحترم الديمقراطية التقليدية تلجأ ألى ما يسمى بمعاهد الرأى العام لمعرفة طبيعة وأبعاد مختلف المواقف الفردية والجماعية فى المجتمع السياسى بالنسبة للمشاكل المطروحة . كذلك المجتمعات القيادية أو تلك التى تقوم على أساس النظم الأوتوقراطية تولى أبحاث الرأى العام أهمية خاصة. ذلك أنه من خلال تلك الأبحاث تستطيع أن تعرف ردود الفعل الحقيقية مسبقاً ومن ثم فهى تسعى قبل الإعلان عن القرار السياسى للقيام بعملية توجيه مصطنعة لخلق رأى عام مؤيد أو على الأقل غير معارض . يزيد من هذه الأهمية انفجار الحرب الايديولوجية وارتفاع الصراع النفسى بين الشعوب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . كذلك أبحاث الرأى العام أضحت تمثل بعدا جديدا فى عملية التطوير والتخلص من التخلف حيث أن المجتمعات النامية تجد فى أدوات الاتصال الإعلامى لافقط وسائل ثقافية بل أيضاً أدوات تسمح بالمشاركة[2] .

(ب) يقصد بأبحاث الرأى العام تلك الأبحاث الميدانية التى تتجه إلى استخلاص تعبيرات رقمية ونسب مئوية عن مختلف شرائح الجسد الاجتماعى ازاء مشاكل معينة تحددت مسبقاً[3] . أبحاث الرأى العام بهذا المعنى تخضع كما سبق وقررنا لنفس القواعد المعروفة فى نطاق البحث الاجتماعى ابتداء من تحديد المشكلة إلى اختيار العينة وما يعقب ذلك من عمليات متتابعة .

ولكن رغم ذلك فان أبحاث الرأى العام تعكس طبيعة خاصة تدور وتنبع من المقومات الآتية :

أولا ضرورة سرعة تقديم النتائج . بمعنى آخر عامل الزمن يصبر عنصراً خطيراً وحاسما فى تحليل وقياس الرأى العام . وإذا كان البحث الاجتماعى التقليدى لايفرض سرعة معينة لأنه دائما ذو دلالة إلا أن البحث الميدانى بالنسبة لظاهرة الرأى العام لاقيمة له ان لم تقدم نتائجه فى اللحظة المناسبة . وإذا كان هذا النوع من الأبحاث يخدم السلطة والسلطان فمن الطبيعى أن تقدم النتائج فى تلك اللحظة التى يكون من يمارس السلطة

---

(١) البيج ، م. س . ذ. ، ص ١٥١ وما بعدها
(٢) شرام ، م. س. ذ. ، ص ١٧٥ وما بعدها .
(٣) قارن البيج ، م. س .ذ. ، ش ١٠ ومابعدها .

فى حاجة اليها وهو دائما فى حاجة سريعة . يكفى أن نتذكر أن الرئيس كيندى احتاج للمعرفة بموقف الرأى العام فى نيويورك من احتمال زيارة خروشوف وتجوله فى الطرقات العامة خلال أسبوع . ويقال عادة أن كيندى أيضاً لو كان عرف مقدما باتجاهات الرأى العام فى تكساس لما كان قد لقى مصرعه .

ثانيا : كذلك إلى جانب ضرورة سرعة تقديم النتائج فيجب أن نضيف إلى ذلك حساسية موضوع الرأى العام[١] . فالرأى العام بطبيعته متقلب وهو يوصف بأنه امرأة لعوب . يتغير بلا مقدمات وقد ينتقل من موقف إلى مواقف أخرى معارضة ومتناقضة كل التناقض فى عدة لحظات . وتزداد خطورة هذه العملية بالنسبة لذلك القسط الضخم من الرأى العام الذى يوصف بأنه متردد : كلمة واحدة أوإشارة أو خبر صغير قد يدفع بفئة ضخمة إلى تغيير موقفها بلا مقدمات . فلنتصور مثلا خبراً ينشر عن مؤتمر علمى تحدث فيه أحد الخبراء عن مخاطر بعض أدوات تنظيم النسل : مثل هذا الخبر الذى قد يبدو محدود الدلالة كفيل بأن ينقل شريحة ضخمة من موقف التردد إلى موقف المعارضة . وتبدو خطورة هذه الظاهرة فى المجتمعات المتخلفة حيث رأينا السطحية تسيطر على موقف المجتمع من المشاكل ومن ثم تجعل من الرأى العام ظاهرة قابلة للدفع بسهولة يمينا أو يساراً تأييداً أومعارضة مع تيار الوقائع .

(ح) لايعنينا هنا أن نتناول بالتفصيل مراحل تحليل الرأى العام[٢] . فقياس الرأى العام كأى بحث ميدانى يجتاز مراحل خمس متتابعة :

أولا : التحديد بموضوع الأستكشاف بمعنى التحديد بذلك المجهول الذى نسعى إلى المعرفة به وأسلوب الوصول اليه . وهذا ما يسمى بمرحلة تحديد أبعاد المشكلة . أبحاث الرأى العام تفرض أن نضيق من نطاق الاستكشاف على قدر الإمكان وكلما كان موضوع الاستكشاف محدوداً كلما كان هذا أكثر ضمانا للحصول على نتائج دقيقة . القاعدة العامة التى تطبق بهذا الخصوص هوأن عدة أبحاث جزئية متفرقة خير من بحث واحد ضخم متسع .

ثانيا : إعداد أداة الاستكشاف . وكما سوف نرى فيما بعد أن أدوات جمع

---

(١) DEXTER, WHITE, People, society and mass communication, 1964, p. 547.

(٢) MACCOBY, HOLT, How surveys are made, in BERELSON, cit., 1953, p. 499.

المعلومات لا تخلو أن تكون واحدة من اثنين إما الاستبيان أو الاستبار . هنا الخطورة الحقيقة فى إعداد الأداة هو الخوف من التحيز حيث أن من الممكن أن عبارة واضحة فى صياغة الأداة أوإشارة واحدة من جانب من يتولى تنفيذ الأداة قد تكون سببا فى دفع الشخص موضع البحث إلى التعبير عن وجهة نظر تخالف كلية وجهة نظره الحقيقية .

ثالثا : اختيار العينة وهنا تبرز الصعوبات الحقيقية التى يواجهها الباحث فى تحليل وقياس الرأى العام . فالأسلوب التقليدى الذى تعرفة الأبحاث الاحصائية هوأن يتم اختيار العينة عن طريق الأسلوب الاحتمالى بمعنى انتزاع قسط من المجتمع الكلى بطريق القرعة بحيث تخضع كل وحدة من وحدات المجتمع لنفس فرصة الخروج فى العينة(١) . على أن هذا الأسلوب يفترض ويفرض فترة زمنية معينة مما يجعل الالتجاء اليه موضع مناقشة فى أساليب تحليل وقياس الرأى العام . ومن ثم فان علماء الرأى العام حاولوا لمواجهة هذه الصعوبة أن يلجأوا إلى أساليب أخرى رغم أنها قد توصف بأنها محدودة الدقة علميا إلا أنها أكثر صلاحية من حيث النتائج العملية حيث تسمح بالوصول إلى نتائج أقل دقة ولكن أكثر سرعة ، أقل انضباطا ولكن أقل تكلفة .

رابعا : تنفيذ أداة البحث وتحليل النتائج .

خامسا : كتابة التقرير النهائى وتقديم التوصيات .

من بين أساليب التحليل التى تتميز بها أبحاث الرأى العام والتى تسمح بتحقيق تلك الأهداف ولو جزئيا نذكر على سبيل المثال : أسلوب الحصة ، الأسلوب المكانى ثم ما يسمى بأسلوب الندوة أو الأسلوب التكرارى .

§ ٤٥ ـ منهاج الحصة كأسلوب لاختيار العينة :

يقصد بأسلوب الحصة منهاج اختيار العينة على أساس ان يتولى الباحث الميدانى بنفسه اختيار الحالات التى تتوفر فيها صفات معينة . ومعنى ذلك أن أسلوب الحصة يقوم على أساس عملية بناء سابقة للمجتمع وتحديد كمى للمتغيرات الأساسية مع بلورة هذه المتغيرات فى وحدات نموذجية(٢) ثم يعهد عقب ذلك إلى كل باحث باختيار

---

(١) DESABIE, Théorie et pratique des sondages, 1965, p. 46.

(٢) Unité - type . انظر نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٥٣ .

عدد معين من الحالات التى تتوفر فيها صفات معينة تعبر عن تلك المتغيرات . ومعنى ذلك أن العينة بطريق الحصة تحدد أرقاماً فقط ولاتحدد أشخاصا وأن الباحث هوالذى يتوجه اليهم بالسؤال بحيث أنه هو الذى يتولى اختيار هؤلاء الأشخاص طالما كانت تلك الصفات تتوفر فيهم [1] .

الفكرة الأساسية التى يقوم عليها منهاج الحصة هى المفهوم الآتى : حيث أن صفات متعددة والتى نستطيع أن نلاحظها فى مجتمع معين غير مستقلة فان عينة ممثلة للمجتمع الذى توجد به وقد اختيرت بحيث تمثل تلك المتغيرات المرتبطة لابد وأن تمثل إلى حد كبير المجتمع الأصلى من حيث التوزيع الاحصائى لتلك الصفات المرتبطة بالخصائص المحددة من قبل وبناء على هذا فان المجتمع الأصلى يقسم إلى طبقات والطبقات بدورها إلى فئات وهكذا دواليك تبعا للاحصاءات المتوفرة لدينا وبحيث نستطيع أن نوزع المتغيرات

---

(١) فلنقدم نموذجا يوضح الفارق بين أسلوب الحصة والأسلوب التقليدى . فى بحث عن اتجاهات الرأى العام فى كلية الاقتصاد لواتبع الأسلوب الاحتمالى فيكفى أن تكون لدينا قوائم بأسماء طلبة الكلية مسجلة مثلا على صفحات من ١ إلى ٥٠ فى كل صفحة وإذا تصورنا أن العينة سوف تتم على أساس ١٠٪ من المجتمع الكلى فليس علينا سوى أن نختار بطريق القرعة ٥ أرقام من ٥٠ وأن نستخرج من هذه الجداول كل من يندرج اسمه تحت أى رقم من تلك الأرقام العشرة فى كل صفحة من تلك الصفحات . هذه الأسماء تكون اطار البحث فتعطى الأسماء للباحثين الذين يتولون جمع المعلومات عن طريق الانتقال إلى الشخص الذى خرج فى العينة وسؤاله واعطائه أداة جمع المعلومات لملئها بنفسه . فإذا فرض ولم يوجد الشخص الذى خرج اسمه فى العينة أورفض التعاون فعلينا بنسبة هذا القسط الفائض أن نعيد إجراء عملية القرعة فى شكل عينة تكميلية . كل هذا يفرض وقتا ونفقات . على العكس إذا أردنا أن نلجأ إلى أسلوب الحصة فان المنهاج يختلف اختلافا تاما يأخذ الصورة التالية : لدينا احصاءات دقيقة إلى حد ما عن مجتمع كلية الاقتصاد . واستناداً إلى هذه الاحصاءات نستطيع أن نقدم صورة هيكيلية عامة لذلك المجتمع : أقسام ثلاثة ، أناث ذكور ، سنوات أربع ، مصريون وغير مصريين ، مقيمون مع أسرهم أم غير مقيمين معأسرهم ، درسوا دراساتهم السابقة على الجامعة فى مدارس أجنبية أم مدارس وطنية . ابتداء من هذه الاحصاءات نستطيع أن نحدد عدد كل من هذه الفئات المختلفة ومن ثم فيحدد لكل باحث جمع معلومات من عدد معين من كل فئة بنسبة ١ إلى ١٠ فلنفترض أنه تبين لنا أن الفتيات المقيدات فى السنة الثانية قسم الاحصاءالمصريات اللاتى يقمن مع أسرهن وذوات التعليم السابق على الجامعة فى مدارس مصرية من عشرين فتاة . إذن فيكفى جمع معلومات من فتاتين ومن ثم يطلب من الباحث أن يطبق الأداة على فتاتين تتصفان بهذه المواصفات دون تحديد للأسماء . وهكذا نستطيع توفير الوقت والنفقات إذ أن الباحث يتجه إلى أى فتاتين من تلك الفئة ويطبق عليهما الأداة .

انظر التفاصيل المنهاجية فى ديزاييه ، م. س. ذ. ، ص ٤٩ وما بعدها .

التى يدور حولها تحديد أفراد العينة[1] .

(١) فلنقدم لذلك نموذجا

جدول رقم ٦

الجنس		السن		الوسط الاجتماعى	
ذكور	٢٢٦	من ١٦ إلى ٢٤	٧٢	ملاك	٧٠
إناث	٢٧٤	من ٢٥ إلى ٤٤	١٨٠	مهنة حرة أو ما فى حكمها	٣١
		من ٤٥ إلى ٦٤	١٨٠	موظفون إداريون ومن فى حكمهم	٨٣
		من ٦٥ فما فوق	٧٣	عمال	٢٠٠
				لا عمل لهم	١٢١
المجموع	٥٠٠	المجموع	٥٠٠	المجموع	٥٠٠

اطار لاستخراج العينة

هذا الجدول هو تعبير عن واحد إلى مائة من المجموع الكلى لسكان مدينة مارسيليا وهو بهذا المعنى يقدم حصة كل طبقة وكل فئة من المجتمع الكلى . فلو تصورنا أن الباحثين الميدانين هم ١٠ أشخاص فليس علينا سوى أن نطلب من كل باحث ميدانى أن يطبق أداة البحث على ٥٠ حالة تمثل فى مجموعها الصفات الآتية : بمعنى آخر هذه الخصائص الآتية هى بمثابة وسيلة ضبط للعينة التى يتولى اختيارها الباحث الميدانى . أما كيفية اختيار الأشخاص الذين تتحقق فيهم تلك المواصفات فان هذا أمر متروك لحريته وتقديره .

جدول رقم ٧

الجنس		السن		الوسط الاجتماعى	
ذكور	٢٣	من ١٦ إلى ٢٤	٧	ملاك	٧
أنـاث	٢٧	من ٢٥ إلى ٤٤	١٨	مهنة حرة وما فى حكمها	٣
		من ٤٥ إلى ٦٤	١٨	موظفون إداريون	٨
		٦٥ فما فوق	٧	عمال	٢٠
				لا عمل لهم	١٢
المجموع	٥٠	المجموع	٥٠	المجموع	٥٠

عينة بطريق الحصة

[1] انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٤٧ وما بعدها .

ما يميز هذا المنهاج هو البساطة والسرعة فلو أننا حددنا للباحث أسماء الحالات التى يجب عليه أن يتوجه اليها بالسؤال فانه لابد وأن يضطر إلى أضاعة وقت ليس بالقصير ليستطيع أن يتصل بها إلى جانب العمليات المعقدة المتعلقة باستخلاص الحالات على أساس القرعة دون الحديث عن العينة التكميلية . كل هذا يفرض اطالة مدة التنفيذ فضلا عن النفقات .

على أن هذا لايمنع أن طريقة الحصة تفترض عيوبا وتبرز نواحى للنقص لايجوز التغاضى عنها حتى أن بعض العلماء يرفض وصفها بأنها أسلوب علمى لاختيار العينة وذلك مرده إلى أن الباحث عادة يتجه إلى الحالات التى يعرفها أو على الأقل إلى حالات تنتمى إلى الفئات الأكثر اتصالا بها . وهو فى العادة وبطريق لاشعورى يتجه إلى أولئك الذين يمثلون نوعا معينا من التجانس الشخصى معه : الجنس ، الوسط الاجتماعى ، المستوى الثقافى ، المهنة ، وحتى السن فى كثير من الأحيان . وبطبيعة الحال لابد وأن يؤدى هذا إلى نوع من العدوى اللاشعورية التى تشوه الحقيقة أوعلى الأقل تنتهى بتقديم قسم منها فقط . وقد لوحظ عموما أن نظام الحصة يتجه إلى إهمال طرفى السلم الاجتماعى ، الطبقات العليا والطبقات السفلى ، حيث أن الباحث الميدانى يهتم أساساً فى تلك اللحظة بالطبقات الوسطى[١] .

على أن الأبحاث الميدانية فى نطاق الرأى العام استطاعت أن تلجأ إلى أكثر من أسلوب واحد للتخلص من عيوب طريقة الحصة :

أولا : التدريب العميق للباحث الميدانى بمعنى أن نخلق من الباحث الميدانى لامجرد أداة بشرية لتنفيذ عملية جمع المعلومات وإنما طاقة تشارك فى عملية الاتصال بين مخطط البحث ومصدر المعلومات . وهذا يعنى تدريب طويل ثم مشاركة فعلية فى إعداد البحث وأداته[٢] .

ثانيا : كذلك وضع بعض القيود على حرية الباحث الميدانى كأن تحدد له دوائر معينة غير تلك التى يقيم فيها[٣] .

---

(١) قارن موكييلى ، م. س. ذ. ، ص ٥٣

(٢) وهو المنهاج الذى ننصح به فى الأبحاث الميدانية فى المجتمعات النامية . انظر شرام ، م. س. ذ. ، ص ١٨٩

(٣) فالباحث الميدانى الذى يقيم بشبرا نطلب منه أن ينفذ أداة جمع المعلومات على حالات بحلوان . والعكس صحيح . انظر منهاجا مختلفا يفرض عملية مختلفة كلية فى ديزابييه ، م. س. ذ. ، ص ٥٨

ثالثا : أن يفرض على الباحث تسجيل اسم وعنوان الحالة موضع التحليل[1].

رابعا : الإكثار من المتغيرات الداخلية بحيث يصير كل متغير أداة من أدوات الضبط المباشر . بعبارة أخرى بحيث يتكون الإطار من طبقات ثم طبقات فرعية ثم فئات فرعية . وهذا هو الأسلوب الذى تتبعه مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية فى أبحاثها الميدانية حيث أثبتت فى حالة تعدد المتغيرات ومن خلال المقارنة بين نتائج المنهاج الاحتمالى والمنهاج بطريق الحصة أن الفارق بين النتائج لايصل إلى ٤ فى المائة[2]. وقد تم ذلك من خلال بحث لها عن وسائل شغل أوقات الفراغ حيث اخترت عينتان احداهما بطريق الحصة والأخرى بطريق الاحتمال فجاءت النتائج متقاربة إلى حد مذهل .

جدول رقم ٨

خصائص الطبقة	أسلوب العينة	
	احتمالى	حصة
مقيد باحدى المكتبات العامة	٢٦,٦	٢٨,٧
تردد على إحدى دور السينما خلال الأسابيع الأربعة السابقة	٤٢,١	٤٧,٩
اشتراك فى إحدى الندوات العامة خلال فترة محددة سابقة	٢٣,٩	٢٦,٩
المدخنون	٥٢,٨	٥٥,٥
الانتظام فى قراءة إحدى الصحف اليومية	٧٣,٢	٧٧,٥
قراءة منتظمة لإحدى الصحف التى تصدر فقط يوم الأحد	٨١,٥	٨٥,٣

مقارنة العينة الاحتمالية بالعينة بطريق الحصة

هذه النتائج تثبت بشكل واضح إمكانية الالتجاء إلى هذا الأسلوب دون الخوف من مخاطر تشويه الظاهرة .

---

(١) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٥٧

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ وما بعدها .

§ ٤٦ ـ **أسلوب العينة المساحية :**

يقصد بالعينة المساحية Area Sampling اختيار العينة على أساس ادخال عنصر الإقليم كمحور لعملية الاختيار بطريق القرعة وفيما عدا ذلك اخضاع وحدات البحث لعملية المسح الكلية الشاملة : معنى ذلك بعبارة أخرى أننا ازاء نقص المعلومات أو عدم دقتها وعدم إمكانية اخضاع المجتمع الكلى الشامل لعملية الاختيار بطريق القرعة ، نقوم بتقسيم المجتمع الكلى على أساس الإقليم إلى وحدات ويستحسن أن تكون متجانسة على قدر الإمكان ثم يتم اختيار إحدى هذه الوحدات أو أكثر بطريق القرعة وعقب ذلك يتم المسح الشامل لتلك الوحدة بمعنى جمع معلومات من جميع الوحدات المنتمية إلى ذلك الجزء المساحى(١) :

فلنفترض مثلا أننا نريد أن نجمع معلومات عن الرأى العام القاهرى بخصوص مشكلة معينة فاذا استطعنا أن نجزىء مدينة القاهرة إلى وحدات مساحية وجمعناها فيما بينها كوحدات متجانسة ، منطقة جاردن سيتى مثلا وكذلك قصر النيل والزمالك ، ثم اخترنا من بين كل مجموعة وحدة بطريق القرعة ولتكن جاردن سيتى وقمنا عقب ذلك بالمسح الكلى الشامل لتلك المنطقة فإننا نكون قد جمعنا بين فكرة الاحتمال والمسح الكامل .

هذا الأسلوب الذى يصلح فى المجتمعات المتخلفة حيث لاتوجد معلومات دقيقة متجددة يجعل محور الاحتمال هو عنصر الإقليم وليس عنصر الوحدة مصدر المعلومات(٢) .

---

(١) HANSEN, HAUSER, Area sampling, in BERELSON, cit., p. 546.

(٢) وهذا هو الأسلوب الذى اتبعناه فى أبحاثنا الميدانية بالمجتمع المصرى ولكنه يفترض توفر معلومات دقيقة تسمح بعملية التمييز الداخلية فى الوحدات بحيث نستطيع أن نجمع الوحدات إلى مجموعات متجانسة. كذلك فإن هذه العملية تخضع لنوع من التحكم الذى يمنع الصفة العلمية المطلقة. ولذلك فقد طبقناه فى أبحاث استطلاعية pilote study حيث يصير الهدف أساسا التأكد من صحة افتراض معين . انظر رغم ذلك ملاحظات DUVERGER, Méthodes des sciences sociales, 1961, p. 172.

*** حالة رقم ١٣ : حول بحث عملية إعداد الرأى العام المصرى لتقبل فكرة تنظيم النسل والمشاركة الإيجابية فى العمل على نجاحها : المشاكل المتعلقة بعملية جمع المعلومات :

سبق أن أثرنا هذا الموضوع فى أكثر من مناسبة والذى يعنينا من إثارته حالياً كأحد النماذج للأبحاث الميدانية المتعلقة بقياس الرأى العام فى المجتمعات النامية هو فقط التعرض لبعض المشاكل التى لمسناها من خلال التنفيذ الفعلى لهذه الأبحاث فى المجتمع المصرى .

الهدف من البحث هو وضع خطة لتوجيه الرأى العام المصرى نحو الأخذ بفكرة تنظيم النسل مستنداً من جانب إلى الاقتناع بالمبدأ ومن جانب آخر إلى القضاء على قوى المقاومة أو عدم الاهتمام التى تحول دون تنفيذ خطة إيجابية تسعى لتحقيق هذا الهدف .

(ا) وابتداء من هذا الفرض فقد كان من الطبيعى أن نضع كهدف أساسى وكمقدمة سابقة(١) على وضع الخطة الكشف عن المتغيرات التالية :

أولا : اتجاهات الرأى العام من حيث المعارضة والتأييد أو عدم الاهتمام ودرجة كل منها أو عدم العلم ومداه

ثانياً : القوى الكمية والكيفية التى تتكون منها المقاومة الحقيقية أو الصورية لتنفيذ خطة تنظيم النسل. وذلك بحيث يمكن بلورة القوى الثلاث الآتية :

١ – قوى المقاومة الحقيقية : أى القوى التى تعارض مبدأ تنظيم النسل وترفض بناء على قيم معينة وامتداداً لنظام كامل من المواجهة للسلوك الاجتماعى أو الجنسى .

٢ – قوى المقاومة السلبية وهى التى تعارض تنظيم النسل لأنه جديد يعنى تغييراً فى الوضع القائم دون أن ترتبط هذه المعارضة بنظام كامل للقيم السلوكية .

٣ – قوى المقاومة الصورية وهى تلك القوى التى تعارض تنظيم النسل كنتيجة للجهل وعدم التوعية .

(ب) إزاء ذلك حددنا المرحلة الأولى بأنها مرحلة استكشافية واستطلاعية تتجه لا فقط إلى إعداد أداة البحث بمعنى أداة جمع المعلومات وإنما إلى تلمس طبيعة أبعاد المشكلة كما يعكسها المجتمع المصرى(٢).

---

(١) انظر وقارن
SEGAL, Report on research toward the control of fertility, in KISER, Research in family planning, 1962, p. 337.

(٢) انظر فى تحديد مدلول هذه المفاهيم وأبعادها من الناحية النظرية :
SIDMAN, Tactics of scientific research, 1960, p. 217.

إنطلاقاً من هذه الأهداف وضعنا الافتراضات الآتية :

أولا : حيث أن كل بحث ميدانى يملك وسائله الخاصة به والذى تفرضها طبيعته بالنسبة للإمساك بتلابيب الحقيقة الاجتماعية التى نحن فى حاجة إلى احتضانها والكشف عن خصائصها ، وحيث أن بحث تنظيم النسل لا يخرج عن هذه القاعدة فقد كان من الطبيعى أن نواجه عملية جمع المعلومات بتكيف إجرائى أساسه مقومات أربعـــة :

١ – انعدام الرأى العام الحقيقى .

٢ – سطحية الاتجاهات فى أغلب شرائح المجتمع .

٣ – تعدد نماذج الشخصية الفردية .

٤ – استحالة الفصل بين الرأى أو الاتجاه من جانب والخلفيات المتعددة من جانب آخر أو بعبارة أخرى اتباع أسلوب علاقة السببية العمقية(١) .

ثانياً : أن ما يعنينا فى عملية جمع المعلومات خلال المرحلة الاستطلاعية هو تلك الأسرة التى تمثل جوهر المشكلة أى الأسرة الكثيرة الإنجاب والتى لا بد وأن فرضت عليها تلك الحقيقة ضرورة المواجهة بأسلوب أو بآخر عن التساؤل عن مدى إمكانية الاستمرار فى العملية الأنجابية وكيف يمكن مواجهتها . ولتأكيد الدلالة المرتبطة بوحدة جمع المعلومات أى الأسرة الكثيرة الإنجاب كان من الطبيعى أن ندخل نماذج للأسرة قليلة الإنجاب لتصير بهذا المعنى إحدى أدوات ضبط النتائج .

ثالثاً : أن كل سلوك أو اتجاه أو رأى يجب فى نماذجه أن يعبر عن حقائق متدرجة تمثل لا فقط التطرف فى أبعاده المتضادة بل وكذلك الاعتدال فى مواقفه المتوسطة بحيث تستطيع فى أى مجتمع من المجتمعات أن توزع نماذج مختلف السلوك أو الاتجاه أو الرأى على مستمر يبدأ بأقصى القوة وينتهى بأقصى علامات عكس تلك القـــوة(٢).

انطلاقاً من هذه الافتراضات حددنا العينة بالنسبة للبحث الاستطلاعى بعدد ٥٤٠ حالة تقدم النماذج التسع الآتية : ثلاثة مجتمعات حضارية وهى قصر النيل ومصر القديمة وبولاق ، ثم ثلاث مجتمعات ريفية وهى قرية بها مركز تنظيم نسل ثم قرية ليس بها مركز تنظيم نسل ولكنها قريبة من مدينة القاهرة وبالتالى قريبة من

---

(١) انظر سابقا ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٢) هذا هومفهوم قياس الاتجاه . انظر تأصيل المفهوم مع تطبيقه على موضوع تنظيم النسل فى
STEPHAM, Possibilities and pitfalls in the measurement of attitudes and opinions on family planning, in KISER, cit., p. 423.

مراكز تنظيم النسل ثم قرية ليس بها مركز تنظيم نسل وبعيدة عن أى مجتمع حضرى . ثم ثلاثة مجتمعات عمالية أحدها ينتمى إلى مصنع ضخم مستقر ذو تقاليد عمالية وهو المحلة الكبرى ، ثم مصنع ضخم ولكنه حديث لم تستقر بعد تقاليده العمالية وهو مصنع الحديد والصلب بحلوان ثم مصنع آخر يتوسط كلا الأول والثانى من حيث تاريخه واستقراره فى علاقاته الداخلية وهو مصنع ياسين للزجاج . وفى كل من هذه النماذج التسع ميزنا بين الأسرة الكثيرة الإنجاب والأسرة المتوسطة الإنجاب والأسرة القليلة الإنجاب(١) وبهذا المعنى كانت مجموع النماذج السلوكية ٢٧ نموذج كل منها يقدم ٢٠ حالة . على أننا أيضاً أدخلنا متغيرات ذاتية فى كل من هذه المجموعات والنماذج . ففى المجتمع الريفى جعلنا من متغير الحيازة علامة على المستوى الاقتصادى ، وفى المجتمع الحضرى جعلنا متغير العلم بالقراءة والكتابة والمتغير التعليمى علامة على المستوى الثقافى وفى المجتمع العمالى جعلنا من كلا المتغيرين الإقامة والدخل علامة على الانتماء . الإقامة بمعنى إقامة الأسرة فى مجتمع حضرى أم ريفى والدخل بمعنى أجر الزوج أقل أو أكثر من قدر معين .

(حـ) الذى نريد أن نوضحه فى هذه العجالة هو ما يتعلق بصعوبات التنفيذ والأمر الذى يكشف عن حقيقة امكانيات البحث الميدانى للرأى العام فى المجتمعات النامية .

أولا : فبالنسبة للعائلة الحضرية رغم جمع المعلومات الأولية من استمارات البطاقات العائلية الموجودة لدى مصلحة الأحوال المدنية تبين أن هذه البيانات قديمة وغير مطابقة للواقع سواء فى عدد الأبناء أو فى عدد الزوجات بل تبين أنه فى كثير من الأحوال فان محل الإقامة غير مطابق للحقيقة . ففى حى قصر النيل مثلا يعطى الخادم محل إقامته لدى محل عمله فى حين أن محل سكنه الحقيقى أى مع زوجته وأولاده فى حى آخر . وقد ترتب على ذلك معاودة البحث عن عينة تكميلية وهو أمر تكرر فى بعض الأحيان خمس مرات(٢).

ثانياً : أنه بالنسبة للمجتمع الريفى اضطررنا للقيام بعملية بحث شاملة لكل قرية حيث نفذت أداة البحث على مرحلتين : مرحلة أولى قمنا فيها مع فريق من الباحثين المدربين إلى تقسيم القرية إلى أربعة مناطق وتم فيها تنفيذ استمارة مسح بقصد وضع إطار لعينة الكشف فقط عن خصائص الهيكل العام للأسر المقيمة وعقب اختيار العينة تم تنفيذ الأداة الكاملة للبحث . رغم ذلك فقد واجهتنا صعوبات متعددة . أول هذه الصعوبات وأخطرها التناقض الواضح فى كثير من البيانات بين استمارة المسح ، والاستمارة النهائية ورغم أنه لم يكن قد مضى أكثر من أسبوع واحد بين تنفيذ الاستمارتين وقد وصل هذا التناقض إلى حد التعارض حتى فى عدد الأبناء وفى نفس الحالة الزوجية بل وفى عدد حجرات المنزل . وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا بواحد

---

(١) ڤارن كيسير ، م. س .ذ. ، ص ١٤٩ وما بعدها .

(٢) صعوبات مماثلة يحدثنا عنها فى الهند :

RUDOLPH, Opinion surveys in India, in BERELSON, cit., p. 745.

من أمرين : إما لعدم دقة الباحث فى جمع المعلومات وإما إلى عدم تعاون الحالة فى إعطاء البيانات . هذا إلى أنه فى كثير من الأحيان ووجهنا بالرفض المطلق حتى من جانب المسئولين فى القرية كالعمدة للتعاون مع الباحثات بالنسبة لجمع المعلومات من الزوجات(١).

ثالثاً : الصعوبات لم تكن أقل من هذا بالنسبة للمجتمع العمالى ورغم أن التعاون كان أكثر وضوحاً بسبب التنظيم الداخلى والرغبة الواضحة فى تقديم معلومات دقيقة إلا أن عدم الدقة كان دائماً المسيطر على عملية إعطاء المعلومات . وقد تبين ذلك بشكل واضح فى مصنع حلوان حيث قمنا بعملية بحث أولى قبل اختيار العينة التى تم عليها تنفيذ أداة جمع المعلومات . وأيضاً لاحظنا هنا التناقض بين أداة البحث والاستمارة الاستطلاعية ورغم أن هذا التناقض كان أقل خطورة فى المجتمع العمالى عنه فى المجتمع الريفى إلا أنه لم يكن يمثل الاستثناء .

والخلاصة أن عملية جمع المعلومات فى هذا البحث ورغم جميع الإمكانيات المتاحة لم تستطع لا أن تستند إلى البيانات المعلنة ولا أن تكتفى بعملية مسح شاملة بل كان علينا أن نعيد فى كثير من الأحيان تنفيذ الأداة أكثر من مرة واحدة للتأكد من صحة المعلومات الواردة فى تلك الأداة(٢) .

الصعوبات العملية فى مشكلة جمع المعلومات لاتقتصر على النواحى الاجرائية . يجب أن نضيف إلىذلك:

أولا : عملية التنظيم الإدارى للبحث .

ثانيا : موضوع تدريب الباحثين .

ثالثا : عملية صياغة أداة جمع المعلومات .

تعنينا بهذه المناسبة على وجه الخصوص الناحية الثالثة . لقد لجأنا إلى ما أسميناه بالسؤال الاستطراوى وهويتكون أساساً من موضوع معين تركنا للباحث حرية مطلقة فى تتبع وتحليل المتغيرات المرتبطة به بخصوص الحالة التى أمامه . بعبارة أخرى فى أداة جمع المعلومات وبالنسبة لبعض المتغيرات نظرنا إلى كل منها على أنه من الممكن أن تصير موضوعاً لتحليل من نوع آخر أساسه حرية الباحث بحيث يصير هذا المتغير موضع مقابلة حرة لا تتقيد إلا باللحظة التى تثار المشكلة بخصوصها فى دينامية التنفيذ العام لأداة البحث .

---

(١) قارن نفس المرجع ، ص ٧٥٢ – ٧٥٣

(٢) ولعل هذا يفسر لماذا نحن لم نعد نؤمن بجدية أو إمكانية القيام بأبحاث ميدانية على المستوى القومى national level فى المجتمعات المتخلفة وأنه يجب الاستعاضة عن ذلك بأبحاث استطلاعية مع اخضاعها لنوع معين من الضبط يسمح بامكانية تعميم النتائج مع التسليم مقدما بدرجة معينة من الثقة . انظر حامد ربيع ، بحوث الرأى العام ، م. س. ذ. ، ص ٦١ هامش ١٢

§ ٤٧ ـ استخدام الأسلوب التكرارى فى أبحاث الرأى العام :

يقصد بالأسلوب التكرارى نموذج معين من نماذج قياس الرأى العام أساسه تطبيق نفس الأداة على نفس الشخص أكثر من مرة واحدة ومقارنة نتائج هذه التطبيقات المتعددة . الأسلوب يُستخدم لقياس ظاهرة التغير أى لمتابعة تطورات الرأى العام التى قد تحدث نتيجة واقعة جديدة أوحملة دعائية اوإعلامية معينة[1]. بهذا المعنى تطبيق هذا الأسلوب يأخذ الصورة الآتية :

أولا : أداة واحدة تعد مسبقاً ولاتتغير فى أى من التطبيقات المتعددة .

ثانيا : تعدد تطبيق الأداة سواء كان ذلك قبل واقعة معينة وبعدهذه الواقعة أومرة كل فترة زمنية معينة .

نموذج للتطبيق الأول قياس الرأى العام قبل خطبة معينة للزعيم السياسى ثم عقب تلك الفترة ومقارنة نتائج التطبيقين . النموذج التقليدى للتطبيق الثانى قياس الرأى العام أثناء حملة انتخابية أودعائية بأن نخضع الشخص عدة مرات تتخلل بين الواحدة منها والأخرى فترة زمنية ولتكن أربعة أشهر مثلا .

ثالثا : إجراء مقارنة بين نتائج البحثين الأول والثانى أو الأبحاث الأخرى إن تعددت .

على أنه فى مثل هذه الصورة من صور تحليل وقياس الرأى العام تصادفنا صعوبة معينة وهى أن تطبيق نفس الأداة على نفس الشخص قد يؤدى إلى تشويه فى المعلومات بمعنى أنه قد يحدث تنبها متعمداً بماقد يترتب عليه وهو عكس الغاية المقصودة أوعلى الأقل أن يتهيأ الشخص للاستعداد للموقف فى التطبيق الثانى مما يشوه الظاهرة[2] . وتزداد هذه الخطورة إذا تصورنا تطبيق الأداة ثلاث أوأربعة مرات أوأكثر . ازاء ذلك فان

---

(١) يستخدم اصطلاح panel للتعبير عن هذا الأسلوب ويترجمه البعض بكلمة « الندوة » ولكننا نفضل استخدام كلمة « التكرارى » لأن هذا الاصطلاح رغم أن فيه تصرف معين أقرب إلى التعبير عن المفهوم. انظر فى المعنى الآخر سعد جلال ، المرجع فى علم النفس ، ١٩٦٦ ، ص ٧٩٩ .

(٢) LAZARSFELD, The use of panel in social research, in Berelson, cit., p. 511.

علماء قياس الرأى العام يلجأون إلى ما يسمى بالمجموعة الضابطة ومعنى ذلك أنه عند اختيار العينة يتم اختيار عينة أصلية هى التى تخضع لعملية القياس المتكرر ثم مجموعات أخرى ضابطة تتشابه مع تلك التجريبية فى جميع مقوماتها وتتعدد بقدر التطبيقات ثم يتم تطبيق الأداة فى كل مرة جديدة على إحدى هذه المجموعات الضابطة على ألا يتكرر ذلك التطبيق على أى مجموعة ضابطة والنتائج تؤخذ بأن تضم نتائج المجموعة الأصلية مع المجموعة الضابطة ويكون متوسط المجموع هو المعبر عنن نتائج التغير . بهذا المعنى فان المجموعة الضابطة تكون وسيلة لتصحيح ماىمكن أن يكون التكرار قد أحدثه من ابتعاد أو تشويه للتغير الحقيقى نتيجة لعملية التنبيه[1] .

(١) LIPSET, LAZARSFELD, BARTON, LINZ, The psychology of voting : an analysis of political behavoir, in LINDZEY, Social psychology, cit., vol. II, p. 1150

الفصل الثالث

الإشـاعة

خلاصة : التعريف بالإشاعة – المقومات والخصائص – الاشاعة والخبر – الإشاعة والأسطورة – تحليل الاشاعة : الأساليب العلمية – قوانين الإشاعة : قانون التغيير والتشويه ؛ قانون التضخيم والمبالغة ؛ قانون التنسيق – الإشاعة والحرب النفسية – مقاومة الإشاعة ومسالكها .

• • •

١ – من بين مظاهر السلوك الجماعى التى كانت موضع دراسة علمية متقدمة تحتل ظاهرة الإشاعة المرتبة الأولى . ساعد على ذلك ورغم أن الظاهرة أكثر ارتباطا بنظرية الرأى العام منها بالنظرية السلوكية ظروف الحرب العالمية الثانية واستخدام الإشاعة كأحد أدات الحرب النفسية . لقد سبق أن أشرنا إلى الاسم الذى رددته جميع وثائق الاستسلام النازى « بلاو» رئيس معمل التحليل النفسى فى وزارة الحرب الألمانية . والمعروف أن هذا السلاح جعل من الإشاعة أداة أساسية فى قتاله النفسى . ورغم أن الكثير من علامات الاستفهام لا يزال يسيطر على الفقه بخصوص الأوضاع النظامية فى داخل أداة القتال الهتلرية إلا أن تطور الدراسة العلمية لظاهرة الإشاعة ليس موضع مناقشة .

٢ – انظر فى تحليل الظاهرة وبصفة خاصة من الناحية السلوكية :

ALLPORT, POSTMAN, The psychology of rumor, 1948.
ID., An analysis of rumor, in Public Op. Quarterly, 1946, p. 501.
KNAPP, A psychology of rumor, ibidem, 1944, p. 23.
PENROSE, An objective study of crowd behavior, 1952.
DEFLEUR, Mass communication and the study of rumor, in sociol. Inquiry, vol. XXXII, 1962, p. 51.
STOETZEL, La psychologie sociale, 1963, p. 249.
MORIN, La rumeur d'Orléans, 1969.
GORDON, ALLPORT, POSTMAN, The basic psychology of rumor, in MACCOBY, NEWCOMB, HARTLEY, Readings in social psychology, 1959, p. 55,

٣ – على أنه ليستكمل القارىء هذا الثبت بالمراجع الأساسية نضيف عدة ملاحظات . أولها أن أهم المراجع الحقيقية يجدها القارىء بخصوص دراسة السلوك الجماهيرى حيث تبرز ظاهرة الإشاعة كأحد مظاهر التعبير عن حالة الهياج الجماهيرى ثم من جانب آخر نلفت النظر إلى أن اللغة العربية تملك بعض الأدوات . أهمها ترجمة للكتاب الأول الذى صدرنا به هذه القائمة قام بها كل من صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق . والملاحظة الأخيرة تدور حول ضرورة الاهتمام بالمؤلفات العربية التى تتعرض لظاهرة الرأى العام حيث تفرد بدورها للإشاعة بعض أجزاء هامة . نذكر بهذا الخصوص أولا صلاح نصر ، الحرب النفسية ، جزء أول ، ١٩٦٦ ، ص ٣٠١ وما بعدها .

• • •

§ ٤٨ ـ التعريف بالاشاعة : المقومات والخصائص :

كلمة الإشاعة يصعب تعريفها . فى أوسع معانيها تعنى الانطلاق بفكرة معينة مرتبطة بواقعة معينة وانتشار وسريان هذه الفكرة فى مجتمع معين تحدد من حيث المكان والزمان يغلب عليها ان لم يكن عدم الصحة فعلى الأقل الصحة الجزئية . بهذا المعنى الإشاعة تختلط بالأسطورة من جانب وبالنكتة أو الفكاهة الشعبية من جانب آخر فهى جميعها صور لاختلاق كلى أو جزئى يرتبط باتجاهات الرأى العام فى معناه العام بحيث يمكن القول بأنها وسيلة من وسائل التعبير عن حالات الكبت النفسى الجماعى والفردى[١]

على أننا لو أردنا أن نعرف الإشاعة تعريفاً علميا يعكس مفهومها الوظيفى وتكوينها السلوكى فاننا نستطيع أن نعرفها بأنها « عملية نقل خبر مرتبط بواقعة أو رأى أو صفة مختلقة من خلال الكلمة المسموعة الشفهية تعبيراً عن حالة معينة من حالات القلق أو الكبت الجماعى » .

هذا التعريف يسمح بتحديد العناصر والمقومات التى تعكس خصائص الظاهرة .

أولا : الإشاعة تفترض عملية الاتصال والنقل الشفوى من خلال الكلمة المسموعة ، هى أول صورة من صور الاتصال الجماعى الذى يأخذ صورة الدعاية تاريخيا وقبل أن توجد أساليب نقل الرسالة بطريق الكتابة أو أجهزة الإعلام الجماهيرية الأخرى . الهمس والسرية فى نقل الأخبار هى المناخ الصالح لانتشار الإشاعة[٢] .

ثانيا : وهذا يقودنا إلى العنصر الثانى من عناصر تكوين الإشاعة وهو الغموض وعدم الإعلام الكافى بالنسبة للواقعة موضع التعليق . الإشاعة هى تعبير عن حالة الغموض . ومن ثم فحيث يكون هناك اعلام واضح وصريح وكاف فانه لا موضع للإشاعة . النقص الإعلامى والإخبارى هو الذى يكون الظروف الملائمة لظهور الإشاعات وانتشارها .

ثالثا : أهمية الواقعة أو الشخص أو الصفة موضع التعليق الإشاعى . إن أهمية الحدث هو الذى يفرض الاهتمام والاهتمام هو الذى يدعوان لم يكن إلى خلق الإشاعة فعلى الأقل إلى تقبلها وسريانها .

---

(١) صلاح نصر ، م. س. ذ. ، ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٢) قارن أرانجورين ، م. س. ذ. ، ص ١٠٤ وما بعدها .

رابعا : الإشاعة من جانب آخر هى تعبير عن حالة كبت معينة . وإذا أردنا أن نعبر عن هذا بلغة علمية فان الإشاعة لاتعدو أن تكون من حيث سريانها انتقالا من حالة الرأى العام الباطن الذى لايستطيع أولايجرؤ على التعبير عن نفسه تعبيراً واضحا وصريحاً إلى أسلوب خفى ملتو لاثبات وجوده من خلال عمليات تعويض وتوفيق غير مباشرة :

بهذا المعنى الإشاعة هى خلفية نفسية لمفهوم السلوك الجماعى : فاختلاق الإشاعة أولا هو تعبير عن إحدى صفات الطابع القومى للجسد الاجتماعى . فليست كل جماعة قادرة أوصالحة لسرعة عملية الاختلاق التى هى صورة من صور التجاوب الشاذ بين المجتمع كحقيقة كلية والمواقف المختلفة التى تواجهها الجماعة من سياسية وغير سياسية . وهو أيضاً سلوك جماعى من حيث عملية انتشار الإشاعة وسريانها : انها عملية تعكس خصائص الوسط الاجتماعى ومقومات الجسد الاجتماعى وأسلوب العقل الجماعى فى مواجهة الأحداث(١) .

هذا التعريف يسمح لنا أيضاً بالتميز بين الإشاعة وغيرها من الظواهر الأخرى التى قد تختلط بها وقد تتشابك معها :

(ا) الإشاعة ليست الخبر ، حيث أن الخبر هو مجرد نقل واقعة فى شكل إعلام أما الإشاعة فهى التعليق على الخبر بقصد تحقيق حالة نفسية معينة من الإشباع أو التخلص من التوتر أو التعبير عن حالة من حالات الكبت والتمزق .

(ب) الإشاعة ليست الأسطورة . الأسطورة هى إشاعة تجمدت على مر الزمن وارتفعت لتصير حقيقة تاريخية مرتبطة بالتقاليد والتراث أما الإشاعة فهى كما سبق ورأينا تفترض تداول تعليق كاذب يتضمن شيئاً من المبالغة أوالاختلاق حول واقعة معاصرة تعكس الاهتمام الجماعى والكلى .

(ح) الإشاعة ليست هى الفكاهة . بمعنى أن الفكاهة الجماعية هى نوع من أنواع التعبيرات الشعبية التى تسعى إلى حالة الاسترخاء عن طريق النقد المستتر . الإشاعة كما سبق ورأينا هى صورة من صور المواجهة الجماعية غير المباشرة وغير الصريحة ومن ثم فمن الممكن تصور الإشاعة تأخذ صورة الفكاهة كما أنه من الممكن تصور الفكاهة التى لاترتفع إلى مرتبة الإشاعة . فلو انطلقت فكاهة مثلا تتضمن الهزء أو السخرية

---

(١) صلاح نصر ، م. س. ذ. ، ص ٣١٦

بأحد الزعماء أو القادة ولكنها لم تنتشر ولم تسرى فى المجتمع السياسى فانها تظل فكاهة لم ترتفع إلى مرتبة الإشاعة . كذلك إن وجدت فكاهة ولكنها حقيقة لاتتضمن أى اختلاق فى الخصائص أو الصفات أو المقومات فانها لاتعدو أن تكون خبراً ولا يمكن أن توصف بأنها إشاعة(١) .

§ ٤٩ – تحليل الاشاعة : الأساليب العامية وعملية استخلاص قوانين الاشاعة :

الإشاعة أضحت اليوم من أكثر أنواع مظاهر التعبير عن السلوك الجماعى أهمية فى التحليل من جانب وفى الانطلاق الحركى للعلوم السلوكية من جانب آخر . ومن خلال الإشاعة نستطيع أن نتنبأ بخصائص الرأى العام الحقيقى ومشاكله . والإشاعة أداة من أدوات الحرب النفسية فى بعض الأحيان تصبر سلاحا حاسما فى خلق حالة الذعر والقضاء على معنويات الخصم . كل هذا يفسر الأهمية التى يوليها علماء التحليل السلوكى لظاهرة الإشاعة .

كيف يمكن تحليل الإشاعة ؟

الواقع ان الإشاعة من الممكن أن تخضع لتحليل ثلاثى الأبعاد . أساليب ثلاثة كل منها له خصائصه وكل منها يسمح بدراسة للظاهرة من أحد جوانبها(٢) . هذه الطبيعة للأساليب الثلاثة تبرر وتفسر كيف أنه يستحسن فى حالة اتخاذ الإشاعة أداة من أدوات الحركة الاجتماعية أو السياسية أن نلجأ إلى التحليل فى أبعاده الثلاثة أو على الأقل بأكثر من أسلوب واحد :

(ا) تحليل مضمون الإشاعة : يقصد بذلك تحليل الإشاعة كرسالة أو كتعبير عن عملية الاتصال . الإشاعة فى حقيقتها هى نقل فكرة أو تعليق على واقعة تأخذ صورة اتصال جماعى(٣). بهذا المعنى الإشاعة تتضمن حقيقة اتصالية مزدوجة : من جانب مضمون الرسالة فى صورتها الأولى ومن جانب آخر ذلك الشطر من المضمون المختلق

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠٩ وما بعدها .

(٢) ستوتزل ، م. س. ذ. ، ص ٢٥٠

(٣) انظر الملحق الذى أورده أولبورت ، م. س. ذ. ، ص ٢٤٧ ومابعدها من معايير وضعت لتسترشد بها الهيئات المضطلعة بالوقاية من إشاعات وقت الحرب . وقارن أيضاً :
CARMICHAEL, HOGAN, WALTER, An experimental study of the effect of language on the reproduction of usually perceived form, in Journel of Experimental psychology, 1932, p. 75.

فى خلال العمليات المتلاحقة فى انتقاله من شخص إلى آخر . تحليل الإشاعة بهذا المعنى هو نوع من أنواع تحليل المضمون Content analysis يخضع لجميع قواعد هذا الأسلوب من أساليب التحليل وبصفة خاصة امكانية اجراء هذا التحليل كميا وكيفيا . مثل هذا الأسلوب ومن حيث طبيعته دراسة مكتبية تسمح باكتشاف خصائص الرسالة من جانب ثم من جانب آخر طبيعة الدوافع الباطنة التى تستتر خلف عملية الاختلاق والتى لايجرؤ المجتمع على أن يعلن عنها ثم وبصفة خاصة نستطيع من خلال هذه الدراسة وعندما تبلغ الإشاعة درجة معينة من الانتشار أن نصل إلى تحليل طبيعة وخصائص العلاقة بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة : تحليل مدى الثقة ومدى المشاركة يصبر هدفا أساسيا من أهداف تحليل مضمون الإشاعة . تحليل المضمون يصبر ذا فعالية خاصة عندما يرتبط بمقارنة الإشاعة تبعا لسريانها ومدى ذلك السريان. فانتشار الإشاعة فى الواقع من حيث مضمونها وتقبله فى بيئات معينة أو طبقات معينة يسمح إلى حد ما باكتشاف موقف وخصائص تلك البيئات أو تلك الطبقات من حيث تجانسها أوعدم تجانسها مع السلطة الحاكمة أو على الأقل مع القرارات السياسية المرتبطة بجوهر الإشاعة . ومن بين الأبحاث التى أجريت بهذا الخصوص والتى يمكن أن تقال أنها ذات دلالة معينة أبحاث العالم الإنجليزى بنروز : Penrose حيث استطاع أن يثبت أن الإشاعة من حيث انتشار مضمونها تمر بمراحل متتابعة تشبه نفس التطورات التى تصيب الوباء المرضى كالكوليرا[1] .

(ب) إلى جانب هذا الأسلوب المكتبى فان الإشاعة من الممكن أن تخضع للتحليل المعملى . هنا التحليل لايتجه إلى الإشاعة القائمة فعلا بالدراسة وإنما يحاول أن يكتشف خصائص العملية النفسية المرتبطة بالإشاعة وقد تحدد المجتمع أو الوسط أو البيئة التى تسعى إلى التأثير فيها من خلال تلك الأداة بأسلوب الاختلاق المعملى أو اختلاق التجربة . الأسلوب المعملى يعنى عزل الظاهرة واختلاقها اختلاقا كليا . كذلك أثبتت المحاولات التى تمت وبصفة خاصة فى معامل ديناميات الجماعة فى الجامعات الأمريكية إمكانية إخضاع عملية تطور الإشاعة إلى هذا الأسلوب من أساليب التحليل .

من أمثلته البحث الذى قام به العالمان البورت وبوستمان عن تطور الإشاعة وما يصيبها من تغيرات أثناء انتقالها من شخص لآخر . تمت هذه التجربة بالشكل

(١) العالم بنروز يستخدم مفهوم العدوى العقلية فى بناء إطاره الفكرى لعملية التحليل . وانطلاقا من هذا المفهوم يميز بين خمس مراحل متتابعة . انظر بنروز ، م. س .ذ. ، ص ٧٤

التالى . جمع فى مكان معين أى المعمل سبعة أشخاص ووضع كل منهم فى مكان مستقل بحيث لايستطيع الاتصال بالآخر مباشرة إلا من خلال أداة تليفونية . عرض على الأول منهم فيلم ثم بعض صور تمثل وقائع عنيفة كقتل شخص أوهتك عرض فتاة . طلب من الشخص الذى عرض عليه هذا الفيلم وهذه الصور فى جلسات متعاقبة أن ينقل مدلول الواقعة أو خلاصة ماراه إلى الشخص الثانى ثم الثانى إلى الثالث وهكذا حتى وصلت إلى الشخص الأخير . فى كل حالة كان يتم تسجيل الرسالة التى انتقلت من شخص لآخر ثم تخضع لعملية التحليل لاكتشاف مافقدته الرسالة من جانب وما اكتسبته من زيادات من جانب آخر ومن خلال هذه العملية استطاع العالمان استنتاج ما يسمى بقوانين تنقل الإشاعة[1] .

(حـ) الأسلوبان السابقان كل منهما له مزاياه ولكن أيضاً له عيوبه . فالتحليل المكتبى يسمح بتحليل مضمون الإشاعة واكتشاف خصائصها الذاتية والتحليل المعملى قد يمكننا من التوصل إلى وضع افتراضات صالحة كأساس للاستخدام الحركى للسلاح الإشاعى ولكن كلاهما يتضمن لاواقعية معينة . فتحليل المضمون وهو تحليل مكتبى بعيد عن الحياة الفعلية وتنقل الإشاعة فى داخل المعمل هو اصطناع مهما بلغ من دقة فهو لايعكس الواقع بديناميانه . ان الإشاعة ليست سلوكا فرديا وإنما هى سلوك جماعى . وككل سلوك جماعى كما سبق ورأينا فان الحقيقة المميزة هى عملية التفاعل الجماعى والتفاعل الجماعى لايمكن أن يكون إلا تلقائيا ومن واقع الحياة وفى صورتها الواقعية . كذلك تحليل الإشاعة فى حاجة لكى يكون متكاملا أن نلجأ إلى الأسلوب الحقلى أو التحليل الميدانى . ومعنى ذلك أن تحليل الإشاعة لايتم فى داخل المعمل حيث نجد الفرد وقد وضع فى ظروف مصطنعة تخالف الظروف الاجتماعية وإنما نتابع عملية انتقال الإشاعة أى سريانها فى الواقع الاجتماعى بجميع عناصره دون أن يعزل جزء من هذا الواقع أوشطر منه بدعوى التحليل المعملى .

نموذج لهذه الأبحاث أجراه العالم الأمريكى دود[2] حيث استطاع من خلال مجموعة من الدراسات الميدانية والاختبارات الحقلية أن يتوصل إلى اكتشاف عملية سريان الإشاعة وخصائصها من حيث تنقلاتها المتتابعة فى المجتمع الأمريكى . البحث

---

(١) م. س. ذ. ، ص ٨١ وما بعدها

(٢) DODD, Testing message diffusion from person to person, in Public Opinion Quartery, 1952, p. 247.

الرئيسى الذى أعانه على ذلك تم فى قرية صغيرة ويتلخص فى الآتى : فى تلك القرية وفى صباح يوم ١٦ يوليوعام ١٩٦١ وهى قرية تتكون من الف نسمة آى حوالى مائتى أسرة ، تقدم شخص إلى سيدة كل أسرة من كل خمس أسر اختيرت بأسلوب معين يسمح بتوزيع مكانى لهذه الأسر بحيث تمثل كل الأحياء ، ليخبرها بشعار عن نوع جديد من البن يتكون من ٦ كلمات فى خلال مقابلة الغاية الواضحة منها هى الإقناع بمزايا هذا الإنتاج الجديد . فى صباح اليوم التالى حلقت إحدى الطائرات التى قامت بالقاء ٣٠ألف منشور ومن ثم أغرقت القرية تعلن فيه عن أن كل من يتقدم بهذا الشعار الخاص بهذا الإنتاج الجديد من البن سوف يمنح رطلا من البن الجديد . فى اليوم التالى تقدم العديد من سكان القرية لإبلاغ هذا الشعار حيث كان العالم الأمريكى ينتظر هؤلاء المتقدمين مع أعوانه من الباحثين للقيام بعملية تحليل كاملة من خلال تطبيق استمارة معينة الهدف منها معرفة كيف وصل إلى علم كل منهم ذلك الشعار وتحديد العلاقة المكانية والزمانية بين مصدر الإشاعة ومستقبل الإشاعة فضلا عن الخصائص المرتبطة بالشخص الذى أبلغ بالشعار فى اليوم الأول وخصائص الشخص الذى تلقى هذا الشعار وتقدم به اليوم الثانى(١).

*** حالة رقم ١٤ : الإشاعة فى السلم والحرب : نماذج سياسية وعملية تحليل مضمون الإشاعة .

ظاهرة الإشاعة ليست فقط سياسية . سبق أن رأينا أنها ترتبط بكل ماهو هام يحيط به الغموض . ومن بين النواحى التى تعكس هذه المقومات كل ماله صلة بالنواحى الجنسية بصفة خاصة والعلاقات بين الجنسين بصفة عامة . هذه أيضاً من الممكن أن تكون موضوعا للإشاعة بل وأغلب الإشاعات غير السياسية تدور حول هذه النواحى . وهذا يعيد إلى الذاكرة ما سبق وأبرزناه حول السلوك المركب إذ رأينا أن صور السلوك المركب أساساً نموذجين : السلوك الجنسى والسلوك السياسى . ولعل هذا يدعو للتساؤل : هل هناك علاقة بين حقيقة السلوك من كونه سلوكا مركبا وموضوع الإشاعة من حيث كونها تدور حول عملية استرخاء غير مباشرة من خلال مسالك مرتبطة بحالة الكبت التى تفرضها طبيعة العلاقات الاجتماعية بالنسبة لصور معينة من صور الإشباع الغرائزى ؟ الواقع أنه سؤال لم يطرحه أحد من قبل وهو فى حاجة إلى تعميق(٢) ويكفى أن نتذكر كأساس للافتراض مقومات أربع تفسر نجاح وانتشار الإشاعة :

أولا : أهمية الموضوع الذى يمثل جوهر الإشاعة .

ثانيا : الغموض الذى يرتبط بهذا الموضوع بمعنى نقص الأخبار المتعلق به .

---

(١) انظر قائمة كاملة بالمراجع فى ستوتزل ، م. س. ذ. ، ص ٢٥١ هامش رقم ٣ كذلك يجد القارىء تلخيصاً رياضيا لنتائج دود ص ٢٥٣ ومابعدها .

(٢) قارن أولبورت ، م. س. ذ. ، ص ١٥٥ وما بعدها .

ثالثا : حالة القلق النفسى والرغبة فى التنفيس عن حالة الكبت الدفينة التى تسيطر على المجتمع أو على الطبقة أو على الفئة المستقبلة للإشاعة .

رابعا : التناسق فى خصائص المجتمع بمعنى التشابة فى التفكير والتوافق فى الاستعداد الذهنى وعدم وجود تباينات واضحة اجتماعية لأن الحواجز حتى الطبقية تمنع من انتشار الإشاعة(١) .

كل هذا يفسر لماذا تنتشر الإشاعة بسرعة فى خلال فترات الحرب ويقل انتشارها فى خلال فترات السلم وهذا بدوره يفسر لماذا تلك الإشاعة التى تنتشر فى خلال فترات القلق وعدم الاستقرار أى الحرب أوما فى حكمها تسيطر عليها الأبعاد السياسية وتصير أيضاً وسيلة من وسائل الحرب النفسية .

فلنقدم بعض النماذج قبل أن نتساءل كيف يمكن استخدام الإشاعة كأداة من أدوات القتال النفسى .

(ا) النماذج عديدة لا حصر لها وكما سبق وذكرنا يمكن القول إجمالا أن الإشاعة العامة يغلب عليها الطابع السياسى والإشاعة الخاصة يغلب عليها الطابع الجنسى أوعلى الأقل يستتر خلفها ذلك العامل ، وفى كثير من الأحيان يجتمع كلاهما فى مضمون واحد .

(١) من أقدم الإشاعات فى تاريخنا الوطنى الإشاعة المعروفة باسم حديث الإفك(٢) . كان ذلك فى إحدى غزوات الرسول ومعه السيدة عائشة . فى لحظة معينة اضطرت السيدة عائشة أن تتخلف عن القوات العربية لنقضى بعض حاجاتها ، لم تشعر القافلة بتخلفها ووجدت السيدة عائشة نفسها وحيدة فجلست مكانها تنتظر الغوث. قابلها أحد الصحابة المتخلفين وحملها إلى المدينة . وعندما رآها بعض الصحابة تعود على جمل هذا الصحابى تكلم عنها وأشاع ما ينال من أمانتها . وعندما جاء الخبر إلى مسمع الرسول أصابه الحزن وتغير من ناحية زوجته التى شعرت بدورها بذلك فانتقلت إلى بيت أبيها حتى نزلت سورة النور تبرئها مما نسب إليها ، فى الآية ١٤ نجد حديثا صريحاً عن هذا الموضوع : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... » .

(٢) نموذج آخر استطاع أن يؤدى وظيفة سياسة خطيرة فى تاريخ الهند يرتبط باشاعة انطلقت فى بدايته الثورة الهندية عام ١٨٥٧ . كانت القوات البريطانية تستند فى أغلبها إلى عناصر هندية بحيث كان الهنود يمثلون مالا يقل عن ٩٠٪ من جيش الاحتلال . وكان على قادة الثورة الهندية أن يجدوا أسلوبا لأحداث شلل فى تلك القوات فتوصلوا إلى إطلاق هذه الإشاعة . إذ راحوا يروجون أن الشحم الذى يستخدم أثناء عملية تعمير البندقية هو شحم خنزير أوشحم بقر. وتعمدوا أن يجعلوا مسارات الإشاعة فى خطين : أحدهما يتجه إلى الهنود المسلمين والثانى إلى الهنود غير المسلمين (٣) . قيل للمسلمين بأن هذا الشحم شحم خنزير ومعنى ذلك مخالفة للتعاليم القرآنية . وقيل لغير المسلمين أن هذا شحم بقر ومعنى ذلك مخالفة للتقاليد الهندوسية . لفهم مدى أثر هذه الإشاعة فلنتذكر أن الجنود كانوا يستخدمون بنادق تحشى بالبارود من أعلاها : وكان ذلك يتم بدفع خرطوشة تسقط فى البندقية على أنه كان يجب أن تنزع الخرطوشة من بعض الورق المشحم وكان يتم ذلك بالفم أى باستخدام أسنان الجندى . ومعنى ذلك تذوق الشحم فى كل مرة يقوم فيها الجندى باعداد البندقية للقتال . وإزاء ذلك حدثت حركة تمرد واسعة من جانب الهنود حاول أن يعالجها القادة الإنجليز بأن يقوموا بأنفسهم بتشحيم الخرطوم بالزبد النباتى وأمام الجند الهنود . ولكن هذه العملية ترتبت عليها اضطرابات

---

(١) صلاح نصر ، م. س. ذ. ، ص ٣١٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٦ هامش رقم ١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

ضخمة فضلا عن تأخير واضح فى مواجهة الثوار الأمر الذى أدى إلى هزيمة فى بعض الاحيان ساحقة للقوات البريطانية .

(٣) نستطيع أن نسوق نموذجا ثالثا يرتبط بفترة الصراع بين الحزب النازى والجيش الألمانى عقب وصول هتلر إلى الحكم . فقد كان يتزعم الطبقة القيادية البروسية ذات التقاليد الصارمة الجنرال فون فريتشه وفى خلال الاصطدام مع الجستابو وجد هملر ضرورة أن يخلق إشاعة حول القائد البروسى (١) . أخذت العملية الصورة التالية : فى لحظة معينة قدم الجستابو إلى هتلر أوراقاً ووثائق تثبت أن القائد الألمانى كان يخضع لعملية تهديد منظمة من جانب مجرم خطير يدعى شميديت وأن ذلك كان بقصد الحصول على سكوت هذا الأخير عن فضيحة معينة . وتساءل مدير الجستابو عما يجب عليه أن يفعله . فطلب منه أن يتحرى عن حقيقة تلك الفضيحة . فى لحظة لاحقة تقدمت التقارير التى تفيد بأن فريتشه كانت له علاقات جنسية غير طبيعية وأن المجرم المذكور كان يستخدم معرفته بتلك الحقيقة لتهديد القائد الألمانى . واقعتان ساندت كلا منهما بطريق أو بآخر التهمة المنسوبة إلى القائد البروسى : فهو من جانب أعزب لم يكن ميالا للنساء وعاش حياته كلها بلا زواج ، ومن جانب آخر كان هناك فعلا شخص من أحد الضباط باسم فريتشه إتهم فعلا بهذه التهمة وثبتت عليه فى أكثر من واقعة . ولاستكمال الإطار انطلقت بين كبار القادة البروسيين الأحاديث الهامسة عن المغامرات الجنسية الشاذة للقادة البروسيين . وزاد من ذلك أنه فى خلال تلك الفترة كانت قد حدثت وقائع أخرى مرتبطة ببعض الفضائح المخالفة للتقاليد الصريحة الجرمانية : زيجات مع سيدات لهن ماضى يدعو للتساؤل ، حوادث إعتداء على بعض الفتيات من الأسر ذوات التقاليد ثم تركهن دون زواج . لم يستطع هتلر (٢) إزاء تلك الإشاعة التى أحكم إعدادها سوى أن يطرد القائد المذكور ويحيله إلى التقاعد . وبعض المؤرخين لا يتردد فى أن يقرر بأن هذه الواقعة كانت بداية الهزيمة الألمانية فى الحرب العالمية الثانية .

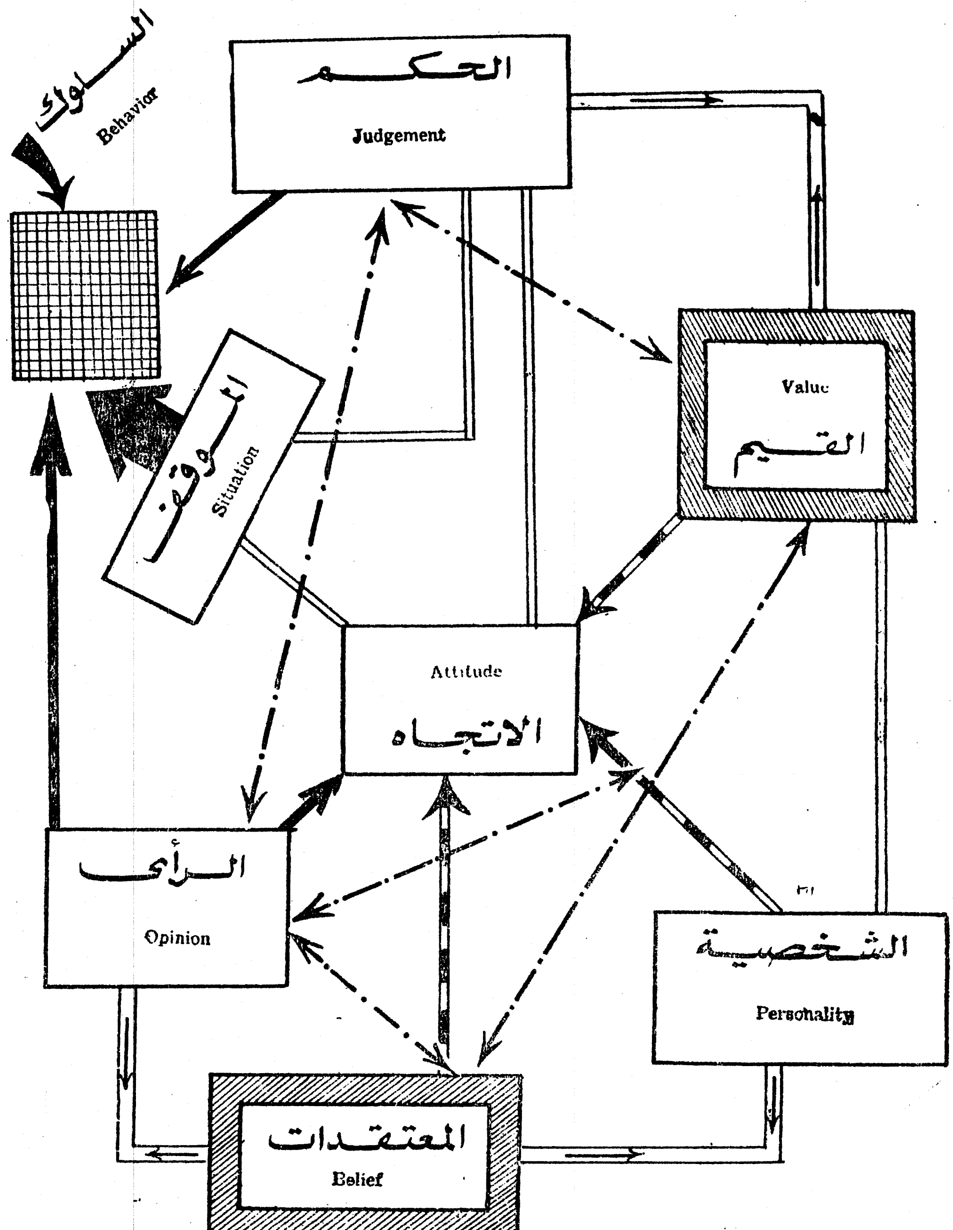
(٤) نموذج رابع نستطيع أن نتكشفه من خلال القصص التى كانت تحاك حول الموقف الداخلى فى ألمانيا وتطلق بأساليب مختلفة لتصل إلى المجتمع الألمانى . هذه القصة أوردها لنا أولبورت نقلا عن إحدى الجرائد الأمريكية . «كانت سيدة شابة تمضى فى طريق عودتها إلى المنزل من المكتب الذى تعمل به حين ارتطم بها فجأة رجل أعمى يحاول عبور الطريق . ملابسه قديمة يمسك عصى فى يده يتحسس بها طريقه ويحمل على ذراعه ذلك الشريط الأصفر الذى يحمله كل كفيف ألمانى ، إعتذر الرجل للسيدة عن اصطدامه بها والتى أجابته عما إذا كانت تستطيع أن تقدم له المعونة : أجابها بأن قدم لها خطابا كان فى يده عما إذا كانت تستطيع أن تقوده إلى العنوان المسطر على ذلك الخطاب ، وكان الخطاب يحمل عنوان بعيد عن المنطقة التى حدث فيها ذلك الالتقاء وعندما أبلغته السيدة بذلك ظهر على وجهه الكثير من الألم وإزاء ذلك أعربت له السيدة عن إستعدادها بأن تقوم بتوصيل الخطاب فهو يقع فى طريقها إلى منزلها . وأخذت منه الخطاب وافترقا على ذلك ومضى كل منهما فى طريقه . وبعد عدة دقائق وعقب أن ابتعدت السيدة عن مكان اللقاء حانت منها نظرة إلى الخلف فرأت الرجل

---

(١) نفس المرجع ص ٣٦١ ومابعدها .

(٢) قارن بوجه خاص :
NORD, l'intoxication : arme absolue de la guerre subversive, 1971, p. 35.

شكل رقم (١٦)



القوى النفسية وتفاعلاتها الذاتية
من حيث علاقتها بالرأى والسلوك

يسير بسرعة وسهولة وقد وضع عصاه تحت إبطه . ساورها الشك ولجأت إلى البوليس . وعندما انتقل البوليس إلى المسكن المدون عنوانه على الخطاب عثر المحققون على كميات هائلة من اللحم التى أوضح الكشف الطبى عن أنه لحم بشرى(١) . ووجد فى داخل الخطاب العبارة التالية : « هذا هو الطرد الأخير الذى أبعث به اليوم » . ولو حاولنا أن نحلل هذه القصة لا ستطعنا أن نكشف أسباب انتشارها :

أولا : فالقصة انتشرت فى نهاية الحرب العالمية الثانية وفى أعقاب الا ستسلام أى فى فترة الاحتلال . هذه الفترة تمتاز بالتدهور الشديد الخلقى والا قتصادى . فالكوارث التى قدم بها النظام النازى فى صورة تعذيبات وحشية ثم الكوارث التى ارتبطت بالحرب العالمية الثانية من غارات مدمرة ومجاعات ثم الهزيمة ثم ما أعقب ذلك من تدهور إجتماعى وخلقى وإعتداءات اجتماعية لا مثيل لها فى تاريخ ألمانيا يكون الخلفية العامة للإطار الذى تقبل الإشاعة .

ثانيا : من جانب آخر موضوع الإشاعة هو مسألة الطعام وأهل برلين معروفين بحبهم للطعام واهتمامهم بكل ما يتعلق بهذا الموضوع . تزداد خطورته خلا ل هذه الفترة التى انقطعت فيها وسائل الا تصال بين المدينة وخارجها أى مصادر الحصول على المواد الغذائية .

ثالثا : أضف إلى ذلك أنه كانت هناك سابقة تاريخية تعود إلى عام ١٩٢٥ حكم فيها بالإعدام على من سمى « وحش هانوفر» الذى قتل عدة عشرات من المراهقين الآدميين وقام ببيع قطع مختارة من لحمهم للجمهور(٢) .

(ب) وهذا يقود إلى إثارة السؤال التالى : كيف نستطيع أن نستغل الإشاعة كسلاح ضد العدو؟ سبق أن رأينا أن الإشاعة تنتشر فى فترات الحروب والقتال العسكرى وقد قام العالم الأمريكى جوردون ببحث ميدانى بهذا الخصوص تناول فيه تحليل ١٠٠٠ إشاعة انتشرت فى المجتمع الأمريكى خلال عام ١٩٥٢ وانتهى من ذلك التحليل إلى اكتشاف أن ٦٦٪ من الإشاعات تدور حول إبراز العداوة فى مواجهة خصوم النظام السياسى والا جتماعى الأمريكى ولم تقتصر هذه العداوة على أهل ألمانيا واليابان بل تعدت ذلك إلى الروس والسود واليهود . ٢٥٪ كان يعكس حالة الخوف والقلق أما الرغبات فلم يعكسها سوى ٢٪ مقابل ٧٪ تعبر عن مضمون مختلف عن تلك النماذج الثلاث الأولى . وهكذا نجد أن العداوة احتلت ثلثى أهم ألف إشاعة انتشرت فى المجتمع الأمريكى(٣) .

---

(١) أورد هذه القصة وحللها أولبورت ، م. س. ذ ، ص ٢٢٠ . وينقل على لسان المراسل الواقعة التالية « هذه القصة خرافة صرفة . ومع ذلك فجميع من أعرفهم من الألمان فى برلين ، فضلا عن العديد من الأشخاص الذين استجوبتهم قد سمعوها . ولقد صدقها منهم نحو ٩٥٪ . وفى غير قليل من الحالا ت كان الشخص الذى أناقش القصة معه يلقى إلى بهذه الإيماءة ، التى تنطوى فى مغزاها على دقة المعلومات والاعتداد بالرأى ، مؤكداً أنه يعرف شخصيا هذه السيدة الشابة ، التى نجت بأعجوبة من أن تباع بالرطل . كانت ممتلئة الجسم ، هكذا صورتها إلى أوصاف الناس ، ممتلئة ولكنها رائعة الجمال » . ونستطيع أن نلاحظ أن هذا الشق الثانى من الإشاعة الوارد على لسان الصحفى هوتطبيق لما أسميناه قانون التضخيم أو المبالغة . انظر نفس المرجع ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) قارن تفاصيل أخرى فى نفس المرجع السابق الإشارة إليه ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٣) قارن التفاصيل فى جوردون ، م. س. ذ ، ص ٥٥

هذه الحقيقة تفسر أهمية سلاح الإشاعة فى خلال الصراع العسكرى أوما فى حكمه . سوف نعرض فيما بعد لكيفية مواجهة الإشاعة ومقاومتها ولكن علينا أيضاً أن نفكر فى كيفية استخدامها ضد عدونا . وقد سبق أن رأينا كيف أن النظام النازى أقام معملا خصيصا لتحقيق هذا الهدف فى وزارة الحرب الألمانية وكيف أن تفاصيل هذا السلاح واستخداماته لا فقط فى داخل ألمانيا ولا فقط بالنسبة لأعداء ألمانيا المباشرين بل وكذلك بالنسبة للمناطق المختلفة التى دخلت فى نطاق النفوذ النازى وأصحت جزءاً منه من حيث التنظيم الإدارى لا تزال موضع الغموض . ولكننا نعلم على وجه اليقين أن الحرب النفسية كانت مصدراً لخلق جيش ضخم وصل إلى حوالى المليون من الروس دخلوا فى قتال عنيف مع النظام الشيوعى. والسلاح الأساسى للحرب النفسية فى خلال تلك الفترة كان هو سلاح الإشاعة(١) . فلماذا هذه الناحية لم تكن حتى هذه اللحظة موضع عناية من جانب المسئولين لدينا ؟

فلنضع القواعد العامة :

القاعدة الأولى تتعلق بشروط إمكانية نجاح الإشاعة : أولا : فهى يجب أن تكون قابلة للتصديق بمعنى أننا عندما نطلق إشاعة مختلقة فلا يجوز أن تتذكر نصيحة جوبلز بأنه كلما كبرت الأكذوبة زاد عدد المصدقين عدد المصدقين لها (٢) . الإشاعة كلما تضمنت مضمونا معتدلا كلما كانت أكثر صلاحية للانتشار.

ثانيا : ان الإشاعة يجب أن تتضمن واقعة حقيقية أوعلى الأقل جزء حقيقى من واقعة . الواقعة تصير بالنسبة للإشاعة المرتكز الذى ينبع منه التصديق.

ثالثا : الإشاعة يجب أن يعبر مضمونها عن الخصائص الاجتماعية التى يعكسها المجتمع المتجهة إليه الإشاعة . وهذا يقودنا إلى أن نربط بين ظاهرة الإشاعة من جانب وظاهرة الطابع القومى من جانب آخر، فالإشاعة التى تنجح فى مجتمع كالمجتمع الفرنسى لا يمكن أن تنجح فى مجتمع كالمجتمع الأمريكى أو الألمانى (٣) .

---

(١) ولعل هذا أحد الأسباب التى دعت نورد أن يسمى هذه الحركة بعملية التسميم السياسى . قارن نورد ، م . س. ذ . ، ص ٤٠٣ وما بعدها .

(٢) مخالف لهذا المعنى ما أورده أولبورت ، م. س.ذ. ، ص ٨٢ وما بعدها .

(٣) ولعل هذا يدعو للتساؤل عن حقيقة العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى الذى تفرضه ظاهرة الإشاعة . فاختلاق الإشاعة لابد وأن يعكس خصائص السلوك الفردى والشخصية الفردية . ولكن انتشار لإشاعة الذى نستطيع أن نعبر عنه بلغة أخرى أكثر دقة وهى اصطلاح شدة الإشاعة هوظاهرة جماعية ، هو الذى يثير ظاهرة الطابع القومى فى أوسع معانيها . رغم ذلك فإن هذا لا يعنى أن عملية إختلاق الإشاعة بدورها لا تنبع من الطابع القومى أو من خصائصه وبصفة خاصة عندما تأخذ صورة الاختلاق المزروع أى الاختلاق الذى يأتى لا من فرد أومن فئة من داخل المجتمع وإنما من مجتمع أجنبى معادى كأداة من أدوات الحرب النفسية . كذلك انتشار الإشاعة بدوره يتحدد بالخصائص الفردية للمواطن ولا يقتصر الأمر على مجرد وصف العملية بأنها تعبير عن السلوك الجماعى . والخلاصة أن الإشاعة ذات شقين : اختلاق وانتشار. الأولى تتضمن عملية تصنيع لخبر معين والثانية تعنى رحلة لمضمون معين . وفى كلا الحالين فهناك علاقة وثيقة بين الخصائص الذاتية أوالحالة الانفعالية للفرد والأطار الاجتماعى الذى تنتشر فى داخله الإشاعة . وهكذا فإن السلوك الفردى يتعانق مع السلوك الجماعى فى جميع مراحل الإشاعة . وخير ما يعبر عن هذه العلاقة تعريف أولبورت لقانون الإشاعة بأنها : « إن الإشاعة تنطلق تمضى فى رحلتها فى وسط اجتماعى =

رابعا : كذلك فإن الإشاعة يجب عند اطلاقها أن يسبقها تحليل للرأى العام الأجنبى الذى نتجه إليه بالحرب النفسية ولو بطريق تقريبى بحيث نستطيع أن نتلمس وجود رأى عام باطن غير قادر عن التعبير عن نفسه أى فى حالة من حالات الكبت حيث تسيطر عوامل نفسية متناقضة بين الخوف والعداوة والغموض ومن ثم يتم تشكيل مضمون الإشاعة بحيث تتجاوب مع تلك الخصائص .

وهنا يجب أن نتذكر القاعدة الثانية المرتبطة بشروط سريان الإشاعة فشدة الإشاعة. نعلم أنها تخضع لمعادلة جبرية أساسها :

شدة الإشاعة = الأهمية × الغموض

وانطلاقا من هذه المعادلة وعلى ضوء تحليل خصائص الرأى العام الباطن نستطيع أن نجعل عملية تشكيل الإشاعة من حيث مضمونها بحيث نضمن أسرع وأوسع انتشار لها .

ولعل واقعة معينة ذكرها لنا أولبورت عن إشاعة مزروعة عن عمد لفقها بعض المراسلين فى واشنطن فى عام ١٩٤٥ تفصح بوضوح عن صحة هذه الملاحظة(١) . فقبل الاستسلام الرسمى لليابان بليلتين قام أحد المراسلين بواشنطن بالاتصال بأحد ضباط الأسطول تليفونيا ممن كانوا يوصفوا بحب الثرثرة وكثرة العلاقات ليبلغهم بالقصة التالية . ان الإمبراطور هيروهيتو قد قام فى حراسة سرب من الطائرات اليابانية إلى جوام إحدى القواعد الأمريكية ليلتقى مع قائد الجيش الأمريكى ماك آرثر. ومن هناك برفقة أميرال البحر الأمريكى إستقل الإمبراطور اليابانى طائرة أمريكية فى حراسة فرقة من قاذفات القنابل إلى واشنطن وذلك ليوقع شروط الاستسلام أمام الرئيس ترومان . وأضاف المراسل إلى ذلك «أن المسئولين فى الحكومة الأمريكية جالسين فى إنتظار وصول الإمبراطور اليابانى وحاشيته» . هذه الإشاعة استطاعت أن تصل إلى حد الانتشار الذى جعل أغلب إن لم يكن جميع المسئولين الأمريكيين فى القوات البحرية وقد أضحى مقتنعاً بصحة مضمونها وقد تم ذلك فى خلال فقط ٦ ساعات .

وهنا يجب أن نلاحظ أيضاً أن الإشاعة يمكن أن تطلق إلى مجتمع العدو من خلال أسلوب من أربعة :

١ – خبر أوإعلام . والخبر أوالأعلام بطبيعة الحال يجب أن يتم بشكل مدسوس فى صحيفة أجنبية أومن خلال إتصال أجنبى ولنتذكر بهذا الخصوص الواقعة المشهورة المتعلقة باطلاق إشاعة عن تدمير محطة برلين للسكة الحديد حيث أطلق الخبر من خلال إرسال بطاقات مكشوفة إلى بعض أصدقاء الألمان فى سويسرا والسويد تتضمن ذكر تلك الواقعة(٢) .

٢ – الفكاهة والنكتة ويحدثنا بعض المسئولين عن استخدامنا لهذا الأسلوب خلال حرب السويس

= متجانس ، بفضل الدوافع القوية عند الأشخاص القائمين بنقلها . ويتطلب التأثير القوى لهذه الدوافع أن تتطلع الإشاعة للقيام بدور تبرير لهذه الدوافع : بمعنى أنها تفسر ، وتبرر ، وتصبغ دلالة على الدافع الانفعالى القائم . وأحيانا ماتكون العلاقة بين الدافع والإشاعة من القوة بحيث نستطيع أن نصف الإشاعة ببساطة على أنها إسقاط لحالة ذاتية وانفعالية معا »

انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٦٤ ومابعدها .

(١) نفس المصدر ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) صلاح نصر ، م.س. ذ. ، ص ٣٦٦ ومابعدها .

عام ١٩٥٦(١) . ورغم أن من ينقل إلينا تلك الدعوى لم يقدم أى نماذج إلا أن الأمر الواضح الذى يجب أن نسلم به هوأن اليهودى على وجه الخصوص كان طيلة تاريخه موضع الفكاهات بحيث أننا نستطيع القيام بعملية تجميع تسمح بتقديم تراث ضخم بهذا الخصوص .

٣ – الأسطورة . بخصوص الأسطورة تنطبق نفس الملاحظة السابقة .

٤ – بل والأغنية قابلة لأن تكون بدورها مصدراً لخلق الإشاعة . من بين النماذج المشهورة بهذا الخصوص انتشرت فى عام ١٩٤٤ الأغنية الآتية والتى أحدثت أثراً عنيفاً فى خلق رأى عام معادلروزفلت. تقول الأغنية وهى تتجه بالخطاب إلى زوجة الرئيس الأمريكى : « عليكى أن تقبلى الزنوج وعلى أن أقبل اليهود وبذلك نبقى فى البيت الأبيض حسبما نريد » .

حـ – أحد التساؤلات التى يجب أن نجيب عليها بإيجاز ودون تفصيل ولو لإبراز بعض الملامح العامة يدور حول تحديد أبعاد الاستكشاف التى يتعين على من يتولى خلق إشاعة أو مقاومة إشاعة أن يجيب عليها

---

(١) يخبرنا محمد عبد القادر حاتم الذى كان مسئولا عن الدعاية المصرية خلال تلك الفترة باستخدام النكت كسلاح ضد الأعداء من جانب جهاز الدعاية المصرى وبصفة خاصة «ضد إيدن وجى موليه وبن جوريون وخصوصاً بن جوريون الذى كان موضع سخرية ونكت كثيرة » . ولكنه لم يقدم أى نماذج بهذا الخصوص . ومدلول هذه العبارة أن هذه النكت صدرت إما إلى المجتمع المصرى أو إلى المجتمع الأجنبى . والواقع الذى لاشك فيه أن إطلاق النكتة كأداة من أدوات الإشاعة لم تحدث له دراسة جدية فى مصر حتى الآن وهو أمر يدعو للتساؤل والاستفهام . كذلك يضيف الكاتب « وقد حاولت الدعاية المعادية نشر النكت نظراً لأن المصريين يستملحونها. ولكن سرعان ما تصدى جهاز الدعاية المصرية لهذه النكت وكشفها وأرجعها إلى أصلها وهى الجهات الأجنبية المعادية . وهكذا أخذ الناس يرددون النكت ليس على أساس أنها دعاية يؤمنون بها بل على أساس أنها للضحك والتسلية وبذلك ضاع مفعولها » فهل يعنى ذلك أن مجرد ذكر أن النكتة مصدرها أجنبى يفقدها فاعليتها ؟ الواقع أن هذا تبسيط مبالغ فيه وكقاعدة عامة يجب أن تسيطر على العمل الدعائى والتعامل النفسى قاعدة ذات شقين : أولها أن كل حركة إيجابية يجب أن تقابلها حركة إيجابية بنفس الطبيعة ونفس القوة ونفس المستوى فدعاية قوية يجب أن تقابلها دعاية أخرى قوية ، وحرب نفسية يجب أن تقابلها حرب نفسية مقابلة ونكتة ناجحة يجب أن تقابلها نكتة أخرى لا يجب أن تقل عنها نجاحا . إن التعامل النفسى نوع من القتال ولا يمكن أن تقف القوة الدافعة المقاتلة إلا بقوة أخرى مماثلة لها . والشق الثانى وهو أنه حيث يتعذر ذلك فلا بديل سوى الصمت . وهنا يبرز بشكل واضح الفارق بين الصراع النفسى والصراع الجسدى. أن الصراع النفسى لا بد وأن ينتهى بالتحلل أو على الأقل احتمال التحلل حيث لا وجود لمواجهة فعالة نسبته أكبر من المواجهة الضعيفة المترددة المتذبذبة. فلا يوجد أسوأ من دعاية فاشلة فى مواجهة دعاية ناجحة وعلماء الدعاية الذين قدر لهم أن يتابعوا تاريخ الحركة الصهيونية فى المجتمع الأمريكى يعلمون أن أحد أسباب نجاح تلك الدعاية المنقطع النظير يعود إلى الإخفاق الواضح لخصومهم . حتى أن البعض يتساءل ألم يكن ذلك الإخفاق مخطط من جانب دعاة الصهيونية أنفسهم ؟ وهذا يقودنا إلى الملاحظة الأخيرة بهذا الخصوص وهى أن مقاومة إشاعة إن لم يكن بإيضاح الحقيقة فليس من هناك سلاح سوى الصمت وعدم ترديد الإشاعة . انظر صلاح نصر ، م. س. ذ ، ص ٣٩٩ وهو أمر يدعو للتساؤل عن مدى فاعلية تلك البيانات التى تصدر من آن لآخر بخصوص تكذيب ما يسمى بالإشاعات الصادرة عن محطة الإذاعة البريطانية . قارن :

HALPERIN, The political world American Zionism, 1961, p. 186.

وانظر كذلك محمد عبد القادر حاتم ، الإعلام والدعاية ، ١٩٧٢ ، ص ٣٨٦ .

وهو فى طريقة إلى معالجتها . وقد قام أولبورت بوضع مرشد يتكون من ٦٠ سؤالا إستطاع أن يستخلصه من تحليل عدة إشاعات مزروعة أو حقيقية جديربأن يكون نقطة البداية. على أننا نستطيع أن نستخلص من هذه التساؤلات(١) الستين أهم عشرة تتركز حولها وتنبع منها التساؤلات الأخرى ، نذكرها بالترتيب التالى :

١ – هل القضية المطروحة تنال التصديق بحيث يمكن أن تستخدم للإشارة إلى أحد الموضوعات السائدة .

٢ – هل تحتوى القصة على عنصرى الغموض والأهمية .

٣ – هل تقبل القصة يفسر نوعا من التوتر الداخلى ؟ وما هى طبيعة هذا التوتر : قلق ، عداء ، رغبة، شعور بالذنب ، حب استطلاع ؟

٤ – هل رواية الإشاعة تسمح بعملية تخفيف نفسية بمعنى إزالة لحالة الكبت المتعلقة بذلك القلق ؟

٥ – ماهو الطريق الذى سارت فيه الإشاعة بمعنى أين ظهرت الإشاعة وكيف انتقلت مكانا وفى أى الأوساط سرت تلك الإشاعة من حيث الخصائص والمقومات الاجتماعية ؟

٦ – هل زادت حدة الإشاعة نتيجة تداولها ؟ وماهى العناصر الجديدة التى أضيفت أو القديمة التى اختفت خلال تداولها ؟

٧ – هل تحتفظ الإشاعة فى إصرار بمستهجنات لفظية أو بأشكال تعبيرية بمعنى هل هناك استيعاب بالنسبة للاهتمام النفسى الخاص بالقيادة السياسية أو الطبقة الاجتماعية أو الجنسى أو غير ذلك ؟

٨ – هل تنتقل الإشاعة على هيئة سلسلة من الإشاعات أو بعبارة أخرى هل تتفرع أم أنها تظل تتركز فى إشاعة واحدة ؟ وماهو جمهور الإشاعات التابعة ؟

٩ – هل يمكن تصنيف الإشاعة بمعنى أن تحدد خصائصها بوضوح على أنها إشاعة خوف أو إشاعة عداوة أو إشاعة رغبة ؟ ويدخل فى هذا الاستفهام تصنيفها من ناحية أخرى على أنها إشاعة زاحفة أم أنها مندفعة أم غاطسة ؟ بعبارة أخرى هل يمكن تحديد ملامح الإشاعة من حيث تضاريسها ومقوماتها كرسالة بغض النظر عن مضمون الرسالة وما هى تلك التضاريس ؟

(١٠) ما هى علاقة الإشاعة(٢) بأدوات الإعلام الجماهيرية ؟

§ ٥٠ – قوانين الاشاعة :

هذه الأبحاث العديدة سمحت لنا بأن نكتشف مجموعة القوانين التى تخضع لها الإشاعة فى تنقلاتها المتتابعة . ويمكن القول بصفة عامة أن هناك قوانين ثلاثة تحكم

---

(١) أورده أولبورت ، م. س. ذ ، ص ٢٣٩ وما بعدها ونقله عنه صلاح نصر ، م. س. ذ ، ص ٣٨٦ وما بعدها .

(٢) ظاهرة الإشاعة ترتبط أيضاً بالظاهرة الجماهيرية بل ويمكن القول إجمالا أن أهم الدراسات التى أجريت على الظاهرة ارتبطت ببعض حالات التوتر الجماهيرى . انظر لندزى ، م. س. ذ ، المطول ، الجزء الرابع ، ص ٥٣٨ ومابعدها .

سريان الإشاعة وعملية تطورها ابتداء من مصدر الإشاعة حتى مصبها[1] .

أولا: قانون التغيير والتشويه : ويقصد بذلك أن الإشاعة فى أول مراحل انتقالها تفقد العناصر الجانبية أى العناصر الفرعية . وبمعنى آخر أن الإشاعة لاتعدو أن تكون رواية عن واقعة ومن ثم فهذه الواقعة تمثل مركز الثقل فى الإشاعة . الخصائص الأصيلة المعبرة عن حالة الكبت تصبر الكواكب الأصيلة التى تدور حولها جميع العناصر الفرعية الأخرى . الإشاعة فى خلال تنقلاتها الأولى تفقد جزءاً من مضمونها يدور حول تلك العناصر الفرعية وقد أثبتت التجارب التى سبق أن ذكرناها أنها تفقد فى الانتقالات الثلاثة الأولى مالايقل عن ٥٠٪ من مجموع مضمون الإشاعة : الانتقال الأول يسجل فقد ٦٧٪ من المضمون ، الانتقال الثانى ٥٤٪ من الباقى ثم الثالث ٣٠٪ مما يتبقى من الثانى . وعقب ذلك يقل هذا التفقير تدريجيا حتى ينعدم .

ثانيا : ما يسمى بقانون التضخيم أو المبالغة : الإشاعة هى رسالة،هذه الرسالة تتركز حول واقعة معينة أوصفة معينة . من خلال التنقلات المتتابعة فى نفس اللحظة التى تفقد فيها الرسالة جزءاً من ذلك المضمون الذى هو فرعى وتابع تكتسب الرسالة عناصر جديدة مختلقة وكاذبة تتضمن تضخيما حول تلك الواقعة أو الصفة الكاذبة. خلال سريان الإشاعة يبدأ جوهر الإشاعة يكتسب عناصر جديدة تحمل الواقعة أو الصفة مايزيد من تأكيد ذلك الجوهر الذى يسعى المواطن أو تسعى الجماعة للتعبير عنه دون أن تستطيع ذلك بأسلوب صريح ومباشرأى بعبارة أخرى تصبر عملية الاختلاق للتعبير عن حالة الكبت النفسية للمرسل والمستقبل فى آن واحد : للمرسل باختلاقها وللمستقبل يتقبلها ونقلها[2] .

---

(١) صياغة قوانين الإشاعة بهذا الوضع تستمد مصادرها المباشرة من الأبحاث السابق ذكرها إلى جانب بعض الأبحاث الميدانية التى قمنا بتنفيذها خلال عامى ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ . انظر ستوتزيل ،م. س.ذ ، ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) قانون التضخيم أو المبالغة فى الواقع يرتبط بقانون التنسيق بحيث يمكن القول أن كلا هما يتفاعل مع الآخر . بعبارة أدق أن الثانى أى التنسيق هو أحد عناصر قانون التضخيم أو المبالغة . ومعنى ذلك أن المبالغة تسير فى اتجاهين : الاختلاق من جانب وتأييد الاختلاق باطلاق بعض الصفات التى تحمل على الاعتقاد بتقبل ذلك الاختلاق . فى الحادث السابق ذكره الخاص بالإشاعة التى أطلقت فى المجتمع الألمانى حول قتل الآدميين لمواجهة حالة المجاعة العنيفة فإن ماورواه المراسل الصحفى هو نموذج يؤكد هذه الملاحظة . فقول الشخص الذى ينقل الإشاعة بأن السيدة الشابه كانت ممتلئة الجسم هونوع من التضخيم والمبالغة تستتر خلفه فكرة تأكيد الاهتمام بتلك السيدة بالذات لأنها قادرة على أن تقدم أجزاء طيبة من اللحم . ولكن إضافة الراوى بأنه كان يعرف شخصيا تلك السيدة الشابة هو نوع من التضخيم ولكنه فى نفس الوقت أداة للتنسيق فى مفردات منطق الإشاعة .

ثالثا : قانون التنسيق: الإشاعة فى أغلب صورها تتضمن قسطا من الحقيقة وقسطا من الكذب . وإذا كانت الحقيقة ليست فى حاجة إلى إضافات أو إلى منطق خاص لأن منطقها الذاتى يعلن عن وجودها فان الكذب ، ككل اختلاق فى حاجة إلى منطق خاص مزدوج : منطق ليؤكد الكذب ويدافع عنه ومنطق ليخلق التناسق بين الكذب والحقيقة . كل هذا يفرض عملية قد تأخذ أسلوبا لاشعوريا ولكنها ضرورية ودائمة تتجه خلال نقل الإشاعة إلى خلق نوع معين من التناسق بين مختلف عناصر الإشاعة أى بين ذلك القسط من الحقيقة وذلك القسط من الكذب فاذا عقب الغاء جزء من عناصر الواقعة أو خصائصها وإضافة جزء جديد يتضمن تشوبها فى الحقيقة أو تضخيما لبعض خصائصها فان السلوك الجماعى وبطريقة لاشعورية ومتدرجة يتجه إلى خلق عملية اقناع واقتناع بطريق التسوية بين مختلف عناصر الرسالة الإشاعية أو التنسيق أو التأكيد على بعض مفردات الرسالة .

فلنقدم مثلا :

فى مجتمع معين صغير حيث توجد فتاة جميلة موضع الحسد والكراهية من فتيات الحى. رآها شخص يتمناها تسير مع شاب فى الطريق العام . اختلق أن هذه الفتاة لها علاقة مريبة بشخص آخر وبدأت هذه الإشاعة تنتشر فى أول أمرها تأخذ صورة الحذف والإضافة المرتبطة بجوهر الإشاعة ألا وهو الكراهية لتلك الفتاة من جانب الفتيات الأخريات والحقد عليها من جانب الشاب الذى يتمناها وهكذا تضاف وقائع مثلا كأن يقال أنها كانت تسير متأبطة ذراع ذلك الشاب أو أنه قبلها فى الطريق العام أو أنها كانت تنظر إليه بحب أو أنها كانت تداعبه من آن لآخر. وقد يصل هذا الاختلاق إلى حد التأكيد من جانب صاحب الإشاعة بأنه رأى بنفسه أو أنه سمع عبارات الغزل بنفسه . وهو لخلق التناسق بين مايدعيه وبين الواقعة الحقيقية وهى مجرد تصادف وجود الفتاة إلى جوار الشاب فى الطريق العام قد يلجأ إلى عملية التنسيق بين المختلق والحقيقة بأن يضيف بعض وقائع كان يقول مثلا بأنه حيا الفتاة أو أنه نظر اليها ورأته أو أنه رآها وهى تضع يدها فى ذراع الفتى وتسحبه إلى طريق جانبى عندما صادفت الآخرين وتعرفوا عليها[1] .

---

(١) مثل هذه الصورة من الإشاعات تنتشر بطبيعة الحال حيث يوجد التزمت فى العلاقات الجنسية وهذا يعيد مرة أخرى تأكيد ماقدمنا به من ارتباط ظاهرة الإشاعة بصفة التركيب فى السلوك . على أن إختلاق الإشاعات الجنسية قد يوجد أيضاً فى المجتمع الذى يرفض التزمت ويقبل التحرر فى التعبيرات العاطفية وذلك بالنسبة للفرد الذى تسيطر عليه فكرة الجنس . سواء كان ذلك لعدم قدرته الطبيعية أو لا خفاقه المتتالى أو لعدم=

§ ٥١ – الاشاعة والحرب النفسية :

الإشاعة قديمة قدم الإنسان . كذلك فالإشاعة فى جميع العصور كأسلوب من أساليب القتال والحرب النفسية تطلق لتحطيم الروح المعنوية ولإشاعة نوع من القلق أو الخوف قبل القتال أو أثناء القتال وخير من برع فى هذه الناحية هو النظام النازى الذى وصل إلى حد خلق جهاز متخصص فى وزارة الحرب الألمانية لخلق وإطلاق الإشاعات(١) : ونستطيع أن نميز فى أهداف الإشاعة من هذه الناحية كأسلوب من أساليب الحرب النفسية بين تطبيقات ثلاث :

أولا : تفتيت الروح المعنوية ومن أمثلة ذلك مختلف الإشاعات التى انطلقت أثناء تدمير فرنسا فى خلال الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية . على أن الإشاعة أيضاً بهذا الخصوص قد تنقلب فاذا بها مصدر لتقوية الحالة النفسية وتكتيل القوى الشعورية واللاشعورية للمجتمع موضع الهجوم (٢) .

ثانيا : كذلك من الممكن أن نستخدم الإشاعة كوسيلة لتغطية الحقيقة وذلك بأن يطلق جزء من الحقيقة ويتعمد مصدر خلق الإشاعة أن يخفى الجزء الآخر . ثم ينتظر رد الفعل وهنا فى عالم أضحت فيه عملية الاتصال والإعلام أساسية فان الطرف الآخر يجد نفسه مضطراً إلى الإعلان عن الحقيقة وهكذا يصل العدو إلى ذلك القسط الذى يجهله. نموذج لذلك فى الحرب العالمية الثانية حدث من جانب اليابانيين . ذلك أنه عقب هجوم بيرل هاربور لم يكن الجيش اليابانى على علم بحقيقة الخسائر التى أصابت الجيش الأمريكى فى حركة الهجوم البحرية. أطلق اليابانيون اشاعات عن حقيقة الخسائر الأمريكية مبالغ فيها وساعد على ذلك ضخامة الصدمة وقوة المفاجأة. اضطرت إزاء ذلك الحكومة الأمريكية لإعادة الثقة فى المجتمع السياسى أن تجيب على ذلك بنشر حقيقة الخسائر وتفصيلاتها

=اعترافه بهذه الحقيقة صراحة ولو بينه وبين نفسه ومن ثم فهو يندفع بمناسبة وبدون مناسبة فى رواية الفكاهات الجنسية أو الحديث عن الفضائح الجنسية ولذلك فهو أصلح الأفراد لخلق الإشاعات الجنسية . إنها بهذا الشكل تصير وسيلة من وسائل التنفيس عن حالة الكبت اللاشعورية . بطبيعة الحال هو صالح للاختلاق ولكنه لا يعنى قدرة الإشاعة على الانتشار لأن انتشارها يرتبط بمتغيرات أخرى سبق أن أبرزناها فى الدراسة انظر يونج ، م. س. ذ ، ص ٢٩١ .

(١) انظر التفاصيل فى ميجريه ، م. س . ذ ، ص ٥٦ – ٥٨

(٢) من أمثلة الإشاعات التى تعبر عن هذه الوظيفة تلك التى انطلقت فى عام ١٨٥٦ أثناء الثورة الهندية والتى سبق وأن أوردناها تفصيلا ، انظر مايصفه بعض العلماء بالإشاعات الهجومية فى صلاح نصر م. س. ذ . ص ٣٣١

وهو الأمر الذى كانت القيادة اليابانية فى حاجة إلى العلم به . كذلك من بين الأمثلة المشهورة بهذا الخصوص الإشاعات التى كان يطلقها روميل فى أثناء كره وفره فى شمال أفريقيا . وقد استطاع فى أكثر مناسبة أن يكتشف حقيقة مواقف خصومه واستعداداتهم بهذه الوسيلة بل ومن النماذج المشهورة التى نجح فيها نجاحا حقيقيا تلك المتعلقة بقرار بريطانيا فى اتخاذ منطقة العلمين موقع الدفاع الثابت عن منطقة الشرق الأوسط (١) .

ثالثا : من الممكن أيضا أن نستخدم الإشاعة كأسلوب من أساليب خلق التشكيك وتحطيم الثقة فى المصادر الإعلامية . نموذج واضح لهذا نستطيع أن نستنتجه من خلال الحرب العالمية الثانية من جانب السياسة الألمانية . ففى خلال الأعوام الأولى للحرب كانت محطة الإذاعة البريطانية موضع ثقة لافقط من جانب الشعوب المحايدة بل ومن نفس الشعوب المحتلة ورغم النجاح الذى أحرزته القوات النازية فى حروبها المتعددة . ولم يكن هذا من مصلحة النظام النازى الذى كان يسعى لخلق نوع معين من أنواع التعاون مع الشعوب المحتلة بقصد خلق ماأسماه أوربا الجديدة . بلغ الأمر إلى حدأن أعتبر سماع الإذاعات البريطانية فى مختلف أجزاء أوربا المحتلة جريمة يعاقب عليها بالإعدام ومع ذلك لم ينقطع سيل الاهتمام بالإذاعة البريطانية واتخاذها المصدر المباشر للأخبار حتى فى داخل ألمانيا . ازاء ذلك حاول السلاح النفسى الذى سبق وذكرنا وجوده فى وزارة الحرب الألمانية خلق إشاعة تحطم من ثقة الجمهور الأوربى فى محطة الإذاعة البريطانية .

فى خلال تلك الفترة كانت تخضع محطة السكة الحديدية الرئيسية فى برلين إلى محاولات تدمير مستمرة وكانت تلك المحطة رمز فخر النظام النازى. قام الألمان بنشر تقارير توحى بأن الإنجليز قد نجحوا فى إحدى محاولاتهم وأكدوا ذلك بسيل من البطاقات التى خرجت من ألمانيا إلى أصدقاء لبعض أفراد من المجتمع الألمانى فى سويسرا والسويد وأسبانيا آى فى البلاد المحايدة تؤكد الواقعة . عندما وصلت الإشاعةالمتعلقة بتدمير محطة السكة الحديد الألمانية إلى بريطانيا ، وتأكدت هذه الإشاعة من جهات متعددة بفضل تلك البطاقات أذاعت محطة الإذاعة البريطانية نبأ تحطيم المحطة معلقة

---

(١) قارن مجلة علم النفس ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٤٥ ، ص ١٦٧ ومابعدها .

عليه بالكثير من التفاصيل[1] ، عقب فترة قصيرة من الصمت الذى جعل محطة الإذاعة البريطانية تزداد فى تأكيد الخبر ونشرفحواه ، خرجت وزارة الدعاية الألمانية على العالم برد فعل يكشف عن مدى براعتها فى التخطيط بقصد القضاء على هيبة محطة الإذاعة البريطانية : دعت بعض الصحفيين المراسلين الأمريكيين إلى المحطة المذكورة ليشاهدوا بأنفسهم كذب واختلاق الواقعة .

§ ٥٢ – عملية مقاومة الاشاعة :

على أننا ونحن فى صدد الانتهاء من تحليل الإشاعة كظاهرة جماعية يتعين علينا أن نختم هذا التحليل ببعض الملاحظات :

أولا : أن مقاومة الإشاعة [2] تتحدد بعلاج جوهرى أساسه البحث عن شدة الإشاعة والتحطيم من تلك الشدة . فيمكن القول بصفة عامة أن قوة الإشاعة تنبع من

---

(١) أورده صلاح نصر ، م. س. ذ ، ص ٢١١ وجدير بالملاحظة موقف محطة الإذاعة البريطانية عندما اكتشفت حقيقة تلك الإشاعة إذ خرجت تعلن مستمعيها بأنها قد أخطأت فى نقل الخبر المذكور وأبرزت أسباب ذلك الخطأ وحاولت أن تبرره بالظروف الواضحة من التخطيط النازى الذى أوقعها فى تصديق تلك الأكذوبة . وهكذا استطاعت أن تحيل السلاح إلى صدر خصومها فأبرزت المخططين الألمان على أنهم هم الذين اختلفوا الكذب واعدوه وقدمت نفسها على أنها ضحية لعملية التلفيق . وهنا يجب أن نلاحظ أن أحد عناصر التخطيط لاستخدام الإشاعة كأداة للحرب النفسية هو مشكلة إعداد الذهن لتقبل الإشاعة . ويمكن القول إجمالا بأن إطلاق الإشاعة يجب أن يجتاز مراحل ثلاث :

أولا : إعداد الذهن .

ثانيا : تجريب الإشاعة .

ثالثا : مساندة الإشاعة .

المرحلة الأولى تعنى عملية إعداد مسبقة على عملية إطلاق القذيفة الإشاعية أى إعداد أذهان الناس من خلال العمل الإذاعى على سبيل المثال بالخلفية العامة المرتبطة بموضوع الإشاعة لأن هذا وحده هو الذى يسمح بالهضم المقبل للإشاعة وبانسيابها فى التفكير وباستيعابها وتماسكها مع مقومات العقيدة الفردية .

المرحلة الثانية تعنى إطلاق الإشاعة على نطاق محدود أو تجريبها معمليا بقدر الإمكان . هذه العملية القصد منها التأكد من القدرة على التصديق والاستعداد للتقبل فضلا عن الصلاحية للاستيعاب .

تأتى المرحلة الثالثة وهى إطلاق الإشاعة على المجتمع القومى وبأسلوب إغراق وذلك باطلاق إعلام يعكس ويستند إلى حقائق لا موضع للمناقشة فى صحتها . وهنا تبرز أهمية عملية تخزين المعلومات التى سبق أن أشرنا لها بخصوص عملية التعامل النفسى مع المواطن . انظر حامد ربيع ، فلسفة الدعاية ، م. س. ذ ، ص١٥٢ ومابعدها .

(٢) محمد طلعت عيسى ، الشائعات وكيف نواجهها ، ١٩٤ ، ص ٩٥ ومابعدها .

المعادلة الآتية : شدة الإشاعة = الأهمية × الغموض . ومعنى ذلك أن الغموض الذى يحيط بالواقعة هو المتغير الأساسى أو على الأقل أحد المتغيرات الأساسية التى تحدد شدة الإشاعة . وإذا كانت أهمية الواقعة لا يمكن أن تعالج بسرعة وبسهولة فعلى العكس من ذلك فان الغموض هو الذى يمكن أن يعالج بمنتهى السرعة ومنتهى السهولة . ومن ثم فان العلاج الحقيقى لمواجهة الإشاعة هو التلاعب بهذا المتغير ووسيلته الإعلان عن الحقيقة أوجزء منها .

ثانيا : كذلك يجب أن نلاحظ أن الإشاعة بحكم طبيعتها الجماعية تنعدم فى الجهات المتشابهة والمتجانسة ولذلك يقال فى العادة أن الإشاعة لاتستطيع أن تجتاز الحواجز الاجتماعية ومن ثم فان مقاومة الإشاعة ليست بالعملية الصعبة كما يمكن أن نتصور بمعنى أن هناك حواجز طبيعية تقف أمام انتشار ورواج الإشاعات .

ثالثا : كذلك يجب أن نلاحظ أن الإشاعة قد تصبر أحد عناصر الحملات الانتخابية فى الدول الديمقراطية وهذا يؤكد نسبية فكرة الغموض التى سبق وذكرناها كمتغير أساسى من متغيرات معادلة شدة الإشاعة: ذلك أن تلك المجتمعات تعرف الانطلاق الاخبارى والحرية الإعلامية[1] .

---

(١) ولعل مايحدث فى تلك المجتمعات من أن تأخذ الإشاعة صورة الأغنية الشعبية دليل على تأكيد تلك الحقيقة . قارن بويل ، م. س. ذ ، ص ٤٣٧ وما بعدها ويتساءل الكاتب بهذا الخصوص عما إذا كانت الإشاعة طريق يمكن تحبيذ الاتجاه إليه لنقل رسالة دعائية . ورغم أن أولبورت يجيب على نفس السؤال بأنه ليس من المستحيل الالتجاء إلى هذا الأسلوب الدعائى إلا أن بويل يكاد يحبذ عدم الا لتجاء إلى هذا الأسلوب حيث يصفه بأن طريق محفوف بالمخاطر « ... إن هذا الطريق يجب أن يترك كثيراً لنبوغ مطلق الإشاعة حيث أنه يجب أن يقوم بتقديرات مختلفة حول صلاحية الأكذوبة ، حول المضمون الذى يجب أن تحقن به الإشاعة ، الطريق الذى من خلاله يجب أن يتم بذر الإشاعة ، حول لحظة الإشاعة ، حول الظروف المختلفة المرتبطة بعملية نشر الإشاعة والكافية على إضافة الغموض على موضوع الإشاعة » ونحن نؤيد وجهة النظر الأخيرة لأسباب أخرى تدور حول منطق العمل الدعائى . فالدعاية ترمى إلى الإقناع من خلال منطق مفتعل أساسه الإثارة النفسية ، ومن ثم فهو منطق ايجابى يدور حول خلق حالة من حالات التعاطف المنطقى المصطنع . الإشاعة تفترض لنجاحها وجود حالة مسبقة من حالات الكبت النفسى وتقديم أكذوبة من خلال ترديدها يستطيع الفرد أن يحقق نوعا من الاسترخاء النفسى . وهكذا طبيعة الدعاية تختلف عن طبيعة إطلاق الإشاعة . الأولى إثارة الثانية استرخاء ، والقاعدة أن معالجة النفس الفردية يجب أن تسير فى مسار واحد خلال عملية واحدة . ولذلك فنحن نعتقد بأنه من المخاطرة الالتجاء إلى الإشاعة كأداة من أدوات الدعاية ولكن هذا لا يمنع من استخدام كل منهما كأداة مساندة للأخرى . فالدعاية يجب أن نلجأ إليها ولو مقنعة فى خلال المرحلة الأولى من مراحل إعداد الإشاعة . والإشاعة جديرة بأن نطلقها خلال مرحلة تضخيم نتائج الدعاية . انظر أيضاً حامد ربيع ، نظرية الدعاية الخارجية ، م.س. ذ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

حالة رقم ١٥ : نماذج التحليل العلمى للاشاعة وصلتها بأدوات الاعلام الجماهيرى .

سبق أن رأينا أن أحد مسالك تحليل الاشاعة هو المسلك المعملى من خلال إعادة رواية الواقعة وإكتشاف تلك العناصر التى تفقدها وتلك العناصر الأخرى التى تكتسبها حيث أن هذه العملية إنما تعكس موضع شحنات التأكيد وتسمح ببناء المنطق الخلفى المتعلق بالتجاوب بين المواطن والسلطة وبصفة خاصة عندما تكون الإشاعة ذات طابع سياسى . والظاهرة تحتفظ بدلالتها أيضاً بالنسبة للاشاعات التى تغلف السلوك الجنسى(١) .

هذه المنطلقات تفرض بعض الملاحظات :

(ا) أول هذه الملاحظات تدور حول عملية الضبط المعملى . فهذا المنهاج الذى يسمى عادة بأنه « طريقة الاستعادة السلسلية » ينطوى على بعض النقائص . يقول أولبورت السابق ذكره بهذا الخصوص : « باكراهنا لاستعادة السلسلية على وضع مصطنع إنما نضحى بالتلقائية التى لموقف الإشاعة » بعبارة أخرى المعمل يفرض التحكم ومن ثم يتعود الشخص موضع الدراسة الحذر والدقة المتعمدة(٢) . الحياة العادية على العكس من ذلك تسمح للسامع بأن يتناقش مع مصدر الاشاعة بل وأن يستجوبه إذا شاء . هذا فضلا على أن المواقف الواقعية تفترض فترة زمنية معينة قد تمتد إلى عدة أشهر . إن التجربة تفترض نوعاً من التنبيه وبالتالى فان الشحنات التلقائية الانفعالية تختفى لتحل محلها شحنات أخرى ترتبط بالموقف التجريبى وتتمخض عنه . ويعلق على ذلك العالم السابق ذكره بقوله : « على الرغم من جميع هذه النقائص والقيود ، فإن التجارب المعملية تنجح بدرجة كافية فى إبراز جميع الظواهر الأساسية لانتشار الإشاعة » .

(ب) وهذا يقودنا إلى ملاحظة ثانية ترتبط بالعلاقة بين أجهزة الاعلام الجماهيرى وظاهرة الاشاعة(٣). لقد سبق أن رأينا أن الاشاعة تدور حول ظاهرة الاتصال المباشر وأنها تنتقل أساساً عن طريق الحديث التلقائى الشفوى ، على أن هذا لا يعنى أن الكلمة المطبوعة أو الكلمة المسموعة من خلال الاذاعة لا تقوم بأى وظيفة إيجابية فى عملية نشر الاشاعة وبصفة خاصة كأداة من أدوات الحرب النفسية . ففى البلاد التى تخضع فيها الصحافة للاشراف الحكومى فإن إيلاج الاشاعة كأمر متعمد يصير أداة من الأدوات ذات الفاعلية الواضحة فى عملية خلق ونشر الإشاعة . ألمانيا وإيطاليا قبل الحرب العالمية الثانيةلم تتردد فى أن تلجأ إلى هذا الأسلوب على نطاق واسع . كذلك فإن العرض الانتقائى للأخبار ، وتقديم بعض صور معينة ، مما يساعد ، لو تم ذلك بتخطيط معين على تأكيد مساندة عملية إختلاق الاشاعة . على أن هناك نماذج أخرى لنفس التطبيق أيضاً فى الدول ذات الصحافة الحرة . ويبرز ذلك بشكل واضح فىحالات الشغب والاضطراب الجماهيرى المنتشرة بكثرة فى المجتمع الأمريكى .

---

(١) انظر فيما سبق ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٢) مطابق أولبورت ، بوستمان ، سيكولوجية الاشاعة ، ١٩٦٤ (دار المعارف) ، ص ٩٦ .

(٣) قارن نفس المرجع السابق ذكره ص ٢٠٤ وما بعدها .

يحيل العالم السابق ذكره هذه الحقيقة إلى قانون يصوغه بالشكل التالى : « ليس هناك من شغب يمكن أن يحدث بغير ما إشاعات تستثير العنف وتصاحبه وتغذيه » ويضيف إلى ذلك بأنه من الممكن التمييز بهذا الخصوص بين أربعة مراحل :

١ – مرحلة أولى حيث تسود همهمات عدم ارتياح . هذه الهمهمات تدور حول موضوع التفرقة العنصرية أو بعض الأفعال السيئة التى تعود المجتمع أن ينسبها إلى خصومه . فى أغلب الأحيان هذه القصص هى نوع من أنواع التعبير عن التوتر الاجتماعى تعلن عن العاصفة قبل حدوثها .

٢ – ولكن فى لحظة سابقة تبدأ الاشاعة تتخذ صورة نوعية مهددة « لا يفوتك أن تحضر إلى الملعب لتشاهد المهزلة عقب المباراة » فى بعض الأحيان قد تصل هذه الاشاعة إلى حد إذا عنها من إحدى محطات الراديو الأمر الذى يؤدى إلى زيادة تأكيد حالة الهلع والاضطراب .

٣ – الشرارة التى تشعل الحالة الجماهيرية غالباً ما تكون إشاعة مما يسميها العلماء بالاشاعة الملتهبة . حركة الشغب الشهيرة فى أغسطس ١٩٤٣ بحى هارلم جاءت فى أعقاب إشاعة من هذا النوع.والنماذج بهذا الخصوص عديدة : بعضها سياسى وبعضها جنسى وخصوصاً فيما يتعلق بحوادث إغتصاب المرأة البيضاء من جانب الملونين أو للفتيات الزنجيات من جانب البحارة البيض .

٤ – على أنه فى حالة الاضطراب الفعلى والصدام العنيف تمتاز الاشاعات لا فقط بالسرعة بل وكذلك بالتعصب العنيف ويصير موضوع الاشاعة وقد غلبت عليه حالة الهلوسة والمبالغة وهو إنعكاس لطبيعة الحالة الجماهيرية .

(ح) ونستطيع أن نذكر تطبيق من التطبيقات الجديرة بالمناقشة والتى ساهمت فيها مختلف الأجهزة العلمية بقسط أساسى فى عملية نشر الإشاعة . فى عام ١٩٤٣ وأثناء زيارة مدام شانج كاى شيك لأمريكا فى عام ١٩٤٦ إنتشرت القصة التالية التى نسبت واقعة معينة إلى تلك السيدة . مفاد ذلك أنه حدث فى يوم معين أن دخل رجل لأحد كبار محلات بيع الجواهر بمدينة بلتمور وطلب شراء ساعة فى حدود ٥٠٠ دولار . ولم يكن المحل معد لتقديم أنواع من الساعات بمثل هذا الثمن المرتفع ولكن صاحب المحل أراد أن يدبر مجموعة للعميل ليختار من بينها ما يريد . إختار هذا الأخير عدداً يبلغ ثمنه سبعة آلاف دولار . وعندما سأله صاحب المحل عن طريقة سداد الثمن عرفه المشترى بنفسه على أنه سكرتير السيدة المذكورة وطلب من صاحب المحل أن يضيف الثمن خصما على معونة الاعارة والتأجير .

واضح من هذه الاشاعة أن الهدف منها هو خلق الوقيعة بين الولايات المتحدة وحلفائها . وساعد على ذلك أن الرأى العام الذى كان سائداً فى المجتمع الأمريكى هو عدم الارتياح بالنسبة للصين فضلا عن الفشل وخيبة الأمل إزاء نظام شانج كاى شيك . ويلاحظ فى هذه الصياغة أمران : أولهما تجسيد الاشاعة بتحديد شخصية موضوع الاشاعة وهى زوجة القائد الصينى والثانى إبراز ظاهرة الأنانية والتهرب من المسئولية فى وقت ما كان يسمح للقادة أن ينغمسوا فى الكماليات وأن يسرفوا ويبعثروا فى الأموال القومية . هذه الاشاعة إنتقلت وترددت من خلال الصحافة وأجهزة الاعلام الجماهيرية . بل وصل الأمر بها إلى أن تنقلها بعض محطات الاذاعة .

---

(١) نفس المرجع السابق ذكره ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) أوردها صلاح نصر ، الحرب النفسية ، جزء أول ، م . س . ذ ، ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٣) قارن جيلفورد ، ميادين علم النفس ، النظرية والتطبيقية ، جزء أول ، ١٩٦٦ (دار المعارف) ، ص ٣٠٩ وما بعدها .

الفصل الرابع

ظاهرة القيـــــادة

خلاصة :

التعريف بظاهرة القيادة ونماذجها التجريبيــة – خصــائص الظاهرة القيادية : الأبعاد الوظيفيــة – أنواع القيــادة السياسية : النماذج ـ نظرية يونج والتمييز بين القائد الرئيس ، الديمقراطى الدبلوماسى ، المصــلح ، مثير القــلاقل ، القــائد العقائدى . القيادة والحركة السياسية : مسالك العمل القيادى – القوة أو الضغط والاكراه – الخديعة أو التحايل والمساومة – الإقناع والاقتناع – القيادة وظاهرة التخلف : التحليل الميدانى وعملية التمييز بين الشرائح الاجتماعية وعلاقتها بالقيم القيادية – متغيرات الموقف وهيكل الأسلوب القيادى : الفاعلية وأبعادها التجريبية .

• • •

١ – ظاهرة القيادة تمثل أحد الأبواب الرئيسية فى العلوم النفسية بصفة عامة والعلوم السلوكيــة بصفة خاصة . والواقع أن المشاكل التى تثيرها هذه الظاهرة عديدة لا حصر لها . فهناك أولا خصائص القيادة ووظائفها ، ثم هناك ثانيا ما يرتبط بالسلوك القيادى من نمــاذج ، أضف إلى ذلك تحليــل العلاقة بين القائد ومختلف عناصر المجتمع الذى يخضع للعمل القيادى . على أن الظاهرة تلقى بأبعاد أخرى فى النواحى السياسية : فالقيادة هى قيم لابد وأن تؤثر فى تشكيل الجسد السياسى من حيث العلاقة بين مختلف القوى التى منها يتكون ذلك الجسد . هنا تبرز مشاكل أخرى كمشكلة الأنصار والفئة المختارة أو الصفوة والتابعين : طبقات مختلفة كل منها تعكس مميزات سلوكية معينة . ظاهرة القيادة بهذا المعنى تكون أحد المداخل التى تربط بين العلوم النفسية ، العلوم السلوكية ، وعلم السياسة . أهميتها بالنسبة لهذا الأخير تبرز واضحة فيما يسمى بعملية التطور أو التغير الاجتماعى ، كلاهما يمثل فصلا هاما فى علم الحركة .

٢ – من بين المراجع الهامة والتى تتناول الكليات العامة للظاهرة نحيل على وجه الخصوص :

BASS, An analysis of the leaderless group discussion, in J. appl. Psych. 1949, p. 527.

PETRULLO, BASS, Leadership and interpersonal behavior, 1961.

CARTER, Military leadership, in Military Rev., 1952, p. 14

CATTEL, New concepts for measuring leadership, in Hum. Relat. 1951, p. 161.

HEMPHILL, Theory of leadership, 1952.

JENNINGS, HELEN, Leadership and isolation, 1950.

MEDALIA, Authoritarianism, leader acceptance and group cohesion, in J. abnor. soc. Psychol., 1955, p. 207.

SELVIN, The effects of leadership, 1960.

ZELENY, Characteristics of group leaders, in Social. soc. Res., 1939, p. 140.

GIBB, Leadership, in LINDZEY, ARONSON, The handbook, cit., vol. IV, p. 205.

NELSON, Similarities and differences among leaders and followers, in GIBB, Leadership, 1970, p. 307.

CARTWRIGHT, ZANDER, Group dpnamics ; Research and theory, 1968, p. 301.

٣ – كذلك يستطيع القارىء أن يجد دراسة موجزة للموضوع فى لويس مليكة : سيكولوجيــة الجماعات والقيادة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٦ وما بعدها .

• • •

٥٣ – الظاهرة القيادية : التمييز بين التطبيق الاجتماعى والقيادة السياسية، المصادر الفكرية، موجز وإحالة :

الظاهرة القيادية ظاهرة معقدة ومركبة تكاد ترفض عملية التحليل العامى بأساليبه المعتادة . يعلق بعض العلماء على تلك الظاهرة بقولهم بأن هناك موضوعات ثلاث على الباحث العاقل أن يتجنب أى معالجة لها : الحب والنبوغ والقيادة .(١) ومن بين هذه الموضوعات الثلاث أكثرها غموضا وأشدها تعقيد اوأبعدها فى رفض التنبوءات ووضع التأصيل الفكرى ، الظاهرة القيادية . والواقع أن الظاهرةالقيادية تجمع بين خصائص جميع الظواهر التى تندمج فى هذا النطاق من حيث الغموض وعدم القدرة على التوقع . فظاهرة الحب التى هى تعبير مهذب عن السلوك الجنسى تمثل أكثر أنواع السلوك تعقيداً . إنها مجموعة متناقضة وغير متجانسة ومركبة من العناصر السلوكية التى تربطها شحنات انفعالية متراكمة ومهماارتفعت القدرات العلمية فهى غيرقادرة على الإحاطة بها والإمساك بمختلف عناصرها . وإذا كان السلوك الجنسى رغم ذلك صالح لأن يخضع للتحليل ، فان النبوغ يرفض التحليل العلمى بمعناه الوضعى . إن النبوغ هو استثناء فكيف نجعل من الاستثناء قاعدة؟ التحليل العلمى يعنى تحويل الظواهر من خلال اكتشاف عنصر التكرار إلى علاقات ارتباطية ثابتة . فاذا كان النبوغ يعلن منذ البداية على أنه استثناء فكيف نصل إلى اكتشاف عنصر التكرار فى ذلك الاستثناء ؟ ظاهرة القيادة تجمع بين التركيب السلوكى والنبوغ الفردى . وهكذا نجد ظاهرة القيادة أكثر أنواع الصور الاجتماعية تعقيداً وتركيبا ورفضا لعماية التحليل فى معناها المتداول .

على أن الصعوبات الحقيقية التى لابد وأن يواجهها محلل الظاهرة القيادية لاتقف عند ذلك الحد(٢) . ذلك أن الظاهرة القيادية أولا ظاهرة متعددة الأبعاد وثانيا متنوعة التطبيقات وثالثا متباينة المصادر الفكرية . هى متعددة الأبعاد لأنها بغض النظر عن مستواها تفرض على الأقل مجموعة من العلاقات المختلفة التى تحمل مذاقا متميزاً

---

(١) GRAUBARD, HOLTON, Excellence and Leadership in a democracy, 1962, p. 1—3.

(٢) التفاصيل فى كارتفرايت ، م.س.ذ. ، ص ٢٤ وما بعدها .

فاذا بها تقدم صورة ذاتية ومستقلة للظاهرة القيادية . ولنذكر على سبيل المثال كيف أن الظاهرة القيادية ظاهرة اجتماعية أولا فردية ثانيا ونفسية ثالثا ونظامية رابعا . هى ظاهرة اجتماعية لأن القائد انما يعبر عن أحد مواقع السلم الاجتماعى بغض النظر عن ذلك الموقع وخصائصه . بهذا المعنى نتحدث عن قائد الرأى وعن القائد السياسى بل وفى بعض الأحيان عن القائد الخفى الذى يمارس قيادته من خلال التعامل غير الظاهرى . أحد الأبحاث المعروفة التى أجريت فى المجتمع الإسرائيلى وأثارت الكثير من اللغط تدور حول موضع صديقات الحكام وسكرتيراتهم من العمل القيادى . وهى أيضاً ظاهرة فردية لأن القائد فى نهاية الأمر لايعدو أن يكون شخصا قد استطاع أن يكتل فى ارداته وفى سلوكه مجموعة من القدرات والخبرات الذاتية الموروثة والمكتسبة بل أنه فى بعض الأحيان يكاد يقوم بعمليات مسرحية مدروسة بقصد خلق ذلك الانطباع (١) . ثم هى أيضاً ظاهرة نفسية : انها علاقة خفية بين حيوان متمرس له قدرات غير معتادة وقطيع يقبل أن ينطوى تحت قيادة ذلك الحيوان المتمرس ، أن القائد يكاد يعبر عن خصائص مروض الوحوش الذى يملك إرادة خفية ترفض التحليل العلمى وتسمح لذلك المروض بأن يتحكم فى حيواناته المتوحشة حتى إذا فقد تلك القدرة الخفية أضحى بلاحماية ولاوسيلة للدفاع عن نفسه ازاء تلك الحيوانات . كذلك علينا أن نتذكر أن القيادة لابد لاثباتها من إطار نظامى معين . إن تقبل النبوغ الفردى فى حاجة إلى مجموعة من الأوضاع المستقرة والثابتة التى تسمح لتلك الصفات بأن تونع وتزدهر وأن تمارس امكانياتها وقدراتها الحقيقية . أضف إلى ذلك أن ظاهرة القيادة لها مستوياتها التى تبدأ من القيادة الاجتماعية المعتادة إلى القيادة السياسية بأوسع معانيها وهنا نلاحظ أن كلا من هذه المستويات لها مصادرها وأصولها الفكرية المتميزة . ورغم أننا فى هذه الدراسة إنما نعالج الظاهرة القيادية ابتداء من منطلق المدرسة السلوكية وفقط كأداة اتصالية ، إلا أن الفهم الحقيقى للظاهرة لابد وأن يفرض الإلمام بجميع الأبعاد الأخرى (٢) .

تحليل الظاهرة القيادية يجب أن ينطلق من مسالكين مختلفين كلا منهما يقود

---

(١) قارن من منطلق آخر :
MENDRAS, Elements de sociologie, 1967, p. 94.

(٢) انظر على وجه الخصوص المراجع والملاحظات التى أوردها :
STOETZEL, La psychologie Sociale, 1963, p. 207 — 209.

إلى مفهوم معين للظاهرة ، مستقل ومتميز رغم أن كليهما ينتهى باطار واحد للتعامل الحركى . المستوى الأول وهو المستوى الاجتماعى أى الظاهرة القيادية على مستوى التعامل اليومى المعتاد[١] .لماذا فى أى تجمع معين تتجه الإرادة الجماعية لتفضيل شخص على آخر فى توجيه تلك الجماعة فى قيادتها ؟ ولكن هناك مستوى آخر وهو المستوى السياسى : لماذا تختار الجماعة شخصا معينا تضع فيه ثقتها تنساق خلفه وتفتديه بالروح والدم حتى فى لحظات الخطأ وسوء التقدير؟ ولماذا ينجح شخص معين فى أن يمسك بقيادة الجماعة ويوجهها ويتحكم فى مصيرها السياسى ؟ أكثر من محلل تساءل هل نحن بصدد تطبيقين لظاهرة واحدة أم أننا ازاء ظاهرتين مختلفتين ؟ تساؤل لايعنينا ولكنه لايمنع من أن نلاحظ كيف أن المصادر الفكرية للقيادة السياسية أكثر بعدا عن المدرسة السلوكية وأكثر عمقا فى التاريخ الفكرى من التطورات المختلفة التى لاحظنا كيف أنها تبلورت خلال القرن التاسع عشر لتقدم ما أسميناه بالنظرة السلوكية خلال الربع الثانى من القرن العشرين .

المصادر الفكرية للقيادة السياسية نستطيع أن نمركزها حول خمسة مسارات أو تطورات : مفهوم الفيلسوف القائد فى الفلسفة اليونانية ، فكرة الأمير فى التقاليد الرومانية ، تأصيل البطولة السياسية فى الفلسفة الألمانية . الظاهرة القيادية فى الحركات الثورية . ثم أخيراً فكرة النبوغ فى التقاليد العلمية المعاصرة . الفيلسوف القائد الذى تصوره أفلاطون حاكما يرفض أن يخضع للقانون بحيث تصير ارادته هى القانون ، يمثل أول تلك المنطلقات التى ساهمت فى خلق التقاليد الفكرية لظاهرة القيادة السياسية . ثم يأتى مفهوم الأمير كماعرفته الحضارة الرومانية بصفة خاصة خلال العصر الامبراطورى[٢] .

---

(١) هذا المستوى هو الذى ظلت تتناوله المدرسة السلوكية فى تقاليدها الثابتة حتى وقت قريب . وهو المستوى الذى ندين فى حقيقة الأمر بخصوصه للمدرسة السلوكية حيث تخضع ظاهرة الاختيار الشعورى تارة واللا شعورى تارة أخرى فى التعامل اليومى للقيادة الاجتماعية . على أن هذا يجب أن يذكرنا أيضاً بحقيقة الظاهرة القيادية حيث أنها تتضمن فى آن واحد جميع أنواع السلوك . فهى سلوك ذاتى من حيث علاقة القائد بنفسه . وهى سلوك فردى من حيث التعامل بين القائد وأعوانه ومحيطيه . وهى سلوك جماعى عندما يرتفع القائد إلى مستوى الرمز الجماعى فيكتل الجماعة حوله فى قبضة واحدة وارادة واحدة وحقيقة متماسكة كلية فى تعاملها مع الجماعات الأخرى ثم هى قد تصير أيضاً قيادة جماهيرية . ولعل هذا ما يعيب النظرية السلوكية المعاصرة حيث لا تصلح سوى لتفسير السلوك الفردى . انظر نظريتنا بهذا الخصوص فى « حامد ربيع » علم السلوك ، مذكرات كلية الاقتصاد ١٩٧٦ ، ص ١٩ ومابعدها .

(٢) انظر التفاصيل من وجهة التحليل السياسى فى « حامد ربيع » نظرية التطور السياسى ، مذكرات كلية الاقتصاد ، ١٩٧٢

رغم أن كلمة الأمير قد لاتعبر تعبيرا صادقا عن المفهوم الرومانى حيث أن الاصطلاح الذى تداولته النصوص الرومانية هى كلمة Princeps والتى تعنى فى معناها الحرفى الأول إلا أن الخلفية العامة للمفهوم تظل واحدة وهى أن هناك فرد معين يرتفع عن سائر الأفراد فاذا به يحكم ولايحكم وإذا به يأمر ولايقبل أن يتقبل الأمر . وإذا به يقود ولايقاد . هو يوصف بهذا المعنى بأنه الرأس أو Dux والتى منها نبعت فيما بعد المفاهيم الفاشستية . يأتى فيكمل هذا المصدر مفهوم البطولة السياسية ، مفهوم سوف يظل غير واضح وغير محدد حتى تأتى التقاليد الرومانية الجرمانية فتبعثه وتجعل منه على يد فكر القرن التاسع عشر أساسا ومحورا للتحليل الساسى [1]. هيجل خير من يعبر عن هذه الفلسفة حيث يجعل البطل السياسى ارادة القدر يعمل لا فقط بوحى من ضميره ولكنه يمثل أحد مسالك الإرادة الخالدة أو العليا أو الإلهية فى تعاملها مع الجماعة بحيث تفرض تلك البطولة كأداة من أدوات الإشباع الحركى لتحقيق أهدافها الإنسانية . ابتداء من هذا التصور تبدأ فكرة الاتصال تغلف مفهوم القيادة السياسية. فالبطل ليس مجرد ارادة اجتماعية أو جماعية وانما هو أداة الإرادة الخالدة أى الإرادة التى تتحكم فى المصير الإنسانى ومن ثم فى تطوير الجماعة وتحديد مساراتها . أنه أداة من خلالها الإرادة الخالدة تتقمص الوجود البشرى وتتعامل مع ذلك الوجود فى تطوراته المتعاقبة . بغض النظر عن صحة ذلك التصور فانه يقود لأول مرة لأن يقدم لنا القيادة على أنها مسارات متدفقة من جانبين : إنها أخذ وعطاء ، انها أداة من أدوات الاتصال . تأتى عقب ذلك المدرسة الاجتماعية بتحليلاتها الجماهيرية وتصوراتها التجريبية وابتداء من كارل ماركس ومن تبعه من علماء المدرسة السلوكية فاذا بهذا المفهوم يتدعم وإذا بتصور القائد على أنه أداة من أدوات الإحلال النفسى للثقة والتماسك موضع الخوف والتخلى يأتى فيغلف مفهوم الاتصال لا بمعنى العلاقة الخفية بين القائد والإرادة الخالقة وانما بمعنى العلاقة بين القائد والمجتمع الممزق . أن المواطن يجد فى ذلك القائد وسيلة فى أن يستعيد ثقته فى نفسه . أنه أداته فى تمكين العقيدة والايديولوجية من أن تتغلغل فى الضمير والوعى الفردى كمظهر من مظاهر التعبير عن الوعى الجماعى . وهكذا قادت جميع هذه المسالك إلى مفهوم ماكس فيبر عن ظاهرة القيادة أو فكرة [2] الكاريزما. والواقع أن هذا المفهوم أن هو

---

(١) قارن حامد ربيع ، تأملات فى الصراع العربى الإسرائيلى ، ١٩٧٦ ، ص ١٩ ما بعدها.
(٢) عبد الجليل الطاهر ، مسيرة المجتمع ، ١٩٦٦ ، ص ٤٣٥ ما بعدها.

إلا تعبير علمى للتصورات الفلسفية والاجتماعية التى غزت القرن التاسع عشر والتى تعود فى بعض مصادرها أيضاً إلى المفاهيم التاريخية المتعلقة بتحليل الحضارة الإنسانية من منطلق تقاليد عصر النهضة . فلنتذكر توماس كارلايل الذى رغم أنه ينتمى إلى القيم الانجلوسكسونية لم يتردد فى تاريخه المعروف للعصور الوسطى أن يعلن بأن الرجال العظام هم العنصر الأساسى اللازم لإعطاء كل فترة مذاقها الخاص . أنهم مصادر الإشعاع الذين دون وجودهم لاموضع لأى طاقة أو أى حركة . ثم تأتى البلورة النهائية من خلال النظرية السلوكية المعاصرة باسم ظاهرة النبوغ أوتحليل متغيرات ظاهرة التميز القيادى (١) .

لعل هذا يفسر الوضع الحالى الذى تعانى منه نظرية القيادة فى التحليل الاجتماعى . انها لم تستطع بعد أن تخلق إطارها الفكرى المتكامل الذى يسمح باستيعاب تلك الأبعاد المختلفة فى تأصيل واحد متكامل للظاهرة القيادية بحيث تنصهر فى داخلها مختلف مقوماتها ، مختلف عناصرها ، ومختلف تطبيقاتها .

فلنقف ازاء المفهوم الاجتماعى أو التطبيق الاجتماعى للظاهرة القيادية الذى يمثل الهدف الأساسى من هذه الدراسة .

٥٤ — التعريف بظاهرة القيادة ونماذجها التجريبية :

الحقيقة الاجتماعية هى عملية تفاعل بين الوحدات الذاتية التى تتكون منها الجماعة . لايكفى التعدد وإنما يجب أن يرتبط به العديد من العلاقات الارتباطية التى أساسها التأثير والتأثر . عملية التفاعل هذه قد تكون جماعية وقد تكون جماهيرية : الأولى فى حالة الهدوء حيث التطور التلقائى دون توتر ، والثانية عندما يرتبط بعلاقة التأثير والتأثر نوع من التأزم العنيف الذى يقود إلى تعبيرات بدورها عنيفة . التفاعل الاجتماعى الذى هو جوهر الحقيقة الاجتماعية ظاهرة متسعة الأبعاد متعددة النواحى . هى ظاهرة نفسية وسلوكية ونظامية فى آن واحد . أما عن كونها ظاهرة نفسية فذلك يبرز بشكل واضح من خلال عملية التوفيق ونتائجها بالهرب أو بما فى حكمه . كذلك هى ظاهرة سلوكية . العلاقة بين السلوك الفردى والسلوك الجماعى سبق أن رأيناها فى أكثر من

(٩) قارن بصفة خاصة :
SKINNER, Science and human behavior, 1965, p. 305.

مناسبة واحدة تارة باسم المحاكاة وتارة باسم نماذج التوفيق . ولكنها أيضاً نظامية وأحد مظاهر التعبير عن الناحية النظامية لظاهرة التفاعل ظاهرة القيادة[١] .

المجتمع ينقسم إلى قادة وتابعين . فما هي حقيقة عملية القيادة ؟ في إحدى الاضطرابات في باريس عام ١٨٤٨ عندما قبض البوليس على أحد المتشاغبين سمع وهو يصيح « دعوني ، يجب أن اتبع تلك الجماعة إنني رئيسها » . بغض النظر عن صحة هذه الواقعة من عدمها فانها تعكس طبيعة القيادة ، انها وظيفة وقيمة وعلاقة في آن واحد . هي وظيفة يؤديها القائد وتبرر وجوده . وهي علاقة تحكم طبيعة الروابط بين من هو قائد ومن هو تابع . ثم هي قيمة تعكس صفات معينة ومبادىء محددة يجب أن يحترمها القائد قبل أن تحترمها الجماعة ، فاذا أضفنا إلى ذلك المشكلة التي يثيرها علماء التحليل الاجتماعي وهي طبيعة القيادة وهل هي تعكس صفات أصيلة تختلف في القائد عن غير القائد كما وكيفاً لتحددت أبعاد تحليل الظاهرة[٢] .

(أ) ظاهرة القيادة أخضعت الكثير من الدراسات الميدانية . ولعل خير الدراسات التي أجريت بهذا الشأن هي تلك التي ندين بها للعالم الأمريكي « لوين » وزملائه . هي دراسة تجريبية تدور حول اكتشاف نماذج القيادة في المجتمعات الصغيرة. تجاربها أخذت الصورة الآتية : تم تكوين مجموعات صغيرة من الشباب لوحظ في اختيار أفرادها صفات معينة تقرب بينهم أكثر مما تبعد وتم توزيع هذه المجموعات إلى ثلاثة : مجموعة وصفت بأنها المجموعة الأوتوقراطية حيث تحددت خصائص القيادة بأنها تدور حول توجيه مطلق وكامل وكلي من القائد الذي يصير بمثابة ديكتاتور للمجموعة . ثم نموذج أسماه لوين « الديمقراطي » حيث كانت قواعد السلوك تتم من خلال مناقشة حرة بين أفراد الجماعة . أما المجموعة الثالثة فكانت تتوسط كلا المجموعتين الأولى والثانية حيث كان القائد يقدم المعلومات دون أن يشارك ودون أن يفرض آرائه . ومن خلال تجارب عديدة أخضع فيها لوين وزملائه هذه المجموعات الثلاث سواء بتنويع القيادة في نفس الجماعة أوبتنويع عناصر الجماعة بالنسبة لنفس النموذج القيادي استطاع في النهاية أن يكتشف خصائص ما أسماه بالمجتمع الديموقراطي في مواجهة المجتمع الأوتوقراطي.

---

(١) قارن ليندزي ، علم النفس الاجتماعي ، م.س .ذ. ، الجزء الرابع، ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) انظر رغم نسبية الدلالة :

AGGER, GOLDRICH, SWANSON, The rulers and the ruled, 1964, p. 380.

***

حالة رقم ١٦ : نماذج للتحليل التجريبى لظاهرة القيادة

المكان لا يسمح بتفصيل الخصائص المنهاجية التى اتبعها لوين فى بحثه السابق ذكره رغم ذلك فإن تحليلا ولوموجزا بقصد متابعة النتائج التى وصل اليها يقدم لنا لا فقط نموذجا للأبحاث الميدانية المتصلة بتحليل نماذج القيادة ولكن وبصفة خاصة خصائص هيكل كل من القيادتين الديموقراطية والأوتوقراطية ثم نتائج كل منهما على السلوك الفردى والجماعى(١).

أولا : النموذج الأوتوقراطى وتتصف فيه عناصر القيادة بالخصائص الآتية :

١ — جميع المعلومات العامة تنبع وتصدر من القائد .

٢ — مراحل وأدوات تنفيذ النشاط يتم تحديدها بمعرفة القائد وكل مرحلة فى ذلك النشاط لا يعلن عنها القائد إلا فى حينها بحيث أن إدارة الجماعة وتوجيه النشاط المقبل يظل دائما فى حكم المجهول من جانب أفراد الجماعة .

٣ — القائد يفرض على كل عضو فى الجماعة واجباته ومهامه ويختار لكل مهمة الأعضاء الذين يوكل إليهم القيام بتلك المهمة .

٤ — القائد يمتنع عن أى مشاركة فعلية فى نشاط الجماعة ولا يفعل ذلك إلا على سبيل تقديم نموذج للنشاط المفروض أداؤه .

٥ — القائد هو الذى يوزع مديحه ونقده ودون أن يقدم لذلك مبررات موضوعية .

ثانيا — فاذا انتقلنا للأسلوب الديموقراطى أو للنموذج الآخر(٢) لوجدناه يقدم خصائص تتناقض مع خصائص القيادة فى الأسلوب الأول تناقضا كليا :

١ — التعليمات العامة تتم بناء على مناقشة عامة بين أفراد المجتمع حيث القائد يتخذ موقفا سلبيا إذ هو يخلق ويدفع ويشجع المناقشة ويقودها دون أن يفرض رأيه عليها بل ودون أن يدلى برأيه فى أغلب الأحيان .

٢ — التوجيهات العامة المتعلقة بتخطيط الحركة تتم من خلال المناقشة التى تتحدد فيها مراحل الحركة وخطواتها المتلاحقة . وعندما تكون الجماعة فى حاجة إلى نصائح فنية فإنها تلجأ إلى القائد الذى يقدم أكثر من نموذج واحد لحل المشكلة ويتم الاختيار من بينها بحرية من أفراد الجماعة .

٣ — أعضاء الجماعة يختارون كل منهم بحرية المجموعة التى يفضلون العمل بينها كذلك فإن توزيع المهام يتم بناء على اتفاق المجموعة .

٤ — القائد يسلك سلوك أى فرد من المجموعة بحيث يشارك معهم فى الأعمال أى فرد آخر .

٥ — القائد يظل موضوعيا فى تقييماته بالاطراء أو بالنقد مؤسسا لتلك التقييمات على الوقائع الفعلية .

ثالثا — من خلال تحليل هذين النموذجين من نماذج القيادة التجاريبية استطاع لوين أن يقدم لنا الفوارق

---

(١) انظر التفاصيل فى :
KRECH, GRUTCHFIELD, Theory and problems of Social psychology, 1948, p. 422 — 434.

(٢) المصادر فى المرجع السابق ذكره ، ص ٤٢٦ ، هامش رقم ١ .

السلوكية بين الفرد الذى ينتمى إلى المجتمع الأوتوقراطى (١) والفرد الذى ينتمى إلى المجتمع الديموقراطى :

١ – فى المجتمع الديموقراطى هناك ملحوظة عامة تميز السلوك الفردى لو قورن بالسلوك الفردى فى المجتمع الآخر وهو السلوك العدوانى والاستفزازى . المجتمع الأوتوقراطى يميل إلى العدوانية ويتجه فى هذه العدوانية إلى أفراد الفئات الأخرى وليس إلى رئيس الجماعة . وقد لوحظ أن هذه العدوانية بلغت فى بعض الأحيان مرتبة مبالغا فيها حتى أنها عبرت عن نفسها فى بعض التطبيقات بعنف واضح لم يتمكن من وضع حد له إلا عن طريق تدخل الرئيس أو القائد.

٢ – كذلك لوحظ فى المجتمع الأوتوقراطى اتجاه عام لرغبة أفراد المجتمع فى التقارب من القائد تسيطر عليه ملامح الخضوع المبالغ فيه مع محاولات واضحة فى جذب انتباه الرئيس من جانب الفرد أو المواطن الذى يرغب فى خلق عملية التقارب . على العكس من ذلك فان العلاقات مع الرئيس فى المجتمع الديموقراطى يسيطر عليها نوع من التساوى والإخلاص مع الرغبة فى تقديم عمل طيب .

٣ – كذلك العلاقات الفردية فى داخل المجتمع الأوتوقراطى يسودها نوع من روح السيطرة بمعنى محاولة كل فرد أن يسيطر على الآخرين على عكس المجتمع الديموقراطى الذى لم لا تبرز فيه هذه الروح بأى شكل من الأشكال (٢) .

٤ – على العكس فى المجتمع الديموقراطى فإن الروح الجماعية كانت أكثر وضوحا وأكثر تعبيرا أما فى المجتمع الأوتوقراطى فان الروح الفردية بمعنى تأكيد الذات كانت أكثر وضوحا . كذلك لوحظ أن وحدة الجماعة فى المجتمع الديموقراطى كانت أكثر قوة وكذلك فإن الجماعات التابعة كانت أكثر استقرارا على عكس ما حدث فى المجتمع الأوتوقراطى حيث كانت الجماعة التابعة أقل استقرارا وأكثر تعرضا للتحلل لأى صعوبة أو مصادفة .

٥ – كذلك لوحظ فى أثناء التجريب أنه عندما كان منظم هذا البحث يدفع لخلق صعوبات بقصد تسهيل رد الفعل فقد لوحظ أن المجتمع الديموقراطى يهاجم تلك الصعوبة بمواجهة صريحة بينما فى المجتمع الأوتوقراطى فقد لوحظ أن أفراد الجماعة تنقسم على نفسها إلى مجموعات صغيرة وتبدأ كل منها فى اتهام الآخرين .

(ب) السؤال الذى يثيره أغلب علماء الاجتماع يتحدد فى هذه النقطة : هل القيادة تعكس صفات مكتسبة أم مورثة ؟ وهل هذه الصفات التى تميز القائد عن غير القائد صفات كمية أم صفات كيفية بمعنى هل القائد يختلف عن تابعيه من حيث الصفات أم أنه لا يختلف من حيث الصفات وانما فقط من حيث عمق تلك الصفات ؟ أسئلة يثيرها الفقهاء ولكن بدون إجابة واضحة .

---

(١) هكذا يعبر عن النموذج الأول : Authoritarian leadership بينما يعرف النموذج الثانى بأنه : democratic . انظر أيضاً المقارنة الموجزة التى أوردها المرجع السابق ذكره ص ٤٢٧ .

(٢) انظر الملاحظات العامة التى أوردها بخصوص ظاهرة القيادة وظاهرة الصداقة :
McKeachie, Doyle, Psychology, 1966, p. 553 — 554.

البعض يتحدث عن النبوغ ويعتقد أن النبوغ وحده هو الذى يفسر ظاهرة القيادة[١]. والنبوغ بهذا المعنى يصير درجات متعددة ولكنه تعبير عن اختلال فى التوازن العقلى. ومن بين المؤلفات العديدة التى جعلت هذه النقطة بداية لتحليل ظاهرة القيادة مؤلف «ايخباوم» Eichbaum وهو ابتداء من نظرية لمبروزو التى أساسها التقريب بين النبوغ والجنون قام بدراسة جمع فى خلالها عددا ضخماً ممن اعتبرهم معبرين عن النبوغ الفردى واستطاع من خلال دراسة حياتهم الشخصية أن يصل إلى النتائج الآتية: أقلية ضئيلة جدا وصفها بأنها تعكس حالة عقلية طبيعية. أعظم النابغين عانوا من حالات الاضطراب العقلى فى لحظات معينة من لحظات حياتهم. ولوعبرنا عن هذه النتائج باللغة الاحصائية لوجدنا أن ٨٣ ٪ من الأشخاص الذين أخضعهم لتحليله مصابين بأمراض عقلية، ١٠ ٪ يعسكون مظاهر توتر عصبي وفقط ٦,٥ ٪ يعبرون عن حالة التوازن الطبيعية. ورغم أن هذا المفهوم أى الربط بين النبوغ والجنون[٢] مفهوم قديم حتى أن أرسطو تحدث عن أولئك الشعراء الذين كانوا يصلون إلى أقصى حالات الجودة فى النبوغ الفنى فى حالات الجنون[٣] فاذا قدر لهم الشفاء لم يستطيعوا أن ينتجوا شعرا، ورغم أن التحليل النفسى فى مدرسة فرويد يصوغ هذا التفسير صياغة علمية بأن يعيد عملية النبوغ لنوع من أنواع التوتر النفسى بعدم الرضا والارتياح، فانه لاشك فيه أن النبوغ الخلاق لايمكن أن يتأكد إلا حيث توجد حالة عدم الاستقرار وعدم الشعور بالارتياح الذاتى. وجيكلز Jekles يصل إلى حد أن يفسر جميع تصرفات نابليون بونابرت بأنه انعكاس لعقدة أوديب، ثم يأتى عقب ذلك هرزبرج Herzberg ومن خلال تحليله لأعظم الفلاسفة يلحظ صفات عامة مشتركة: عدم الشعور بالرضا والارتياح، الاخفاق فى الحياة الزوجية، رفض الأوضاع الاجتماعية والسياسية المحيطة بالفيلسوف، الاضطراب فى الحياة الاقتصادية بحيث يمكن القول بأن اتجاههم للتأصيل الفلسفى لم يكن إلا نتيجة لنوع من الهرب من الواقع الاجتماعى.

(١) تساؤلا ت لا حصر لها ومناقشات لا يسمح المكان بأن نخوضها ولو بايجاز. انظر المصادر فى:
ASHBY, WALKER, Genius, in London, Rosenhan, Foundations of abnormal psychology, 1968, p. 201, 225.

(٢) بل إن التاريخ خير شاهد على ذلك. انظر التفاصيل فى:
DUMAS, DECAUX, La folie au pouvoir, 1966, p. 13, 16, 318.

(٣) بل هناك من يقدس الجنون على أنه مقدمة للنبوغ، انظر:
ERASME, Eloge de la folie, 1963, p. 127.

أما مدرسة أدلر عقب ذلك تجعل العلاقة الواضحة خلف النبوغ الفردى بما تسميه مقاصة الشعور بالنقص العضوى وتقدم لنا كذلك أكثر من نموذج واحـــد . فديموستين الذى كان يتلعثم فى الحديث استطاع أن يتخطى تلك العقبة ، فاذا به أعظم الخطباء الذين عرفهم التاريخ . بيتهوفن كان لايسمع عندما سجل أعظم آثاره الموسيقية ، تيودور روزفلت كان طفلا مريضاً فاذا به زعيم قوى وحازم . كانجهام Cunningham أصابه حادث فى طفولته شوه سيقانه فاذا به فى شبابه من أعظم العدائيين الذين سجل اسمهم فى تاريخ الرياضة . ويعلق على هذا البعض بأن النبوغ ليس نتيجة صفات موروثة وإنما هو خلاصة الشجاعة والتدريب المكتسب . لايوجد شخص اسمه الرجل المختار بميلاده وانما يوجد شيء اسمه الإرادة الخلاقة بالثبات والصبر والمثابرة (١) .

رغم جميع هذه المحاولات التى يغلب عليها طابع غير علمى فاننا يجب أن نسلم بأن ظاهرة النبوغ ليست هى ظاهرة القيادة . ان ظاهرة القيادة تعبير عن صفة من صفات الجماعة تتقمص فى شخص معين فاذا بها تبرر أن يصير هذا الشخص وقد أمسك بزمام الجماعة يقودها ويوجهها . وهكذا يمكن القول بأن القيادة تخضع لمقومات معينة .

أولا : خلفية اجتماعية . فكل مجتمع له خصائصه وكل تجمع له مميزاته . هذه الخصائص وهذه المميزات هى التى من خلالها تتحدد مسالك التعامل القيادى . فقائد اللصوص لايمكن أن يتم اختياره ولو لاشعوريا استنادا إلى نفس المعايير التى يتم بها اختيار القائد فى مجتمع العلماء . وهذا يعكس طبيعة العملية النفسية التى تستتر خلف العلاقة غير الواضحة التى تحكم تدفق المجتمع نحو القائد والتقاء القائد بالمجتمع .

ثانيا : قدرة شخص معين على أن يتقمص ويعبر عن تلك الخصائص بحيث يصير رمزاً لذلك المجتمع يرى فيه كل شخص نفسه ، آماله وأمانيه ، أما بأسلوب مباشر أو غير مباشر سواء فى المعنى المطلق الواضح أو بمعنى عكسى بمعنى أن يرى فيه ذلك الذى لم يحققه المواطن العادى وكان يتمنى أن يحققه . ولعل عملية الاختيار الانتخابى التى تتم فى المجتمعات الديموقراطية بخصوص رئاسة الجمهورية كما فى الولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) قارن :
DOUBROVSKY, Corneille et la dialectique du héros, 1963, p. 475.

وكما حدث أيضاً فى فرنسا قبل مجىء ديجول وعقب مغادرته الحكم تذكرنا بهذه الحقيقة وهى أن القائد رغم أنه قد يختلف عن الجماعة فى قدراته وفى نبوغه إلا أنه أيضاً مرآة للجماعة(١) .

ثالثا : على أن هناك عنصر آخر لايقل أهمية وقد يبدو واضحا فى تحليل ظاهرة القيادة فى تطبيقاتها العادية وهو الموقف الذى تحدد فيه التقاء العنصر الجماعى بالعنصر الفردى . هذا الموقف يبرز بشكل واضح من حيث أهميته فى ظاهرة القيادة الجماهيرية حيث يصير القائد أداة لتكتيل الوعى الجماهيرى نحو التخلص من حالة الخوف أو العودة لحالة الثقة التى أحدثتها الصدمة مصدر الاضطراب النفسى العام الذى يسمى بالحالة الجماهيرية . أيضاً فى الصورة العادية للقيادة أى فى غير الحالة الجماهيرية هذا العنصر له آثاره وان كانت أقل وضوحا وأكثر خفاء منها فى التطبيق الجماهيرى .

(ﺣ) رغم ذلك فاننا لم نجب عن السؤال : هل القيادة تعنى خصائص مستقلة تختلف من قائد لآخر لكنها تتحد فى أنها تميز القائد عن تابعيه ؟ وما هى تلك الخصائص ؟

من العرض السابق نستطيع أن نقول أن القائد لابد وأن يملك خصائص وصفات تميزه عن التابعين . وهى خصائص تتصف بالغموض الذى لانستطيع أن نكشفه ولكن رغم ذلك نستطيع أن نحدده بأنه يدور حول متغيرات ثلاث :

١ ــ عمق الحياة العاطفية بمعنى آخر أن القائد يمتاز ويختلف عن الشخص العادى بأنه يستطيع أن يشعر ويتجاوب مع تلك المنبهات التى لايستطيع أن يشعر بها وأن يتجاوب معها بسلوك ايجابى الفرد العادى . وبعبارة أخرى هو أكثر حساسية من غيره . المنبه الذى لايحدث فى الشخص العادى أثره إذا به يخلق عند الزعيم والقائد حالة من التوتر(٢) .

٢ ــ ان القائد أكثر من الشخص العادى قدرة على الألم وبالتالى فأحاسيسه أكثر عمقاً وأكثر اتساعا من الشخص العادى . وهذا يمثل امتداد للصفة الأولى ويقودنا إلى

---

(١) جدير بالتأمل :
BARBER, The presidential character, 1972, p. 445.

(٢) انظر بخصوص القيادات السياسية فى المجتمعات المتخلفة :
LACOUTOURE, The demigods, 1971, p. 11 — 12.

قدرة القائد على أن يجعل من الاتجاه العام مصدرا لطغيان مطلق وكلى على كل اتجاه خاص . أنه يشعر بآلام قومه وآلام شعبه وعلى استعداد لأن ينسى نفسه فى سبيل الجماعة .

٣ ـ كذلك القائد يمتاز بالقدرة على التخيل . أنه يعيش فى أحلام أو على الأقل يستطيع أن يلقى ببصره إلى المستقبل فيرى مالا يراه الشخص العادى[١] .

هذه الصفات الثلاث قد توجد فى القائد كلا أو جزءا وقد يبالغ فيها فتصير مصدر قوة وضعف فى آن واحد . فالقدرة على التخيل قد تصير بعدا عن الواقع وخيالا يمنع من امكانية الحركة ومواجهة المشاكل اليومية ولكنها دائما هى المحور الحقيقى للتعبير عن الزعامة وبصفة خاصة فى أبعادها السياسية .

٥٥ ـ خصائص الظاهرة القيادية ، الأبعاد الوظيفية :

الذى يعنينا فى ظاهرة القيادة هو أن نحدد خصائصها أو بعبارة أدق أن نحدد ما تفرضه من علاقات وما ترتبط به من قيم . فالقائد لابد له من تابعين ، بهذا المعنى القيادة هى علاقة . ولابد من وجود أهداف تبرر وجود الظاهرة القيادية ، وهذه هى الوظيفة . ثم لايجوز أن ننسى أن القيادة فى ذاتها هى قيم وبالتالى فإنه لابد وأن يترتب على وجودها نوع من التوزيع فى نظام القيم التصاعدى الذى يحكم الجماعة . فلنحاول أن نحدد هذه النواحى المختلفة .

(أ) ما هى وظائف القائد ؟ وظائف عديدة تختلف من حالة إلى حالة ومن قيادة إلى قيادة ولكن لو أردنا أن نعددها مع تبسيط مبالغ فيه لاستطعنا أن نميز بين خمسة عشر وظيفة يمكن أن تنسب إلى القائد تبعا لكل موقف ولكل تطبيق[٢] .

١ ـ القائد هو أداة للتنفيذ ، فأول وظيفة للقائد فى كل جماعة هى التنسيق بين النشاط الجماعى ، سـواء كان هو الذى يقوم بالدور الأول فى تحديد السياسة أو الأهداف

(١) ونستطيع أن نعبر عن جميع هذه الخصائص فى كلمات أربع : الصيرورة ، المقدرة ، الحركة ، الانطلاق . المرجع السابق ذكره ص ٨ .

(٢) انظر على وجه الخصوص ليندزي ، م. س. ذ. ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

التى تسعى اليها الجماعة وهو الذى تعود اليه مهمة ملاحظة ومتابعة تنفيذ تلك السياسة وهو المسئول عن ذلك . فرئيس إحدى اللجان يقود المناقشة ويمنعها من أن تبتعد عن موضوع المناقشة . وقائد المصنع يوزع العمل بين العمال . والقائد العسكرى عليه أن يتأكد أن أوامره اليومية محترمة . القائد يشرف على التنفيذ دون أن يشترك هو فى العمل اللازم للتنفيذ : هو يرتفع عن المواطن العادى ولكنه يجب أن يضمن أن المواطن العادى يؤدى واجبه على الوجه الأكمل .

٢ ــ كذلك القائد هو مخترع الخطط . فالتنفيذ لايعنى تحديد الخطوات العامة والعريضة للسياسة . وإذا كان القائد يجب أن يختار المسالك فان عليه أيضاً أن يعرف كيف يقيم القرارات ويواجه المواقف . والخطة بهذا المعنى يقصد بها وضع أصول الحركة فى المدى البعيد مع ما يفترضه ذلك من خطوات متلاحقة تدور فى أهداف محددة مرحليا وإن اندرجت فى هدف عام يسيطر على أبعاد الحركة الجماعية [١] .

٣ ــ إحدى الوظائف الأساسية للقائد هى أن يحدد أهداف الجماعة سواء كانت هذه الأهداف أو الآمال وليدة ظروف تاريخية لايستطيع القائد أمامها إلا أن ينحنى مختارا ، أووليدة آمال جماعية عبر عنها القائد بلغة أكثر صراحة ووضوحا أو تنبع من نفس أطماع القائد الذى بدوره يفرضها على الجماعة ويجعلها نقطة تلاقى بين آماله وآمال الجماعة ، إلا أنه هو وهو وحده دائماً المسئول عن عملية صياغة تلك الآمال والأمانى .

٤ ــ القائد يجب أن يكون رجلا مختصا بمعنى أن يكون قادرا على أن يقدم للجماعة المعلومات والقدرات العلمية التى هى فى حاجة اليها . بطبيعة الحال هذه الصفة تختلف من قيادة إلى قيادة فالقيادة السياسية لاتخضع لنفس اعتبارات القيادة العلمية ، كما أنها تختلف من قائد إلى قائد تبعا لخصائص كل قائد ، ولكن تشترك جميع هذه التطبيقات فى أن القائد ان لم يكن يملك تلك الصفات من حيث الاختصاص والقدرة فيجب أن يكون قادراً على الحصول عليها وتنظيم استخدامها .

٥ ــ القائد يقوم بعملية التمثيل للجماعة فى العلاقات الخارجية . وكل جماعة لابد

---

(١) انظر تفسيراً مختلفا فى :
DOWNTON, Rebel leadership, 1973, p. 26 — 41, 241 — 260.

أن تدخل فى علاقات متعددة مع الجماعات الأخرى والقائد هو الذى يمثل تلك الجماعة فى ذلك التعامل الجماعى : يتحدث باسمها بحيث يمكن أن يوصف كما يقول لوين السابق ذكر أبحاثه أنه حارس الأبواب ، من خلاله تتدفق مطالب الجماعة بالنسبة للآخرين ومطالب الآخرين بالنسبة للجماعة .

٦ ــ القائد هو أداة الضبط للعلاقات الداخلية : سواء كانت العلاقات الداخلية شخصية أم غير شخصية وسواء كانت عملية الضبط تتم بطريق مباشر أو غير مباشر فان وظيفة القائد بمثابة مركز لتوزيع العمليات(١) .

٧ ــ وينبع من هذا أن القائد أيضاً يقوم بعملية توزيع للجزاءات المختلفة سواء ايجابية أو سلبية لتصرفات الأفراد طيبة كانت أو رديئة .

٨ ــ القائد هو حكم وموفق ، فوظيفته الأساسية مرتبطة بالوظيفتين السابقتين ، أن يقوم بعملية التوفيق والتحكيم فى الصراعات المختلفة والخلافات المتعددة بين عناصر الجماعة . والقائد بهذا المعنى يجب أن ينظر إلى نفسه على أنه يعلو الجميع ، وحتى إذا وصل القائد السياسى إلى السلطة من خلال استناده إلى فئة أو طبقة أو حزب فبمجرد وصوله إلى السلطة وتسلمه القيادة يجب أن يتخذ موقف الحياد والتوفيق بين الصراعات المختلفــة .

٩ ــ القائد نموذج للمثالية الاجتماعية . ان القائد يجب أن يشعر بأنه يصير بالنسبة للجماعة نموذج للسلوك ، إنه فى سلوكه الفردى والجماعى يجب أن يعبر عن المثالية التى تسود الجماعة وتتمناها فى شخص أفرادها وبالتالى فى شخص قائدها . القائد العسكرى الذى يتقدم جيشه ، القائد الدينى الذى يعيش فى زهد وقناعة ليسا إلا نموذجين لمعنى هذه الوظيفة(٢) .

١٠ ــ القائد رمز للجماعة . فى بعض الأحيان يصير القائد رمزا للجماعة و بعبارة أدق بشخصه الواقعى يمثل الجماعة كرمز لأمانيها وآمالها وتعبير عن شرفها وكرامتها . فالقائد بهذا المعنى يؤكد استمرارية الوظيفة التاريخية وتماسك المجتمع السياسى . ومن

---

(١) NEWCOMB, TURNER, CONVERSE, Leadership in goal achievement, in GIBB, Leadership : Selected readings, 1970, p. 317.

(٢) جدير بالمتابعة السيد فرج ، القيادة والحرب عند العرب ، ١٩٧١ ، ص ٢٦ ومابعدها .

المعروف أنه فى الحروب القديمة كان عندما يسقط القائد ويقتل فى المعركة فان ذلك يعنى بداية الهزيمة . أحداث يونيو عام ١٩٦٧ فى مصر تعكس بشكل واضح هذه الوظيفة عندما التفت الجماهير فى مصر حول القائد رغم الهزيمة .

١١ — القائد أداة لإحلال المسئولية الفردية . فى كثير من الجماعات وبصفة خاصة فى المجتمعات المتخلفة نجد المواطن يرى فى القائد وسيلة لرفع المسئولية عن شخصه فيما يتعلق بالقرارات العامة ، هو يخضع للقائد لأنه بهذا الشكل يحرر نفسه من ضرورة اتخاذ القرار. نموذج واضح لهذا المدلول نستخلصه من متابعة تاريخ الدكتاتورية الفاشستية فى إيطاليا وألمانيا .

١٢ — القائد خالق للايديولوجيات. رغم أن هذه الوظيفة أى الوظيفة الايديولوجية ترفض بحكم طبيعتها أن تتحدد فى شخص القائد الحركى للخلاف الواضح بين القيادة بمعناها الضيق والنبوغ الفكرى الخلاق حتى أن الاتجاهات المعاصرة فى التحليل السياسى تقوم على أساس التميز بين الفكر والحركة فى نطاق التقييم السياسى إلا أن العالم المعاصر عرف نماذج عديدة لقادة أسندوا لأنفسهم الوظيفة الايدولوجية : ليس هتلر خير نموذج يعبر عن ذلك فهناك أيضاً نماذج أخرى أكثر وضوحا تغمر بصفة خاصة المجتمعات النامية [١] .

١٣ — القائد والسلوك الأبوى : وظيفة برزت بشكل صريح فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وبصفة خاصة فى المجتمعات التى حصلت على استقلالها حديثا . فالقائد يحاول أن يتشبه بالأب فى علاقته بالجماعة وأن ينظر اليها على أنها أسرة ضخمة تحكمه بها علاقات مشابهة لتلك العلاقات التى تحكم رب الأسرة فى علاقته بأفراد الأسرة . رغم أن هذا المفهوم ينطوى على خلط بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، وعلى تشبيه للعلاقة السياسية بعلاقات اجتماعية من نوع آخر إلا أنه يفسر بعض صفات الكرم والعفو بالنسبة لبعض نماذج القيادة السياسية .

١٤ — كذلك قد ينقلب القائد فاذا به أداة من أدوات القاء التبعية والمسئولية فى

---

(١) انظر تأملات نيتشه فى :
DUPUY, Politique de Nietzsche, 1969, p. 227.

حالة الهزيمة والاخفاق . المجتمع السياسى عندما يخفق أو تبرز بشكل واضح أخطاؤه التاريخية قد يجد فى القائد هدفا سهلا يلقى عليه بجميع مسئولياته حيث يشعر أن ذلك القائد وقد أخفق فى مشروعاته فقد خان أمته فهو من ثم مصدر لجميع المآسى والأخطاء .

فاذا أضفنا إلى ذلك ما سبق وذكرناه أن القيادة وهى قيم لها ذاتيتها لابد وأن تؤدى من جانب آخر بطريقة تلقائية ولاشعورية إلى إحداث نوع من التغيير فى عناصر وفئات المجتمع السياسى من التحرك بالاقتراب أو بالابتعاد عن موقع القيادة لفهمنا مدى الأبعاد الوظيفية لظاهرة القيادة .

على أن هذه الناحية الأخيرة فى حاجة إلى شىء من التفصيل .

(ب) القيادة كما سبق ورأينا هى وظيفة وهى أيضاً علاقة(١) . على أنها إلى جانب ذلك فهى فى ذاتها تمثل قيما معينة . فالقيادة تفرض نفسها ليس لأنها مفروضة ولكن لما تستتر خلفها من مثاليات لابد وأن تختلف من حالة إلى حالة ومن مجتمع لمجتمع ، مثاليات تدور حول احترام مصالح الجماعة التى تحكمها تلك القيادة . وهى بهذا المعنى دائما حقيقة بشرية ، ومن ثم تنبع منها من حيث طبيعتها ومن حيث كيفية مزاولتها لسلطاتها ولمزاياها قيم معينة هى انعكاس لخصائصها كحقيقة حركية . هذه القيم تتجسد فى شخص القائد ، وبمجرد أن تتبلور فى محيط العلاقات الإنسانية التى تنبع منه وتتحدد به لابد وأن تحدث عملية تحرك فى داخل المجتمع بين فئاته من حيث علاقة تلك الفئات بذلك القائد حيث هو ذاته يتوسط الوجود الاجتماعى ، فاذا بنظام للقيم يتصاعد من القائد وإذا بالفئات الاجتماعية المختلفة تقترب أو تبتعد من القائد تبعا لتعبيرها بصورة أكثر شدة أو أقل وضوحا عن تلك الصفات . إن القيادة تعنى توزيع للقوى ، هناك القائد ثم تحيط به الطبقة القيادية وتحيط بهذه الأعوان وتحيط بكل هؤلاء المصفقون. تحديد من ينتمى إلى كل من هذه المجموعات يتحدد بنظام القيم System Values الذى يمثله القائد .

(١) KORTEN, Situational determinants of leadership structure, in The Journal of conflict resolution, 1962, Vol. VI, p. 222 — 235.

٥٦ — أنواع القيادة السياسية : النماذج :

سؤال أخير يرتبط بنوع معين من أنواع القيادة وهو القيادة السياسية . تحديد خصائص هذا النموذج من نماذج القيادة ليس هذا موضعه ، وعلى كل فان ما قيل بخصوص ظاهرة القيادة بصفة عامة ينطبق أيضاً على القيادة السياسية حيث أن هذه ليست إلا تطبيقا من تطبيقات الظاهرة . رغم ذلك فان هناك تساؤل آخر يثور بخصوص القيادة السياسية بصفة خاصة : ما هى نماذج تلك القيادة ؟ أم أنها جميعا تخضع لتصنيف واحد ؟

مما لا شك فيه أن القيادة السياسية أنواع ونماذج عديدة (١) . فكيف يمكن تصنيفها وماهو معيار هذا التصنيف ؟ وما هى خصائص كل نموذج من الناحية السلوكية ؟

يجيب على هذا التساؤل عالم علم النفس الأشهر يونج Young فى تقسيم سباعى لنماذج

---

(٢٩) السؤال أثاره العلماء منذ أوائل القرن ومنذ أن تكامل علم النفس الاجتماعى . والإجابات عليه عديدة . من أوائل من تعرض للموضوع العالم الإنجليزى شفارز Schwarz الذى جعل أساس التمييز هو الازدواجية : رجل الحركة ورجل الفكر . الأول يواجه الواقع ويقدم الحلول العملية للمشاكل والثانى يخطط للمستقبل ويتنبأ بأبعاد التطور . عقب ذلك تقدم عالم آخر بريطانى أيضاً سير مارتن كونوي Sir Martin Conway بتقسيم ثلاثى : ممثل الجماهير ، المسيطر على الجماهير ، والمتحدث باسم الجماهير . فالقائد لدى هذا المؤلف هو شخص تربطه بالجماعة رابطة خفية تحدد طبيعته . فهو أما يعكس الجماهير فى نماذجهم وحياتهم اليومية بحيث يمكن أن يوصف بأنه ممثل الجماهير وأما أن يسحر الجماهير ويأسرهم فاذا به ليس مجرد انعكاس للطابع القومى وإنما قائد يسيطر ويلزم التابعين له . وأخيراً يأتى النموذج الثالث الذى يعرف كيف يعبر بسحر بلاغته وقوة عباراته عن آمال المجتمع موضع القيادة ومن ثم يصفه بأنه متحدث باسم الجماهير . تكمل هذه المحاولة محاولة أخرى من جانب عالم النفس الاجتماعى بارتيت ، بريطانى آخر ، إذ يقدم بدوره تقسيم ثلاثى : النموذج النظامى ، النموذج المتسلط ، النموذج المقنع . الأول ويصفه بأنه قائد متسلط يؤسس سلطته على التقاليد والعادات والقيم والعقائد . الثانى الذى يعرفه بأنه عدوانى متحفز تسيطر عليه الحركة العنيفة المتدفقة المغامرة . الثالث يزاول سلطاته من خلال الإقناع والاقتناع ويعيد إلى الذهن تلك الصورة الثالثة فى التقسيم السابق الذى يصفه بارتليت بأنه زعيم مقنع يميل إلى تملق الجماهير ، يمنح الوعود بلاقيد ، كثير الحديث عن حقوق الأفراد وعن تصحيح التعسفات وتحقيق الإصلاحات .

هذه التقسيمات جميعها موضع مناقشة وعلى كل فهى جميعها تقدم لنا النموذج السلوكى لكل قائد سياسى وقد ربطت بين شخصيته وحقيقة الموقف المرتبط بوجوده ونشاطه .

انظر المصادر والتفاصيل فى :
YOUNG, Handbook of Social psychology, 1969, p. 251 — 285.

السلوك القيادى فى نطاق النشاط السياسى بما يكاد يصير النظرية السائدة بهذا الخصوص.

هذه النماذج السبع هى:

١ ـ القائد الرئيس	The Boss
٢ ـ القائد الديموقراطى	The democratic leader
٣ ـ القائد البيروقراطى	The bureaucrat
٤ ـ القائد الدبلوماسى	The diplomat
٥ ـ القائد المصلح	The reformer
٦ ـ مهيج الفتن ومثير القلاقل : [١]	The Agitatore
٧ ـ القائد العقائدى	The theorist

فلنتابع كل من هذه النماذج بشىء من التحليل .

الأول يعبر عنه بتلك الكلمة البسيطة ولكن ذات الدلالات العميقة : القائد الرئيس . هو نتاج الديموقراطية الجماهيرية . يمتاز بقوة عجيبة فى الاقناع وسحر فى القيادة وقدرة على التلاعب بالجماهير وصلاحية للخديعة والتحايل على المواقف . قوى وصلب وعلى استعداد للمعاركة والمشاكسة لايهاب المغامرة ويملك قدرة خارقة على تنظيم صفوفه والبدء دائما من جديد . خصائصه السلوكية تتلخص فى كلمات ثلاث : حب السلطة ، يقف دائما إلى جوار الوضع القائم ، يهاب ويخشى الإصلاح . إن تحدث عن الايديولوجية فهو لايعنيها ويعتبرها أحد عناصر خداع الجماهير . هذا لايعنى أنه لايملك صفات انسانية فهو يعرف كيف يكافوء أصدقائه [٢] .

القائد الديموقراطى يقف من النموذج السابق موقف التناقض . هو يتصف بصفة الاعتدال والاستعداد الدائم للتأقلم بالموقف والتعديل فى حركته تبعا للظروف. هو وليد النظم الديموقراطية التقليدية كما عرفناها فى القرن التاسع عشر. هو لايمثل الصلابة كالنموذج السابق بل على العكس هو متواضع أو يتظاهر بالتواضع وعلى استعداد للتفاهم . عراكه

---

(١) نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٢٧١ وما بعدها . لاحظ رغم ذلك أننا ميزنا بين القائد المصلح والقائد مثير الفتن والقلاقل خلافا للنموذج الذى قدمه يونج . انظر نفس المرجع ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤

(٢) ولعل كلمات « الزعيم » أو « الريس » هى خير تعبير عن هذا المفهوم . انظر أيضاً لاكوتير ، م. س. ذ. ، ص ١١ .

توفيق وخصامه لايدوم ، ماهر فى استخدام مسالك الصراع الديموقراطى : اقناع واقتناع من جانب ثم علاقات عامة من جانب آخر ، يؤمن بالنظام والقانون وليس على استعداد لأن ينساق وراء الجماهير أوأن يؤسس حركته على الجماهير كما هو بالنسبة للنموذج السابق . متسامح فى الخلافات .

القائد البيروقراطى موظف أضحى قائدا سياسيا . وهو لذلك مملوء بالعقد ، منهاجى حذر منظم ولكنه غير سعيد كلما دعى لاتخاذ قرار . على استعداد لأن يراقب الآخرين ويفتش خلف الآخرين وسعادته الحقيقية فى أن يظل يتحرك فى نطاق اطار محدد لا يعرف سوى التقليد والمحاكاة . لايملك القدرة على التخيل والمبادرة . عالمه ضيق . فى أغلب الأحيان خائف تنقصه الشجاعة . وهو على استعداد لأن يفسر جبنه بأنه ولاء وضيق أفقه بأنه انتماء[١] .

القائد الدبلوماسى يملك صفات أخرى تختلف كل الاختلاف عن النموذج السابق . فى كثير من الأحيان يرتبط بنموذج القائد الدبلوماسى فى العلاقات الدولية أو على الأقل السياسة الخارجية ولكن هذا غير صحيح إذ أن هذا النموذج يتكرر فى جميع مراحل ومستويات العمل السياسى . هو يمتاز بالمرونة على استعداد لأن يتخلى جانبا عن الإخلاص فى الحركة فى سبيل تحقيق أهدافه . سعادته فى أن يتلاعب بالأفراد والمواقف. مظهره لايعكس باطنه وكلماته لاتعبر عن أفكاره ، يستخدم الألفاظ بحذر. كلمة مشهورة تعكس حقيقته : إذا قال الدبلوماسى نعم فهو يعنى ربما،وان قال ربما فانه يعنى لا، وان قال لا فانه قد أعلن عن اخفاقه كدبلوماسى[٢].

القائد المصلح رجل يمثل الكمال . هو يحلم بعالم جديد . وهو لذلك يرفض جميع الصعوبات العملية التى تفرضها الحركة الواقعية ، ولكن هذا لايعنى أنه خيالى . فهوعلى استعداد لأن يسير فى طريقه بثبات حتى لوحطم نفسه . يذكرنا بشهداء العصور الوسطى. فهو فى إيمانه بالإصلاح يعكس صلة عاطفية . غير قابل للإفساد ولايقبل الحلول الوسط

---

(١) ليس هذا موضع تحليل النماذج التاريخية . انظر رغم ذلك بخصوص بعض التفصيلات المتعلقة بقيادة بونابرت :

PIZZITOLA, L'anima di Napoleone, 1965, p. 71 — 103.

(٢) يونج ، م.س.ذ. ، ص ٢٧٣.

أو التوفيق فى حركته أومبادئه . يؤمن بالمنطق والسلوك المنظم المحدد الذى يخترق الحواجز ولو على حساب نفسه .

المهيج أومثير الفتن والقلاقل يمثل نوعية خاصة لنموذج المصلح . فهو على استعداد للالتجاء إلى العنف حيث تصير القوة الأسلوب الأصيل فى تحقيق العالم الجديد . إيمانه مطلق فهو عقائدى لايعرف فى العالم سوى الصديق أو العدو . متعصب إلى أبعد حدود التعصب يؤمن بالثورة ويرى فيها أداة ووسيلة التقدم . يميل إلى تضخيم الفروق والخلافات النظامية والعقائدية . العالم لديه أما أبيض أم أسود . على استعداد دائم للقتال ولايقبل الحلول الوسطى . يرفض التسامح ولايصلح للقيام بالبناء الحقيقى.

القائد العقائدى يقف من النموذج الأول موقف النقيض . يقدم لنا صورة منطقية للعالم يغلب عليها أن تكون مثالية أوعلى الأقل متشائمة . يعيش فى عالم مقفل من الألفاظ والمفاهيم . غير واقعى ولاتعنيه الحياة الواقعية . يسيطر عليه وصف ما يتصوره دون أن يلقى باله بتحقيق ما يحلم به . هو فيلسوف أكثر منه رجل حركة .

هذه النماذج لاتمثل قوالب جامدة إذ من الممكن تصور تطبيق واحد يجمع بين أكثر من نموذج واحد من هذه النماذج [١] . ويبدو ذلك واضحا فى المجتمعات النامية حتى أن البعض أفرد لقيادة فى تلك المجتمعات نموذجها الخاص بها حيث يتقابل النموذج الأول بالبيروقراطية بالنموذج العقائدى فى خليط متناقض ليعكس بدوره حالة الاضطراب الاجتماعية التى تمثلها تلك المجتمعات.

٥٧ — القيادة والحركة السياسية :

القيادة السياسية كما سبق ورأينا تطبيق متميز من تطبيقات الظاهرة القيادية . ليس هدفنا من هذه الدراسة تحليل الظاهرة القيادية فى ذاتها أوتحليل القيادة السياسية كتطبيق من تطبيقاتها وانما معالجة الظاهرة القيادية كأداة اتصالية . سبق أن رأينا كيف أن مفهوم الاتصال بمعنى نقل المدركات من مرسل إلى مستقبل لم يبرز واضحا

---

(١) قارن فى معنى مقارب : BARDACH, The skill factor in politics, 1972, p. 6 — 11.

فى التطبيق السياسي للمفهوم القيادى الا مع فلسفة هيجل وخلال القرن التاسع عشر . كذلك سبق أن رأينا أن ظاهرة القيادة السياسية رغم تعدد نماذجها من منطلق المدرسة السلوكية للتحليل إلا أن ما يميزها بوضوح هوأن القيادة السياسية كممارسة ان هى إلا خليط بين خصائص شخصية أى خصائص للقائد ، ثم خصائص للموقف الذى يتعامل معه القائد(١) . وهكذا بغض النظر عن تحليل ظاهرة القيادة السياسية وعن الإجابة عن التساؤل الذى شرحناه ولايزال الفكر عاجز عن أن يجيب عليه والمرتبط بعملية دمج التطبيقات المختلفة للظاهرة القيادية فى اطار واحد متكامل من التحليل فان القائد الصالح لابد وأن يتميز بقدرته على تطويع خصائصه وذاتيته للموقف بخصائصه المتعددة . وإذا كانت هذه العملية لاتبرز واضحة فى القيادة الاجتماعية فانها جوهر نجاح القيادة السياسية . هذه العملية أى عملية التطويع للموقف تقود إلى عنصر آخر لابد وأن يتداخل مع كلا العنصرين السابقين وهو عنصر القيم . القيم بأوسع معانيها تحكم على القيادة بأنها صالحة أم طالحة . القيم التى تثار بهذا الخصوص متعددة . وبغض النظر عن تقبلها من عدمه فهى تدور حول الأخلاقيات والكفاءة والشعبية والقدرة على الجمع بين القدرة على التعامل مع الجماهير وفرض المهيبة على الأعوان .

الذى يعنينا بصفة خاصة من ظاهرة القيادة السياسية أن نعالج ولو بإيجاز تلك الأبعاد التى تقودنا إلى مفهوم القيادة كأداة من أدوات الاتصال وكيف أن وقائع المجتمع المعاصر فرضتها من أوسع أبوابها .

(أ) المجتمع المعاصر يتجه لتأكيد العنصر القيادى(٢) . بل أنه يرفع من القيادة كمحور للحركة ويصل به فى بعض الأحوال إلى أن يجعل من ذلك العنصر المتغير الوحيد الذى يسمح بنجاح الحركة السياسية أو يفرض عليها الفشل . ما هى أسباب ذلك وما هى مظاهره ثم ما هى نتائجه ؟ الأسباب عديدة . ولنذكر على وجه الخصوص المتغيرات التالية :

أولا : أدوات الإعلام الجماهيرى التى بدورها مكنت القائد من أن يصل إلى كل

(١) DE JOUVENEL, Du povoir, 1972, p. 411 — 430.

(٢) DUVERGER, Sociologie de la politique, 1973, p. 183.

مواطن وكل فرد وأن يصير وقد أضحى حقيقة دائمة ومتعاملة فى كل فئة من فئات المجتمع وفى كل خلية من خلايا الوجود الاجتماعى.

ثانيا : الطبيعة الجماهيرية للمجتمع المعاصر وكيف فرضت على الظاهرة القيادية أن تجعل منها محور العملية السياسية من حيث التقاء الحاكم بالمحكوم [١].

ثالثا : ظاهرة التنمية التى أضحت تمثل أحد العناصر الثابتة فى المجتمع المعاصر والتى يتجه بخصوصها الفقه إلى أن يجعل من العصر القيادى المتغير الأصيل القادر على تحقيق نجاحها . أن التنمية فى بعدها السياسى تعنى بانجازغرس بذور التعامل الديموقراطى وهذا لايمكن أن يتم إلا من خلال النموذج القيادى وقدرته على فهم الأساليب الصالحة لغرس تلك القيم تبعا لكل جماعة ولتراث كل جماعة من التقاليد والقيم الحضارية .

رابعا : كذلك فان السياسة الخارجية لاتزال تعلن بثبات عن أن نجاحها انما ينبع من قدرة القائد على تطويع امكانياته مع خصائص العالم المعاصر. السياسة الخارجية ليست فقط تعامل مع القوى الدولية ولكنها امتداد للسياسة الداخلية وأداة للربط بين كلا البعدين من أبعاد السياسة القومية واكراه للقيادة على عدم الخلط بين البعدين. محور السياسة الخارجية هو قدرة القائد على أن يرتفع عن مستوى المهاترات وعن ألا ينزلق خلف الرغبة فى استحواز الجماهير والحصول على الثناء المؤقت.

(ب) القيادة السياسية هى تعامل مع الموقف يستند إلى مسالك ثلاث للعمل القيادى : .

أولا : القوة أو الضغط والإكراه .

ثانيا : الخديعة أو التحايل والمساومة .

ثالثا : الإقناع والاقتناع .

كلا المسلكين الأول والثانى لايبرزان ولايلجأ اليهما القائد إلا فى لحظات الاستثناء المسلك الثالث هو جوهر العمل القيادى . الاتصال بهذا المعنى هو فى حقيقته المنطلق الحقيقى الذى منه وبه تتحدد طبيعة الظاهرة . على أن الاتصال فى نطاق العمل القيادى لايعنى

---

(١) انظر حامد ربيع ، نظرية السياسة الخارجية ، مذكرات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٧٣ ، ص ٩٧ وما بعدها .

ذلك المفهوم المتداول فى نطاق الاتصال الاجتماعى . الاتصال القيادى يأخذ معانى مختلفة وبفرض مستويات متبادلة .

أولا : ما هو الاتصال كجوهر للعمل القيادى ؟

يمكن أن نميز على الأقل فى أبعاد سبع للعملية الاتصالية كجوهر للتعامل القيادى :

(١) استقبال المعلومات .

(٢) خلق الخلفية العامة لبناء اطار الحركة .

(٣) خلق التفاهم والتقارب بين عناصر المجتمع السياسى .

(٤) البحث عن أدوات الحماية الذاتية وتقديم الصورة الذاتية نقية وغير مشوهة .

(٥) خلق الثقة بين عناصر الجسد السياسى والقيادة بعناصرها المتعددة ازاء المواقف المتجددة .

(٦) المعرفة المسبقة بحدود الحركة وامكانياتها .

(٧) التكتل حول القائد البطل فى لحظات الصراع المصيرى أو الخطر القومى(١)

مما لاشك فيه أن بعض هذه الأبعاد تتداخل فيما بينها . رغم ذلك فان كل منها له عناصره وله مستوياته . والذى يعنينا بهذا الخصوص هوأن نتذكر أن القائد ليس مجرد ارادة تصفع ، انه ارادة تعد وتنظم . تستقبل انطباعات وتقيم بناء للحركة على أساس القدرات الحقيقية والصالحة للتلاعب مع الموقف.

لم يحدث فى تاريخ البشرية أن كان القائد السياسى أقرب إلى نبى أو رسول ، إلى البطولة التاريخية ، إلى النبوغ الذى لايعرف إلا الاستثناء كما يحدث اليوم . تعقيد المجتمع المعاصر ، التطور التكنولوجى ، مخاطر الحركة السياسية فى النطاق الدولى ، تعدد أبعاد المسئولية القيادية ، تخلى المواطن العادى عن مسئولياته ، جميعها عناصر متعددة أدت إلى تضخيم مهمة القائد ووظيفته بما يعنيه ذلك من فرض أيضاً مخاطر القيادة على مصير المجتمع السياسى .

(ج) وهذا يقودنا إلى النقطة الأساسية التى تفرض الترابط بين القيادة السياسية والقيادة فى مدلولها الاجتماعى . ان القيادة أساسا هى أحد الأدوات الثابتة لتحقيق عملية التفاعل . لقد سبق ورأينا أن التفاعل بمعنى التأثير والتأثر هو جوهر تفسيرنا

---

(١) انظر نفس المرجع السابق ذكره ، ص ٤٣ .

للظاهرة السلوكية . أحد الأدوات الرئيسية والخطيرة التى تنطلق منها عملية التفاعل هو الظاهرة القيادية تستوى فى هذا القيادة السياسية والقيادة غير السياسية .

فلنذكر مستويات التفاعل بالنسبة للقيادة السياسية :

أولا : التفاعل بين مختلف عناصر المجتمع الأمر الذى يسمح بتخطى الصراع الطبقى وتحقيق التكامل القومى .

ثانيا : التفاعل بين الأهداف القوية والتصورات الايديولوجية ، فالايديولوجية مثاليات سياسية مجردة والأهداف القومية تعبر عن المصالح الاستراتيجية الإقليمية المحليـة . عملية التطويع والتوفيق لايستطيع أن يؤديها إلا القائد من خلال تعامله السلوكى.

ثالثا : التفاعل بين الأهداف القومية والحركة السياسية . ان الأهداف القومية متعددة متباينة بل وفى بعض الأحيان متناقضة . عملية ترتيب هذه الأهداف وخلق التتابع الحركى بالتقديم أو التأخير دون أن يعنى ذلك التضحية بأى منها تبعا للقدرات والإمكانيات هو جوهر القيادة السياسية وهو بدوره أحد مستويات التفاعل للحركة السياسية .

رابعا : التفاعل بين المجتمع والموقف(١) . كل مجتمع له تقاليده وله أفضلياته . وكل موقف له خصائصه وله متغيراته . عملية تطويع الجماعة لتصبر أكثر صلاحية للتعامل مع الموقف لايستطيع أن يؤديها سوى القائد من خلال تلك الحساسية التى تسمح له بأن يخلق المرونة فى المجتمع وأن يخلق أوأن يعيد تشكيل الموقف بحيث يسير التقابل بين الجماعة والموقف دون صراع أوصدام يخلق التمزق والتحلل .

خامسا : التفاعل بين القرار الذى يفرضه الموقف والحركة التى تعنى التعامل مع الموقف . إن الحركة مجموعة قرارات . وكل قرار يجب أن يأتى متجانسا مع خصائص الموقف . نبوغ القائد يبرز عندما يستطيع أن يخلق التفاعل لافقط بين القرار والموقف ولكن بين القرار والموقف والمجتمع بحيث يصير الموقف امتدادا لخصائص الجماعة وتصير الجماعة اردة متكتلة فى اتجاه القرار .

كما سبق ورأينا القيادة الاجتماعية أداة للتفاعل فكذلك القيادة السياسية تنبع من

---

(١) حامد ربيع ، علم السلوك ، م. س. ذ. ، ص ١٨١ .

نفس المفهوم وتتحدد بنفس الظاهرة التى هى محور وجوهر العملية السلوكية .

(د) قبل أن نترك جانبا هذه النواحى التى تناولناها بايجاز تفرضه طبيعة هذه الدراسة فلنتذكر أن الظاهرة القيادية كمفهوم ينبع من فكرة القيم تفرض نوعا من التنويع والتغيير فى عناصر الجماعة السياسية بل وتفرض ، وهذا مظهر آخر من مظاهر عملية التفاعل تحركاً لبعض القوى السياسية اقترابا أو ابتعادا عن القائد تبعا لخصائصه من حيث قيمه السياسية .

أو بعبارة أخرى لو حاولنا أن نوزع المجتمع السياسى من حيث فئاته لوجدنا أن هناك على الأقل ثلاثة عشر فئة متتابعة كل منها تعبر عن خصائص متميزة :

١ ــ القائد ، أى الزعيم التاريخى الذى يجمع فى شخصه آمال الأمة وصورتها القومية ويخلق الترابط بين الماضى والحاضر والمستقبل : Leader.

٢ ــ الحاكم ، ليس كل قائد حاكم وليس كل حاكم قائد ، القائد هو رمز الأمة وقد يعمل كذلك وهو خارج السلطة وقد تمر بالجماعة فترات طويلة دون أن تعرف القائد ولكنها لابد وأن تعرف الحاكم . الحاكم هو من يمارس السلطة بغض النظر عن قدراته وصلاحيته . هو رأس الدولة ولكنه يمكن أن يوصف بأنه قائد فاشل . يستمد حقوقه وسلطاته من النظام القانونى وليس من صلاحياته الذاتية Ruler .

٣ ــ رجل الإدارة السياسية : أى أداة الحاكم أو القائد فى الاتصال بمختلف عناصر المجتمع السياسى. أحد عناصر نجاح القائد هو حسن اختياره لرجل الإدارة السياسية[1] .إنه فى حقيقة الأمر يمثل القنوات الحقيقية التى تسمح للقائد أو الحاكم أن ينساب فى جنبات المجتمع السياسى . لايفترض فى رجل الإدارة السياسية الإخلاص أو النبوغ . ولنتذكر أن نابليون اختار اثنين وكان يعلم مسبقاً أنهما يخونانه فى عمله السياسى : تالليران وفوشيه .

٤ ــ الدبلوماسى : أداة الإدارة السياسية فى النطاق الدولى .

٥ ــ خبير السلطة : مفهوم جديد يعبر عن التعامل الذى فرضه المجتمع المعاصر بين القيادة الحركية والإيقاع الفكرى من منطلق التخصص العلمى . درج التعامل السياسى

---

(١) انظر حامد وبيع ، التعريف بعلم السياسة ، ١٩٧٣ ، ص ٨٩ وما بعدها .

على أن يكون منطلقه أما التعامل الجماهيرى أو العلاقات الشخصية . خبير السلطة نموذج جديد يجعل أساس الوصول إلى التعامل السياسى القدرة على التحليل من منطلقاته العلمية النظرية .

٦ – السياسى أى رجل التعامل مع الجماهير بأوسع معانيه . أو بعبارة أخرى محترف المهنة السياسية Politician .

٧ – صانع القرار : وهو كل من يساهم بطريق مباشر أوغير مباشر فى عملية إعداد ووضع القرار ، نموذج متشعب يجمع بين جميع العناصر السابقة ويضيف اليها كل من يستطيع أن يؤثر أو يتأثر فى قنوات العمل القرارى . سبق أن رأينا وذكرنا صديقات الحكام فى اسرائيل كأحد متغيرات صنع القرار السياسى Decision - maker .

٨ – قائد الرأى : أى أولئك الذين بحكم هيبتهم وبحكم موقعهم الاجتماعى وبغض النظر عن الممارسة السياسية فان ما يعلنون من آراء ينظر اليها على أنها نماذج يجب احتذاؤها واحترامها وقبولها : Leader of public opinion. (١) . أمام الجامع نموذج واضح يعبر عن استقلالية هذه الفئة إزاء الفئات الأخرى .

٩ – الأعوان : أولئك المؤمنون بالقائد والذين يعتقدون بأن علاقتهم به لاتنبع من مجرد وجوده فى أعلى قمة الهرم السياسى وانما نتيجة لعاطفة خفية تجعل منهم بمثابة القوى المساندة واللصيقة بالقائد وجودا وعدما بغض النظر عن ممارسته للسلطة . يوصفون بأنهم Supporters ، بمعنى أنهم يحملون على أكتافهم القائد ويمدونه بالطاقة الحقيقيـة .

١٠ – التابعون followers : صورة أخرى من صور الأعوان . أقل من حيث عمق العلاقة . علاقتهم دائما نفسية ولكنها تختفى لحظة انتهاء الممارسة وتتحدد بعبارة أخرى بالنجاح من عدمه . يصعب التميز بين الأعوان والتابعين ولكن بصفة عامة يمكن القول بأن الأعوان أكثر عمقاً فى علاقتهم النفسية ، وأن التابعين أقل استقرارا وانتظاما فى الترابط الفكرى مع القائد أوالحاكم .

١١ – المنتفعون : طبقة يزدان بها كل نظام سياسى . إن أى نظام سياسى وأى قيادة تعنى تفضيل مجموعة من القيم على أخرى ومن ثم لابد وأن ترتبط بهذه العملية

---

(١) انظر حامد ربيع ، الدعاية الصهيونية ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٤ .

مصالح مادية معينة . هذه المصالح تخلق طبقات متراصة متراكمة من الانتفاع والمنتفعين. تمتاز هذه الطبقة بقدرتها على تغيير لونها تبعا لتغيير النظام السياسى أوخصائص القيادة . علاقتها بالقائد لاتعدو أن تكون المصالح المادية المؤقتة . تدور فى أغلب الأحيان حول الطبقات البورجوازية الصغيرة .

١٢ — المصفقون applauders : طبقة أخرى تقترب من طبقة المنتفعين ولكن رغم ذلك تتميز عنها، الصفاقة هم فئة تخضع لبريق السلطة . هى تسعى دائماً لاجتذاب نظر صاحب السلطان بغض النظر عن الانتفاع من عدمه . أنهم أولئك الذين يمكن أن نسميهم بأذناب السلطة الذين ينتشرون ويتضخمون بشكل خاص فى المجتمعات المتخلفة .

١٣ — ثم تأتى باقى عناصر المجتمع باسم الطبقات المحكومة مع خلاف فى مواقفهم ابتداء من التأييد إلى الرفض ولكنها بصفة عامة تمتاز بعدم اهتمامها بالسلطة Ruled .

هذا التميز لعناصر المجتمع تمييز نسبى ينبع من محاولة تشريح الكيان الاجتماعى والجسد السياسى وإحالته إلى فئات متميزة يغلب عليها طابع معين من حيث علاقتها بالقائد دون أن يعنى ذلك لاعدم اختلاطها البعض بالآخر لاوكونها دائما متسلسلة تصاعديا متنوعة وظيفيا . لقد سبق أن رأينا أن صانع القرار يتداخل على الأقل مع العناصر الست الأولى . كذلك فمن الممكن أن نتصور أن قائد الرأى أيضاً صانع للقرار وأيضاً قد يتداخل مع السياسى أورجل الإدارة السياسية . الذى يعنينا أن نذكره أن طبيعة القيادة تفرض على تلك الفئات المختلفة أن تتنوع بخصائصها، فكما رأينا فى التحليل الميدانى لظاهرة القيادة فكذلك الخبرة السياسية تثبت أن جميع هذه العناصر اقترابا أوابتعادا عن القائد انما تعكس خصائص القائد وصفاته من حيث قيمه ومميزات ممارسته السياسية[1] .

---

(١) هذا المؤلف الذى نضعه اليوم فى يد القارىء عقب قرابة خمسة أعوام من طبعة يتضمن فقط للقسم الأكبر مما أسميناه السلوك الجماعى فى صياغته الأولى والتى حالت ظروف معينة لادخل لارادتنا فيها دون إتمامه. يستطيع القارىء أن يكمل ذلك بمؤلفنا السابق الإشارة إليه « علم السلوك » كذلك نحيل إلى مؤلفين آخرين تحت الاعداد : « النظرية السلوكية » ، « علم الحركة » أنظر سابقا ص ١١٢ ، ص ١٢٩ .

٢٦٨١٢٣

دار « نافع » للطباعة ـ ت : ٩٠٠١١٨